

عِقْدُهُ الْأَنْدَلُسُ وَاسْلَمْهُ أُورُوبَا



تأليف

محمد نمر المدنى



عقدة الأندلس وأسلمة أوروبا

عقدة الأندلس وأسلمة أوروبا

تأليف

محمد نمر المدنی

عقدة الأندلس وأسلامة أوروبا

تأليف: محمد نمر المدنى

سنة الطباعة: ٢٠٠٨.

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة.

جميع العمليات الفنية والطبعية تمت في:

دار ومؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع

حقوق الطبع وحقوق النشر

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار ومؤسسة رسلان

للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - جرمانا

هاتف: ٠٠٩٦٣ ١١ ٥٦٢٧٠٦٠

فاكس: ٠٠٩٦٣ ١١ ٥٦٣٢٨٦٠

ص. ب: ٢٥٩ جرمانا

صدر للمؤلف

- هل يحكم الإسلام أوروبا
- الهولوكوست المحرم
- يهود ضد الصهيونية
- الدين والتطرف والإبادة
- هل أحرق اليهود في أفران الغاز



الفصل الأول

**عُقدة الأندلس
الماضي مازال حاضراً**

البحث عن عقدة الأنجلوس

التأمل في علاقة الشرق المسلم والغرب المسيحي ودراسة عناصر وأشكال وتاريخ هذه العلاقة المعقّدةقادنا إلى العثور على تلك العقدة العميقة والقوية والراسخة عند الطرفين، وهذا ماتوصلنا إليه في المرحلة الأخيرة من البحث في هذا الموضوع، فوجدناها عقدة قائمة قوية البنية راسخة في الأذهان ومختلفة في القلوب. ورأيناها واضحة، بل إنها الرسوخ الفكري القائم الذي ينادينا لأن نكتشفه ونتحاور معه ونكتشف أشكاله وصفاته. كانت عقدة الأنجلوس قائمة واضحة وتدعوا أي باحث لاكتشافها، لكن لم يجرؤ أحد من قبل على محاكاتها ولا حتى على البحث عنها. فالغرب منحاز وخائف من البحث في التاريخ الإسلامي. والمسلمون اعتادوا على تلقي الفكر الجديد من الغرب نفسه. وهانحن اليوم نوضع ملامحها ونحلل عناصرها ونعرضها للمسلمين وللغربيين على السواء ليتمكنوا من حلّ رموزها ومن إشفاء فكرهم من موروثاتها. لهذا من ناحية، وبالبحث العكسي أيضاً من ناحية أخرى، فإن دخلنا في عناصر وخلفيات وموروثات هذه العقدة سنصل أيضاً إلى نتائج مماثلة للبحث الأول وسنكتشف بأنها العقدة التي تحكم في علاقات الشرق والغرب منذ قرون وحتى يومنا هذا. فالحملات الصليبية ومرحلة الاستعمار الغربي وصناعة الصهيونية الغربية وإرسالها إلى قلب العالم الإسلامي ثم الفزو الغربي لبلدان إسلامية كل ذلك من نتاجات تلك العقدة التي نطلق عليها في هذا البحث اسمًا جديداً في عالم الفكر والتاريخ الاجتماعي (عقدة الأنجلوس).

عقدة الأنجلوس عن المسلمين

إنَّ غزو المسلمين القديم لأوروبا والقضاء على الجيوش الغربية التي تصدى لهم آنذاك. وتمكنهم من إقامة ممالك عربية أو إسلامية استمرت لسبعة عقود من الزمن، تلاها تأمر على المسلمين ودحرهم عن أوروبا كلها، وإبادة كافة الأوروبيين الذين كانوا قد اعتنقوا الإسلام: تلك الأحداث التاريخية التي يصعب نسيانها

وتضاف إليها الحملات الصليبية الأوروبيية على الشرق. تلك الصفحات الكبيرة من التاريخ تسببت في استحداث عقد حقيقة لدى المسلمين العرب والأوروبيين المسيحيين على السواء. وقد استمرت هذه العقد عبر القرون الماضية. ونقترح في هذا البحث إطلاق تسمية "عقدة الأندلس" عليها. فعقدة المسلمين من تلك الصفحات يجعلهم يعتبرون أنَّ أوروبا هي الأرض المفقودة والمجد الضائع والزمن الذي يجب العودة إليه والملك والإرث المسروق من المسلمين. وإنَّ غالبية المسلمين يتغزلون بتلك الحقبة من التاريخ ويتحدون عن الرغبة بعودتها. فالشاعر الباكستاني محمد إقبال يقول في إحدى قصائده العظيمة:

الصين لنا والعرب لنا

والهند لنا والبكل لنا

أضحت الإسلام لنا دينا

وجميع الكون لنا وطنا

وهذه إشارة واضحة إلى المجد الفابر الذي عرفه الإسلام في بقاع كثيرة من العالم. وإنَّ عقدة الأندلس عند المسلمين تحرّضهم وتدفعهم بقوة ووضوح نحو العمل على استيطان أوروبا من جديد وأسلمتها وامتلاكها وإخضاعها إلى السيطرة الإسلامية. فمشكلة المسلمين التي تتمثل في عقدة الأندلس هي أنَّ أوروبا كانت فضاءً إسلامياً وأصبحت فجأة فضاءً مسيحياً، وهذا الفضاء الذي كان إسلامياً ذات قرون من الزمن يحلم الكثير من المسلمين باستعادته. وتبعد أوروبا للMuslimين حالة تاريخية خاصة ووضعاً استثنائياً في التاريخ الإسلامي، فتاريخ الفتوحات الإسلامية يشكل عام يشير إلى استقرار الفضاء الإسلامي واعتماد الإسلام كدين في البلدان التي وصلت إليها الفتوحات. ففتح بلاد فارس ومناطق في الصين وباكستان وغيرها أدى إلى استمرار الوجود الإسلامي كدين لتلك الشعوب. إلا أن سقوط قرطبة وما تلاه من تصفيه وذبح لأتباع الدين الإسلامي قضى نهائياً على وجود المسلمين في أوروبا وبالقوة والقتل والتهديد حيث أحيلت محاكم التفتيش بالقوة الديانة المسيحية محلَّ الديانة الإسلامية في كافة مناطق أوروبا. وكانت هزيمة

ال المسلمين في الأندلس مأساوية للغاية إذ تم التأmer على المسلمين وذبحهم وتمت إبادة الظاهرة الإسلامية هناك إبادة تامة ربما لم يسبق لها مثيل في تاريخ البشرية، وتمت إبادة الفكر والعلم والفلسفة والنتائج الثقافية الأندلسية بكماله. ولعل مأساوية تلك المعركة النهاية تجعل بعض المسلمين يحلمون بالانتقام من الغرب ليعودوا إلى حيث كان مجد أجدادهم.

ثم إن ما يزيد من استفحال هذه العقدة في زمننا هو أن أوروبا أصبحت غنية وقوية ومحضرة وقوية النفوذ. وهي أيضاً من حيث موقعها بلاد الخصوبة والوفر والماء. فعيون المسلمين لا تتطلع مثلاً إلى بقعة فقيرة في أفريقيا كان قد وصل إليها الفتح الإسلامي ليستعيدوا مجدهم فيها. وتحتلط الرؤية الإسلامية لأوروبا المعاصرة بعقدة الأندلس فيعتبر الكثيرون بأنه كان للإسلام فضل كبير على تطور أوروبا وعلى حضارتها الحديثة بالكامل.

وحتى اليوم تختلط الصورة الأوروبية الحديثة بصورة الأندلس الغابر في أذهان بعض المسلمين. فنزار قباني في قصائده الجميلة يرى أن حواري ودروب غرناطة اليوم هي ذات طابع دمشقي خالص. بل هو يرى أن القطة التي رنت إليه هي حفيدة قطط الشام. ويكتشف في الفتاة الغرناطية التي جذبته أنها حفيدة طارق بن زياد. يقول نزار قباني في قصيدة:

"في مدخل الحمراء كان لقاونا

ما أجمل اللقاء بلا ميعاد

وجه دمشقي رأيت خلاه أجفان بلقيس

وجيد سعاد

... عانقت فيها عندما عانقتها

رجلاً يسمى طارق بن زياد".

نزار قباني يعكس صورة التطلع العربي والإسلامي نحو الأندلس. فقد وقف نزار في غرناطة وقال لأهلهـا هذه المدينة هنا كانت لأجدادنا ، إنهم كانوا هنا وخلفوا إرثاً وأحفاداً. ومنكم أنتـم من هم أحفاد العرب. إذ يقول :

" قالت هنا الحمراء أرض جدودنا.

فاقرأ على جدرانها أمجادـي
أمجادـها ."

وصحـت سـنـين سـبـعة في تـينـك العـيـنـين بـعـد رـقـاد.

يـالـيـت فـاتـتـي الـجـمـيلـة أـدـركـت
أـنـ الـذـين عـنـتـهـم أـجـادـي .."

ولعل نزار قباني وشعرـهـ هذا يـمـثلـ الرـؤـيـةـ العـامـةـ الشـائـعـةـ عـنـدـ العـربـ وـالـمـسـلـمـينـ تـجـاهـ الأـنـدـلـسـ. فـهـوـ كـفـيرـ يـحـمـلـ عـقـدـةـ الأـنـدـلـسـ المـؤـلـةـ. وـهـوـ يـتأـلمـ بـحـسـرـةـ كـبـيرـةـ وـرـبـماـ أـكـثـرـ مـنـ غـيـرـهـ عـلـىـ فـقـدانـ ذـلـكـ الـمـجـدـ الـغـابـرـ. وـتـزـيدـ مـنـ اـشـتـعـالـ حـرـارـةـ هـذـهـ الـعـقـدـةـ تـلـكـ الـقـصـورـ وـالـمـسـاجـدـ وـالـدـرـوـبـ الـتـيـ مـازـالـتـ قـائـمـةـ وـمـازـالـتـ تـنـطـقـ بـأـنـمـائـهـ الـعـرـبـ الـإـسـلـامـيـ.

وـفـيـ الشـارـعـ الدـمـشـقـيـ كـانـ آـبـاؤـنـاـ يـنـشـدـونـ فـيـ مـنـاسـبـاتـ عـدـيدـةـ أـهـزـوجـةـ تـحـمـلـ الـحـلـمـ بـأـمـتـلـاكـ الـأـنـدـلـسـ وـيـقـاعـ أـخـرـيـ مـنـ أـورـوبـاـ، وـأـهـزـوجـةـ كـانـتـ فـيـ الـأـصـلـ مـوـجـهـةـ لـلـجـنـرـالـ الـفـرـنـسـيـ الـذـيـ كـانـ مـنـتـدـيـاـ عـلـىـ سـوـرـيـاـ فـيـ الـثـلـاثـيـنـياتـ مـنـ الـقـرـنـ الـمـاضـيـ. تـقـولـ كـلـمـاتـهـاـ :

" خـذـ رـجـالـكـ وـاـرـحـلـ عـنـاـ "

" وـبـارـيسـ مـرـيـطـ خـيـلـنـاـ .."

الـإـسـپـانـ الـيـوـمـ شـعـبـ يـعـيـشـ فـيـ مـوـطـنـهـ وـهـوـ مـوـطـنـ أـجـادـادـهـ الـأـوـرـوبـيـنـ وـبـنـفـسـ الـوقـتـ فـإـنـهـ ثـمـةـ شـعـبـ آـخـرـ يـتـطـلـعـ طـوـالـ قـرـونـ وـلـاـيـتـوـقـفـ عـنـ الـحـلـمـ وـرـبـماـ السـعـيـ عـنـدـ الـبعـضـ للـعـودـةـ إـلـىـ اـمـتـلـاكـ ذـلـكـ الـبـلـدـ. وـبـهـذـاـ تـتـضـعـ عـقـدـةـ الـأـنـدـلـسـ عـنـدـ الـطـرـفـيـنـ.

مهما تحدثنا عن نتائج اندحار العرب المسلمين عن الأندلس فلن نستطيع أن نصف هول تلك الحادثة. فذلك اليوم كان يوماً فاصلًا بين مراحلتين من الزمن: زمن ما قبل الأندلس وزمن ما بعده. وذلك اليوم كان يرسم لمرحلة جديدة في العلاقة بين الغرب والعالم الإسلامي كله. وهذه المرحلة ما زالت قائمة حتى يومنا هذا.

عقدة الأندلس عند الأوروبيين

عقدة الأندلس والغزو الإسلامي لأوروبا ما زالت ماثلة في أذهان الأوروبيين عموماً. وقد لمسنا أنَّ هذه العقدة تحفز في الأوروبيين دافعين اثنين وهما:

أولاً : دافع العدائية للمسلمين والعرب ويمثل هذا الدافع خوف الأوروبيين من عودة أوروبا إلى الفضاء الإسلامي. وانطلاقاً من هذا الدافع يستمر الغرب بغزواته المتتالية إلى بلدان العالم الإسلامي، ويستمر في دعم الكيان الصهيوني الذي صنع أساساً في الغرب وتم تصديره إلى قلب العالم الإسلامي ليبقى عنصر شغب وتخليف وحروب مستمرة. ونلاحظ من استطلاعات الرأي الكثيرة بأن حوالي ٤٠ % من الأوروبيين يؤيدون إعادة غزو الغرب للبلدان الإسلامية واستعمارها وسلب ثرواتها. وهذا يعني أيضاً تخليفها ومنعها من امتلاك القوة التي تمكّنها من غزو أوروبا من جديد. وبالطبع فال الأوروبيون ينطلقون في هذا الموقف العدائي من عقدة الأندلس نفسها.

ثانياً : دافع التفكير والتأمل بالتاريخ ودروسه، وهو لاء الذين يمتلكون هذا الدافع ليسوا أقلة في أوروبا. ويتصاعد عددهم باستمرار. وقد كان هؤلاء يعانون من عقدة الأندلس الدارجة في أوروبا وفجأة يتأمل الواحد منهم تلك العقدة ويسعى لتبييضها، فيتسائل عن حقيقة الأحداث التاريخية وعن حقيقة ما فعله المسلمون في الأندلس وعن حقيقة الدين الإسلامي نفسه. ومن هذه الفئة قسم يعتقد الدين الإسلامي ويتوصل لمبدأ الحوارحضاري مع العرب والمسلمين. كما يكتب الكثير من الأوروبيين عن تاريخ الوجود الإسلامي في الأندلس ويعتبره فترة ذهبية كان لها الفضل في نهضة أوروبا كلها.

في تلك الفتوحات الإسلامية قتل من الأوروبيين أعداد كبيرة من المقاتلين المدافعين والذين كانوا يحاولون إيقاف الزحف الإسلامي على بلدانهم. ومازالت مقابرهم قائمة حتى اليوم، ومازالت النصب التذكارية التي تخذلهم قائمة، وتؤدي دوراً بالتحريض والتذكير الدائم بذلك التاريخ، وهذه الذكرى تساهم في تثبيت عقدة الأندلس واستمرارها عند الأوروبيين. ففي جنوب فرنسا منطقة تسمى اليوم (الموت) *la mourire*) وفيها مقابر لآلاف الجنود الفرنسيين الذين قتلوا في معركة كبيرة واستطاع المسلمون إثراها الزحف شمالاً حتى وقعوا في فخ معركة بلاط الشهداء المسماة بالفرنسية (*poitier*) ذلك التاريخ يراه الأوروبيون مؤلاً وهم ما زالوا يخشون عودة متوقعة لل المسلمين إلى بلدانهم. ويخشون حدوث مذابح لشعوبهم وتدمير لحضارتهم. ويكتب الكثير منهم اليوم معبرين عن هذه الخشية وعن ما يعتقدونه وحشية وتخلاً عن الشعوب الإسلامية التي ستدمر حضارة الغرب ومعالمه. ولسوء الحظ فقد جاءت اعتداءات القاعدة على برجي التجارة العالمي وفيه أنفاق لندن وقطارات مدريد جاءت كعمل تدميري لحضارة الغرب ومعالمه الحديثة. وجاءت ضمن السياق الذي يخشاه الأوروبيون. ومن هنا نكتشف السبب الذي دعا الكثير من الغربيين إلى استذكار الصراع القديم بين الصليبية والمسلمين. والأوروبي بشكل عام يصعب اليوم عندما نفاجئه بذكر تاريخ العرب والمسلمين في الأندلس. وهذه الصعقة التي تعيشه على الفور والتي تجعله يخشى محدثه العربي ويخشى الخوض في هذا الموضوع ، هذه الصعقة تعبر عن استفحال عقدة الأندلس في ذاكرته. فقد تخسر صديقاً أوروبياً إذا بادرته بالحديث عن أمجاد العرب والمسلمين في الأندلس أو عن فضل الحضارة الإسلامية على الغرب.

عندما اندحر المسلمين من أوروبا ارتكب الغرب مجازر إبادة قذرة بحق مواطنيه المسلمين. فقد جرت عملية تمسيط كاملة للمجتمعات الأوروبية وخلالها تمت إبادة المسلمين بالكامل. وتم التمثيل بجثثهم وتقطيع أجسادهم وسحلهم وهم أحياء وحرق البعض منهم. وبهذه الطريقة البشعة التي تقشعر لها الأبدان تمت إبادة قرى بأكملها كان أهلها يعتقون الإسلام ويتكلمون بالعربية والمازاران. وخشية من تلك المجازر

ارتدى الكثيرون من الغربيين عن الإسلام واعتنقوا المسيحية ظاهرياً، واستمرت المسيحية في أبنائهم وأحفادهم إلى اليوم. ولم يتسع لأولئك المرتدين في تلك العصور أن يعودوا إلى إظهار إسلامهم فقد كانت الكنيسة طوال قرون تتمتع بقوة وتهدد أي خروج عنها، وكانت العقوبة شديدة القساوة، وهي القتل والسفك والإبادة التامة لكل من يخرج عن هيمنة الكنيسة. ومن تلك الأحداث تولد في ذهان الأوروبيين رعب وقلق وخوف: خوف من العودة إلى الإسلام، وخوف من الإيمان بالإسلام وخوف من عودة ظهور الإسلام. ومجموع هذا يعني الخوف من الإسلام بكل ما يحمله. وما هذه إلا ظاهرة عقدة الأندلس. واستمرت هذه العقدة حتى يومنا هذا، وما زال الغربي يخشى عودة تلك المجازر التي ارتكبها أجداده الأوروبيون بحق المسلمين الحاكمين وبحق الأوروبيين الذين كانوا يعتنقون الإسلام.

عقدة الأندلس عند الغربيين كانت نتيجة إرهاب الكنيسة المتطرفة للأوروبيين وإخافتهم من الإسلام، أي أن عقدة الأندلس الغربية كانت صناعة غربية ولم تنشأ من إرهاب إسلامي لأنه لم يكن آنذاك أي إرهاب إسلامي للأوروبيين.

وفي عصرنا هذا صحت عقدة الأندلس نتيجة لعوامل كثيرة كانت بدايتها فيما فعلته جماعة القاعدة وتبع ذلك خشية الأوروبيين من تزايد نفوذ المواطنين المسلمين لديهم. ظهرت أصوات جديدة تتباين بابادة المسلمين الأوروبيين مرة أخرى. وأصوات تتوقع حدوث حروب صليبية جديدة.

وتتصدر عن بعض الكنائس الغربية وعن المتطرفين الغربيين الكثير من التصريحات التي تدل على معاناتهم من عقدة الأندلس.

فالغربيون يعتزون كثيراً بقوميتهم وبنمائهم الأوروبي ويفضّلهم على العالم في الثقافة والصناعة والفنون والمدارس العديدة، وهم يواجهون صعوبة في الاعتراف بتاريخ قديم هو تاريخ الوجود الإسلامي والعريبي في بلدانهم. ومن هنا فأكثراهم يحاولون نسيان ذلك التاريخ، ثم إن المناهج التاريخية الغربية الرسمية لا تعرف حتى اليوم بفضل المسلمين على الحضارة الغربية. ولأنهم اضطروا للدراسة نتاج ابن

سينا (Avicenne) وابن رشد وابن خلدون فهم يمنحونهم أسماء غربية بل ويمنحون ابن رشد (Averoee) هوية غريبة فيعتبرونه فيلسوفاً غريباً فحسب.

وبسبب العقدة فإن العقل الغربي شديد الانحياز والتعصب لذاته، فتاریخ المجد الإسلامي في الغرب شديد الوضوح للناظرین ورغم ذلك فالغرب يصر على قراءته معكوساً، وحضور الآثار الإسلامية في غرناطة والحرماء يصر الغرب كله حتى اليوم أيضاً على قراءتها بشكل معاير لما هي عليه. ويصر على إلاّ يرى فيها آية صورة حضارية، والتوحيد الإسلامي الشديد الوضوح والنقاء والذي لم يمثل لوضوحيه عند كافة الأديان يصر الغرب على إلاّ يكتشفه بل ما زال يصف الإسلام بالإلحاد والوشية. تلك الرؤى المنحازة ناتجة عن عقدة نفسية راسخة وعن مرض ثقلي متغلل.

محرقة الموريسيكوس مؤلة الحقيقة

عرفت الحرماء وغرناطة افتاحاً إسلامياً على الآخر، وتعابشاً سلماً ودياً بين الأديان السماوية الثلاث، ذلك التعايش والتسامح الذي لم تعرف أوروبا مثيلاً له منذ تلك القرون وحتى اليوم. فقد بني قصر الكازارا المسيحي آنذاك بأيدي عمال وفنانين مسلمين استقدمهم الملك لإنجاز ذلك المشروع. ونرى في ذلك الأثر المسيحي الذي ما زال قائماً حتى اليوم نقوشاً إسلامية ودرع كاستيليا ذا المفرزي المسيحي. وبينما الطريقة استقدم مسلمون من غرناطة لبناء كنيسة أشبيليا. ثم استطاع ملك آراغون أن يوحد إسبانيا بعد زواجه من الملكة. وفتح الباب للمحاكم الدينية المسيحية الخاصة بما سمي (معاقبة المرتدين عن المسيحية) وهؤلاء هم الذين اعتنقوا الإسلام.

واستخدم مصطلح موريسيكوس الذي كان يقصد به الذين اعتنقوا الإسلام والملقبين بالمرتدين عن المسيحية. وبدأت منذ عام ١٢٢٤ محاكمة هؤلاء (المرتدين) وحرقهم في محارق أقيمت لهذا الغرض. وبتوحد الإسبان وبفضل تأمر الأمير (أبي عبد الله مع الملك فردينالد) واستطاعوا القضاء على الخلافة الإسلامية في جنوب إسبانيا. وبدخولهم غرناطة سلم المتآمر مفاتيح المدينة للملك ولزوجته الملكة، وانتهى زمن المسلمين هناك. وراحت المحاكم الدينية الكاثوليكية تقضي على المسلمين. فقد

أمر المسلمين هناك وكان عددهم بضعة ملايين باعتناق المسيحية أو بالإبادة في المحرقة. وقد أبى في تلك المحرقة فعلاً عدة ملايين من المسلمين.

وتشير الدراسات التاريخية إلى أن السلطات الكنسية ظلت تطارد المسلمين وتطارد الموريسيوس وتحرق بعضهم إلى أن أصبح عدد الذين عادوا إلى المسيحية حوالي نصف مليون شخص.

وهؤلاء لم يعف عنهم آنذاك بل ظلّوا يطاردون حتى تمّ نفيهم إلى أراضي السلطة العثمانية الإسلامية. تلك هي المحرقة التي أعدم فيها ملايين من المسلمين والتي سببت الفراق والخصام الطويل الذي مازال قائماً بين الشرق والغرب حتى يومنا هذا. وتلك هي المحرقة التي صنعت عند المسلمين وعند الأوروبيين عقدة نطلق عليها في هذا البحث اسم "عقدة الأندلس".

لقد ارتكبت المسيحية الغربية التجريبية آنذاك خطأً شديداً الفداحة. وصنعت مذبحة رهيبة لا يمكن أن يغفر لها تاريخ البشرية. كانت مذبحة ظالمة للغاية. لم يحدث أن ارتكب المسلمون أي نوع من تلك المذابح طوال التاريخ، ولا يمكن أن يحدث مثل ذلك في المستقبل.

فقد اقتيد مسلمون إسبان أبرياء آمنون إلى مذابح تحت راية الصليب المسيحي. واقتيدت النساء والأطفال جماعات جماعات وقطعت الرؤوس في المذابح الكنسية بكل يسر وهدوء. وأعلنت الكنيسة عن تمكناها من محو الظاهرة الإسلامية هناك. فعندما يخشى الغرب من الإسلام اليوم فإنه في الوقت ذاته يخشى من أن يذبح الغربي الذي يعتقد الإسلام من قبل الغرب نفسه. فعقدة الخوف من الإسلام لاتقتصر على خشية الغربي من المسلمين فحسب بل خشيته الرهيبة والإساسية من الغرب السفاح الذي أباد الإسلام الغربي ذات مرة،

"عندما تحدث توني بلير عن ظاهرة الحجاب النسائي الإسلامي في الغرب قال: إنه من العصور الوسطى." وهذه العبارة تعني بدقة صورة نساء غرناطة وقرطبة اللواتي اعتنقن الإسلام في زمن المجد الإسلامي واللواتي اقتنن إلى المذابح والمحارق وأبدن

فيها. ومعنى هذا أنَّ رئيس وزراء بريطانيا ٢٠٠٧ يذكر الأوروبيين بخطورة أن يعتنقن الإسلام. (ولوح لهم بذلك المذابح).

ومن مذكرات القضاة ورجال الكنيسة الذين كانوا يحكمون على فلول المسلمين الأندلسين بالإبادة نذكر أنهم كانوا يندهشون في الحكم على مواطنיהם إذ يجدون أنهم لا يختلفون في العادات وبعض العقائد عن نظرائهم المسيحيين.

وكان القضاة يجدون مصاعب في معرفة المسلم وتمييزه عن المسيحي. وذلك الأمر يعنينا كثيراً، فهو يدلُّ على التفاعل الاجتماعي الكامل والتسامح الديني والتفاهم بين أتباع الديانات.

إنَّ مصطلح موريسيوس moriscos يعني الموت للإسلام. فكلمة مورت وتقرأ مور mort تعني الموت وهي المقطع الأول في المصطلح. وكلمة إسلام islam أخذ منها الجزء الأول من المقطع الأجنبي وهو المقطع الثاني في مصطلح موريسيوس. ويمكن للباحث تتبع تفاصيل رهيبة ومشاهدة لوحات نادرة وقديمة عن الموريسيوس في شبكة الأنترنت وفي المراجع الغربية.

عقيدة الأنجلس في أدب العصر الوسيط

في أكثر نصوص الأدب الفرنسي الذي نتج في العصر الوسيط والمسمى بالفرنسية نجد انتقاداً للإسلام والمسلمين وهجوماً كبيراً عليهم. وهزءاً واستخفافاً بقصصهم وتاريخهم. وتروي النصوص والقصائد ملاحم شعرية لأبطال أوروبيين فتكوا برجال مسلمين في معارك تسميتها تلك النصوص معارك الدفاع عن الدين والله والشعب والأرض. ومن بين أولئك الشعراء يهود فرنسيون. كما تميزت فنون الرسم والنحت في العصر الوسيط بتمجيد بطولات الفريقيين في دحرهم للمسلمين. ذلك النتاج الفرنسي القديم ما زال يدرس حتى يومنا هذا في المدارس والجامعات الأوروبية. وفي قسم الأدب الفرنسي بجامعة دمشق درسنا تلك النصوص وأطلعنا على تلك الفنون التي كانت تهزا بأجدادنا المسلمين. ومن الطبيعي أن ندرسها نحن العرب

المسلمون. لكن لنكتشف الآن مدى تأثيرها على الطالب الأوروبي. إنها تعمق في عقيدته الكراهية للمسلمين. وتمنحه صورة مزيفة عنهم. فتصورهم بأنهم ملحدون وكفار وقتلة ومتوحشون وكارهون. كما ترسخ تلك الآداب في عقل الأوروبي عقدة الخوف من المسلمين وعقدة كره المسلمين. هذه العقدة التي مازال الغرب يعتمد تثبيتها في مواطنيه بذات اليوم تجلي ويدأت تظهر لكل غربي حقيقة أن المسلمين مؤمنون وموحدون لله. وأنهم محظوظون ومحظيون للفرب وللمسيحية. ولعل لحظة انجلاء العقدة عند الغربي ترتبط بلحظة اكتشافه للإسلام. فالغربي يعرض اليوم عن ذلك الموروث الكاذب ويُكفر به ويتحرر من عقده وزيفه ويتعرف على الإسلام ومن هنا تكثر ظاهرة اعتناق الإسلام. وقد اخترنا صورة غلاف هذا الكتاب من قنون العصور الوسطى التي كانت تعادي المسلمين بشدة.

انتقال وانتشار عقدة الأندلس الغربية

لإدراك حالة العقدة عند الأوروبيين يمكن مقارنتهم بالروس أو الصينيين أو اليابانيين أو الأفارقة السود. ففي المناطق التي ذكرناها لا يحمل الناس ذلك العداء للإسلام والخوف منه مثلاً يحمله الأوروبي. فالروس أصدقاء للمسلمين والعرب، واليابانيون والكوريون أصدقاء أيضاً. ولا يتعاملون على الإسلام والمسلمين. ومن السهل التحاور معهم والتضامن معهم. وهم يقفون محايدين سياسياً عن مشكلة الأوروبيين في عدائهم للمسلمين فلا يدعمون إسرائيل ولا يتحالفون مع الصهاينة الغربيين. من خلال هذا التحليل نكتشف بأن الصهيونية كلها جاءت نتاج عقدة الأندلس الغربية. واستمرار الدعم الغربي للصهيونية هو استمرار للعقدة الغربية تلك. فقد صنعت الصهيونية في أوروبا وقام الغرب بتصديرها إلى قلب الوطن العربي وقدس المسلمين لتكون التزييف الدائم وال الحرب المستمرة بين المسلمين واليهود. وهذا ما يشير أنَّ الغرب يسعى على الدوام لاستمرارية الصراع وال الحرب والاقتتال. فقد كان اليهود مكرهين في أوروبا وما زالوا حتى اليوم مكرهين. وكان الأوروبيون يسعون للتخلص منهم. فقاموا بإرسال اليهود إلى فلسطين. وهؤلاء اليهود الغربيون حملوا

معهم عقدة الأندلس الغريبة. وقاموا بصهيونتها وحاولوا تهويدها. وتشكلت عند أغلب اليهود المقيمين في أرض فلسطين عقدة جديدة ذات أصل غربي. ولهذا يستمر الصراع في المنطقة. كما حمل الأوروبيون المهاجرون إلى أمريكا وأوستراليا وكندا حملوا معهم عقدة الأندلس الغريبة وأورورتها لأبنائهم وأحفادهم، واستمرت حتى اليوم في تلك الدول، ونلمس آثارها في المواقف السياسية لحكومات تلك الدول. لقد قامت حركة طالبان منذ سنوات بتدمير معابد وتماثيل بوذية مقدسة عند اليابانيين. ورغم أهميتها الدينية لديهم فلم يتحرّكوا ضد الإسلام والمسلمين، ذلك لأنهم لا يمتلكون موروثاً معادياً للمسلمين.

نقصد بكلمة الغربي كلما ذكرها في هذا البحث إضافة لأوروبا الغربية أمريكا وكندا وأوستراليا والصهاينة الذين مازالوا يغتصبون أرض فلسطين.

نكتشف من هذا البحث ضرورة تحرير العقل الغربي من عقدة الأندلس القديمة والتي تبرر له معاداة المسلمين. وعندئذ سيزول الحقد الغربي على المسلمين وستزول السياسات الغربية المعادية للمسلمين، فلا نرى وقتئذ جنوداً غربيين محظلين بلداننا. وعندما يزول الدعم الغربي للصهيونية سيعود هؤلاء الأوروبيون اليهود إلى بلدانهم وتعود فلسطين عربية إسلامية آمنة.

لتحرير الغربي من العقدة القديمة المزيفة والوهمية لابد من العمل الفردي في مجال الحوار مع الغرب على كافة الأصعدة. فكتابنا هذا يتحمل جزءاً من مهمة الحوار مع الغرب ويعتبر أول مشروع صادم للفريبيين المهومنين والذين رضعوا منذ طفولتهم العداء للمسلمين.

جذور معايادة الإسلام في الغرب

لما كانت عقدة الأندلس التي نفترحها تمثل عند المسلمين بالسعى لغزو أوروبا فكريأً ودينيأً مرة أخرى، ولما كانت عند الغربيين تمثل بخشيتهم الدائمة والتي استمرت قروناً من الزمن، الخشية من عودة المسلمين ومن عودة الإسلام، فإن

الموقفين المتمثّلين في العقدة نفسها يمثّلان تفوقاً معنويّاً عند المسلمين، يقارنه ضعف معنويّ عند الغربيين يتمثّل بالخشية والخوف من الإسلام والمسلمين. فالمسلمون كانوا هناك وبحلمون بالعودة فاتحين. وفي الموروث الثقافي الغربي عداءً كبيراً للمسلمين وللإسلام ويمكن تتبع عناصره التي استطعنا تتبعها واستقصائها

كالتالي:

- تطفى على الموروث الثقافي الأوروبي سمة العقلية الفاضحة والأبلسة، فبرغم تطور الغرب ما زالت تسود على ثقافته الخرافات والأسحار والأفكار الشيطانية، وتلك تجعلهم مؤهلين للتّوهم بأن الإسلام خرافة وبأن المسلمين قتلة ومرعبون. وما تلك الأوهام إلا تحالف حضاري وثقافي. ومرض نفسي حقيقي. وتلك هي العقدة.
- المجتمع الغربي مبتلى بداء الإهانة والحسد والغيرة ويعارض تلك العيوب تجاه المسلمين جميعاً. فمن الناحية الدينية يجد الغربي نفسه حاسداً للمسلم الواثق بدينه والمتكلّ على الله والواثق بلقاء ربه. والممارس للعبادة والطاعة. وفي المجتمع الغربي عموماً ينبع المسلمين في أعمالهم وتجاراتهم ودراساتهم ويحصلون أعلى المرتبات. ثم إن نسبة الجامعيين بين المسلمين أكثر منها في الوسط الاجتماعي العام. والمواطن الغربي الذي تم تأثيره طوال عقود يشعر بالغيرة من العربي أو المسلم القادم من الخارج والقوى البنية والذي يمتلك قدرات تفوق قدرات الغربي بما في ذلك قدراته الجنسية. وكثيرة هي التصريحات التي نسمعها كل يوم والتي تعبّر عن غيرة الغربيين من المسلمين ومن قدراتهم الكثيرة التي تفوق قدرات الغربيين، فقد تحدث نيكولا ساركوزي عن استفادة الجالية الإسلامية من الضرائب والجمعيات وتعويضات الأولاد.
- القلق الغربي القديم الذي ما زال حاضراً من العرب والأتراك، فالعرب كانوا هناك، والأتراك العثمانيون كانوا هناك. ويعبر الغرب عن خشيته من عودتهم فقد صرّح ساركوزي رئيس فرنسا مرات عديدة بأنه لن يسمح بأن تدخل تركيا في الاتحاد الأوروبي.

- تسود في المجتمع الغربي العقلية الصليبية القديمة المعادية للإسلام، والصادمة الصليبية من الإسلام، تلك التي أحدثت العقدة للفريبيين.
- طوال القرون الماضية استمرَّ الغرب في الإستعارة من الثقافة والفكر الإسلامي، ومن تجارب وخبرات وأعمال المسلمين الناجحة التي تعتمد أساساً على إسلامهم، دون الإفصاح عن مصدر تلك الإستعارات ودون الاعتراف بصوابية الإسلام وفضله، وبالمقابل استمر المسلمين حتى يومنا هذا بالاعتقاد بعظمة الغرب وبالنهل من كل نتاجه الفكري والثقافي.

هذه العناصر هي التي تكون العقلية الأوروبية ولا يعني ذلك أن عداء الغرب للإسلام يجري في الدم الغربي كله. ولكن هذه العناصر متوارثة وهي التي تكون الذاكرة الجمعية للأمة. وإن هذه العناصر نفسها يمكن أن تستثمر في تعریف الأوروبي على عيوبه ومن ثم تعریفه بالحقيقة الإسلامية وبالتالي المصالحة معه بعيداً عن الأمراض الثقافية الموروثة.

نتائج غربية تكشف عن الخوف من الإسلام

كثيرة هي النتائج الغربية التي تعبّر عن اتساع عقدته وخوفه من الإسلام. وقد اعتاد المراقبون المسلمين على الاحتجاج الفوري على تلك النتائج وجعلها دليلاً آخر على استمرار العدائية بين المسلمين والغرب. ومن الممكن أن نقوم بتحليل تلك النتائج وأسباب ظهورها واستمرارها. فتلك تعبير صريح عن حالة مرضية حقيقة عند الغرب وفي ثقافته وموروثه. وتتنوع هذه النتائج المعادية للإسلام فتجدها في السينما والمسرح إذ قام أحدهم بقطع رؤوس ثلاثة أنبياء وعرضها على المسرح في مسرحية عرضت عام ٢٠٠٧ . وفي الرسوم الكاريكاتورية تجرا الدانيماركي على رسم أشكال للشخصية العربية وادعى بأنه يقصد الرسول الكريم محمد. وفي مجالات الرسم والتصوير لا يكفي الغرب يوماً منذ عقود عن إظهار صورة الحجاب الإسلامي على أنها الشخصية المرعبة والمخيفة أو الأسيرة والسجينية، وتظالغنا هذه

الصور يومياً في وسائل الإعلام الغربي. تلك النتاجات وغيرها تزيد من تحامل الفرد الغربي على المسلمين. ولا تدل إلا على العقد المرضية في نفوس بعض الأوروبيين.

البروفيسور بورغات يحترف بالتمييز ضد المسلمين في فرنسا

يتحدث البروفيسور فرانسوا بورغات حول معاملة الحكومة الفرنسية للمسلمين المقيمين في فرنسا سواءً من ذوي الأصل المغاربي أو الفرنسيين الأصليين، فأبدى فرانسوا رأياً صريحاً بأن المسلمين يعانون من أنواع كثيرة من التفرقة ضدهم. وأضاف: لو لم يكن اسمي فرانسوا لاعتقلتني السلطات الفرنسية منذ زمن بعيد فهم لا يعجبهم أن ينتقدهم أحد بمثل انتقاداتي.

وإن معاداة الإسلام والمسلمين هي هم وسائل الإعلام الفرنسية فصحيفة (Liberation) الفرنسية نشرت خبراً عن قيام مسلم جزائري بقتل زوجته لأنه شك في سلوكها وأنه استند إلى القرآن الكريم في ذلك. يقول أحد الباحثين المسلمين بأنه اتصل بالصحيفة وطلب التحدث إلى المحرر المسؤول، وسأل هل يمكن أن تخبرني عن النص القرآني الذي استند إليه القاتل في قتل زوجته فها هو المصحف بين يدي ، ثم أضاف ولكنني أجد أن القرآن لم يسمح له بقتلها وإنما طلب منه أن يأتي بأربعة شهداء وأن يرفع أمرها إلى القضاء الإسلامي. وهنا بدأ المحرر بتوجيه سيل من الشتائم للمتصل. وأضاف المتحدث أن يكون اسمك "محمد" أو " محمود" فمن المستحيل أن يتقبلك المجتمع الفرنسي.

خوف الأوروبي من قول الحقيقة الإسلامية

فيما مضى كان الكثير من الكتاب وال فلاسفة الغربيون يخشون البوح في امتداح الإسلام أو فكره أو رجالاته أو فضله على تطور البشرية. وبنفس الوقت كانوا ينهلون بوضوح من الإسلام ونتاجاته الكثيرة ويدرجنها في أعمالهم دون البوح عن مصدرها الإسلامي. وكان المتلقى الغربي يدرك أحياناً بأن هذه الحكمة التي

يتلقاها إسلامية وقد توجّب عليه هو أيضاً السكوت عن هذا الفهم للمصدر الإسلامي. وفي هذا الخضم كانت الحقيقة الإسلامية المذاعة تأخذ تدرج في الغرب على أنها شرح ديني جديد لجانب من تعاليم المسيحية أو يظنها البعض إبداعاً فلسفياً أو اجتماعياً أو سياسياً أو مسيحياً. وكان ناقل هذه الحقيقة الإسلامية وهو الذي يقدمها للجمهور الغربي يدعى أحياناً بأنه هو المبدع لهذه الحكمة الجديدة.

لقد كان الخوف في التعبير عن الحقيقة الإسلامية شائعاً عند الأوروبيين عموماً. وكان متყماً عليه تقريباً. وكان ظاهرة تعبّر عن زيف شائع وقد جرى الاتفاق على شيوعه في الغرب. لقد كان هناك شبه إجماع غربي يعتبر أن النهل من الفكر الإسلامي مباح واكتسابه ونقله مباح وبينفس الوقت ارتبط هذا كله بالإتفاق على عدم ذكر المصدر صراحة. وعندئذ كانت السلطة الحاكمة والكنيسة القوية توافق على ذيوع هذا الفكر والنتائج. فقد كانت العبارة الأولى في كتاب جان جاك روسو العقد الاجتماعي منقوله عن الفكر الإسلامي وعن مقوله عمر بن الخطاب الشهيرة.

يقول روسو: خلق الإنسان حراً فلماذا نستعبده.

ويقول عمر: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً.

وقامت الثورة الفرنسية معتمدة في شعاراتها الرئيسية الأولى على عبارة روسو الشهيرة هذه. وأصبحت فيما بعد أهم قوانين العدالة الاجتماعية في الغرب ومن ثم تم نقلها إلى العالم كله. وقد كان هذا المبدأ في أصله إسلامياً قرآنياً.

لم يكن بمقدور روسو في حينه أن يعلن عن المصدر الإسلامي للفكر الذي يطرحه. كان الغرب في تلك العصور خارجاً لتوه من استبداد محاكم التفتيش الشهيرة التي استطاعت أن تدب الرعب في قلوب الأوروبيين جميعاً.

كان نتاج المسرحي الشهير وليم شيكسبير يحوي الكثير الكثير من الحكمة الإسلامية والفكر القرآني. والحقيقة فإن ميزان حكم شيكسبير على أبطال مسرحياته جميعاً كان إسلامياً خالصاً. فلم يكن ميزان العدالة عنده مسيحياً ولا

يهودياً ولا فلسفياً. بل كان قرانياً صرفاً. وكان شيكسبير ينقل آيات قرانية كاملة لكنه التزم عدم البوح بإعجابه بالإسلام.!!.

في مسرحيته تاجر البندقية انتقد الريا والجشع والابتزاز وحزن المواد والذهب عند اليهودي شايلوك من مبدأ إسلامي صرف. وفي مسرحية عطيل كان بطلاً مغربياً مسلماً. وكان المسلمون أقلة نادرين في أوروبا وكانوا يعانون من عنصرية وكراهية كبيرة آنذاك. فأعلن شيكسبير في مسرحيته بأن عطيل ارتكب جريمة قتل زوجته بعد أن اتهمها بالخيانة بسبب جهله بدينه وبسبب جهله بالحقيقة وبسبب انخداعه بمؤامرة. وفوق ذلك كله بسبب عادات اجتماعية متوارثة عنده وهي عادة قتل الزانية. ولم ينتقد شيكسبير الإسلام في تلك المسرحية بل أوضح بأن عطيل جاهل ومتهور ومخدوع. وإضافة إلى ذلك فقد أرسل شيكسبير رسالة للغرب مفادها بأن هؤلاء المسلمين المغاربة بواسل وأمناء ومحبون المجتمعات التي يعيشون فيها. ويعملون على خدمة السلطة والجيش المسيحي الغربي بوفاء كبير. وفي مسرحيته كليوباترا محاولة للتقارب بين الشرق والغرب.

أما فولتير بنتاجاته كلها و بتاريخ حياته الغريب فقد تبين لنا بوضوح أنه كان مسلماً تماماً تاماً الإسلام. فمن المؤكد أن فولتير قد توصل في المرحلة الأخيرة من بحثه إلى اعتناق الإسلام. وربما لم يعلن عن إسلامه صراحة بسبب ذلك الخوف الشائع الذي كان حاضراً ومستمراً في أوروبا آنذاك. ففي روايته: كانديد التفاؤل. أكثر شخصياته كانت إسلامية والحكمة وميزان العدالة عنده كان إسلامياً. ودعوته للحوار بين الشعوب والإيقاف الحروب والكراهية والغزوat ذلك أيضاً من الإسلام.

وكان آخر عمل لفولتير هو مسرحيته التي تحمل اسم (محمد) عرضت المسرحية لثلاثة أيام ومنعت في اليوم الرابع من العرض وتم توبيخ فولتير لأجلها. وحين حضرها أحد كبار رجال السلطة آنذاك قال : يخدعنا فولتير فنظن بأنه ينتقد الآخر ونكتشف بأنه ينتقدنا وينتقد المسيحية. وفي السنوات الأخيرة من حياته اضطهد فولتير فأقام في مزرعة خاصة به امتهنها وعمل بزراعتها وابعد عن المدينة وانتقاداتها له. وحين وفاته لم تسمح الكنيسة بدفنه في مقبرة العظام. ولم تؤد عليه

الصلة الكنسية. ذلك لإدراك الكنيسة أنه كان قد اعتق الإسلام. ومن الضروري الإشارة أن المصطلح الغربي الذي كان شائعاً في وصف المسلمين هو (الكافار أو الوثنيون) وكان يعرف الإسلام بمصطلح الوثنية.

هذا الخوف القديم من قول الحقيقة الإسلامية كان من نتاج عصور الظلام الأوروبي. ورغم وجوده لم يمنع الأوروبي من قول الحقيقة الإسلامية تحت اسم مستعار. لكن ذلك أدى فيما مضى إلى استفادة الغرب من الإسلام بدون الإفصاح عنه. وموافقة الغرب على تحقيق هذه الفوائد بشرط عدم الإفصاح عن المصدر. وتلك الظاهرة كانت فيما مضى تشكل عقبة كبيرة في طريق انتشار الإسلام في أوروبا. وفي عصرنا هذا تغيرت أوروبا بعض الشيء، وتضاءلت هذه الظاهرة. وأصبح بإمكان الأوروبي قوله التي يريد والإعلان عن مصدرها الإسلامي. ومن هنا بدأت تهدّم حواجز الرعب الأوروبي من السلطة. وهذا سيساهم في انتشار الإسلام بسرعة مذهلة في الغرب كله.

عصرة الأوروبيين من الغزو الإسلامي لأوروبا

تكثر الأصوات الغربية المنتقدة والمستكرة لما يسمى هناك بالغزو الإسلامي لأوروبا. والصورة هناك تفصح عن غزو ديني وفكري واجتماعي وثقافي لأوروبا وللغرب عموماً. وتحتج الصحافة والإعلام ويحتاج الباحثون على ما يسمونه غزواً كثيفاً وتحدياً لأوروبا. كما تحتاج المؤسسات الكنسية والدينية المسيحية والمؤسسات السياسية ممثلة بالوزراء وغيرهم على هذه الظاهرة ويعربون عن قلقهم الشديد حيالها. ويقترح آخرون ضرورة وضع حدّ حاسم لهذا الغزو الإسلامي لبلدانهم. من ذلك التصريحات العنصرية لبعض الوزراء الغربيين. والانتقادات التي يوجهها الساسة وغيرهم للجالية المسلمة في دول الغرب. والحقيقة فإن النشاط الإسلامي الكثيف في دول الغرب والإقبال الكبير على الأسلامة واعتناق الدين أمرور تقلق الغرب وتضعهم - رغم اعتقادهم بأنهم سليمون نفسياً - تضعهم في عقدة جديدة ظهرت لتوضح معالم عقدتهم القديمة عقدة الأندلس.

العقلية الأوروبية والإسلام

تتنوع المعتقدات في المجتمعات الأوروبية وقد أصبحت تعددية بالفعل كما كان نادى الملك البروسي فردرريك الثاني في القرن الثامن عشر بأنه يجب أن يسمح لكل إنسان أن يسعى إلى الخلاص بطريقته الخاصة وقد حدث هذا بالفعل في أوروبا. إذ يمكنك أن تتبع الماركسية الجديدة أو أن لا تتبع أي دين أو تكون ملحداً ولا أحد يهتم بذلك ولكن عليك أن تحذر شيئاً واحداً : أن لا تكون مسلماً. وفي الحقيقة إن التعددية الحديثة وتسامحها المطلق يتحققان بحدة في وجه الإسلام. فالإسلام هو الدين والثقافة الوحيدة المحظورة في الغرب. ولما كان الغرب يمتلك محظوظات غير مقنعة، وبينما الوقت يفرضها على ابنائه فهو حالة مرضية.

فإن أردت أن تبني مسجداً فلا بد أن تتدخل البلدية بحساب كل متر من ارتفاع المئارة ويزعمون إجحافاً منهم بأن المئارة الإسلامية لا تتناسب مع البيئة الأوروبية. ولو كنت مسلماً فعليك أن تحصل على تصريح للحصول على لحم حلال ويرفض طلبك في النهاية، بينما يستثنى اليهودي من الذبح بحجة أنه من الشعائر الدينية.

وفي الإعلام الغربي لم يطلق قط على هتلر بأنه "كاثوليكي" أو ستالين "النصراني الأرثوذوكسي"، ولم يطلق على فراناكو "الكاثوليكي الفاشي". ولكن إن ظهر مسلح عربي فسوف يطلق عليه "مسلم متطرف" حتى لو كان ملحداً أو شيوعياً أو نصرانياً فلسطينياً.

حقيقة الخوف الأميركي من العرب والمسلمين

رغم أحداث 11 سبتمبر وأن منفذيها كانوا من العرب والمسلمين، لكنهم لم يستطيعوا تجنيد أي من الأميركيين الموجودين داخل الولايات المتحدة الأميركية، إذاً لماذا هذا الخوف من العرب الموجودين هناك؟ ولماذا دائماً الحديث بأنه ليس هناك نمط معين للإرهاب؟

خلص تقرير لشرطة مدينة نيويورك إلى نتائج مفادها أن الخطير الإرهابي الذي تواجهه الولايات المتحدة هو غير مرئي، ويكتمن فيما يسمى بالإرهاب الداخلي، أي يعتبر كل الأشخاص مواطنين عاديين يقللون الأمان. ما يركز عليه هذا التقرير هو المراحل التطورية التي تؤدي إلى التطرف، أي قبل أن يصل الشخص إلى مرحلة الإرهابي. ويتطرق التقرير إلى عدم جدوى تقديم صورة نمطية عن هؤلاء للتبؤ بمن سيتحقق بصفوف الجماعات المتطرفة، وبالتالي فهو يضع الجميع في دائرة الاشتباه. هذا التصنيف يجعل الجالية العربية المسلمة في الولايات المتحدة هدفاً أولاً ودائماً وفي ذلك اضطهاد وعنصرية المسلمين الأمريكيين.

يجب تفهم عقدة الخوف الأمريكية بعد هجوم ١١ سبتمبر بقارب الهجوم في الحرب العالمية الثانية الهجوم الياباني وخسائره في يجب تفهم العقدة، لكن لا نقبل تحول العقدة إلى عقدة ضد المسلمين أنفسهم بشكل عام. القضية أن دولة ثقافتها قليلة جداً خارج إطار الأميركي نفسه، والشخص العادي الأميركي لا يفهم أن هناك مسلماً غير إرهابي أو مسلماً لا علاقة له بالقضايا، يجب تفهم هذا الشيء، هذا الخوف الأميركي من الإسلام ليس وليد أحداث أيلول. وإنما هو موروث الماضي القديم الذي انتقل من أوروبا إلى القارة الجديدة.

عقدة الغزو الثقافي الغربي عنِّ العرب والمسلمين

يقف المسلمون باستمرار في جانب الحذر الشديد من الغزو الثقافي الغربي خشية تشويه ثقافتهم وفكرهم الإسلامي. وهذه الخشية قد تشمل بالخطأ أحياناً عناصر ثقافية من الممكن قبولها إسلامياً. فقد حرمت العربية السعودية في الخمسينيات من القرن الماضي تدريس علوم الجغرافيا والفلسفة. وليس هذا الخوف والحذر بقديم. إنما هو جديد وغريب على المجتمعات العربية والإسلامية.

وتعاظم هذه العقدة عند المسلمين العرب لدرجة أنهم يقومون بتفحص كل ملأ يأتي من الغرب من جديد في مقياس متuchب ودقيق ومتعرّض، حتى لو كان هذا الجديد (دميّة) وفي هذا السياق انتقد الكثيرون شخصية باربي وتحدى الكثيرون

عن أضرار ثقافة باربي، مما سهل على المستثمرين أسلمة باربي وذلك بتقليد هذه الشخصية في شخصية (فلة المسلمة المتحجبة). وفي إيران الإسلامية تم ابتداع شخصية أخرى بديلة عن باربي أيضاً.

تشير النصوص العربية الثقافية والفكرية والفلسفية والدينية القديمة إلى وجود علاقة فعلية قوية وحقيقة، ربطت الذات العربية فيما مضى بالذوات الحضارية الأخرى، حيث كانت عملية النهل من جميع الثقافات المبثوثة في العالم أمراً محباً وجزءاً لا يتجزأ من تكوين الذات المجتمعية، حيث كان الاعتقاد العربي والإسلامي يرى أي علم مبثوث في الكون هو ملك الجميع، ولا ينحصر في أحد دون سواه. وقد شكلت حركة الترجمة والتأليف دوراً بارزاً في نمو الحضارة العربية آنذاك، ولم تخش آنذاك الذات العربية من الغزو الفكري أو الثقافي، لقد ترجم المسلمون كل ما اطلعت عليه عيونهم وما استطاعوا ترجمته بدون حذر أو منع أو حذف لأية نصوص أو أفكار. وينطبق على تلك الأزمنة الإسلامية مصطلح حرية التفكير والإعلام. وحدث آنذاك أن تأثرت العديد من المذاهب الإسلامية بالفكر الفلسفي اليوناني، لكنَّ هذا التأثير وأمثاله لن يحصل في هذا القرن، بعدما طويت صفحات الفكر اليوناني كلها وأصبحت من التراث العالمي البائد.

لم يكن المترجم العربي وقتها يخسِّ على هويَّته من الضياع، بل كان يعتبر أنَّ كل علم منتشر في الإنسانية هو جزء من كينونته.

وقد لعبت اللغة دوراً محورياً في هذا التواصل الحضاري والتفاعل الثقافي، انعكس في طريقة الترجمة نفسها، مما ميَّز المترجمين العرب بقدرة عالية على هضم النصوص المترجمة، وتطويعها، وإعادة انتاجها، بمفردات الثقافة العربية، حيث كان يبدو وكأن النص المترجم هو عربي الأصل والمنشأ والغاية والهدف، فقد كان المترجم يؤلم النص ويضمه إلى اللغة ويقضى على عناصر الغرابة فيه، الأمر الذي يوصف بابتلاع النص أسلوبياً ومضموناً، بحيث يتم إدخال النصوص المترجمة في دائرة الأنا "العربية" شعوراً بأنَّ هذا النص هو ملكها ذائياً فيها، ومن ذلك أنَّ كل مفكر عربي كان يستغل بالفلسفة يذهب لابداع تعريف جديد لها يتواافق مع فهمه

لها ومع تواافقها مع الفكر الإسلامي. فذهب ابن رشد لتعريف الفلسفة وكان للفارابي تعريف آخر ولا بن سينا تعريف خاص به.

ينقلب المشهد الثقافياليوم ويتحول من تفاعل مع الحضارة إلى انفعال ومن "تواصل" إلى "انوصال"، فالذات العربيةاليوم تعانى انجراحاً عميقاً لم يجد ترياقه بعد.

على صعيد اللغة، نحن اليوم لا نشعر أننا نرقى بالنص عندما نقله إلى العربية، ولا نشعر بذوبان النص المترجم في ذاتنا، ويبقى بعيداً غريباً نافراً عننا، وإننا نريد المحافظة على تربيته وإبعاده. ولا نسمح اليوم للنص الغربي بالدخول إلى ثقافتنا. وحتى النص العلمي نجد فيما من يستبعد وينفيه.

بل وأبعد من ذلك، فنحن اليوم نرقى بالنص العربي عندما نترجمه إلى غير العربية! وهناك العديد من الكتاب والمفكرين العرب من يعمد إلى الكتابة بغير العربية، لأن المرور عبر لغة الآخر هو الطريق المضمون للوصول إلى القارئ، بمن فيه العربي! وهذا يعود بالطبع إلى انبهارنا بالغرب نفسه الذي نستبعد ثقافته. ولعلَّ أغلب هؤلاء الكتاب الذين يعبرون من الغرب هم من المغرب العربي. لذلك تكثر المفردات الأجنبية المنقولة بحرفيتها في نصوص المثقفين العرب، فالمثقف العربي لا يعترف بذاته إلا إذا اعترف بها الغير، ولا يقدر أنه إلا بالقدر الذي يعترف الآخر بها، وهو يمارس كلَّ ذلك في الوقت نفسه الذي يعمد فيه إلى إقصاء الآخر وإبعاده والتعامل معه على أساس أنه "غازٌ وشريكٌ ومتآمر".

انه لا بدَّ من قلب علاقات القوَّة التي تربط الحضارات بعضها البعض، وذلك من خلال تملك فعلي لثقافة الآخرين ومفرداتهم؛ "تملك" مبني على إعادة إنتاج الأسئلة والأطروحات، والتحرر من الصور التمطية، والتحرر من شبح "الفزو الثقافي" ذلك أن المتأخر اليوم لأية ثقافة ليس خصوصية مميزة ومتخصصة، وإنما كيفيات وآليات خاصة، وطرق نوعية للمساهمة في الثقافة الكونية والانخراط في المعاصرة، وإقامة ثقافة حوارية فاعلة تستثمر الأصول، وتعيد إنتاجها وتتجاوزها في مرحلة متقدمة، فتنعش

الفكر الإنساني وتشق له معابر وجودية، فاتحة له دروباً "صاعدة"، ومحدثة توازنًا حضاريًّا منشودًا.

لقد باتت مهمة مشاركتنا في التطور الثقافي الكوني ضرورة ملحَّة لنا وللبشرية كلها. فالغرب يثبت باستمرار كل نتاجه ويوصله للعالم كله. والغربي نفسه سئم من تكرار النمط الثقافي الغربي ومن زيفه وهو يطالبنا بالحاج بأن نطلعه على تفاصيل نتاجنا الثقافي. ولأن المسلمين كأمة إسلامية لم يقوموا بتقطيم أعمالهم ونتاجاتهم الفكرية وأنهم عاجزون اليوم عن ذلك، فقد قام الأفراد الأقلة بيث أفكار على أنها ثقافة إسلامية. ويقوم باستمرار نشطاء وهواة الحوار الإلكتروني بمحاولات للتعرِّف بالإسلام وفكِّره.

وإن الدين الإسلامي يتميَّز بقدرته على الاستمرارية والاحسانة من أية أفكار دخلة، ولذلك فلا حاجة للمسلم بالحذر مما يطلق عليه مصطلح الغزو الثقافي. فقد ثبت أن الحوار الإسلامي مع الحضارات والفلسفات الأخرى يفيد تلك المدارس ويساهم بنشر الإسلام داخلها. ومن هنا فعلينا أن نرقى بتأقُّل الثقافات الجديدة ونتحرر من عقدة الغزو الثقافي.

وقد ثبت بأن الغزو الثقافي المضاد لهويتنا وإسلامنا إنما يدخل فينا رغم تمسُّكنا بالحذر الشديد. فقد غزتنا حديثًا ثقافة الإبادة والتي هي من أصل صهيوني، ونحن نراها هذه الأيام منتشرة تتمثَّل في أحداث العراق وفي الاقتتال الطائفي. كما غزتنا ثقافة الطائفية، وثقافة الأسطورة والخرافة، وكلها من أصل صهيوني وأوربي أيضًا. والحقيقة فإننا بفتح أذهاننا على الثقافات العالمية المعاصرة نصبح أكثر قدرة على تمييز الثقافة المضادة لنا، ونصبح أكثر قدرة على رفضها.

يجب أن نثق بقدرة إسلامنا على استيعاب الثقافات الغازية وتمريرها وفلترتها بسهولة، وبقدرتها على التحسن من أي تشوه أو تغيير بسبب أية ثقافات غازية، فالإسلام أكبر وأعمق من كافة الثقافات البشرية التي ظهرت والتي من الممكن أن تظهر في المستقبل. ومن هذا المنطلق نستطيع أن نقضي على عقدة الخوف من أي غزو ثقافي.

محوقات فهم الإسلام في أوروبا

يهم الإعلام الأوروبي باستمرار بالإسلام وبالظاهره الإسلامية كلها ، ويفرد لها مساحات واسعة من البحث والتحقيق. ورغم ذلك فمازال الإسلام غير مفهوم تماماً بالنسبة للأوروبيين عموماً، الإعلاميين منهم والمواطنين، وكذلك بالنسبة للمسلمين أنفسهم. ورغم أن عمر المواطننة الإسلامية في أوروبا يقارب القرن من الزمن. فإن المسلمين ما زالوا يعانون من العديد من المشاكل مع الحكومات والإدارات في بلدانهم تلك. ويعود ذلك لأسباب عديدة نجدها عند الطرفين. فالغربيون يتعرفون على الإسلام من خلال قنوات كثيرة:

الإعلام والمطبوعات بأنواعها، وقسم كبير منها يعادي الإسلام، والقسم الذي لا يعتمد معاداة الإسلام ويدعى بأنه يعرف بالإسلام والمسلمين نجده يجعل الإسلام وتفاصيله يعطي صوراً خاطئة عنه. وهذا السبيل الغربي لم يصبح كفؤاً لأن يعطي مواطنية الصورة الحقيقية عن الإسلام.

المنهل الثاني الذي يعطي للغربيين صورة عن الإسلام هو المسلمين الغربيون أنفسهم، وهو لاء كما سنكتشف من خلال هذا البحث لهم مشاكلهم الكثيرة، ومنها المشاكل الفكرية، وهم لم يرقوا حتى اليوم ليصبحوا صورة صحيحة عن الإسلام. فالبيتمن يمسكون بالورث الثقافي والفكري والاجتماعي ويربطونه بالإسلام ويصدرونه للغرب على أنه إسلام. وعندئذ تصل للغربي صورة مشوهة عن الإسلام.

فخور بأنني مسلم بريطاني

انطلقت في مدينة لندن حملة إعلانات تهدف إلى التعريف بالإسلام وإظهار المسلمين كعنصر مندمج وفعال في المجتمع. تعتمد الحملة على الملاصقات والإعلانات الجدارية التي تظهر صور شخصيات مسلمة بريطانية وتحمل شعار "فخور بأنني مسلم بريطاني". تنظم الحملة جماعة "الإسلام سلام" أو Islam is Peace التي

تقول إنها تهدف إلى تغيير النظرة السلبية التي يحملها البعض تجاه الإسلام ولتعريف الآخرين بأن المسلم مطالب بالتعايش السلمي في المجتمعات غير المسلمة. وتشط الجماعة أيضاً في تعريف البريطانيين على الإسلام بواسطة موقعها الإلكتروني باللغة الانكليزية www_islamispeace_org_uk.htm.

وهذه طريقة مثالية في تصحيح العقل الغربي بما يخص رأيه بالإسلام والمسلمين، وفي تصحيح الصورة السلبية عن الإسلام التي تشكلت عند الغرب منذ قرون والتي بمحاجها يتم اعتبار المسلمين ملحدين وكارهين وقتلة مجرمين. وستقوم مثل هذه الحملات بأدوار كثيرة نستشعر بعض معاناتها:

١ - هي حملة تعريف بالمسلمين وبرفع التهم عنهم وإصلاح الصورة السلبية
عنهم.

٢ - من حيث لا يدري البريطانيون فهي حملة أسلمة لهم. ومن المؤكد أنها ستؤدي إلى اعتناق البعض على الأقل للإسلام، وهذه الحملة من خلال نتائجها تعني أن أصحاب القرار الأوروبيين واقعون في أزمة القرار، فهم من ناحيتهم يذابون ليل نهار لمنع أسلمة أوروبا وللوقوف مقابل هذه الموجة الإسلامية المتضاغدة. فالحكومات والسلطات والكنائس والأحزاب والبلديات كلها تشط في الوقوف بوجه موجة الإسلام. وبينما الوقت فكل تلك الكيانات مضطرة للموافقة على مشروع كهذا يهدف وفق برنامجه إلى التعريف بالمسلمين البريطانيين ودعوة الجميع للتحاور والتعايش. إنهم من حيث لا يدرون يعززون الإسلام في بلدانهم وهم أيضاً مضطرون لتعزيزه، وعلى هذا فلن يكون المستقبل الأوروبي إلا لصالح المسلمين.

٣ - هذه الحملة تدل على وجود مشكلة كبيرة في بريطانيا، وهي معاناة المسلمين هناك من التمييز والفوبيا، وتدل على أن السلطات المتعددة في بريطانيا على الأقل تشعر بعمق الأزمة وباستفحالها وبلغها درجة الذروة. ولذلك تمت الموافقة على حملة إعلامية كبيرة.

احتجاج ركنسٍ على انتشار الإسلام

في وسط ألمانيا وفي باحة الكنيسة الإنجيلية في ساكسونيا عبر رجل الدين المسيحي رولاند ويسيلبيرج عن احتجاجه على تضليل نسبة المسيحية وتحول الشبان إلى الإسلام بانتخاره . حيث صبَّ على جسدِه الكاز وأشعل النار بنفسه . وترك وصية واضحة يقول فيها إنه قلق من الانتشار السريع والمتزايد للمسلمين في ألمانيا ، وأنه كممثل للكنيسة عجز عن منع تلك الظاهرة أو تخفيتها .

وفي احتجاج آخر عبرت الكنيسة البابوية غير مرأة عن قلقها من انتشار الإسلام في أوروبا . وحضرت بشدة بأنها لن تسمح بأن تتحول أوروبا إلى الإسلام .

خوف آخر من المسلمين وليس من الإسلام

إنَّ قسماً من الأوروبيين يعبرُون عن خشيَّتهم من قوة المسلمين أو قدرتهم على التسلُّط على أوروبا . وهؤلاء يُعلنون أنهم لا يخشون من الإسلام نفسه بل من المسلمين ومن تصرُّفاتِهم المحتملة ، وهم يسترجعون ذكريات وأحداثاً ثابتة سمعوا عنها في تاريخهم القديم تتحدث عن معارك طاحنة قتل فيهاآلاف من الأوروبيين . وهم يستشهدون على مخاوفهم بجرائم حديثة ارتكبها المتطرفون كتفجير قطارات مدريد . وهؤلاء يُعلنون عن إعجابهم وفهمهم لـكثير من المفاهيم الإسلامية . إنهم لا يخشون من الإسلام نفسه وإنما يخافون من جرائم كبيرة ووحشية يتبعُون بأن المسلمين قد يقومون بها .

وأمام هذا الواقع يتوجَّب على المسلمين المبادرة بطمأنة المواطن الغربي ، ويتعريفه بسماحة الإسلام مع مواطنيه جميعاً . ويتم ذلك التعريف بتصرفات الأفراد كأداء شخصي وفردي وبأعمال الجمعيات والمؤسسات الإسلامية المتعددة . وفي هذه المناسبة ندعو المتطرفين الإسلاميين لأن يكونوا عامل طمأنينة وسلام وحوار مع الغرب ، وأن يتوقفوا عن تهديد الغرب وعن ارتكاب أعمال إرهابية ترعب مواطنيه . وفي حالات قليلة يتطرق بعض الغربيين إلى الإسلام نفسه ويتهم هؤلاء الإسلام بأنه بجهاديته

يتحمل عبء ما يفعله المتطرفون. ومن الطبيعي أن تحكم على الذين يخشون من المسلمين بأنهم يحملون خشية من الإسلام نفسه، وذلك بسبب عدم فهمهم للدين الحنيف.

مصطلح الفوبيا وعقده الخوف

ابتدع تعبير الفوبيا من الإسلام وأطلق استخدامه في ١٩٩٦ على يد "لجنة المسلمين البريطانيين. والفوبيا من الإسلام." تعني الكلمة أو التعبير "الخوف الذي لا مبرر له من الإسلام" ولكنه يستخدم ليعني "التعصب والتحيز ضد المسلمين" وهو ينضم لمجموعة تزيد عن أكثر من ٥٠٠ نوع من الفوبيا أو المخاوف المرضية التي تغطي كل جوانب الحياة تقريباً.

لقد نال المصطلح درجة من القبول اللغوي والسياسي إلى حد قيام السكرتير العام للأمم المتحدة برئاسة مؤتمر بعنوان "مواجهة الفوبيا من الإسلام" في ديسمبر ٢٠٠٤ فضلاً عن إدانة قمة المجلس الأوروبي للفوبيا من الإسلام. ويعتقد بعض المحللين المسلمين وغير المسلمين في الغرب بأن مصدر الفوبيا والمعاداة والكراهية إنما نشأ من قبل المسلمين الغربيين وأن أبناء الغرب وكردة فعل منهم أخذوا يمارسون معاداة الإسلام والمسلمين، وهي الظاهرة التي أطلق عليها مصطلح الفوبيا الإسلامية.

فقد تحدث الصاندي تايمز عن قيام جماعة حزب التحرير في عملية تشهير داخل الجامعات البريطانية تحت اسم "أوقفوا الفوبيا من الإسلام". وقالت الصحيفة: "يسعى حزب التحرير في بريطانيا إلى فرض القانون الإسلامي على العالم ويتبني هجمات انتحارية ضد الإسرائيليين. وهو بأعماله يواجه التحرير والإبعاد في بريطانيا العظمى".

يطرح هذا المصطلح العديد من المشاكل على الرغم من ذلك. أولاً ما معنى القول إن الخوف من الإسلام "لا مبرر له" بينما يمثل المسلمون الذين يعملون باسم الإسلام المصدر الأول والأساسي للعدوان، سواء اللفظي والبدني، على مستوى العالم

ضد غير المسلمين والمسلمين على حد سواء؟ ما يتسائل عنه المرء هو ما هو القدر من الخوف من الإسلام الذي له مبرر؟

وهناك تحيز وتعصب ضد المسلمين، إلا أن مصطلح "الفوبيا من الإسلام" يخلط ويدمج وبطريقة مخادعة بين ظاهرتين متميزتين: الخوف من الإسلام والخوف من الإسلام الراديكالي المتطرف.

اعتداد المروجون لمصطلح "الفوبيا من الإسلام" على المبالغة والتهويل في حجم المشكلة ويقال إن المسلمين البريطانيين يعانون من التمييز الدائم في دوائر الشرطة.

ومن الناحية الثقافية: يدعى رئيس المدرسة العليا للعلوم الإسلامية والاجتماعية بفيريجنينا طه جابر العلواني أن المسلمين "يواجهون فيضاناً قوياً من الأعمال الأدبية المعادية للإسلام تدعو لكراهية الإسلام، روايات وأفلام وكتب وأبحاث ودراسات. هناك ما يقترب من ألف رواية من هذا النوع من بين فقط الروايات الأكثر مبيعاً." ألف رواية من الروايات الأكثر مبيعاً؟ أمر يصعب تصديقه.

وتتحدث الصاندي تايمز متهمة الإسلامية بتوليد الفوبيا وتكتب: إن تلاعب حزب التحرير بعبارة "أوقفوا الفوبيا من الإسلام" إنما يكشف عن خداع تضليل هذه العبارة. ومن الواضح جداً أن هدف هذه الحملة هو محاربة التحيز والتعصب ضد المسلمين في أعقاب تفجيرات لندن، ولكنها تستشهد بأندوني جليز من جامعة برنيل بلندن في القول بأن جدول الأعمال والأهداف الحقيقية هو نشر اتجاهات معاداة السامية ومعاداة الهندوسية ومعاداة المثلية الجنسية ومعاداة الأنثى، وإثارة الاستياء والفيظ من التأثيرات الثقافية الغربية. وتقول صحيفة الصاندي تايمز في نهاية المقال: على المسلمين أن يتوقفوا عن استخدام هذا المصطلح سبيئ السمعة وأن ينصرفوا إلى دراسة استيطانية جادة لأفكارهم ودوافعهم ومشاعرهم. وبدلًا من لوم الضحية المحتملة على خوفها من جلالها، من الأفضل لهم تأمل الطريقة التي حول بها الإسلاميون المتطرفون إيمانهم الديني إلى عقيدة تحتفي وتحتفل بالقتل (القاعدة التي تقول: "أنتم تحبون الحياة ونحن نحب الموت") وابتکار وتطوير استراتيجيات من أجل خلاص وإصلاح دينهم عن طريق مقاومة وقتال هذه الشمولية.

متطرف يهودي يصف الإسلام بالفاشية

استخدم الناشط المتطرف ديفيد هوروويتز صوراً مزيفة للتدليل بعملية رجم الزانية في الإسلام، في إطار حملته ضد ما يصفه بـ"الفاشية الإسلامية"، في حين أن الصور مأخوذة من فيلم هولندي أُنتج في ١٩٩٤. تم وضع الناشط الأمريكي على رأس قائمة أسوأ الأشخاص في العالم؛ لاستخدامه إحدى الصور الترويجية في حملته ضد الإسلام قائلًا إنها تشير إلى عملية دفن فتاة إيرانية تمهدأ لرجمها.

واعتبر أن هوروويتز يروج للكراببية وال الحرب من خلال حملته المعروفة باسم "أسبوع التوعية ضد الفاشية الإسلامية" في الجامعات الأمريكية. وكان الناشط المتطرف ديفيد هوروويتز، قد أعلن عن عزمه القيام بحملة للتوعية بالفاشية الإسلامية، تستمر أسبوعاً من ٢٢ تشرين الأول ٢٠٠٧ وقال هوروويتز، "سوف تهتز الأمة بأكملها لأكبر حملة احتجاج محافظة في الحرم الجامعي، في أسبوع التوعية بالفاشية الإسلامية، وهي دعوة لإيقاظ الأمريكيين في مائتي حرم جامعي وكلية". هذه هي الفobia التي يواجهها المسلمين في الغرب. والتي يجعلهم يقلقون باستمرار وينشغلون ليل نهار في مواجهة سيل هادر من الاتهامات، بينما عربنا يقفون متفرجين وأحياناً لا تصلهم أخبار ما يحدث في الغرب.

عقدة جنار الحماية عن المسلمين

العرب والمسلمون المغتربون هم وحدهم من بين الشعوب الأخرى الذين يجدون صعوبات في الامتناع بالمجتمعات الغربية رغم أنهم اختاروها وفضلواها عن المجتمعات العربية والإسلامية التي كانوا يعيشون فيها. وهم يمتنعون حقيقة من الانصهار في المجتمعات الغربية. وينفس الوقت فهم جميعاً وبكل فئاتهم وبفضل تجربة الغربية يصفون مجتمعاتنا العربية بالتخلف والفقر وينتقدون كلَّ مظاهرها.

انهم عندما يعيشون في الغرب يتعاملون مع مظاهره وحضارته وفق أسلوب رافض للغرب كله، وهناك يحددون هويتهم الأولى ويتمسكون بكل عناصرها. وعندما

يزورون بلدانهم الأصلية، فانهم ينتقدون المجتمعات الشرقية، ويصفونها بالتخلف الكبير ويتضمنون شخصيات متأثرة بالطابع الغربي. ذلك الغرب الذي يرفضون معاييره ويرفضون الذوبان في مجتمعاته عندما كانوا جزءاً منه. وإن في ذلك تناقضاً كبيراً عند أولئك الأشخاص.

إن العرب والمسلمين الذين قاموا بتدمير مركز التجارة العالمي امتلكوا ميزات وترحيباً في الولايات المتحدة كانت تؤهلهم للعيش المشترك والتساوي مع مئات الملايين من سكانها. وإن تلك الميزات كانت جديرة بأن يجعلهم يتفاهمون مع المجتمع الأميركي كغيرهم، ويعدولون عن تنفيذ الهجوم الكبير. فقد استخدمو كافة الوسائل الحضارية الغربية وربما دخلوا مني التجارة العالمي وانبهروا بعزمةبني البشر الذين استطاعوا تشييده، وانبهروا بقدرة الغرب على تسخير العلم لفائدة البشر. لكن لماذا لم يتمكّف أي واحد من هؤلاء مع المجتمع الأميركي ولم ينصرف ضمّنه؟! ذلك لأنّه أقام جداراً عازلاً بينه وبين الغرب كلّه. وإن المعلمة التي كانت تدرس محمد عطا في معهد الطيران تحدثت عن طالبها وأبدت عدم تفهمها لعمله الانتحاري، وبدت شديدة الدهشة من عمله، بل إنها بدت تعجز عن تصديق قيامه بذلك العمل. وقالت:

"كان طيلة فترة الدراسة ذكياً ونشيطاً ومتعاملأً (أي أنه كان متّفهماً للمجتمع الأميركي) لكنه في الزيارة الأخيرة له حمل شهادته ومضى مسرعاً دون وداع" (أي دون مجاملات طبيعية).

وبهذه الكلمات تعبّر تلك المعلمة عن شيء لم تفهمه في حينه ألا وهو الجدار الذي كان ينصبه محمد عطا ليظل باستمرار حاجزاً بينه وبين المجتمع الأميركي. بل إن تدميره لمركز التجارة العالمي، والأحداث الأخرى المشابهة لها خير دليل على وجود هذا الجدار عند كثير من المتطرفين. للتأكيد نقول: إننا نتحدث عن ظاهرة نعتقد بوجودها عند بعض المسلمين وليس كلّهم.

عندما جاءت الرسوم الكاريكاتورية من الدانيمارك لم يجرؤ أحد من المسلمين على التحقّق في تلك الرسوم، رغم أن ذلك العمل كان سيعطي فوائد عامة في فهم

ذلك الحدث وذلك الاعتداء. هل جاء أحد من المسلمين إلى تلك الرسوم وأجرى عليها دراسة فنية ودراسة نقدية كاريكاتورية خاصة بذلك الفن، وتلك الدراسة كانت ضرورية ولاشك. لكن المسلمين بشكل عام أجمعوا على منع إظهار تلك الرسوم ومنع نشرها واكتفوا باغلاق جميع الأبواب. بل واعتبروا كل اجتهاد أو تحليل جريمة محرّمة. وهنا وضع المسلمون جدار حماية لاضرورة له. لقد تجرأت صحيفة أردنية وأدرجت بعض الرسوم الكاريكاتورية تلك وقامت بالتعليق عليها وبانتقادها، وكان ادراجها كانوع من الإيضاح، ورغم ذلك فقد حكم على الصحيفة وعلى رئيسها. وتم تجريمه. ولعل هذا الحظر وهذا المنع هو جدار الحماية الذي يعتبر كل المسلمين أطفالاً ويخشى على انزلاقهم في الكفر والردة. لكن المسلمين ليسوا كذلك على الاطلاق. صحيح أنه تم الاتفاق على منع نشر الرسوم الكاريكاتورية لكن وبينما الوقت فان نسبة الذين رأوها تزيد عن ٤٠ % من عدد المسلمين في العالم كله، ورغم ذلك لم يتأثروا بها. أي أن لا خوف حقيقي عليهم من رؤيتها، ولا خوف حقيقي من نشرها. لكننا نرفضها من منطلق آخر وهو صدورها من الجانب الغربي ك موقف طائفي معاد للإسلام والمسلمين. وموقف استفزازي وتحدى سافر لليار ونصف المليار من المسلمين.

لماذا نقيم جدار الحماية؟

نحن اليوم أقل افتتاحاً على الآخر مما تنص عليه الآيات القرآنية الكريمة، ونحن أقل افتتاحاً من مواقف وتعليمات رسولنا الكريم محمد عليه السلام. فالقرآن يتحدث في آيات كثيرة عن المسيحية ويخصص سورة كاملة باسم سورة مريم عليها السلام ويدرك المسيح باسمه خمساً وعشرين مرة. والرسول الكريم حاور المسيحية وأوصانا بها خيراً.

الإسلام وتعاليمه منفتح على الآخرين كل الانفتاح، فالقرآن نفسه يعرّفنا بالآخر الذي هو يهودي ومسيحي ووثني. وتروي لنا الآيات القرآنية الكريمة أخبار وتاريخ تلك الشعوب، وتطلعنا على عقائدها. وهذا افتتاح واسع على الآخر، وهو

يفيدنا في عدم الخشية منه وفي حمل الجرأة على مناقشته ومحاورته والتعرف على أموره وعقائده. ويأمرنا القرآن الكريم والرسول بالسفر والسعى والتعلم والعمل في كل بقاع الأرض. يقول الرسول العظيم: ".. اطلبوا العلم ولو في الصين.." وهذا الحديث يحمل ضمناً أمراً بالتعامل الطبيعي مع الآخر دون وضع جدار حماية وأن يذهب واحد من الجيل الإسلامي الأول إلى الصين ليقيم فيها ويتعلم أحد علومها، فذلك يعني أن يتكيّف مع الأفراد الذين يعيشون معهم طوال فترة إقامته هناك، بشرط أن يتلزم بعقائد الإسلام وشرائعه فحسب. وإن الفاتحين المسلمين الأوائل الذين دخلوا بلاد الشام وشمال أفريقيا وأوروبا وبلاط آسيا، كان همّهم الالتزام بالإسلام ونشره بين الشعوب، وبينفس الوقت فقد كانوا يواافقون على اقتباس كل ما يرونونه جديداً ومفيداً ولا يتعارض مع عقيدتهم. وكانوا أيضاً قابلين للتكيّف مع المجتمعات الجديدة التي أقاموا فيها. فالخلافة الأموية التي كان مركزها دمشق، وزادها رها الكبير آنذاك إنما حصل بفضل عوامل عديدة، وكان من بينها: اعتماد الإسلام كمنهج وعقيدة وقوانين حكومية. وثانيهما هو الاستفادة من كافة خبرات وتجارب حضارات تلك الشعوب التي امتنج بها المسلمين وتكيّفوا معها في الشرق والغرب والشمال والجنوب. فبلاد فارس لم تتحول آنذاك إلى نموذج للسلطة الإسلامية التي كانت في مكة والمدينة. بل بقيت بلاد فارس بكل خصائصها وزاد على تلك الخصائص التزام مواطنيها بشارع الإسلام. وكذا بلاد الأندلس وشمال أفريقيا وغيرها، فقد ظلت كافة تلك الشعوب ملزمة بصفاتها الاجتماعية وعاش معهم العرب الفاتحون وفق أنظمة وعادات تلك الشعوب، وبينفس الوقت تحولت بالإسلام. ولم يكن المسلمون الأوائل يتمنّون عن التكيّف في المجتمعات الجديدة، ولم يضعوا جدار حماية بينهم وبين تلك الشعوب كما يفعل اليوم بعض من المسلمين بابل وبفضل ذلك الانفتاح الكبير استطاع الفاتحون الأوائل نقل الإسلام إلى تلك البلدان الكثيرة. وإن الانفتاح على الآخر بغية فهم مذهبه واعتقاده يتطلّب من المسلم أن يفتح ذهنه لفهم الآخر. وهذا يتضمّن منح الآخر فرصة التعبير عن مذهبته أو ديانته أو فكره. وهذا يوجّب علينا أن نستقبل كل المعلومات التي توجه إلينا استقبلاً طبيعياً، لأن قطع هذا الاستقبال سيؤدي إلى قطع الحوار كلّه. وعندئذ يقام الجدار بيننا وبين

الآخر، وتحدث القطيعة ونخسر ثمرات كبيرة كنا سنحققها من الحوار الحقيقي معه. فلربما كان سيضم موقفه إلى موقفنا ولربما كان سيتحول إلى الإسلام عندما يكون الآخر غير مسلم.

فهم الآخر بـ**بطء** جدار الجماعة

إننا لن نتوصل إلى فهم الآخر أبداً إذا أقفل المتحاور ماكينة المعالجة الذهنية بكل ما هو مرتبط بالمذهب الآخر أو الدين الآخر. فلا يمكن أن نكتفي باستقبال المعلومة المرسلة إلينا. بل يتوجب علينا أن تعالجها في أذهاننا معالجة صادقة وحيادية ومعالجة حرة:

مثل ذلك قول أهل السنة بأن الشيعة يصلون على القرص، وهذا القول يحمل عند السنة وتصدر معاني وثنية يتم اتهام الشيعة بها، إذ يفهم البعض بأن القرص هو الهدف!! وهنا ندخل في الخلافات والاتهامات. لكن يتوجب على السنّي أن يسعى لفهم الرأي الشيعي بهذا القرص، عسى أن يقلل ذلك من المشكلة والاتهام. وفي محاولة التعرف على المسيحية يجب على المسلم أن يتغاضى بأداء الأمر عن عقيدة الثالوث المسيحي. وأن لا يجعلها جداراً منيعاً يعيق تحاواره مع المسيحية. وفي مشروع لحوار الإسلامي المسيحي يتعمّن على المسلم هدم الجدار المعيق لهذا الحوار والذي يشمل تاريخ الاستعمار الغربي للبلدان الإسلامية. وأعمال جنود الغرب الأخيرة في العراق وأفغانستان، هذا إضافة إلى عقدة الماضي القديم الذي اندر في المسلمين عن أوروبا. فإذا استمر الشخص باعتبار أوروبا عدواً لن يتسمى له الحوار مع أي غربي على الإطلاق. بينما حين نتزع هذا الرأي من أذهاننا يتيسّر علينا المحاوره والتوصّل إلى نتائج مفيدة. فتحن نلاحظ أن في الغرب الكثرين ممن يعتقدون الإسلام. وهذا خير دليل على إمكانية التحاوار مع الغرب.

نتائج جدار الحماية

إن خوف المسلم وخشيته من التعرف على فكر الآخر جعله ينصب جداراً يمنع حدوث أي تمازج فكري معه. وبالتالي فقد أصبح هذا الآخر مجهولاً وغير معروف في ذهن هذا الشخص وأصبح من السهولة قبول كل الأطروحات الطائفية التي تتهم الآخر. وعلى هذا فإن كل مسلم وافق على تصديق الفتنة الطائفية بين السنة والشيعة، وقام باتهام المذهب الآخر وتکفیره، إنما فعل ذلك بسبب جهله بذلك المذهب وبعقيدة أتباعه. ومن هنا توجب علينا جميعاً أن نتعرف بديمقراطية فكرية على المذاهب الإسلامية وعقائدها بهدف الاستئارة والتواصل. وبهدف أن يشعر كل واحد منا بالانتماء إلى الإسلام الواحد.

اليهودية في الغرب لاقى جدار حماية ولذلك استطاعت أن توغل في أعماق الحياة الاجتماعية الغربية كلها. وفي أعصاب السياسة والاقتصاد والمال وغيرها بـ تدخلت في خصائص العقيدة المسيحية.

جدار الحماية يمنع أو يحد من تعرف الآخرين على الإسلام وبالتالي يتعدّر فهم الإسلام وتقبله عندهم. ولو أننا لم نكن نقيم هذا الجدار لكان الإسلام سيحقق انتشاراً واسعاً في البلدان الغربية. فقد استطاعت اليهودية أن تتدخل في الديانة المسيحية وتتشاءم منها دينياً عالمياً جديداً، وهو المسيحية الصهيونية التي انتشرت في الولايات المتحدة وأوروبا. حدث هذا رغم أن اليهودية ديانة محروفة ومشبوهة وضعيفة، ولعلَّ أعظم عقائدها هي هيكل سليمان وأرض الميعاد والمحرقه وحرق القرابين. فيما نحن المسلمين نمتلك ديانة موسوعية في كل المجالات المعرفية، ونمتلك جداراً في إيصال الإسلام إلى كافة البشر.

حقيقة جدار الخوف عن المسلمين

تكون جدار الخوف عند الأفراد من خشيتهم على أن تؤدي الأفكار الأخرى الجديدة (التي قد تدخل أذهانهم) إلى تغيير مذهبهم أو عقيدتهم أو دينهم. وبينفس

الوقت فإن مشايخ وفقهاء المذاهب الإسلامية يعمدون عادة إلى توليد هذه الخاصية في أذهان المسلمين ويعتبرونها الجدار الواقي والحافظ للعقيدة الدينية عند الفرد وفق الدين والمذهب. وقد ازدادت متانة هذا الجدار حتى أصبحت التربية البيتية والمدرسية تعززه وتقوي أساسه، ونتج عن ذلك أن ابتي الفرد بطبع يمنعه من قبول أي جديد. وإن الأحداث التاريخية الكبيرة (ومن بينها ظاهرة الاقتتال بين السنة والشيعة في العراق) تعزز هذا الجدار.

تطرف عن المسلمين الأوروبيين

ليس من الإنصاف أن نحكم على المسلمين الأوروبيين عموماً بالتطرف، فمنهم المتحضرون المتفهمون للحياة الغربية ولصفاتها المتوعنة. لكنَّ الصورة العامة ل الإسلامي الغرب قائمة وتشير إلى تفاقم التطرف.

يقول أحد الباحثين المسلمين: "رأيت نساء منقبات في شوارع لندن أكثر مما أراه في شارع بيروت أو دمشق". وإذا نظرنا إلى هذه الصورة من باب الحماس الديني فإننا نستبشر بها خيراً، ولكن من الوجهة الإسلامية نفسها يمكن القول بأن النقاب ليس من الإسلام بل هو من الموروث التاريخي والثقافي الذي يسيء إلى الإسلام وصورته، وعلى هذا فنحن لأنرجوه لمجتمعاتنا العربية فكيف نوفق على انتشاره في الغرب؟ وكيف نسمح بأن يقوم مسلمون غريبون بتشويه صورة الإسلام هناك؟ تتحدث باحثة غربية مسلمة عن ظاهرة ازدياد المنقبات وتقول:

"تحدث إلى الكثير من أولئك المنقبات بأن النقاب ليس من الإسلام وأن لا ضرورة لارتدائه، فسمعت تعليقاتهن، فكانت الكثيرات منهن يدركن بأنَّ النقاب ليس من الإسلام، ورغم قناعتهن تلك فهن يتزمن به كرمز مميَّز وكمواجهة تحدِّ للمجتمع الغربي."

لقد نقل المسلمون الغربيون من بلدانهم الأصلية عناصر كثيرة كافية لجعلهم متطرفين:

نقلوا الموروث الثقافي الدخيل على الإسلام وجعلوه إسلامياً وتشددوا في التمسك به. ونقلوا الصراعات الفكرية الكثيرة التي ينشغل بها العرب والمسلمون، ونقلوا مبدأ العداء للغرب وعاشوا في الغرب كأعداء داخليين لمجتمعه.

ولما أصبحوا أصحاب حقوق مدنية كافية راحوا يتحدون قيم تلك المجتمعات بطرق بشعة لا يستطيعون هم أنفسهم فعلها في بلدانهم الأصلية الإسلامية. فهذا يصرّح بأمله بأن يعود الجنود البريطانيون من العراق مغلفين بأكياس نايلون. وأخرون يطالبون بمدارس إسلامية تعلم اللغة العربية (و- أو الباكستانية)، وأخرون يطالبون بتخصيص مساجد داخل المدارس والجامعات وأماكن العمل.

حكمة للمحاورة بذهن منفتح

عندما نشاهد برنامجاً وثائقياً أو علمياً وعندما نقرأ في مقرر مدرسي أو جامعي فقد اعتدنا على استقبال الفكرة كما هي ونقوم بحفظها في ذاكرتنا بشكل طبيعي. وإننا في كافة المحاورات العامة نعرض أفكاراً ومعلومات كنا قد حفظناها في ذاكرتنا. كما ونتلقى بيسر معلومات جديدة ونقوم بحفظها في ذاكرتنا. وعندما تأتينا معلومة مذهلة، فإننا نقوم بمحاكمتها بمنطق وبحريّة، وسنصل إلى نتيجة مفيدة على الفور. فان اقتتننا بهذه المعلومة الجديدة سنقوم بخزنها في ذاكرتنا ونعتبرها معلومة جديدة وجديرة بالاقتناء. لكننا أثناء المحاورة المذهبية أو الدينية مع الآخر، نقوم بمنع دخول أية معلومة جديدة، ونطبق الباب كي لا تدخل إلى أذهاننا معلومات عقائدية تتعلق بالمذهب الآخر. وبالتالي فلن نجري أية محاكمة منطقية لأية فكرة جديدة أو لفكرة ليست مخزونة في ذاكرنا. بل إن الكثير من المسلمين يقومون باستمرار بإغلاق دائم للذواكر المتخصصة بالأمور الدينية والمذهبية، وهذا الإغلاق والإغفال المستمر لا يسمح بدخول أية فكرة جديدة أو عابرة حتى لو كانت أحياناً تتفق مع عقائد مذهبهم نفسه. والذهن المنفتح هو الذي يجعل من المحاورة ممكنة ومفيدة. بينما الذهن المنغلق يجعل المحاورة عقيمة وغير مجده. وعند الكثير من المسلمين رفض آلي للكثير من القضايا الجديدة، وهذا الرفض يصدر عندهم

آلياً أي بدون تفكّر وبدون دراسة، فإذا اقتربت الآن على القراء اقتراحاً ربما سيحكم البعض على الفور بتحريمها، مارأيكم يا سادة ؟ إذا تحجبت المرأة وفوق الحجاب ارتدت باروكة شعر مستعار وخرجت إلى الشارع هل تكون متوجبة أم كاشفة ؟ الإجابة تتطلب التفكير والتمعن بالقضية قبل النطق بحكم آلي سريع فليس كل مسلم حاكم بأمر الله.

الميل لنظريات المؤامرة على الإسلام

في كل البلدان التي تم مسح آراء المسلمين فيها لم تر أغلبية المسلمين أن العرب هم الذين قاموا بهجمات الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ على أمريكا. تراوحت النسبة المئوية لمن يرى من المسلمين أن العرب هم من قاموا بالهجمات من مجرد ١٥٪ في باكستان إلى ٤٨٪ من مسلمي فرنسا. وما يؤيد تسامي الاتجاهات السلبية في تركيا أن عدد الأتراك الذين يتهمون العرب انخفض من ٤٦٪ عام ٢٠٠٢ إلى ١٦٪ عام ٢٠٠٦. في كلمات أخرى، ترى الأغلبية في المجتمعات الإسلامية العشرة أن الحادي عشر من سبتمبر كان خدعة ومؤامرة دبرتها وارتكبها الحكومة الأمريكية وإسرائيل أو جهات أخرى.

وبالمثل ينتشر التعصب والتحيز ضد اليهود انتشاراً واسعاً بين المسلمين، حيث تراوحت الأحكام السلبية والمعادية لليهود ما بين ٢٨٪ لدى المسلمين الفرنسيين إلى ٩٨٪ في الأردن (التي بالرغم من اعتدال الحكم الملكي بها إلا أن أغلبية سكانها من العرب الفلسطينيين). بالإضافة إلى ذلك ينظر المسلمون في بلدان بعضها (خاصة مصر والأردن) إلى اليهود بعين تملوها الريبة ويرونهم مسئولين عن العلاقات السيئة بين المسلمين والغربيين.

وتمتد نظريات المؤامرة إلى قضايا وموضوعات أكبر. عند سؤالهم "من هو المسئول في المقام الأول عن الفشل في تحقيق الرخاء الاقتصادي في الأمم الإسلامية؟" ألقى اللوم ما بين ١٤٪ (في باكستان) و ٤٣٪ (في الأردن) على سياسات أمريكا والدول الغربية الأخرى بدلاً من إلقاء اللوم على المشكلات المحلية الداخلية.

عِبَادَةُ مُسْلِمٍ الْغَرْبُ لِلْغَرْبِ وَقِيمَتُهُ

ومن أغرب ما يتصف به مسلمو الغرب هو عداوهم المعلن للغرب كله ولقيمه. بينما كان يتوجب عليهم أن يكونوا وسيطاً فكريأً وسياسيأً بين الغرب باعتبارهم أبناءه، والدول الإسلامية التي تمت لهم بصلة عديدة. وأن يكونوا ناقلين للجوانب الحضارية الغربية وناشريها في البلدان العربية والإسلامية.

إنهم بدل ذلك يختلفون مشكلات عديدة مع الغرب، فالمجتمع الغربي منفتح مع المسلمين ومتسامح وتضمن قوانينه العلمانية كافة حقوق المسلمين وغيرهم. ويتعامل الغرب بشفافية مع المسلمين وغيرهم. ليست هناك مشكلة دينية أو اجتماعية ل الإسلامي الغرب بل هناك مشكلة سياسية برزت مع تطور الأحداث.

لقد استقاد المسلمون والإسلاميون الأتراك من مجاراتهم للغرب ومن تعاملهم معه وانحلوا منه منهجاً عملياً في التفكير والأداء الديني ووصلوا بواسطته إلى السيطرة على تركيا حكومة ورئاسة وجماهيرياً. ويضاف إلى ذلك رضا الغرب كله على نهجهم العلماني.

فالجاليات الإسلامية في الغرب بشكل عام لا تمتلك تقنية التفهم والعيش مع الغرب، بل هي تعمل بطريقة التحدى والمواجهة له ولقيمه مستقيدة ومستغلة في تلك المواجهة تسامح الغرب نفسه. فالحجاب والنقاب المنتشر في الغرب هو نوع من التحدى أكثر من كونه تدين والتزام. وقد أكدت باحثة ميدانية أنها أشاء لقاءاتها مع الكثير من المنقبات في الغرب عبرن لها عن عدم افتاعهن بشرعية النقاب، وأنهن إنما يلبسنها بهدف آخر، ذلك هو هدف إعلان الهوية والتميّز والتحدي للمجتمع الغربي. ترى مانوع هذا التحدى؟ إنه بلا شك يحمل في أحد أشكاله التحدى العنصري والطائفي.

تحدي الثقافة الأوروبية

ومن بين طرق التحدي التي يتبعها مسلمو الغرب تحديات كثيرة متعددة الجوانب للثقافة الأوروبية. فبعض المشايخ الأوروبيين يحرّمون تعلم اللغات الأوروبية ويعتبرونها لغة العدو ولغة الاستعمار. كما يصرّ هؤلاء على إلقاء خطبهم في المساجد باللغة الأم (عربية وباكستانية وأردو) ويتمتنعون عن تعلم واستخدام اللغات الأوروبية. أظهرت دراسة أجرتها جامعة تشيستر على ٣٠٠ مسجد في بريطانيا أنّ أئمّة المساجد يفتقرن إلى المهنية والمؤهلات اللغوية للتصدي لانتشار "الطرف" في صفوف الشباب البريطاني المسلم. وأنّ ٨٪ فقط من أئمّة المساجد، ولدوا في بريطانيا. وأنّ ٦٪ فقط من أولئك الأئمّة يتحدثون اللغة الإنجليزية باعتبارها لغة التحدث الأولى. وأن جيل المهاجرين الأوائل هو المسيطر على إدارة المساجد البريطانية. وقال البروفسور رون جيفز إن هدف الدراسة هو البحث في أهلية أئمّة المساجد للتكييف مع ثقافة بريطانيا المعاصرة. وطالب اللورد أحمد بمنع الأئمّة الذين لا يتحدثون باللغة الإنجليزية، أو لا يفهمون الثقافة البريطانية من الممارسة. وقال الدكتور أسامة حسن إمام مسجد في لندن أن عدداً من المساجد لا يلبّي حاجة المسلمين الذين ولدوا ونشأوا في بريطانيا.

وتكثر مظاهر تحدي المسلمين للثقافة الأوروبية إذ يخطب أحد المشايخ ذات جمعة ويقول: "النساء الكاشفات واللحم المكشوف يحرّض الكلاب الجائعة". أنسى ذلك الخطيب بأنه يعيش في بلد غربي كافة سكانه تقريباً لا يرون عيباً في كشف جسد المرأة؟

مطلع المصالحة مع المسيحية

اعتقد الباحثون الإسلاميون استخدام هذا المصطلح انطلاقاً من الحروب الصليبية القديمة، والتي يعتبرها المسلمون صراعاً دينياً بين الإسلام والمسيحية. والحقيقة أن تلك الحملات لم تكن تحمل طابعاً مسيحياً صرفاً. ولم تكن حرباً

مسيحية على الإسلام بالمعنى الكامل للكلمة. فقد اعتاد الأوروبيون منذ عهد الرومان التطلع إلى بلاد الشرق وتوسيع نفوذهم نحوها، وكانت الحروب الصليبية نوعاً من ذلك التوسيع. وفي حملات نابليون على مصر تقول الوثائق الفرنسية العديدة إن نابليون نفسه كان يحمل حلماً منذ نشأته، وهو تطلعه نحو الشرق ونحو تلك الآثار الفرعونية العريقة، إضافة لتطوره لتوسيع النفوذ الفرنسي في أوروبا نفسها. ومن ذلك أنه قام باحتلال أجزاء كبيرة من دول أوروبا المسيحية نفسها.

ثم إن المسيحية العربية التي حافظت على تحالفها مع المسلمين طوال العصور الماضية، هل نتصالح معها ونحن متصالحون دائمون؟^{٥٦}.

كان يتوجب علينا أن ننسى الحروب الصليبية منذ لحظة خروج الجنود الأوروبيين آنذاك. فتلك معركة انتهت وطواها الزمن. أما أن نقيس كل المستجدات الحديثة بناء على تلك الحروب القديمة فلن نتحقق من ذلك أيةفائدة.

ففي عصرنا غزا الأميركيون العراق لهدف واحد وهو خدمة إسرائيل. ثم بدأت حملاتهم على إيران لخدمة إسرائيل لالخدمة المسيحية. وإن إسرائيل نفسها قامت في أرض عربية ككيان قوي بفضل قوة وخبث المنظمات الصهيونية، لابد من مسيحي ولا يرضى المسيحية نفسها.

تصوير الغرب على أنه محارب الإسلام

بين المسلمين والغرب إشكاليتان ثقافيتان متبادلتان ومتلاقيتان في آن معاً. فالمسلمون يصوّرون الغرب على أنه خصم معاد للإسلام. والغرب يصوّر المسلمين على أنهم هم الخصم المعادي للإسلام. ولهذين التصورين حضور تاريخي طويل ومستمر وهما يشكلان أحد أسس الخلاف والصدام بين الطرفين. ومن الممكن أن يتجاوزا هذين التصورين بسهولة وتجد في الغرب أفراداً تعايشوا مع مسلمين أو تزوجوا معهم أو اعتقووا الإسلام وهؤلاء بالطبع استطاعوا أن يقضوا على ذلك التصور المعادي للمسلمين.

لا يتوقف المسلمون عن ابتداع النظريات والطروحات التي تؤكد معاداة الغرب للإسلام. بل يتوقف المسلمون عند كل صغيرة وكبيرة في علاقتهم بالغرب،

فمسألة الحجاب في فرنسا كتب عنها الإسلاميون ملابس الصفحات وما زال الباحثون الإسلاميون يقفون عندها باستمرار. وقد وضع أحدهم كتاباً كبيراً بالفرنسية يعرض لفصول القضية وأبعادها. ويعتبر المسلمين عموماً أن كل من يكتشف جذور فتنة غربية تدل على عدائهم للإسلام مبدعاً وسباقاً وفي الوقت نفسه فالمسلمون ينشغلون برفض الحادث إعلامياً وخطابياً وكلامياً.

وفي شباط ٢٠٠٧ ابتدأت إسرائيل بحفريات تحت جدار الأقصى. ومنذ لحظة دخول الجرافات الصهيونية، قامت الفضائيات العربية بتحريض الشارع الإسلامي على الاستكثار، فاشتعل الاستكثار وتضخم وقيل في ذلك الكثيروكتب عنه الكثيروسيكتب عنه إلى ماشاء الله. لكن بعد مضي أشهر على ذلك الاعتداء على المقدسات الأثرية الإسلامية ماذا فعل المسلمون؟ لاشيء بالطبع. وهذا يعكس المنهجية العربية المتوارثة والتي ترتبط باللغة العربية نفسها، من حيث إنها لغة إطناب خطابة وجمالية. فكان الرد العربي والإسلامي لغواً، وخطابياً فصحيحاً، تماماً كحصول التاريخ الإسلامي القديمة، حيث أبدع الفقهاء والمدونون بتحليل ماتم تحليله ثم بنقد التحليل الجديد، ثم بانقسام الرأي حول النقد نفسه..الخ.

والغرب هو بشر وكيانات ومؤسسات بشرية مدنية، ويمكن التحاور معها والتوصل بالحوار إلى نتائج مرضية في كل صغيرة وكبيرة، ويستطيع المسلمون مؤسسات وأفراداً وهيئات وحكومات أن يتحاوروا مع الغرب بهدف إيجاد حلول للمشاكل الطارئة. كمشكلة الحجاب الإسلامي في فرنسا، مثلاً، ولكن لجوء البعض إلى تصوير الغرب على أنه العدو القديم وال دائم للإسلام والمسلمين، والاكتفاء بهذه الإجراءات كسياسة إسلامية ثابتة، فذلك لا يجدي نفعاً. بل يزيد من حدة الخلاف بين الإسلام والغرب.

فالغرب في الحقيقة ليس عدواً للإسلام، والمسيحية ليست عدوة للإسلام. بل إن سياسة أغلب حكام الغرب الحاليين تؤدي إلى العدائية للإسلام. وإلى توظيف المسيحية وتسويتها فذلك يسير في سياسة العدائية للإسلام.

تصوير الإسلام على أنه معاد للغرب

وفي الغرب وبسبب أحداث السنوات الأخيرة تم تهويل صورة مفترضة وهي تشير إلى العدائية الإسلامية التاريخية للغرب المسيحي. وتم تهويل حجم الخطر الإسلامي المفترض فرأى الساسة بأنه شيوخية جديدة وحلف قوي جديد يهدد الغرب تهديداً حقيقياً. وتقوم الصهيونية بتهويل صورة الإسلام وبجعله خطراً كبيراً على الغرب كله. كما تنشط بعض الكنائس المسيحية الصهيونية بتخويف أبناء الغرب من الإسلام وال المسلمين. وبحقراة سليمة للحدث السياسي الحالي نكتشف أن الغرب بكل قوته ووسائله لا يحارب إلا المسلمين. ولا ينكشف إلا بهم وبيدهما. فالغرب يتدخل بسلاحه وعتاده العسكري الضخم في مناطق إسلامية كثيرة ولا يتدخل في مناطق غير إسلامية على الإطلاق.

والحقيقة أن الإسلام نفسه كشريعة وفكرة ديني لا يمتلك بداخله أي نوع من العدائية تجاه أحد بل هو يحمل لجميع البشر غصن الزيتون، ولا يمكن أن تستبط من الإسلام أو من القرآن الكريم أو الحديث النبوي مفاهيم تشريع للمسلمين العداء للغرب. بل سنجد فيها ما يدعونا للتعاون مع الغرب وال الحوار معه. واعتماداً على مفهوم معاداة الغرب للإسلام نجح المسلمون في خلق مصطلح جديد، وتمت إضافته إلى القواميس اللغوية والموسوعات السياسية العالمية وصرنا نسمعه في كل يوم، وهو مصطلح إسلاموفobia، والذي يعني كره الإسلام وممارسة العدائية ضد الإسلام. كما ويسعى المسلمون في الغرب إلى إصدار قوانين حكومية تجرم من يمارس الإسلاموفobia. وقد أصبح هذا المصطلح في الغرب معادلاً لمصطلح معاداة السامية. إلا أنَّ معاداة السامية تعتبر جريمة يحاكم كل من ثبتت عليه.

وفي الثامن من أيلول تحدث بابا الفاتيكان (بنديكتوس) عن ضرورة إبقاء أوروبا محافظة على مسيحيتها، وأنج إلى ضرورة منع أسلامة أوروبا. ويندرج هذا الخطاب ضمن سياسة اعتبار الإسلام معادياً للغرب.

ويتحدث الكثير من الغربيين هذه الأيام عن تصوراتهم بأن الإسلام والمسلمين هما العدو الأوحد للغرب. وتلك تصورات تدل على جهلهم بالإسلام وعلى قلة معرفتهم بال المسلمين وبال تاريخ الإسلامي. وتدل أيضاً على حالة مرضية حقيقة في ثقافة وفي عقول هؤلاء المتحدثين. إنهم مرضى حقيقيون، وإن وجدنا بينهم الساسة والحكام والقادة ورجال دين مسيحيين فذلك ثقافة مرضى.

ظلّ هذا المرض متوازناً في أوروبا منذ العصور الوسطى. حين كان ينظر إلى المسلم على أنه الغول الهالك والمدمر والمعطش للشهوات. وقد ظهرت تلك الرؤية الغربية في الأدب الغربي الوسيط وفي الفنون وغيرها، واستمرت في بعض النتاجات التي تلتها وهاهي تعود للظهور اليوم بشكل واسع النطاق.

ظاهره الاحتجاج على المنهج الإسلامي

هناك حركة من السخط والهيجان أخذت في التململ، في أوساط النخب الأوروبية، وبقدر أكبر بكثير داخل الأوساط الجماهيرية التي تحتاج بصوت أخذ في الارتفاع أمام التطورات الجارية. هذا الشعور عبر عنه بالخصوص القانون الفرنسي ضد الحجاب، وعبر عنه التبرم الذي أثاره تطبيق نفس القوانين على الرموز الدينية المسيحية كذلك، كما يعبر عنه الإصرار على تقديم الخمر في العشاءات الرسمية. ويدذكر أنه في العديد من المدن الفرنسية في بداية سنة ٢٠٠٦ تعمّد توزيع الشوربة بلحم الخنزير على الفقراء، وبهذا يتم إقصاء قراء المسلمين عن سبق نية وتعتمد من تلك المعونات الغذائية.

كما عبرت الكنيسة البابوية في (آب ٢٠٠٧) عن قلقها الكبير بسبب ظاهرة المد الإسلامي الذي يغزو أوروبا، وأكَّدت بأنها عازمة على التصدي له بالحوار بين الطوائف المسيحية نفسها وبين المسيحية وال المسلمين.

كما عبر عنها كبار السياسة في الغرب ومنهم جورج بوش الذي قال: لقد أصبحت ظاهرة التطرف الإسلامي عالمية وتفشت في العالم كله ويتوجب علينا أن نسلم بتفشيها ونتعامل معها وفق ذلك.

وقد ناقش البرلمان الأوروبي مرات عديدة ظاهرة المد الإسلامي داخل الاتحاد الأوروبي... واقتصرت إجراءات وقوانين تحدّ منها.

الرؤية الغربية الكاذبة حول الإسلام

انتشار الإسلام باكتساح المالك النصرانية ودخول كثير من النصارى الإسلام عن رغبة وحرية في اعتقاده، تلك حقيقة لا يعترف بها الغرب. يزعم الأوروبيون دوماً بأن الإسلام انتشر بالنار والسيف ومع بطلان هذا الافتراء تاريخياً إلا أن هذا الاعتقاد ما زال موجوداً لدى البعض. وقد توجهت أوروبا إلى الطعن في نبي الإسلام حتى إن المستشرفة الألمانية كتبت تقول: "لم يعرف التاريخ شخصية أثارت من الخوف والكراهية وحتى الاحتقار في الثقافة الغربية أكثر من شخصية محمد(صلى الله عليه وسلم) في العالم النصراني وحتى دانتي في (الكوميديا الإلهية) عبر مما يشعر به عدد كبير من النصارى في القرون الوسطى" هذه النظرة ما تزال قائمة والدليل على ذلك ما كتبه سلمان رشدي واحتفال أوروبا به وتكريمه. حتى عندما قالت أنا ماري شميل أن ما كتبه رشدي آذى مشاعر ملايين المسلمين، انطلقت نيران الانتقاد لها في ألمانيا مما يبرهن أنه حتى في عام ١٩٩٥ ما يزال من غير الممكن سياسياً بل ومن المحظور إظهار أي تعاطف وتقدير للإسلام." العقلية الغربية ترى أن أوروبا هي مركز العالم وأن جذور الحضارة الأوروبية تعود إلى اللاتين واليونان متجاهلين تماماً التأثير الإسلامي مقنعين أنفسهم أن حضارتهم أو ما يطلق

عليه مشروع التحديت هي الأفضل وهي قمة الحضارة ولا بد أن تسود العالم. إن العقلية الصليبية مستيقظة جداً وحية. وما زالت تحكم بموروث الغرب في موقفه من الإسلام. وهي التي تفسر الإمبريالية الثقافية التي ظهرت في كتابة فرانسيس فوكو ياما وصموئيل هنتجتون. وتتلخص نظرتهم بأن العالم الإسلامي سوف يختفي عاجلاً أو آجلاً أو يصبح هامشياً، وهذه الأفكار يمكن أن نعيدها إلى تفكير ما يسمى عصر التصوير الأوروبي.

مصطلح التهديد الأوروبي للغرب

يستخدم بعض المحللين الغربيين مصطلح التهديد الأوروبي للغرب، انطلاقاً من أن المسلمين الأوروبيين باتوا يهددون الأمة الأوروبية. ويسأل دانيال بايس قائلًا: "متى يصبح التهديد الأمني في أميركا الشمالية وأوروبا الغربية خطراً داخلياً؟"

ويقول الخبير في شؤون القاعدة روهان غوتاراتا إن الهجمات الرئيسة التي وقعت في العقد الماضي في الغرب كانت جماعتها من تنفيذ مهاجرين ما عدا تفجير أوكلاهوما سيتي في ١٩٩٥. ولعل نظرة عن كثب تكشف أن هؤلاء لم يكونوا أي نوع من المهاجرين، بل مهاجرون من خلفية محددة: فمن الـ ٢١٢ مشبوهاً وإرهابياً محكوماً (بأعمال إرهابية) بين ١٩٩٣ و٢٠٠٣، ٨٦ في المئة منهم كان من المهاجرين المسلمين، والباقيون غيريين معتقدون جدد للإسلام.

وفي ألمانيا تم القبض على أربعة أشخاص انهموا بالتحضير لعمل إرهابي كبير يرتبط بالقاعدة. وقيل إن ثلاثة منهم هم من أصل ألماني مسيحي اعتنقوا الإسلام منذ وقت قريب وتحولوا إلى معادين للغرب نفسه.

والغرب اليوم لا يحصر خشيته من التطرف الإسلامي القادم إليه من الخارج، بل هو يخشى مسلميه الذين هم قسم من بنية العامة. وإن النسبة الأكبر من هؤلاء المسلمين الذين يقلقون الغرب هم من أصول غربية مسيحية. فقد اعتقل وحكم عشرات من هؤلاء بتهم تتعلق باعتداءات إرهابية.

يَدْعُونَ لِتَدْمِيرِ الْفَكْرِ الْإِسْلَامِيِّ الْمُتَشَبِّهِ

يقترح شتاین العمل على تدمير ايديولوجية الإسلام الراديكالي، (ولا يقصد بذلك المتطرف فحسب)، ويدعو لها جمته في كل مكان. حتى في البلدان الإسلامية نفسها، والتدخل لدى أنظمة الحكومات الإسلامية لتسير تلك المخططات، والمساعدة في إصلاح الإسلام فيها (على حد قوله)، ونشر المدنية والحضارة الغربية إلى أماكن ومناطق جديدة ونائية. والهدف منها الإبقاء على الظاهرة الغربية المهددة بالزوال في مناطق أخرى جديدة.

ونلاحظ التدخل الأميركي في شؤون المدارس الدينية الباكستانية التي يبلغ عدد طلابها قرابة مليونين من الذكور والإناث. كما نذكر حادثة مهاجمة المسجد الأحمر من قبل الجيش الباكستاني التي قبضت على آلاف من المعتصمين بداخله. إن تلك المدارس الدينية هي مجتمعات حقيقة قائمة في باكستان. ولما كان عدد طلابها يقارب المليونين فهذا يعني أنَّ أسر هؤلاء الطلاب التابعين أيديولوجياً لتلك المدارس يصل عددهم إلى أكثر من عشرة ملايين. فيصبح من المستحيل إزالة تلك المدارس. ويستحيل تنفيذ خطة شتاین ونظرياته.

وإن كافة تطبيقات الغربيين بما يخصَّ الإسلام والمسلمين تكاد تكون بعيدة عن الواقع، فهم يجلسون بعيداً ويضعون تصورات ومخططات شبه ألعاب الكترونية، ويعتمدون في تصميمها على أسس رقمية ورياضية. دون أن يفهموا الحقائق التي هي على أرض الواقع. فمن هذه الحقائق التي يدركها أي مسلم ولا يدركها أولئك المنظرون أنَّ الإسلام هو الدِّين الذي يسري في عروق كل مسلم.

مَؤْسَسَاتٌ يَوْلِيَّةٌ تَسْعَى لِوقْفِ أَسْلَمَةِ أُورُوبَا

على المستوى الدولي. هناك حركات وجماعات مسيحية متطرفة كثيرة تسعى لوقف أسلامة أوروبا. ويزداد عددها باستمرار. إضافة لزيادة تماديها على المسلمين في كل يوم.

"الاتحاد الألماني للحركات المدنية لحماية الديمقراطية والوطن وحقوق الإنسان"

هذا الاتحاد يسعى إلى "الوقوف ضد تكوين مجتمع إسلامي أصولي متواز في ألمانيا"، وإلى الوقوف أمام المسلمين الذين ي يريدون من خلال مطالعهم محاولة فرض بعض نصوص الشريعة الإسلامية على المواطنين الأوروبيين". ومن بين مطالب الاتحاد "مراجعة المادة الرابعة من القانون المدني (الخاصة بحرية ممارسة الدين) وذلك فيما يتعلق بتطبيقها على الإسلام السياسي، ومنع بناء المآذن و"تجاهل البنوك والمولين الذين يقدمون ودائعاً مالية مطابقة للشريعة الإسلامية حتى لا يدخل النموذج الاقتصادي الإسلامي في نظامنا الاقتصادي". وقد قام أحد أعضاء الاتحاد بتقديم بلاغ ضد انتشار القرآن زاعماً بأنه مليء بسب الأديان وأتباع الديانات والجمعيات العقائدية" وأيضاً "التحريض على العصيان". هذا البلاغ رُفض من قبل المحكمة البدائية في هامبورغ. وكان قدوة الاتحاد القس رولاند فايسبلر في شرق ألمانيا الذي أحرق نفسه يوم ذكرى الإصلاح البروتستانتي عام ٢٠٠٦ تعبيراً عن خوفه من انتشار الإسلام في ألمانيا.

شكاو المسلمين البريطانيين

تقول السيدة عديلة تيلادي: كامرأة منقبة لاأشعر بالأمان هنا في بريطانيا. فعندما أسيير في الشارع يُنظر إلي وكأنني ارتكبت جريمة ما. يأتي ذلك رغم أنني لا اتفق مطلقاً مع المسؤولين عن محاولات التجحيم في مطار جلاسكو ووسط لندن، ولا أرى أن هناك ما يبرر قتل المدنيين الأبرياء. وأنعرض وزوجي للإساءة اللفظية من أنس جهلاء عادة ما يلبسون جميع المسلمين التوب ذاته. وما أريده هو أن يعرف الناس أنني لا أرتدي الزي الإسلامي لترويع الناس، بل لتفطية نفسي – إنه ليس رمزاً للعدوان أو الإرهاب. ويقول المفترب سعيد لادربي: المحاولات الإرهابية الأخيرة قضت على الشغل تماماً. والإنجليز يخشون الآن دخول الحال العربية. ما حدث سوف يؤثر على صورة العرب والمسلمين في لندن. وأشار أن العرب خائفون من اتهامات البريطانيين لهم ، الأمر الذي يؤدي مشاعر العرب بالطبع.

الجهاد الإلكتروني واجب إسلامي

مئات الواقع على الشبكة العالمية وكلها تمنحك مئات الوصلات المشابهة، وتشغل جميعها بمناهضة الإسلام وال المسلمين وبانتقاد نفوذهم المتزايد وتمددهم في أوروبا. ويزور هذه الواقع يومياً بضعة ملايين من أبناء الغرب، فهي موقع شهير وشعبي ولها مؤيدون كثيرون في الغرب. منها موقع ألمانية وفرنسية وبريطانية. وتشر هذه الواقع انتقادات لاذعة ومؤلمة للمسلمين. ويستطيع الزائر إضافة رأيه وتعليقه على الموضوعات المنشورة فيصبح المشاركون في مواضعهاآلاف من الأوروبيين. ومن خلال أسماء المشاركون والزائرينلاحظنا أنّ أغلبهم يهود أو روسيون. وهؤلاء تكون ملاحظاتهم شديدة الوقاحة والكره للمسلمين. ويدخل نادراً بعض المسلمين الغربيين ويدافعون عن دينهم وعن أنباء الإسلام.

المعركة على هذه الصفحات شديدة الحدة وال الحرب فيها مشتعلة باستمرار. وهي تحدث تأثيراً كبيراً في الرأي العام الغربي بل وتحضر لواجهة حقيقة ضد المسلمين. مما يعني ضرورة التحرك الثقل في الفعال عند المسلمين والعمل على مواجهة تلك الفتنة الكبيرة التي يجري تحضيرها. ويستطيع كل عربي أو مسلم أن يكون فعالاً في مواجهة تلك الفتنة بدخوله على هذه الصفحات باللغات الأوروبية وترجمة مواضعها وإضافة رأيه المدافع عن الإسلام والمفعن للغري. لقد أصبح تدخل المسلمين في تلك الواقع ضرورة ملحة وواجب ديني وجهاد إسلامي حقيقي، ومن أشهر تلك الواقع التي ندعوا لزيارتها WWW.politicallyincorrect.de. ومن هذه الواقع ننقل بعض النصوص القليلة العنصرية والتي يمكننا نشرها باللغة العربية:

- واحد من المشكلات الشديدة الخطورة على الغرب تعاظم الإسلام ودوره وانتشار ثقافته بسرعة في أوروبا. والنتيجة التي سنشهدها هي التغير العميق الذي سيبدل حياتنا كلية. وأسلمة عالمنا هذه ترتبط بالسياسة وبرؤوسنا وبأصواتنا. فنحن مقدمون على ديمقراطيات ظالمة. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو هل تتواطأ حكومات الغرب مع الإسلاميين وتفسح لهم مجال الارتفاع؟. هل يتواطأ بعض

المحافظين مع الإسلاميين ويعملون على تقويتهم بواسطة الانتخابات؟ إنه لابد لنا من العمل على هدم الديمقراطيات المزيفة في الغرب التي تضرّ بمصالحنا. فالتجددية الثقافية شعار يؤدي للتمدد الإسلامي، ودعاتها الكثيرون في الغرب ليسوا سوى قرّيبين من الإسلامية

- يتمدد الإسلام في الغرب ضارياً عرض الحائط كل ثقافتنا ونافياً لها وللقيم المدنية والحضارية المعاصرة.
 - لقد حلّت محلّ السياسة الرسمية مصطلحات جديدة وباتت هم السياسيين وشفهم الشاغل: وهذه المصطلحات هي الإسلاموفobia والتغصبية والإرهاب الإسلامي والعنصرية وغيرها.
 - بدعم من دعاء الديمocratie في بلداننا تتشظى الجماعات الإسلامية وقرباً سيكون لها إمارات إسلامية دكتاتورية في أوروبا.

جماعة "البر بيد المحنة" تسخر لتنصير المسلمين

تعتقد هذه الجماعة بأنّ وقف أسلمة أوروبا ممكّن بطريقة سهلة كما تظن وهي تصير المسلمين في البلدان الإسلامية، وهي ترسم خططاً وبرامج لتصير الشعوب الإسلامية. ولاشك بأن القائمين على هذه الجماعة سلّج ومحسوري الرؤية. إذ يستحيل على الغرب كله وبكل قدراته أن ينصر أكثر من شخص واحد متهم في أي بلد إسلامي. وقد برزت في ألمانيا جماعة متطرفة تحمل اسم "الرب يريد المحبة"، تنشر الفساد والتفرقة. ففي يوليو / ٢٠٠٧ لفتت هذه الجماعة الانظار إليها أشاء ندوة - ضمن سلسة من الندوات الإعلامية نظمتها مدينة ميونخ - برئاسة أخصائي القانون والخبير في شؤون الإسلام في جامعة أيرلنغن ماتياس رووه تحت عنوان "القانون الألماني والشريعة الإسلامية". هذه الندوة أنهيت بسبب الصخب الكبير الذي أشيع أثراها. ونقل عن الانترنت نصاً لهذه الجماعة عنوانه: محاربون صليبيون.

وجاء في النص: "كان نداء البابا أوربان للمحاربين الصليبيين الأول: "مشيئة الرب". وكان عليهم أن يطردوا المسلمين من الأرض المقدسة". ومكتوب على صفحة الويب "الرب يريد المحبة" التي أُعدت في ربيع ٢٠٠٧ بمناسبة الاحتفال بعيد الميلاد الثمانين للبابا بندكتوس السادس عشر: "لقد حان الوقت أن نتحرك لحماية الغرب وكل المهددين من الإسلام الراديكالي. هكذا يرى المحاربون الصليبيون المعاصرون أنهم ينقذون الغرب من الأسلامة، بقولهم:

يتوجب علينا "محاولة إعادة تصوير البلد الأصلي والتبرير المسيحي بين المسلمين بحذر، حيث ينفي علينا محاولة إبعادهم عن تمسكهم بـ"النبي محمد" بطريقة لطيفة".

المسيحيون الراديكاليون يحتّمون ضد الإسلام

يصف السيد أندرنياس روينز مسؤول الحوار بين الأديان بأسقفية ميونيخ نشاط المسيحيين الراديكاليين قائلاً:

"إنهم حقاً مجموعة صغيرة من حيث العدد، ولكنهم يحدثون ضغطاً هائلاً من خلال رسائل القراء والمكالمات التليفونية التي تصل الأسقفية وفي الندوات العامة". ويتتابع قائلاً: "إنهم يخلقون جواً من الاضطراب، ويتسبّبون في أضرار كثيرة". بينما تحاول الكنيستان الكبيرتان توضيح الديانات المختلفة بموضوعية كما تسعى كنائس كثيرة إلى ممارسة الحوار يرى المسيحيون الأصوليون أن الإسلام خطر جدّيد يهدّد أوروبا. وفي رأي السيد أندرنياس روينز أن هذه المجموعات تنتشر على نطاق واسع من أقصى اليمين إلى وسط المجتمع.

ولا تعتبر حركة "الرب يريد المحبة" هي هذا المجال إلا شيئاً بسيطاً، إذ تنتشر الحركات المسيحية المتطرفة المعادية للإسلام في الغرب عموماً.

وزير إيطالي يرتدي تي شيرت معاً للإسلام

وزير الإصلاح الإيطالي روبيروتو كارديرولي من حزب رابطة الشمال قد اضطر إلى الاستقالة في شباط بسبب ارتدائه "تي شيرت" طبعـت عليه إحدى الرسوم الكاريكاتورية المسيئة للرسول محمد. ولا فرق بينه وبين رفيقه الحزبي ووزير العدل روبيروتو كاستي الذي قال: "لا أعتقد أن هناك إسلاماً وسطياً" وأطلق على المجلس الإسلامي الإيطالي الذي أسسته وزارة الداخلية حديثاً بـ"الوحش".

جمهورية ((باكس أوروبا)) شعارها: أوقفوا أسلمة أوروبا

يُعد الكاتب أودو أولفوكوته محرر صحيفة فرانكفورتر ألتمانينا السابقة أشهر شخصية معارضة للحركات الإسلامية بجمعيته المسماه "باكس أوروبا". ويريد أولفوكوته تأسيس حزب خاص معارض ل الإسلام تشارك فيه كل القوى الناقدة للإسلام تحت قيادته. وقد خططت جمعية "باكس أوروبا" لمظاهرة كبيرة في بروكسل بمناسبة ذكرى الحادي عشر من أيلول. وحسبما أدى القائمون على المظاهرة كان على المتظاهرين من جميع أنحاء أوروبا الهاتف بشعار "أوقفوا أسلمة أوروبا". إلا أن عددة مدينة بروكسل فريدي تيلمنز قرر منع المظاهرة، وكان ينبغي أن تُعقد بمدينة كولونيا. لكن السيد أولفوكوته اعتذر عن المشاركة في كولونيا بحجة أن الأمن لن يكون محفولاً للمتظاهرين، أو ربما لأن أولفوكوته لم يجد الكثير من المساندين المشاهير؟

الخوف من الإسلام والغدر بذلك

إنَّ صفحات الانترنت مليئة بمثل هذه النوازع التي تعبر عن كراهية المسلمين. وإنَّ ما يزيد على أربعة ملايين زائر يقرأون صفحة الانترنت www.politicallyincorrect.de الخاصة بالسيد ستيفان هيرا من مدينة برغش غلادباخ مدرس الدين الكاثوليكي بالمدرسة الابتدائية.

وعلى صفحة الويب يمكن شراء شارات وفتاجين مكتوب عليها "الخوف من الإسلام والخطر بذلك". وفي التعليقات على صفحة الويب يقرأ المرء على سبيل المثال ملحوظات عن فضائح اللحوم الفاسدة التي تسبب فيها المسلمون: "لا بد من إيقاف الفضائح الكبيرة تجاه الخبز الألماني" ويتسائل أندرياس فون مونتيارد قائلاً: "هل يمكن وصف التغذية المنتظمة بالقاذورات للمواطنين بجهاد التغذية؟". ولم يقم أحد حلقة مناقشة على هذه الصفحة بالوقوف حيال ترعرع الكراهية ضد المسلمين. ويكتب أحد مستخدمي هذه الصفحة دون أن يذكر اسمه: "لماذا لا ينبغي أن أكره المسلمين بصفة عامة مثل النازيين؟ فكلّا هما أيدلوجيا فاشية دينية مزيفة" حسب قوله.

تعكس صفحات الأنترنيت هذه ما يحمله المتعصبون في الغرب على الإسلام، وليس أمام المسلمين سوى مواجهة تلك الأحقاد بالحكمة والحوار المنفتح، وبالمشاركة في هذه الصفحات نفسها.

اتحاد الكنائس البروتستانتي ((أسلمة ألمانيا ممكناً))

إلى جانب المسيحيين المعادين للإسلام يوجد أيضاً اتحاد الكنائس البروتستانتية، وهو عبارة عن تنظيم شامل يضم حوالي ١،٢ مليون شخص من المحافظين البروتستانت في ألمانيا. وينشر السيد أولفوكوته أفكاره الجنونية في مجلة الإعلام المسيحية "برو" الخاصة بالاتحاد. والسيد هارتموت شتيب، السكرتير العام لاتحاد الكنائس البروتستانتية، فيرى أن حملة أولفوكوته ضد أسلمة أوروبا "مسألة مهمة". ويضيف قائلاً: "أرى أن أسلمة ألمانيا ممكناً. فبالنسبة للإسلام لا تتعذر أن تكون مسألة ديمografية. والإسلام يريد السيطرة، وهذا ما أراه واقعاً".

شعار: أوقفوا أسلمة أوروبا

منعت السلطات البلجيكية مظاهرة معادية للإسلام في ٢٠٠٧ ذكرى أحداث الحادي عشر من أيلول أرادت عدة منظمات أوروبية من ألمانيا وهولندا والدانمارك وبريطانيا الزحف بها على بروكسل والتظاهر تحت شعار أوقفوا أسلمة أوروبا. وتعكس هذه الشعارات إحساس الأوروبيين بظاهرة الإقبال الكبير على الإسلام واتجاه أوروبا الواضح نحو الأسلامة.

جماعة تدعو المسلمين لاعتناق المسيحية هذه الجماعة تزعم بأنها عثرت على الحل السهل المنال حسب دعاتها، وهو أيسر وأسهل الحلول لمشكلة النزاع القائم مع الإسلاميين كما تعتقد. ومن سذاجتها فهي تعمل على محاولة تصدير مسلمي العالم كله، وبتصيرهم تنتهي الأزمة. وهذا الحلم الساذج نجد جذوره في تاريخ إسبانيا التي أجبرت مسلميها في العام ١٢٢٥ على اعتناق المسيحية أو مواجهة الإبادة، ورغم عودة الملايين منهم إلى المسيحية مضطرين فقد أبيد أكثرهم وأجبر نصف مليون وهم الذين بقوا أحياء على مغادرة البلاد والتوجه نحو تركيا المسلمة.

الكنائس الكبرى في ألمانيا ليست محصنة ضد تأثير جماعات المحافظين البروتستانت، فعلى سبيل المثال يغلب تأثير هؤلاء المحافظين على ورقة العمل التي قدمتها الكنسية البروتستانتية حول التعايش بين المسيحيين والمسلمين في ألمانيا. وكانت السيدة كريستينا شرماخر، رئيسة معهد الإسلام التابع لاتحاد الكنائس البروتستانتية، مشاركة في كتابة الورقة التي تحمل عنوان "الوضوح وحسن الجيرة". والسيد شرماخر تادي بوضع حد أمام الإسلام، وهذا الحد موضع خلاف لدى الجمهور. وإذا سألها أحد عن الإسلام، لن يحصل على إجابة، لكنها لا تتردد في أن تقول "إن المسيحية هي الديانة الوحيدة الحقة". بناء على ذلك ألفت تقويمًا للصلوة يُصلى فيه للمسلمين الذين ينبغي عليهم أن يتعرفوا أخيراً على المسيح. وتعلق السيدة سابينا شيفر من معهد ارلنغن لمسؤولية الإعلام قائلة: "إن المحافظين البروتستانت يستغلون الحركة المعادية للإسلام لصالحهم". وهي تراقب منذ سنوات صورة الإسلام في وسائل الإعلام، وتوضح السيدة المتخصصة في شئون الإعلام أن "الحجج

التي تستند عليها الحركات المدنية يغلب عليها الطابع المسيحي الأصولي". لقد أصبح الجو أكثر توتراً، فبعد أن أظهر المسلمين وجودهم في المجتمع الألماني بصورة واضحة من خلال بناء المساجد أصبحت ردود الفعل متواترة تكاد تصل إلى حد الإيذاء.

كما أن الناقدين من المتخصصين في علوم الإسلام، أمثال السيدة اورزولا شبولر-شتيفمان من جامعة ماربورغ، مصابون بحالة من الفزع بسبب الانفعال الذي أحدهه الجدل حول الإسلام.

السيدة شبولر-شتيفمان معروفة بنقدها اللاذع إلى حد ما للجمعيات الإسلامية وتحذر من استغلال مخاوف المدنيين. وتقول: "من الصواب أن يكون المرء ناقداً، ولكن لا داعي لتصعيد الموقف".

الفزع من الشريعة الإسلامية

تقدمت رينات سومر نائبة رئيس وفد البرلمان الأوروبي حول تركيا بطلب لعقد جلسة استماع حول "الشريعة في أوروبا".

وقد أزعجها وجود اتجاه في مؤسسات الاتحاد الأوروبي القانونية وفي بعض الدول الأوروبية قوانين الشريعة الإسلامية في نظامها القانوني بسبب تزايد أعداد المهاجرين القادمين من الدول الإسلامية. وفقت رينات لتقول: "إن الشريعة الإسلامية لا تطابق على الإطلاق - حتى في شكلها المعتمل - القيم والمعايير الأوروبية، وإن وجود أشكال مختلفة للشريعة لا يغير من هذا الأمر شيئاً" واعتبرت ما سmetه بـ "الأسلامة الزاحفة" استناداً إلى الفهم الخاطئ للتسامح "خطراً متماماً" وطالبت بالدفاع عن الثقافة الأوروبية قائلة: " علينا أن نكون واضحين ومحددين في تعريفنا للثقافة والقيم الأوروبية والدفاع عنها".

وحذرت سومير. الألمانية التي تنتهي إلى الحزب الديمقراطي المسيحي - من إدماج بعض القوانين الإسلامية في القوانين الأوروبية مؤكدة أن هناك " خطراً متزايداً من

أن يؤدي إنشاء مجتمعات إسلامية موازية إلى تطبيق الشريعة الإسلامية كنظام قانوني إضافي داخل المجتمعات الأوروبية". وتطرق سومر إلى الحجاب، ورأى أنَّ الحجاب رمز سياسي وليس دينياً.

ونوّقش في الاجتماع احتمال منع الإسلام جذرياً في أوروبا، فرأى سومير أنَّ منع الإسلام أو رموزه وشعائره في الاتحاد الأوروبي أمر غير وارد، فذلك لن يخدم أي طرف لأن حرية الاعتقاد والعبادة هي من الحقوق الأساسية المكفولة للجميع، لكن الدين كما قال: "ينبغي أن يبقى شأناً ذاتياً خاصاً ولا يتعدى ذلك إلى الأمور العامة والاجتماعية والقانونية".

الأحزاب العنصرية الأوروبية

كانت الأحزاب العنصرية الفرنسية بوجه عام منشغلة بمواجهة اليهود والأفارقة السود أحياناً وغيرهم من الأجانب. لكن بفضل تطور الأحداث أصبح شاغلها الوحيد اليوم هو المسلمين. إذ يكمن التهديد القوي الوحيد للمسلمين الأوروبيين في احتمال سيطرة الأحزاب الفرنسية على الحكومات وقيامتها بابعاد المسلمين طرداً أو التخلص منهم إبادة. ويرى المحللون الغربيون أن تلك الأحزاب تعارض بقوة تزايد الهجرة والماجرين. وقد توالدت هذه المعارضة في العديد من الدول الأوروبية واستطاعت أن تفرض "ليس فقط مراقبة صارمة وفعالة على الحدود، بل طرد المهاجرين الذين لم تسوّ وضعياتهم القانونية بعد. إن حركة ضد الهجرة آخذة في التشكّل أمام أعيننا، وبشكل غير محسوس. وإذا كان خطابها لا زال محششاً فإن قدراتها هائلة بالفعل. إن العناصر المعادية للهجرة ولإسلام، لها على العموم جذور فاشستية ونازية، ولقد تمكنت مع الزمن من كسب أفاق كبرى، وتجزرت من معاداتها للسامية التي رافقتها في جذورها ومن نظرياتها الاقتصادية المرتبطة لتركيز كل اهتمامها على المسائل العقدية، والديمغرافية، والهوية، وعلى دراسة الإسلام والمسلمين. وإن "الحزب الوطني البريطاني" وكذلك الـ"فلامس بيلانغ البلجيكي" يعدان نموذجين يتطوران بقوة تجاه فرض قوتهم الانتخابية. بل إن السباق

نحو الرئاسة الفرنسية قد تلخص سنة ٢٠٠٢ في منافسة مفتوحة بين "جاك شراك" والفاشي الجديد "جون-ماري لوبين" وهناك أحزاب أخرى من هذه الطينة سبق لها بالفعل أن وصلت إلى الحكم، مثل "جورج هايدر" وحزبه "فrai هيتيتش" بالنمسا وقد حكموا لفترة قصيرة، وهناك عصبة الشمال الإيطالية التي ظلت لمدة طويلة من مكونات التحالف الحاكم، وهذه الأحزاب يتبعها بعض المحللين بالاتساع والتقدم وبالقدرة على الاستيلاء على السلطة لأن خطابها المعادي للإسلاميين، وفي غالب الأحيان للإسلام يجد صداته في المجتمعات الأوروبية، وأحزاب التيارات المهيمنة سوف يكون عليها أن تتبني ولو جزئياً هذه الأحزاب العنصرية (كمثال على ذلك الحزب المحافظ في الدانمارك) الذي تمكّن من العودة إلى الحكم -بعد ٧٢ سنة قضاها على هامش الحياة السياسية- أساساً بسبب السخط الذي تسبّبه الهجرة لدى هذه الشعوب)، وهذه الأحزاب سوف تستفيد بكل تأكيد من الوضع عندما تتضمّن الهجرة أكثر وتصل إلى نسب مرتفعة في أوروبا مع ما يحمله ذلك من هجرات مكثفة قادمة من إفريقيا، كما تشير إلى ذلك العديد من المؤشرات، لكن من الانصاف أن نتحدث عن تراجع نفوذ هذه الأحزاب وتضاؤل مؤيديها في أوروبا، فالحزب الفاشي الفرنسي الذي يتزعمه جان ماري لو بين لم يحرز إلا على أصوات ضئيلة للغاية في انتخابات فرنسا ٢٠٠٧، لكنَّ مؤيدي تلك الفكرة يذهبون بعيداً في تصوراتهم لمساعدة المسلمين القادمة على حدَّ تعبيرهم، فيقول رالف بيتيرس: إنه بمجرد وصول تلك الأحزاب الفاشية إلى السلطة سوف تلغى هذه الأحزاب الوطنية، التعددية الثقافية، وسوف تعمل على إعادة نشر وتكريس القيم والتقاليديّة الأوروبية، ولا يسعنا إلا أن نخمن حول الوسائل التي سوف يستعملونها وحول رد فعل المسلمين، يقف "رالف بيتيرس" طويلاً عند المظاهر الفاشية والعنيفة لبعض الفرق ويتوقع أن تكتسي ردود الفعل المعادية للإسلام والمسلمين أشكالاً تتسم بالتهديد، بل هو حتى يرسم سيناريو ثُرى فيه "بواخر أمريكية وقد رست في الموانئ الأوروبية، والمارينز وقد نزلوا إلى الأرض في سواحل مدينة بريست الفرنسية، أو بريميرهافن الهولندية، أو باري الإيطالية من أجل تأمين إجلاء المسلمين من أوروبا في أحسن الظروف.

اليمين الفرنسي يتبنى الفاشية

رغم اندحار الحزب العنصري المتطرف الذي يترأسه جان ماري لوبين، فإن الحزب اليميني الذي انتخبه ٥٦٪ من الفرنسيين، والذي أصبح زعيمه نيكولا ساركوزي رئيساً للجمهورية، فقد تبنى عنصرية وفاشية شديدة التطرف. وأعلن عن عدائه للوجود الإسلامي في فرنسا، كما أوضح مواليه الكثيرة للولايات المتحدة وللصهيونية العالمية. وساعة إعلان فوزه بدأ الصراع بين المسلمين الفرنسيين والحكومة، حيث انطلق الفرنسيون من أصول عربية وإسلامية للاعتراض على سياساته. وأحرقوا مئات السيارات، واعتقل مئة منهم. لقد كانت فرنسا طوال تاريخها معادية للمخططات الصهيونية والأمريكية، ومساندة للقضية العربية إلى حد ما، وكانت على الدوام تلتزم بمبادئ وقيم إنسانية انطلاقاً من قيم مفكريها وفلسفتها وأدبياتها، وقيم الثورة الفرنسية. واليوم تعلن فرنسا ساركوزي تخليها عن تلك القيم والخوض في تجربة العنصرية والتطرف. وكل ذلك في سبيل مواجهة النشاط الإسلامي الذي يمتد في العالم وفي أوروبا. لكن قراءة متأنية لمستقبل فرنسا تدل على أنها ستبقى فرنسا التي عرفها العالم كله، فرنسا القيم والفكر والأدب والإبداع، وأن مغامرة ساركوزي لن تكون سوى تجربة قد تدوم لبعض سنوات وقد تنتهي برفضه كما يرفض الأميركيون جورج بوش وكما يرفض البريطانيون توني بلير ببل إن هذه المغامرة المفعمة بالأخطار ستعيد الفرنسيين في السنوات القادمة إلى القيم التي تميزوا بها عن غيرهم من شعوب أوروبا وستكون محراضاً قوياً على تلك العودة.

العنف بين الحداثة والطين

يوخن هيلر باحث في معهد التنمية والسلام في جامعة دوسبورغ -إسن أبدع دراسة موسعة بعنوان: الحرب القمع الإرهاب العنف بين الحداثة والدين، وجاء فيها: "النقد الذاتي إحدى الشروط الأساسية لتناول الطرفين الغربي والإسلامي لظاهرة العنف

وطرحها في مبادرات الحوار بين المسلمين والعالم الغربي." ينتقد يوخين هيلر الطرق التي سلكها الغرب حتى الآن في طرح وتقييم الجرائم التي ارتكبها، حيث يقول:

"المثير للاهتمام أن طرحنا وتقييمنا للجرائم المرتكبة من طرفنا يتسم بطابع جزئي هامشي كما أن الحال يختلف من دولة غربية إلى أخرى. كذلك أعتقد بأننا، وهذا أمر مثير للاهتمام، سلكنا في هذا السياق خطأً مبنياً على المركبة الأوروبية.

فقد انصب اهتمامنا في مجال عرض جرائم العنف المرتكبة منا أثناء الحرب العالمية الثانية وتحديداً في سياق المحرقة "هولوكوست" على الضحايا اليهود الأوروبيين أو البولنديين. أما الضحايا الروس على سبيل المثال فلم نعبأ بهم على نحو يستحق الذكر. بمعنى أننا نربط تلك الأعمال بمجتمعاتنا معتبرين بذلك نمطاً مفرطاً بشعاً من أنماط الحروب الأهلية الأوروبية في حد ذاتها. لكننا نادرًا ما نطرح تلك الجرائم في إطار المقارنة مع حالات شبيهة على مستوى الثقافات الأخرى" لقد تجراً هيلر وانتقد الإهتمام الأوروبي الكبير بأكذوبة المحرقة وبمنحها أهمية أكثر مما تستحقه. فقد ظللّ مجظوراً على أبناء الغرب التحقيق أو الكشف أو مناقشة ملابسات المحرقة. وليس هذا المنع ضفوطاً صهيونية على حكومات الغرب. والحقيقة فإن الأحداث التي بدأت بهجمات أيلول، وما تلاها من مظاهر الأسلامة وتهديد أوروبا، هذه الأحداث بدأت تكشف خفايا أوروبا. وخفايا الغرب وسياساته. وهذا ما يشكل مصدر قلق للأنظمة الغربية التي كانت تتومّ شعوبها فوق أرشيف كبير من الأكاذيب والخدع والأساطير يلاحظ هيلر أن المجتمعات الأوروبية بدأت منذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول ووقوع هجمات إرهابية ذات خلفية إسلاموية داخل أوروبا، تميل إلى إغفال النظر عن تطورات شبيهة داخل شرائحها الاجتماعية أفرزت هي أيضاً العنف. ولم يستطع هيلر نكران ذريعة المحرقة النازية لكنه قارنها مع جرائم الأوروبيين الآخرين واعتبر أن الغرب يبالغ كثيراً حين يعترف بإقادمه على إبادة اليهود ويقتاسي أفعاله الشريرة التي أباد فيها عشرات ملايين من الروس والألمان.

ويعرف هيلر بأن الغرب صنع ثقافة الإبادة ومارسها وظللت أيديولوجيته الحالية.

مشاريع حكومية لمنع توسيع الإسلام في فرنسا

تمنع الدولة توسيع الإسلام في فرنسا وذلك عن طريق إجراءات ومشاريع عديدة ومنها حوارات خاصة أو جانبية مع رؤساء البلديات الذين تعتمدتهم السلطة، وهؤلاء بالطبع يختلفون عن ممثلي الدعاة ومنهم قيادات اتحاد المنظمات الإسلامية في فرنسا وجامع باريس والاتحاد القومي للمسلمين في فرنسا.

تسعى فرنسا لتحقيق أهدافها عن طريق التواصل مع جامعة الأزهر في مصر والمسئولة عن إعداد الأئمة والدعاة حيث أصبحت تمثل تياراً متشددأً تدعى الإخوان المسلمين خلال السنوات العشر الأخيرة وكذلك تهميشه الصفة المتميزة في مجال التمثيل الفعلي. وهكذا نرى أن التجمع والمشاركة يسمح بهما إذا كان ذلك بعيداً عن الدعوة أو السياسة أو التدخل فيها وإذا كان محافظاً على القوانين التي أصدرتها الحكومة . ويسعى اتحاد المنظمات الإسلامية لإنشاء مدارس إسلامية وذلك في إطار حماية قانون الحجاب في فرنسا. ولكن المعارضين بشدة لهذا القانون يرفضون هذه الفكرة لأنها تساعدها على زيادة الفجوة بين الجالية الإسلامية والمجتمع الفرنسي مما يؤدي إلى عزلها عن المجتمع وانحصرها فيه.

وبالتالي نجد أن الموازنة التي تسعي إليها التجمعات الإسلامية يشوبها الغموض فهي من ناحية تفضل تأسيس إسلام بعيد عن السياسة ومحايده لها ومن ناحية أخرى تؤكد للسلطات وجود مخاطبين أو دعاة محترمين ويتميزون بقلة المجادلة. وهكذا نجد أن الدور الحضاري للإسلام المنتظر من ساركوزي الذي يميل إلى الثقافة الانجليزية في علاقتها بالعلمانية يمكن أن تصاب بالفشل. فالعلاقة المرنة التي تربط بين اتحاد المنظمات الإسلامية والسلطة تساعده على توسيع إسلامي مستقر ولكن يشوبه الجمود بسبب سلب أدواته منه مما يؤدي إلى وجود خطاب لا يتاسب مع اهتمامات الشباب في المناطق المختلفة مما يؤدي بدوره إلى فقد مكانة التبليغ. وبعدما تفشل المؤسسات المسئولة عن عملية الدمج بين الثقافة الإسلامية والمجتمع الفرنسي في تلبية متطلبات الشباب المختلفة لا يبقى أمامنا إلا التيار السلفي الذي

يهدد فرنسا عن طريق الجهاد ولكن يهددها بشكل اكبر عن طريق خطابه الذي يدعو فيه مؤيديه إلى عدم إرسال أبنائهم إلى المدارس العامة.

وبالتالي فقد ينجح التيار السلفي في إجبار المجتمع على الاعتراف بالماجرين وإظهار الهوية المنفردة للجالية الإسلامية. ويعتبر هذا التيار السلفي نواة التطاول على الخطاب الحكومي الفرنسي الرسمي، وهذه النواة تكبر باستمرار ويتصاعد دورها بين المسلمين الفرنسيين، وهي التي انتبه إليها وحذر منها كثير من المراقبين وتصوروا أن تشكل في المستقبل إمارة إسلامية صغيرة في إحدى الضواحي الباريسية.

الانتماء الحضاري المطلوب

إن المسلمين الذين قاموا بتفجير مركز التجارة العالمي وحافلات القطارات في إسبانيا، إنما قاموا بتدمير وسائل حضارية ورموز حضارية هي إرث جديد للبشرية، وأولئك الanthاريين لم يكن بوسعهم أن يدمروا رموز الحضارة هذه دون أن يكتسبوا قسماً من إرث تلك الحضارة نفسها. بل إنهم استخدموها وسخروا منتجات تلك الحضارة ليدمروها بواسطتها. فقد ركب الanthاريون في طائرات وسافروا إلى تلك البلدان وتعلموا لغاتها وأنظمة العيش فيها، ثم تعلم بعضهم قيادة الطائرات في معاهد أمريكية، أي أنهم اكتسبوا علوماً حضارية حديثة، ثم استخدموها شبكة الأنترنت والهاتف الجوال والسيارات وغيرها ثم اشتروا بطاقات سفر ودرسوا مخطوطات الرحلات : وكل ذلك نتاج الحضارة التي كانوا يريدون تدميرها. ثم أنهم درسوا نظريات هندسية حديثة وسخرواها لأجل التدمير. كان يتوجب على تلك الحضارة أن تبهرهم وتتجذبهم وتجعلهم ينتمون إليها انتماءً حقيقياً. بل ويستقديرون منها في تطوير بلدانهم العربية. لكن هذا لم يحصل بالنسبة لهم، ولو تنسى له أن يحصل مع أحدهم لكان هذا المتباهي المنتهي سيبدل رأيه وسيعدل عن تدمير واحد من مظاهر الحضارة التي استلبه. وبالمقابل فإن الروسي والياباني والأوروبي والإفريقي عندما يهبط في الولايات المتحدة فإنه سيشعر بانتفاء إلى هذه الحضارة العظيمة وإنه لن يشعر بأن شيئاً فيها ليس مخصصاً له هو بالذات،

- لكن ما هو السر الذي يجعل المسلم العربي يختلف من هذه الناحية عن بقية الشعوب؟ ولماذا لا يستطيع المسلم خصوصاً أن يتجاوز مع مظاهر الحياة العامة في الغرب؟ سنعالج هذا الأمر في بحثنا هذا.

تصريحات إسلامية شديدة الحدة

يعتقد الجهاديون الإسلاميون بأنّ عقيدة المسلمين "بطابعها الجهادي وبنفوذها الإسلامي تحسم كل ما كان ممكناً مع عقيدة المسيحيين الأوروبيين غير المارسين لدينهم. وإن التناقض الاجتماعي في أوروبا يؤدي بالعديد من المسلمين إلى اعتبار أوروبا على أنها قارة ناضجة مهيأة للإسلام وللسيطرة عليها. وهذا ما تنتجه عنه مطالب إسلاموية حادة اللهجة مثل ذلك تصريح للشيخ عمر البكري الذي قال :

"أريد أن أرى رأي الإسلام ترفرف فوق الرقم ۱ بـداونين ستريت"(وهو مقر الوزارة الأولى البريطانية).

ويقول إمام آخر يقيم في بلجيكا:

"سوف نتسلل قريباً الحكم في هذه البلاد" وحينها سوف يندم أولئك الذين يعتقدوننا اليوم. فاستعدوا، إن الساعة اقتربت.

ومثل هذه التصريحات القوية تخرّب العلاقة الاجتماعية مع الأوروبيين غير المسلمين وتعيق الحوار معهم إضافة لجلبها الكثير من المشاكل الأخرى. لكن من أين لهؤلاء الذين يطلقون التهديدات الهائلة من أين تأتيهم هذه الثقة؟ فهل إن رؤيتهم الواقع للمجتمع الغربي وإقباله على الإسلام هي التي تمنحه كل هذه الثقة في إخبار الغرب وتهديده؟

عقيدة الاختلاط عند المسلمين الأوروبيين

ما زال المسلمون حتى عصرنا هذا منشغلين بمشكلة عويصة وهي معاناتهم من عقدة الاختلاط بين الرجال والنساء وهم ينشغلون بوضع قوانين وأحكام ناظمة له.

ولما لم يكونوا قادرين على العيش في حياة غربية طبيعية فلماذا اختاروا الغرب ليقيموا فيه؟ ألم يغامروا ويتحملوا المصاعب بغية الوصول إلى أوروبا؟ ألم يعبروا البحار في قوارب الموت؟

ينظر عادة إلى الغرب على أنه مجال تطوير عام للفرد وبها جر مواطنونا بغية تطوير جوانب كثيرة فيهم، والمشكلة التي تنشأ لاحقاً هي أنهم يصبحوا أكثر تخلفاً من أبناء بلدانهم الأصلية. فالالية مجتمعاتنا لم تعد تعاني من عقدة التعامل بين الذكور والإناث، بينما نجد مسلمون في الغرب يعانون من هذه العقدة.

ففي السابع من أيار ٢٠٠٧ ألغت مباراة في كرة القدم بين فريقين من رجال دين مسلمين ومسحيين في العاصمة النرويجية أوسلو بسبب اعتراض المسلمين على إمكانية مشاركة قسيسات في الفريق المسيحي وقال أحد منظمي المباراة: إن الخلاف بدأ عندما رفض المسلمون اللعب أمام فريق مختلط من الجنسين بسبب تناقض هذا الأمر مع معتقداتهم الدينية.

وكان من المقرر أن تقام المباراة في إطار مؤتمر للتقارب بين العقائد. ويتضمن المؤتمر نشاطات وفعاليات عديدة ومنها تلك المباراة.

وقال المسلمون إنه من المستحيل أن يلعبوا أمام فريق يضم قسيسات خشية من حدوث احتكاك جسدي.

وذكرت المحطة التلفزيونية العامة "ان ار كي" أن الأئمة قالوا إن التلامس الجسmani مع النساء سيكون غير ملائم.

وقال الإمام سينابيد كوبيليكا للمحطة التلفزيونية "ان ار كي" في معرض تفسيره لذلك "البعض يقول إن التلامس الجسmani هو المشكلة. فهو يؤدي إلى إثارة مشاعر خاصة قد تؤدي إلى أمر محظوظ."

وقالت وكالة الأنباء النرويجية إن الكنيسة بذلك محاولات عديدة لمدة يومين لإقناع القسيسات بارتداء ملابس أكثر اتساعاً وسرابيل طويلة تغطي الساقين، وعندما فشل هذا الاقتراح قالت الكنيسة إنه يتطلب عليهم عدم الاشتراك في المباراة مما أثار استياء القسيسات وأدى إلى استقالة كابتن الفريق.

غير أن المتحدث الإعلامي قال إن الحصيلة لم تكن سلبية بالكامل فقد توصلنا لفهم أعمق لكل طرف. ومعنى كلامه أنه فهم تخلف أولئك المشايخ المسلمين.

عقدة تعامل الرجال مع النساء والتي يقال لها خطأ بالاختلاط هذه العقدة تعبّر عن ضعف وتخاذل. وقد آن الأوان لأن يتحرر الناس منها. ولعله من غرائب الحدث أن تستمر وينقلها المسلمون معهم إلى الغرب.

مخاوف إسلامية من الإبادة

إن المسلمين قلقون بالفعل منذ سنوات من احتمال احتقان مثل هذا الصراع، ومن احتمال حدوث احتجازات جماعية عنيفة، متبرعة بإجلاءات جماعية، بل ويخشى البعض من احتمال حدوث إبادة جماعية للمسلمين في أوروبا. وقد سبق لكريمة صديقي عندما كان مديرًا للمعهد الإسلامي بلندن في الثمانينيات من القرن العشرين أن لوح إلى إمكانية وجود رغبة كامنة لدى الأوروبيين لإعادة إحياء "طيف غرف الغاز الهتلرية المزعومة، للMuslimين هذه المرة". وذلك في كتابه المسماً "كن حذراً مع محمد" الذي صدر له سنة ١٩٨٩.

وكذلك حذر المسلم البريطاني "شبير أكثير" بقوله: "في المرة القادمة التي سوف تكون فيها غرف للغاز في أوروبا، لن يكون هناك أدنى شك حول هوية الذين سوف يوضعون داخلها" يعني المسلمين.

ويتحدث "حنيف قريشي" عن صورة مشابهة في روايته المسماة (بودا الضواحي) إذ يهيء بطل روايته لحرب عصابات لأنه يتوقع أن تقوم عندما يهجم البيض على السود والآسيويين ويحاولون وضع المسلمين جميعاً في غرف الغاز.

ولكن يبقى كذلك من المحتمل جداً أن يسعى الأوروبيون إلى تحقيق مطالبهم بطرق سلمية، ويتوقع بعض المحللين الأوروبيين أن يأتي العنف من المسلمين، ويستدلّون على ذلك وفقاً للميلات الأخيرة نحو التخويف والإرهاب. فالعديد من

استطلاعات الرأي تؤكد أن حوالي ٥٪ من المسلمين البريطانيين يؤيدون تفجيرات لندن في يوم ٧ تموز، وهو ما يشير عندهم إلى قابلية عامة للجوء المسلمين إلى العنف. والواقع تدل على أن العنف موجود وقد بدأ العمل به بالفعل، فقد مارسته الجماعات الإسلامية ضد الغرب، في تفجيرات لندن ومدريد وواشنطن. وفي أعمال متفرقة في دول العالم كالتفجيرات والاغتيالات التي تستهدف الغرب وأبناءه في السعودية والكويت وغيرها. كما أن الغرب يمارس العنف ضد المسلمين منذ عدة قرون. وهو اليوم يصعدها في العراق وأفغانستان وغيرها. وفي أوروبا نفسها تتم ابادة المسلمين الذين يحاولون دخول أوروبا بالتسليّل غير الشرعي. كما وتقوم المخابرات الأمريكية باعتقال سري واحتجاز أفراد من المسلمين.

انبهار العرب بالغرب

يجمع العربي عموماً بين نقاضين ثابتين وهما انبهاره الكبير بالغرب واعجابه به من ناحية، وكراهه لهذا الغرب وعداؤه له من ناحية أخرى. وإن جميع المفترضين العرب قد عَبَرُوا أَفْضَلَ تعبير عن ذهولهم واعجابهم الكبير بالغرب حين اختاروه كموطن بديل وجديد لهم وبنفس الوقت استمرروا في معاداته ويتمثل هذا الانبهار بصور عديدة نذكر بعضها:

- انبهار بكل النتاجات الغربية من الصناعات والعلوم والنظريات الجديدة وغيرها.
- انبهار بأقوال الأشخاص الغربيين، فإذا كتبنا الآن رأياً لكاتب أو باحث غربي سينبهر به القراء أكثر مما يحققه عشرات الكتب التي يضعها عرب مسلمون. وما زالت طريقة الباحثين العرب تعتمد كأساس مهم للبحث على أقوال أشخاص غربيين، وقد يكون هؤلاء الغربيون لا يحملون أهمية علمية كبيرة في بلدانهم. بل إن بعض الأبحاث تقوم على أساس واحد وهو جمع العديد من أقوال الغربيين في موضوع واحد.

• الاقتتاع بعربي يحمل شهادة علمية من دولة غريبة، وسيكون تعامل الناس معه أفضل من مثيله الذي يحمل شهادة عربية (إذا كان طيباً مثلاً)، وسيجد الأول وظيفة أفضل في كافة الدول العربية.

• تعتبر الهجرة إلى الغرب حلم عدد كبير من الشباب العربي، وفي سبيل تلك الهجرة، أي في سبيل أن تطأ قدماء أرض أوروبا، يخاطر العربي أو المسلم بروحه وماليه ونصيبه ويركب البحار أحياناً، ويضع احتمال الموت نصب عينيه ورغم ذلك يقبل بذلك المغامرة الخطيرة، وما ذلك إلا عمل انتحاري حقيقي.

مرض أوروبا

تنتشر في الوطن العربي حالة ليست طبيعية على الإطلاق، وتكثر العناصر المكونة لهذه الحالة التي يمكن أن نعتبرها مرضية. وبين العرب أفراد يحملون حلماً كبيراً بالوصول إلى أوروبا.

ويعتبرونها الفردوس المفقود. وموطن الأحلام، وأبعد ما يمكن أن يحلمون به. وثمة أشخاص حاولوا السفر إلى بلد الأحلام عدة مرات. وآخرون طردوا منها وأعادوا المحاولة. ولو تيسّر لنا أن نستطلع آراء الشارع العربي لوجدنا أن نسبة كبيرة يعتقدون بأن وصول العربي إلى أوروبا يعني تخلصه من كافة المشكلات التي تواجهه في أيامه. وأن حياته هناك تعني أنه سيكون مرتاحاً تماماً وسيعيش بدون أية مشاكل أو عقبات. أي أن كافة المشاكل المعيشية والاجتماعية والسياسية عند البعض والمشاكل اليومية من متاعب العمل والتعامل مع الآخرين والفقر والفشل وكل ذلك يعتقد هؤلاء بأنهم سيتخلصون منه عندما تطأ أقدامهم أرض أوروبا.

وهذا الحلم ليس إلا حلماً بالفردوس الأرضي. ولما كانت أوروبا بالنسبة لهم كالجنة المحروميين منها، فتلك حالة غير طبيعية، وإن هي إلا مرض نفسي واجتماعي نطلق عليه هنا اسم "مرض أوروبا". ونطلق هذا المصطلح لأول مرة على الصعيد العالمي. وإن مانسميه هنا بمرض أوروبا يشكل عاملاً قوياً لسعى مجتمعات إسلامية كبيرة لجعل أوروبا مستعمرة إسلامية جديدة. ويدعم هذا المرض وقويه

غنى أوروبا مالياً وخصوصية وجمال الطبيعة فيها الذي تكونه الخصوبة والأمطار الغزيرة. في حين أنَّ العرب الحالين يعيشون في مناطق صحراوية جافة بشكل عام. ويضاف إلى ذلك الحريات الشخصية التي يعيشها الفرد الأوروبي والديمقراطيات الجزئية المزيفة التي تخدع المواطن.

الاتجاه نحو المغارة الأوروبية

الاندفاع العربي في الهجرة إلى أوروبا، حالة فريدة لا تعرفها أية شعوب عالمية معاصرة. وللتعرُّف على هذه الحالة يمكننا أن نفترض بأن تسمح أوروبا باستقبال مواطنين جزائريين وتسمح لهم بالإقامة فيها دون عقبات أو شروط. ولتخيل ما الذي يحصل بعد سنة واحدة. مما لاشك فيه أن خمسة ملايين جزائري على الأقل سيزحفون نحو أوروبا خلال سنة واحدة. ومن دولة عربية واحدة. وسنرى نفس النتيجة في أية دولة عربية أخرى. أي أن الرغبة في الهجرة نحو أوروبا هي هاجس العرب المسلمين بكافة فئاتهم. كما تعتبر أوروبا بالنسبة للعرب الباب نحو العالمية. فمن خلالها يدخل العربي العالم الحديث المتحضر. أوضاع صعبة تلك التي يعانيها المضطرون والحالون بالهجرة إلى أوروبا، فمن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الصعبة التي يعيشونها في بلدانهم، إلى تشديد الإجراءات في بلدان اللجوء أو الهجرة يضطر هؤلاء الراغبون في الهجرة إلى البحث عن الوسائل أياً كانت عوایبها، لتحقيق هدفهم، وهنا تبدأ مافيا الهجرة أو ما يطلق عليها "مافيا المتاجرة بالبشر" في اصطيادهم واستغلال ظروفهم بالوعود بتحقيق رغباتهم وإن كان التقرير التالي يلقي الضوء على تلك المافيا التي تسببت وسائلها في أحياناً كثيرة في وقوع مأس للهارجين كالفرق في البحار والمحيطات، أو إلقاء السلطات القبض على هؤلاء المهاجرين وإعادتهم من حيث أتوا، في أفضل الأحيان، إن لم تتركهم في عرض البحر مشردين، لا هم عادوا إلى بلادهم ولا هم هاجروا إلى تلك البلدان رغم كل ذلك، إلا أن هناك أطراضاً أخرى تشتراك في تلك المأساة التي يواجهها هؤلاء اللاجئون.

من يقتل المهاجرين؟

الطرف الأول: البلدان التي لم توفر لأبنائها حياة كريمة بسبب الاستبداد أو الفساد، مما دفعهم إلى البحث عن كل الوسائل للهجرة إن لم يكن الهرب منها بحثاً عن حياة أفضل، وإن كلفه ذلك ماله بل حياته.

الطرف الثاني: هو الظلم الأوروبي الجديد الواقع على هؤلاء اللاجئين والمهاجرين، سواء كانت وسائل ذلك الظلم في إصدار قوانين جديدة أو تعطيل قوانين عادلة كانت موجودة، أو العنف بجميع أشكاله غير المبرر غالباً ضد هؤلاء الباحثين عن حياة كريمة في أوروبا، وهي في النهاية إجراءات ناتجة عن عقدة "الإسلاموفobia" التي أصبحت تسيطر على عقلية صناع القرار في كثير من البلدان الأوروبية.

وللمقارنة بين قدرة أي دولة على استيعاب المهاجرين إليها، نذكر أن سوريا تستقبل العرب الراغبين في الإقامة فيها باستمرار، ففي ١٩٤٨ استقبلت مئات الآلاف من العرب الفلسطينيين، وفي ١٩٦٧ تكرر وفود النازحين، وفي الحرب الأهلية اللبنانية وفد إلى سوريا أكثر من نصف مليون لبناني، وخلال سنوات حكم صدام وفد إلى سوريا حوالي نصف مليون عراقي، وفي الحرب اللبنانية ٢٠٠٦ استقبلت سوريا مئات الآلاف من اللبنانيين، وخلال هذه الأيام مازالت تستقبل في كل يوم ٣٠٠٠ عراقي، وقد أصبح عدد العراقيين المقيمين في بلدتهم سوريا حوالي ٥١ مليون نسمة، وصورة مشابهة نراها في السعودية ودول الخليج حيث يقيم ويعمل فيها أكثر من عشرة ملايين من العرب والمسلمين وغيرهم من شعوب العالم. وبمقارنة بهذه الصورة مع صورة أوروبية شاهدها على شاشات التلفزة كل يوم، وهي ترىنا بضعة أشخاص من العرب الذين يحاولون الدخول إلى أوروبا بواسطة قارب بحري، فتقوم قوات مراقبة السواحل باغراق القارب بمن فيه، وتقوم بإيادة هذا القاتم الجديد قبل أن تطأ قدماء أوروبا. تلك هي العنصرية وسياسة الكره وعمل الإبادة.

الطرف الثالث: هو اللاجيء أو المهاجر الذي سعى إلى الهجرة بأي طريقة، حتى لو كان ذلك بوسائل غير مشروعة تكلفه ماله وحريته، بل حياته ومستقبل أسرته،

فأصبح هذا المهاجر ضحية ومسؤولاً في الوقت ذاته عن موته وفقدانه. فهو الذي يدرك خطورة إقدامه على الهجرة غير الشرعية وهو الذي وافق بعمل انتحاري حقيقي على خوض التجربة الممتهنة.

عقيدة خوف المسلمين من تجريب الفكر الإسلامي

الطبيعة العامة السائدة عند المسلمين بشكل عام وهي الموقف السائد الذي يعبر عنه أغلب المسلمين أفراداً منوعين ومشايخ وعلماء دين وفقهاء هي الخوف من أي تجديد في الفكر الإسلامي، ورغم معرفتهم بمضمون الآية القرآنية الكريمة التي تدعوهم للتطور وترك موروث الآباء والأجداد والتي تقول (هذا ما وجدنا عليه آباءنا) فهم يتزمون بالحفظ على الموروث دون تمييز بأنه إسلامي أو اجتماعي.

فتتجربة الإسلامية العلمانية التركية هي اليوم أفضل درس للمسلمين العرب توجب عليهم أن ينهلوا منه بشغف، بينما وجدنا إعلامنا وكتابنا ومفكرينا ذهبوا على الفور ينتقدون التجربة التركية ويحاولون البحث عن نقاط عيوب فيها. بل وذهب برنامج تلفزيوني في الجزيرة ليقول إنهم الخطر العثماني الجديد الذي يهدد العرب ويعيد مجدهم الإمبراطورية العثمانية. العقل المتطرف الإسلامي يحرص على أن يعيش دوماً في الماضي ويرفض مستجدات الحاضر. فالقضية التي كان يرفضها منذ خمسين سنة وافق على تقبلها منذ ثلاثين سنة، والقضية التي كان يرفضها منذ ثلاثين سنة وافق على تقبلها منذ عشر سنوات والقضية التي يرفضها اليوم سيوافق على تقبلها بعد عشر سنوات. والأمثلة على ذلك كثيرة جداً: فقد كانت جامعات عربية تحرم تدريس الفلسفة والجغرافيا منذ عقود ووافقت على إيقاف تحريمها بعد ذلك. كان التطرف السلفي يحرّم شرب القهوة ويحرّم تدخين السجائر وبفضل شيوخهما فقط لم يعد هذا التحريم وارداً عنده.

الفصل الثاني

**العلاقات المتواترة بين المسلمين والمسيحيين
في العصور الوسطى**

العلاقة المعقّدة

الجرح النازف

الهوية الإسلامية المفقودة

γλ

منذ مطلع القرن العاشر تقربياً وحتى نهاية القرن الثامن عشر استمرت العلاقة الإسلامية مع المسيحية الغربية بالتعقيد والمواجهات والتحدي والصراع على النفوذ، وكان ذلك شبه جرح نازف باستمرار لا يهدأ ولا تقل حدة.

كانت الأحداث شديدة العنف والدموية، نتجت عنها أحقاد عميقة متصلة لم تخف حدتها حتى يومنا هذا، نتعرف على بعض فصول ذلك التاريخ المؤلم ونرجو أن يكون محفزاً عند البعض لتعزيز الكره تجاه الأوروبيين، فنحن نكشف عن الحقائق بهدف صيانة وتصحيح تلك العلاقة التي أصبحت عقدة حقيقة لأهدف تعزيز الخلاف الغربي الإسلامي:

- استمرت الحروب والإقتارات بين الطرفين وخلالها كان الجانبان يخسران الأرواح الكثيرة.

- استمرت أعمال القرصنة من الجانب الغربي المسيحي، حيث كانوا يختطفون أعداداً من المسلمين نساء ورجالاً و يجعلونهم عبيداً، فانتشرت تجارة العبيد المسلمين في أوروبا.

- كان يلزم العبيد بالتصدير وبترك الإسلام.

- في المقاطعات المسلمة الإسبانية قام المسيحيون بإبادة المسلمين وأجبر الناجون على اعتناق المسيحية، وبعد قرون جرى استعباد هؤلاء وتهجير وإبادة من ثبت أنه ما زال يخفي إسلامه. وبالطبع فقد استمر الإسلام خفياً في قلوب الكثير من الناجين، ومع تشكيل النظام الغربي الحديث أصبح الإسلام بالنسبة لأولئك (المسلمين القدامي) هو الهوية المفقودة والممنوعة والتي توجب عليهم إخفاؤها خشية الإبادة.

- ما زال في الغرب حتى يومنا هذا عائلات ومجتمعات صغيرة تعتقد بأنها منحدرة من أصول إسلامية وما زال هؤلاء عاجزين عن العودة إلى دينهم الهوية المفقودة.

- في العقود القريبة الماضية كان المسلمون لا يمتلكون قدرة ولا حضوراً عالياً يمكنهم من الترويج لدينهم ومن نصرته ومن الدفاع عن حقوق أولئك المسلمين المحروميين من العقيدة. بينما في السنوات الأخيرة تطورت الأحداث كثيراً، وأصبح

الإسلام حاضراً في أنحاء العالم كله، وهذا الحضور مكّن الأوروبيين الذين يمليون نحو الإسلام من التحرر الحقيقي من ريق العبودية الغربية لهم. فانطلقوا يعلنون أسلتهم باندفاع كبير وبرغبة عارمة: ومن الطبيعي أن نجد منهم أشخاصاً تفوق عطاءاتهم للدين الإسلامي كل ما نقدمه ونمنجه نحن العرب المسلمين لهذا الدين الحنيف.

- انتشرت ظاهرة الأسلامة في الغرب لأن الغربي تحرر من الريق الفكري، وشاعت هذه الظاهرة بقوة، فجاء في باريس يعلن في كل يوم عن عشرات وربما عن مئات من الذين يعتقدون الإسلام. وتجري الأسلامة بدون مساهمات وسعي يذكر للعرب والإيرانيين والأتراف وغيرهم. ورغم ذلك فإيمكان هؤلاء المساهمة في دعم هذه الأعمال، وستفيد مساهماتهم في تسريع هذه الظاهرة التي هي تسير بمفردها بشكل آلي.

- مما تقدم يثبت للبشرية كلها أن الإسلام يمتلك خاصية ليست موجودة إلا فيه هو فحسب: وهي أنه دين لا يمكن العبث فيه ولا يمكن محوه من القلوب ولا يمكن إبادته، وبعد حوالي عشرة قرون من مجازر الغرب التي حاولت إبادة الإسلام الغربي نهائياً عاد الإسلام إلى الغرب مزهواً، وبقي أحفاد المسلمين الغربيين يحتّون لدين أسلافهم حتى بدأوا اليوم يرون النور ويعلنون عن عودتهم للهوية التي حرموا منها.

- يعود الفضل في ظاهرة أسلامة أوروبا اليوم إلى كثير من المسلمين، وإلى أحداث عديدة قلبـت التاريخ وجعلـته يميل لصالح المسلمين، وقد يراها البعض منـا أحـداثاً تـسيء إلى الإسلام: نـذكر منـ تلك الأـحداث ثـورة الإمام الخـميني والـإسلامـ الجديدة لـدولـة كانت علمـانية، وظـاهرة حـزـب اللهـ فيـ لـبنـانـ. وظـاهرة حـرـكـة حـمـاسـ فيـ فـلـسـطـينـ وظـاهرة الأـحزـابـ الإـسـلامـيـةـ فيـ بـلـدانـ الـمـغـرـبـ الـعـرـبـيـ. وـحدـيـثـاً سـيـكـونـ لـانتـصـارـ الـمـسـلـمـيـنـ فيـ تـرـكـيـاـ وـفيـ قـدـرـتـهـمـ عـلـىـ مـحاـكـاةـ الـعـالـمـ كـلـهـ بـلـسانـ عـلـمـانـيـ وـحـضـارـيـ وـإـسـلـامـيـ سـيـكـونـ لـهـ تـأـثـيرـ كـبـيرـ عـلـىـ دـفـعـ عـجلـةـ أـسـلـامـةـ أـورـوـبـاـ.

انتشار واسع للإسلام في العصور الوسطى

ووجدت هناك مناطق، منذ بداية القرن الثامن حتى نهاية القرن الخامس عشر، تحت حكم السلاطين المسلمين حيث كان الإسلام على مر العصور يشكل دين الأغلبية. إلى جانب الأندلس، وكانت تلك أيضاً حالة العديد من جزر البحر المتوسط والشغور الإسلامية الصغيرة في كل من جنوب فرنسا وإيطاليا.

وقد استطاع الأوروبيون في العصور اللاحقة تصوير تلك المناطق وإخضاعها لنفوذهم حتى يومنا هذا، لكن الجنور العربية والإسلامية والتأثيرات الثقافية والدينية بقيت ماثلة في الغرب حتى يومنا هذا:

ففي اللغة الفرنسية يمكن إحصاء عدد الكلمات التي هي من أصول عربية أو إسلامية والتي تقارب خمسة آلاف كلمة على أقل تقدير. ويجد لها الباحث في القواميس الفرنسية المعاصرة كلها حيث يشار عادة للكلمة التي هي من أصل عربي بمصطلح Ar.

سكان جزر البحر المتوسط التابعة لفرنسا وإيطاليا وإسبانيا ما زالوا يستخدمون فيضاً هائلاً من الكلمات العربية، بل لبعض هذه الجزر لغة محكية خاصة بها هي لغة مشتقة عن العربية التي مزجت للضرورة بلغات أوروبية.

اللغة الإسبانية هي الأكثر تأثراً بالعربية وتحوي عشرات الآلاف من المصطلحات والأسماء والصفات التي هي مشتقة عن العربية.

تاريخ الإسلام في غرب أوروبا باعتباره دين الأقلية

إن هذا التاريخ يبتدئ حوالي مستهل القرن التاسع، في الوقت الذي قرر فيه الحكام المسيحيون، خاصة في شبه الجزيرة الإيبيرية، عدم الاستمرار في قتل أسرى الحرب المسلمين بل استخدامهم كعبيد بدل ذلك. مع بداية القرن الحادى عشر ازدادت هذه الظاهرة حجماً بشكل بارز، حيث تواجدت في البلدان المسيحية لشبه الجزيرة الإيبيرية وفي إيطاليا وجنوب فرنسا وكذلك في صقلية وجزر البليار، أعداد متباعدة من الملوك والأسرى المسلمين. إن وجود هؤلاء في هذه المناطق إلى حدود

القرن التاسع عشر إلى غاية إلغاء العبودية يمكن إثباته عن طريق الوثائق. وإن تاريخ هؤلاء العبيد والأسرى المسلمين يتميز بطابع إجبارهم على التنصير والاندماج التام في المجتمع المسيحي.

بالنسبة لبعض مناطق شبه جزيرة إيبيريا شكلت مرحلة ما بين بداية القرن الثاني عشر وال السادس عشر مرحلة خاصة. لما وضع الحكام المسيحيون في الشمال أيديهم على عدد كبير من مناطق إسبانيا المسلمة، منحوا لأسباب عملية نوعاً من الحرية الدينية والحماية للجاليليات الإسلامية المتبقية في مناطق سيادتهم، بالرغم من أن الكنيسة لم تكن سعيدة بهذا الأمر، يدل على ذلك أنها مثلاً وافقت في مجمع فيينا سنة ١٢١١ على حظر كل تظاهرة للطقوس الإسلامية، كالأذان مثلاً من فوق مآذن المساجد. إن هذه الأقلليات المسلمة المعترف بها رسمياً في إسبانيا المسيحية استمرت في وجودها قليلاً بعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢. بعدئذ أجرت على التنصير بشكل جماعي، حيث أطلق على أعضائها تسمية "الزنادقة غير المهددين" وتم إبعادهم مع بداية القرن السابع عشر إلى إفريقيا الشمالية ومناطق الخلافة العثمانية. غير أن هذا الأمر لم يضع في الحقيقة حدأً لتوارد العبيد المسلمين في أوروبا الغربية بما في ذلك إسبانيا.

المسلمون الأسرى حسب المصادر الإسلامية

غالباً ما تشير المصادر الإسلامية إلى المسلم الذي أسره المسيحيون باستعمال لفظة أسير. وقد أطلق هذا الاسم أيضاً على الأسرى الذين تم بيعهم وسقطوا بذلك في العبودية الحقيقية حسب وجهة النظر القانونية الغربية. إن هذا المس بالوضعية الشخصية للأسرى المسلمين لم يتم الاعتراف به البتة في الشريعة الإسلامية، بل على العكس ظل الأسير يتمتع مبدئياً بكمال حقوقه، الأمر الذي كانت تتج عنده مشاكل في ميدان أحکام الزواج مثلاً. إن الفقهاء المسلمين واجهوا من بين ما واجهوه قضايا ناتجة عن الفصال الاضطراري بين الزوجين. هل يمكن للزوجة التي

يوجد زوجها أسيراً خلال سنوات عديدة في مكان مجهول عند الروم أن تطلب الطلاق مثلاً.

إن القضية الإسلامية التي كانت تواجه المرأة في الحقيقة هي تحرير الأحبة والإخوة المسلمين من العبودية وكذا السهر على عودتهم سالمين إلى البلاد الإسلامية. أما أفضل سبيل إلى ذلك فكان عن طريق الفداء. وقد كان الإسلام يعتبر هذا الأمر بمثابة مسؤولية ملقاة على عاتق الجماعة الإسلامية، كما كان يستعان أيضاً من بيت مال المسلمين. في حالات أخرى كان الناس يتلمسون من السلطان تبادل الأسرى المسيحيين بإخوانهم المسلمين في البلاد المسيحية بدل إطلاق سراحهم مقابل المال. كما كانت تنظم أيضاً بأمر من السلطات جمع التبرعات في المساجد.

إن تدخل السلطات في تحرير الأسرى المسلمين جعل القضية من الشؤون الحكومية. هناك بالطبع عدد كبير من أمثلة الافتداء أو تبادل الأسرى نتيجة جهودبعثات الخاصة أو في إطار الاتفاقيات الدولية. إلا أن تحرير الأسرى والسهر على عودتهم سالمين على يد السلطان كان يزيد من عظمة هذا الأخير. هكذا نجد مثلاً مؤرخ الخليفة الموحدي "أبو يعقوب يوسف" من القرن الثاني عشر يثنى عليه شاء كبيراً لأنه افتدى سكان إشبيلية الذين وقعوا أسرى في أيدي الجيوش القشتالية: " وأنقذهم من رقبة عبودية الكفر إلى حرية الإسلام ". بمعنى آخر أنقذهم من التصير وتسميتهم بالأسماء المسيحية التي كانت غالباً ما تلي أسرهم ومن ثم عبوديتهم.

من البديهي أن تبادل الأسرى كان فيه عزاء وسعادة لأولئك الأسرى الذين لم يساقو بعد إلى أسواق العبيد. كانت هذه حالة المحظوظين البارزين من الأسرى الذين كانوا يوضعون بعد عملية تصفيه أولى، تحت تصرف الملوك المسيحيين قصد استخدامهم والمتاجرة بهم. في حين أن الأغلبية العظمى من الأسرى كان يتم توزيعها خفية بأسرع ما يمكن حول أسواق العبيد، ومن ثم يتم التوزيع على الصعيد الدولي.

إلى جانب الاهتمام الرسمي للسلطات الإسلامية، كانت هناك أيضاً مبادرات فردية أدت إلى إحداث وظيفة خاصة عرفت "بالفكاك". إن الفكاك غالباً ما يكون تاجراً وصاحب علاقات دولية يستعد أيضاً للسهر على افتداء الأسرى خلال رحلاته

التجارية. هكذا كان يعقد العقود مع المالكين الأحرار لأجل افتداء أسرى معينين من البلاد المسيحية مقابل مبلغ مالي محدد. إن نشاطات هؤلاء الفكاكين معروفة أيضاً من خلال المصادر الأوروبيّة. هكذا كان في العام ١٤٠٧ على الغرناطي المسلم يستقر في منطقة Roussillon جنوب فرنسا قصد افتداء الأسرى المسلمين.

في البلاد المسيحية ظهرت هناك المؤسسة الموازية المعروفة بالفراك Alfaqueque المقابل الطبيعي لمصطلح الفراك في العربية. لقد كان الفكاكون غالباً من اليهود الذين يتحملون مسؤولية مراقبة الأسارى إلى البلاد الإسلامية، وفي طريق عودتهم يرافقون الأسارى المسيحيين إلى البلاد المسيحية. مما لا ريب فيه أن الحكماء المسيحيين بسبب المعارك والمحاصِرات التي تستنزف خزائن أموالهم كانوا لا يتترددون في بيع أسرى الحرب مباشرة مقابل مبلغ من المال.

إن الأقليات الإسلامية التي كانت تعيش تحت حكم النصارى في إسبانيا كانت أيضاً تعمل جاهدة قصد تحرير الأسارى المسلمين من عبوديتهم. إن العبيد المحررين كانوا ينضمون أحياناً إلى الجماعات الإسلامية المحلية التي عرفت في بعض الأحيان كيف تستهوي بعض المحررين من بين العلماء. وقد كان هؤلاء يشكلون حافزاً جديداً للدفع بحركة دراسة الإسلام بين هذه الجماعات التي كان مستواها في العلوم الإسلامية جد منخفض.

من الطرق الأخرى التي كانت تؤدي إلى الافتداء ما كان مبنياً على الجهود التي يبذلها الأسير نفسه. هذا يعني أن الأسير كان يحاول بشتى الطرق جمع المبلغ المالي الذي يتطلبه تحرير رقبته. هكذا نقرأ في وثيقة لعام ١٣٠٢ عبارة عن تصريح لقاضٍ مسلم إلى أسيرين مسلمين يرخص لهماأخذ الزكاة من الجماعات الإسلامية في مملكة بانسية تحت حكم ملك أراغون، قصد جمع المبلغ المالي لافتداء أنفسهما. في بعض الحالات وخاصة عندما يكون المالك شديد التعلق بوداد وإخلاص عبده، كان الأسير يكتسب هذا المبلغ المالي عن طريق عمل مشرف أو ممارسة محكمة لصنعة ما خلال مدة معينة. مما يتadar إلى الذهن بدأه أن رجال المهن وكذلك النخبة المثقفة، التي سيأتي الحديث عنها لاحقاً، كانوا يحظون دون غيرهم

بمعاملة امتيازية. إلا أن اعتبارات عديدة ذات طبيعة اقتصادية وجغرافية كانت تلعب دورها في هذا المجال، ففي جزر البليار مثلاً حيث فرار الأسير بعد من المستحيلات، كان الأسرى المسلمين الذين يُؤتى بهم من مكان آخر يسعون بأنفسهم إلى اكتساب حريتهم. إن الاعتقاد كان سائداً أن العبيد الذين كانوا يتواجدون في مثل هذه الظروف كانوا يجهدون أنفسهم أكثر. علاوة على ذلك لم يكونوا في حالتهم هذه يحتاجون إلى الحراسة الدائمة والثمينة.

من المبادرات الأخرى التي كان الأسير يحاولها المراسلة مع عائلته في موطنه حيث يطلعهم على مكان وجوده وكذلك المبلغ المالي الذي هو في حاجة إليه لافتداء نفسه. من الأمثلة الخاصة مثل هذه المراسلات رسالة بعث بها ابن برطلة الخطيب المشهور من مدينة مرسيّة، الذي أخذ أسيراً من طرف النصارى في القرن الثالث عشر. خلال أسره نظم هذا الخطيب قصيدة على بحر الرجز موجهاً فيها نداءً إلى عطف وشفقة إخوانه المسلمين. وقد أطلق على قصيده هذه: "ذكرى المتفجعين وبشري المسترجعين".

في حالات عدم توفر المبلغ المالي الضروري كانت بعض العائلات تجعل أحياناً ولدأً لها رهناً حتى يجمع الأب المسرح ذلك القدر المالي الذي طلب منه. وكما هو العادة كان الفقهاء يواجهون بمثل هذه القضايا عندما يطرأ مشكل ما. إن الابن الراهينة في حالة وفاة أبيه قبل جمع القدر المالي لتحريره، كان يشترط تحريره من ممتلكات أبيه قبل تقسيم ميراثه. بالإضافة إلى ذلك كان يحدث تقاضي أسير مهدد بتقديم الأبناء كرهينة. إن الفقهاء كانوا يحكمون على جميع سكان حصن تخلصوا من الأسر عن طريق تقديم الأطفال كرهائن، أن يساهموا كل على حسب إمكاناته لجمع المقدار الذي يتطلبه افتداء كل الأطفال الرهائن.

رابطات فك الأسرى المسيحيين

من الجانب الأوروبي المسيحي ظهرت هناك مبادرات قصد فدية الأوروبيين الذين سقطوا في شرك العبودية في البلاد الإسلامية. وقد اهتمت بهذه الأنشطة منذ القرن

الثالث عشر العدد من الجمعيات الدينية والرابطات اللائκية (خاصة الرابطات الجنديّة) التي ساهمت مراراً في عملية تبادل الأسرى والعبيد المسلمين في البلاد المسيحيّة بإخوانهم المسيحيّين في البلاد الإسلاميّة. مع نهاية القرن الثالث عشر تأسست بمبادرة من يوحنا المتي (من مقاطعة بروفانس Provence بفرنسا) "جمعية الثالوثين Trinitaires" كانت تستهدف تحرير وافتداء العبيد النصارى في البلاد الإسلاميّة. إنّ أعضاء الجمعيّة أعطوا عهدهم على تخصيص الثلث من ممتلكاتهم لفدية السجناء الأسرى. مع بداية القرن الرابع عشر أُسست طريقة مريم الرحمة في برشلونة لنفس الغرض أيضًا. من الحالات الاستثنائيّة في هذا المجال التدخلات الكتابيّة للصوّي الإفريقي الشمالي الحرّالي الذي توفي في دمشق ١٢٤٠. لقد بعث هذا الشخص إلى السلطات الكنسيّة في المدينة الإسبانيّة تركونة Taragona حيث يوجد عدد من أعضاء أسرته في الأسر، برسالة بدعة الأسلوب. في رسالته يصر الحرّالي على وحدة الجنس البشري: "فكتب إلى قسيس تركونة ليفك أسرهم ويزيل عنهم أسرهم: بسم الله ولا حول ولا قوة إلا بالله الذي خلق البشر من نفس واحدة وبراً أبدانهم كلها من أديم الأرض الواحدة فجعلهم بالحقيقة ذوي رحم واحدة، لو تعارفوا حق المعرفة بما اشتراكوا فيه أبدانهم وانفردت بالنفس الواحدة نفوسهم وتحققت بروح الله أرواحهم، ما تقاطعوا ولا تسافكوا الدماء ولا تواثبوا توابث الأسد على النعاج...." في هذه الرسالة يستدرج المؤلف زملاء النصارى الإسبان للنظر إلى أبعد مما تسمح به الحدود الدينية المعروفة نافيًا عن هذه الأخيرة معناتها الديني الجوهرى. إن الدعوة الدينية لإبراهيم الأب الأول لكل من الروم والعرب، تتبنى في رأيه على أساس عميق مشتركة بين المسلمين والمسيحيين. إن الحرّالي يستند في رسالته هذه ضمليًا على الموقف الصوّي من وحدة الوجود الذي يقول من بين الإنسانية جماعة. إن الحرّالي يقتفي هاهنا أثر معاصره المتصوف الأندلسي محى الدين بن عربى من مدينة مرسية. غير أن هذه الرسالة أثارت شعور قسيس تركونة الذي علق عليها قائلاً إن صاحبها قد تجاوز فيها الأسس الدينية. غير أنه في الأخير أطلق سراح أعضاء عائلة الحرّالي.

ابتعاد طرق روحية لفک الأسرى

بالإضافة إلى هذه الوسائل المادية التي أتبنا على ذكرها كانت هناك طرق روحية أخرى مختلفة تماماً، تنتهج لفدية الأسرى خاصة عن طريق شفاعة الأولياء والصالحين الذين تسبب لهم في هذا المجال كفاءات خاصة. من ناحية كان الأمر يتعلق بمعجزات عرضية وطارئة تقوم بها شخصيات دينية معروفة خلال حياتهم. من جهة ثانية، كان هناك أولياء أصبحوا بعد وفاتهم "متخصصين" في حل مثل هذه الوسائل، بحيث لم يكن في استطاعتهم تحقيق افتداء الأسرى فحسب، بل كانوا يقومون بإجراءات وقائية لتلافي سقوط المسافرين في يد النصارى. وكما هو شأن كل الأولياء في كل زمان ومكان، كان هؤلاء الأولياء المسلمين، خاصة من خلال الحكايات التي تشرع عنهم والدعوات والصلوات التي توجه إليهم، يلعبون دور الأطباء النفسيين أيضاً. إن تقديس الأولياء والحديث عن معجزاتهم كانت بالنسبة للأسير وكذا عائلته بمثابة عزاء وتسلية بحيث يجعلهم ذلك يفكرون على الأقل في إمكانية الخلاص بحدوث معجزة. إن أقدم مثل معروف لدينا حول هذا التدخل المعجز يتعلّق بأحد أكابر العلماء القرطبيين المتوفى سند ٨٨٩، ألا وهو المحدث والمفسر المشهور بقى بن مخلد.

يقال إن امرأة يائسة لم تكن تملك ما تقتدي به ابنها الأسير عند النصارى لجأت إليه مرفوقة بابنها وهو يتمتع بصحة جيدة. بعدئذ حكى الأسير قائلاً إن السلالس الحديدية في كعبه سرعان ما كسرت بحيث لم يستطع أحد من النصارى ولو من القساوسة إعادة القيد إلى مكانه. ولما أدركوا أنه يحظى بعناية ربانية خاصة توكلوه حرأ طليقاً بل رافقوه إلى الديار الإسلامية.

إن مثل هذه المعجزات تسبب إلى الصلحاء أيضاً من العصور اللاحقة. فمثلاً الزاهد الأندلسي الشري في من القرن الثاني عشر عرف كيف يرخي الأغلال الحديدية في رقبته وتمكن بعد ذلك برفقة صديق له من قطع مسافة، كان قد استغرق قطعها يوماً كاملاً خلالأخذهما أسيرين في البلاد المسيحية، في ساعات قليلة غير أن هذه المرة في الاتجاه المعاكس وفي الطريق إلى الحرية.

مما يحكى أيضاً أن الشاطبى، وهو من الصالحاء الأندلسين من نفس المرحلة، صد مائة من الفرستان المسيحيين الذين راموا القبض عليه. وفي واقعة أخرى عرف كيف يغير اتجاه الرياح بكيفية جعلت سفينة مسيحية محملة بالأسرى المسلمين تتكسر في اليابسة بحيث تحرر الأسرى المسلمين ولقي المسيحيون ما يستحقونه من جزاء. كما كان الولي الأندلسي الشستري ينادي على الأسرى بحيث أن المنادى عليه كان من مكنته أن يحيى في البلاد الإسلامية في اليوم القادم.

من بين الأولياء المشهورين في مدينة سبتة على مضيق جبل طارق حيث كان القراصنة المسيحيون يضررون عادة عسهم، ريحان الأسود. لقد كان هذا الشخص مقدساً خلال القرون الوسطى لدى الخاصة وال العامة. كان اسمه في الحقيقة بمثابة رمز: ريحان الذي يعني الحبق أيضاً كان كثيراً ما يطلق على العبيد، كما أن لفظة الأسود تدل أيضاً على نفس المعنى. يقال إن زوجة ملاح أسر من طرف المسيحيين طلبت منه التدخل لافتداء زوجها. ولم يمر وقت طويلاً على دعاء الولي حتى عاد البحار عند زوجته سالماً. هكذا كان ريحان الأسود يعتبر الولي والحامى الأول للملاحين والمسافرين. من ثم أصبح قبره من أهم القبور التي يتبعده فيها في سبتة كما كان العلماء يعدون الدفن بجواره شرفاً عظيماً.

في فاس كان يعيش حوالي منتصف القرن السادس عشر الولي الصالح رضوان الجنوبي نجل أحد الرعايا الجنوبيين الذي رحل إلى إفريقيا الشمالية أواخر القرن الخامس عشر واعتنق الإسلام. كان متزوجاً بأمراة يهودية دخلت أيضاً الإسلام. إن الكرامات التي تسبب إليه تتعلق ببركته في الاستشفاء وفي افتداء الأسرى والعثور على المواد المضاعنة أو المسروقة أو العبيد الهاجرين. عمل رضوان الجنوبي جهده قصد تحرير أسرى الحرب بعد معركة وادي المخازن التي دارت بين المغرب والبرتغال. لقد أدان حينئذ السلطان المغربي المنصور عندما اختار تحرير الأسرى المسيحيين بمال بدل استبدالهم بالأسرى المسلمين عند البرتغال. إن الروايات التي تشاء حول دور كل هؤلاء في فداء الأسرى تعبر عن التأثير المأساوي الذي لعبته هذه الظاهرة الشرسة في حياة الناس اليومية خلال القرون الوسطى.

الأسرى المسلمين العلماء

إن مجموعة خاصة من بين الأسرى المسلمين كانت تتشكل من نخبة صغيرة من المثقفين التي استخدمت لإنجاز بعض المهام الخاصة.

ويمكن التمييز بين ثلاثة أنواع من العلماء حسب كفاءاتهم. في البداية كان رجال العلوم الدينية العرب مطلوبين بكثرة. إن الأطباء المسلمين مثلًا كانوا يباعون في أسواق العبيد بأثمانه باهضة وكانوا يحاطون بتقدير كبير من طرف السلطات العمومية. هكذا كانت السلطات المحلية لمدينة فيلافرنكا Vilafranca تتتوفر على طبيب مسلم عبد متخصص في علاج أمراض العيون. ولما علم بذلك ملك أragون بيدرو الرابع Pedro IV أمر حكام المدينة المذكورة كي يبعثوا بهذا الخبر إلى برشلونة لمدة محددة قصد معالجة أحد أعوانه المصاب بمرض خطير.

إن علوماً أخرى غير الطب كانت ممثلة في الأسرى المسلمين. مما لا ريب فيه أن أحسن نموذج في هذا المجال هو الجغرافي المغربي الوزان الفاسي الغرناطي الأصل. لما كان عائداً من رحلته إلى مصر عبر البحر سنة 1519 أسره القرادنة الصقليون وفي حوزته المسودات الدراسية التي كان قد وضعها خلال رحلاته حول إفريقيا. وعندما علم القرادنة بالقيمة الفريدة لفنيمتهم قدموه هدية إلى البابا ليون العاشر في روما الذي نصر العالم المسلم في سادس يناير 1520 وسماه باسمه الخاص: يوحنا ليون. خلال هذه المرحلة الجديدة من حياته تعلم ليون الإفريقي اللغة الإيطالية كما ألف معتمداً على ملاحظاته الدراسية كتابه المعنون: وصف إفريقيا الذي ظل خلال عدد من القرون أهم مرجع جغرافي في أوروبا فيما يتعلق بالعالم الإسلامي وخاصة إفريقيا المسلمة. في حوالي 1550 سمح لليون الإفريقي بالرحيل إلى تونس. وقد درس قبل ذلك اللغة العبرية في بولونيا حيث ساهم في إعداد معجم عربي-عبرى-لاتيني الأمر الذي يجعل منه أحد المهددين الأوائل لعلم تأليف قواميس اللغات السامية المقارنة.

إن فريقاً آخر من العلماء المسلمين الأسرى استخدم لنسخ المخطوطات العربية. لقد كان الناس في إسبانيا المسيحية في أمس الحاجة إلى النصوص العربية لممارسة الطب العربي مثلًا ودراسة الفلسفة العربية إلى جانب الاهتمام المتزايد من الجانب

الأوروبي لترجمة النصوص العلمية العربية. إن مساهمة الأسرى المسلمين خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر في نسخ المخطوطات العلمية العربية يمكن استخلاصها من خواتم هذه المخطوطات، بحيث أن هؤلاء النساخة لم يكونوا يختمنون كتبهم بتاريخ الكتابة والتوقيع فقط، بل كانوا يضيفون إلى ذلك دعاءات يعبرون فيها عن رغبتهم في الخلاص وكذلك وضعية الأسر التي يعيشون فيها.

من العبارات الواضحة في هذا الصدد ما كتبه ناسخ مسلم من برشلونة سنة ١١٦٦ حيث يتبع اسمه بالدعاء التالي: "فَكَ أَسْرَهُ وَارْحَمَ مِنْ قَالَ آمِنَ حِينَ يَقْرَأُهُ". وفي مخطوط آخر يعود إلى سنة ١٢٢٧ من طليطلة يتبع ناسخ آخر اسمه بالدعاء التالي: "اسْتَقْدِهِ اللَّهُ لَا رَبَّ سَوَاهُ". وفي مخطوط آخر من نفس المرحلة أيضاً يشير ناسخ مسلم بعد ذكر اسمه أنه يوجد أسيراً في طليطلة مختتماً بالدعاء التالي: "اْطْلُقْ اللَّهُ سَبِيلَهُ". إن هذا الناسخ الأخير المدعو يوسف بن محمد التبيوي اللوشي حرر فعلاً من الأسر. وقد توفي في سنة ١٢٦١ في غرناطة حيث دفن بمحضر من السلطان الذي كان عنده خطيباً وصاحب القلم الأعلى. إن كتب التاريخ العربية التي تتضمن نبذة عن حياته تذكر له أيضاً بعض الأبيات الشعرية يعبر فيها عن تجارب حياته. يقول:

ليس للمرء اختيار في الذي
يتمنى من حراك أو سكون
إنما الأمر لرب واحد
إن يشاً قال له كن فيكون.

في بعض الأحيان الأخرى يذكر الناسخون أسماء أصحابهم الذين هم في خدمتهم. يتعلق الأمر هنا دائماً بأصحاب المكتبات اليهود المرموقين. هكذا كان هؤلاء الأسرى المسلمين ناقلو المخطوطات يلعبون دوراً وسيطياً في نشر العلوم والفلسفة العربية في العالم المسيحي خاصية في المرحلة التي بلغ فيها تأثير الثقافة العربية في أوروبا الغربية أقصى مداه. فيما بعد القرن الثالث عشر أصبحت المخطوطات العربية المنقوله من طرف الأسرى المسلمين في الديار المسيحية نادرة جداً. فيما يخص القرنين الخامس عشر والسادس عشر لا نكاد نثر إلا على بعض النسخ القليلة. من الجانب المسيحي كان هناك أيضاً اهتمام كبير بالأسرى المسلمين العلماء الذين خبروا العلوم الدينية. كانت دراسة الإسلام والعربية تعتبر من

الشروط الالزمة لتكوين المبشرين المكافئين بتبليغ تعاليم الانجيل إلى الذين كان يطلق عليهم "الوثيون". لقد كان الرهبان الفرنسيسكانيون والدومينيكيون بالخصوص نشطين في هذا المجال حيث أسسوا لأجل هذا الفرض مراكز تعليمية خاصة. ومن العلماء الذين لعبوا دوراً مهماً في هذا المجال العالم اللاهوتي الكتالوني ريموندس لولوس Raimundus Lullus الذي لقن مبادئ العربية والإسلام على يد عبد مسلم خلال سنين عديدة. يروي أن العالم العبد المسلم أنكر في حديث له مع نولوس الوهية المسيح والأقانيم الثلاثة وفق تعاليم القرآن. حينئذ رد عليه نولوس بالاستهزاء بالنبي محمد صافعاً إياه على وجهه ورأسه وجميع جسمه. بعدئذ لم يجد العالم المسلم المغلوب على أمره إلا أن يتأسف على تعليمه العربية وتوضيحه القرآن والشريعة الإسلامية لريموندس لولوس. بعد محاولة فاشلة لقتل سيده وضع العبد المسلم في السجن حيث مات مخنوقاً. إن هذه المأساة التبشيرية تجدها عند المتكلم اللاهوتي الكتالوني في سيرته الذاتية.

دور الأسرى في نشر الثقافة الإسلامية

إن هذا المثل للعالم العبد الذي كان في خدمة ريموندس لولوس ليس الوحيد من نوعه. إن العلماء المسلمين الأسرى المستخدمين كأساتذة لعبوا دوراً مهماً في الدراسة الأولى للعربية في أوربا الغربية المسيحية خلال القرون الوسطى المتأخرة. ومما يدل على ذلك دلالة واضحة في هذا الميدان وقائع حياة العالم التونسي أصلاً محمد بن خروف التونسي من القرن السادس عشر. لقد أخذ هذا أسيراً على يد الإسبان حيث انتهى به الأمر إلى أن يصبح مملوكاً في يد راهب أجبره على تعليمه كتاب المفصل المشهور في النحو للزمخشيри. عن طريق وساطة العالم الفاسي المشهور أبو عبد الله اليسيتي عند السلطان الوطاسي حرره هذا الأخير من الأسر. حينئذ رافقه القس الإسباني الذي كان أحد الأنساب المقربين لحاكم مدينة غرناطة، إلى فاس قصد متابعة دراسته العربية على يده هناك. غير أن العالم الفاسي المذكور اليسيتي كتب فتوى يحظر فيها هذه الدروس على الرغم من أن ابن خروف كان قد وعد

القس الإسباني بذلك قبل تحريره. وكحجة على ذلك أبان العالم المسلم أنه وفقاً للمذهب المالكي يمنع تعليم القراءة والكتابة بالعربية لغير المسلمين، لأن هذا الأخير عن طريق معرفته بالعربية سوف يعمل على الطعن في كلام الله. لقد درس ابن خروف بعد افتاده سنة ١٥٤٠ حتى وفاته علم الكلام وعلم الأصول والبلاغة. كما اكتسب شهرة واسعة في ميدان العلوم العقلية.

إن ريموندس لولوس وكثيرين غيره من المؤلفين صنفووا كتاباً حول المناظرات بين علماء الدين المسيحيين وخصومهم العلماء المسلمين، كانت تستعمل ككتب دراسية في تكوين الطلبة المبشرين. بطبيعة الحال كان المناظرون المسيحيون يخرجون دائماً منتصرين في هذه المجالات الكلامية! إن الكثير من الناس يعتقدون أن هذه الكتب الجدالية المناهضة للإسلام ولدية الخيال الأدبي، بمعنى أن هذه المحاورات التي تتضمنها تلك الكتب لم تجري في واقع الأمر.

ومن الطبيعي أن يكون شكل ومحنتي هذه النصوص في النهاية وليد غرفة الدراسة. إلا أن واقع اتخاذ العالم المسلم العبد كموضوع تجربة في المناظرات الدينية مع علماء الدين المسيحي ظاهرة معروفة. وهذا الأمر يبدو واضحاً من مجموعة من النصوص العربية المخطوطة كتبها هؤلاء العلماء المسلمين في غالب الأحيان بعد فديتهم وعودتهم سالحين إلى أوطانهم. في هذه النصوص نجد النصر حليف المجادل المسلم على خصمه النصراني! إن أقدم مثال على هذه المجالات نجده عند الخزرجي المزداد بقرطبة ١١٢٥ الذي أخذ أسيراً عن سن تناهز ٢١ إلى طليطلة المسيحية حيث وجد نفسه مضطراً للدخول في نقاشات دينية بين قس وأقلية مسلمة محلية. لما علم القس بتدخل الخزرجي بعث إليه برسالة حاقدة حول عظمة المسيحية ودناءة الإسلام. إلا أن الخزرجي لم يجرؤ على الرد عليه في حينه ملتزماً السكوت: "وامتنع من مراجعة القس تخوفاً منه لكونه يومئذ مدمجاً بين أظهر القوم وفي قبة ديانتهم". ولما ألح عليه مسلمو تلك المدينة وكان وقت رحيله قد دنا، كتب رسالته في الرد على القس بعنوان: "مقام الصلبان في الرد على عبادة الأوثان". إن العدد الكبير من المخطوطات المحفوظة من عمله هذا تشهد على الشهرة الكبيرة التي

كان يتمتع بها خاصة في شمال إفريقيا. إن مقدمة رسالة الخزرجي كما وصلتنا وضعها كاتب مجهول جمع فيها رسالة القس ورد الخزرجي عليه في كتاب واحد. في مقاله "حول التسامح الديني وابن ميمون والموحدون" يقول الباحث المغربي بتشريفه مستدلاً على كتاب المراكشي، الذي سيأتي ذكره: "ومن الغريب أنه - لما كان كفيفاً - أملَى كتابه المذكور في الأسر على مملوك له من أبناء الروم قد علمه الكتابة".

هناك استشهادات مفصلة محفوظة من نص مؤلف يدعى عبد الله الأسير الذي كان يناظر حوالي نهاية القرن الثالث عشر من المحتمل في المدينة الفرنسية مونبولييه. وفي كتالونيا كان يناظر هناك حوالي سنة ١٣٠٩ الأسير التونسي الأصل محمد القيسي. إن كتابه الذي لم ينشر بعد يعتبر وثيقة تاريخية فريدة من نوعها. إن المؤلف الذي كان أمي يقول إنه لما أراد تسجيل تجاريه في كتاب، لم يجد أحداً يأخذ عنه مهمة تحرير كتابه بالعربية: "لبعد ديارنا وانقطاعنا عن أهل ملتـا، لا طالب يطلب ولا كاتب يكتب".

أسير يحاور المسيحية

خلال القرن الخامس عشر كتب محمد الأنصاري الأندلسي مؤلفاً تحت عنوان: "رسالة السائل والمجيب وروضة نزهة الأريب" حيث خصص الفصل الأخير منه لمجادلاته التي خاضها في قشتالة خلال إقامته هناك كأسير. لقد قسم رده على المآخذ المسيحية حول الإسلام إلى ستة مجالس وقفت حسب ما يذكره في كل من شملنته، مجرِّي وشقوية. أما الأشخاص الذين جادلهم فكانوا مثلاً من خدام البلاطات وأساقفة والرهبان والوعاظ والشمامسة.. إن المؤلف يذكر مثلاً أنه حضر محاضرة في جامعة شملنته. وبعد انتهاء المحاضرة خرج في رفقة الخطيب وقسيس الاعتراف الخاص بالملك عبر رحبة الكنيسة العظمى في طريقه إلى مسكنه المجاور. خلال ذلك دار بينهما حوار التالي: "فـلما بـلغـنـا وـسـطـ الـكـنـيـسـةـ رـأـيـتـ صـورـاـ منـ الـخـشـبـ مـطـلـيـةـ بـأـنـوـاعـ [الأـلوـانـ] مـحـكـمـةـ الصـنـعـةـ تـخـيلـ لـلـنـاظـرـ أـنـهـ تـكـلـمـهـ. فـجـعـلـتـ

أسأله عنها وأسوق لهم المعلوم سوق المجهول معرضًا بهم ومستدرجًا للأسقف، فقلت
وقد وقفت على صورة عيسى مصلوياً على خشبة الصليب ويداه مسمرتان وكان الدم
يقطر منها:

من هذا المسكين؟

قال لي: أو ما تعرفه؟

قلت: لا!

قال: هذا عيسى بن مريم.

قلت: فما له على هذه الحالة؟

قال: أو لست تعلم أن اليهود صليبوه؟

قلت: لا علم لي بذلك.

قال: فإنه كان من قصته كذا وكذا.

فقلت له: أليس هذا ما تزعمون أنه إله؟

قال: بل!

قلت: فإن إلهاً تصليبه اليهود ولا ينتصر لنفسه؟

فعلم أني كنت أتجاهل مستدرجًا له الكلام، فقال: قصة المسيح من الخفاء
والغموض بحيث لا يهتم إليها المسلمون ولا كثير من النصارى لدقتها وخفائها إلا من
أيد بتأييد إلهي مثل علمائنا وإنما أنظاركم معشر المسلمين جلية لا تذكر ونحن قد
ختنا الله تعالى بهذا السر الخفي واتخذناه عهدًا يؤمن به عوامنا تقليدًا لا علمًا.

قلت: ليت علماءكم مثل عوامكم إذا كان يرجى لهم الفلاح وكيف لعوامكم
بفهم ما تستحيله العقول وبيعة المعقول والمنقول، بل من أين ذلك لعلمائكم فضلاً عن
عوامكم؟

[قال]: فإن صحت لك الحكمة في ذلك هل تعتقد صواباً؟

قلت: إن قبله العقل وعضوه النقل اعتقدته، وإن كان صوابكم في كل ما تزعمون ضربينا به الأرض؟

قال: فإن الحكم في صلب المسيح والتحامه في بطن مريم هي أن آدم [عليه السلام] لما خالف أمر الله بأكله من الشجرة استوجب بذلك النار هو وجميع ذريته من النبيين وغيرهم وأنهم كانوا في النار أجمعين بسبب ذنب أبيهم حتى صلب المسيح وأريق دمه، فحينئذ كسر أقسام النار فأخرجهم منها، فلما أراده من الصليب حل في بطن مريم والتجم فيها وصار إنساناً ذا جسم كسائر البشر واحتمل معاناة الصليب والقتل ليخلصنا من النار بحكمته وفضله إذ لم يمكن في الحكمة الإلهية أن يعاقب آدم على ذنبه لأنه عبد ومنزلته حطيبة بالنسبة إلى منزلة مولاه وسيده، فاقتضت حكمته أن يقتصر من إله مثله فأخذ الجسم كما ذكر وصبر على صلب اليهود وامتهانهم ليخرج صفة خلقه الأنبياء من الجحيم. فعل ذلك وأراده بفضل رحمته ورأفته فهو الإنسان التام من جهة الجسم و[إله] التام من جهة الروح". قال المؤلف: "لما ملأ أسماعي من التشريعات الكافرية المستحيلة عقلاً ونقلأً ضحك متعجبًا.

فقال: مما ضحكك؟

قلت: ما كنت أحسب أن الجهل يبلغ بكم هذا المبلغ العظيم الذي لا يجوز على الحيوان البهيمي".

المنظور الأوروبي الغربي لتاريخ العصور الوسطى

إن الرق والعبودية حول البحر المتوسط خلال القرون الوسطى كانت ظاهرة اجتماعية واقتصادية مهمة سمح بها وأقرها كل من الإسلام والمسيحية معاً. إن مؤسسة العبودية نتجت عنها حركة تجارية دولية لنقل العبيد من مختلف الجهات وفي الاتجاهات المتعددة. ولما كانت إسبانيا المسلمة في القسم الغربي من حوض البحر المتوسط البلاد الأكثر قوة من هذه الجهة إلى حوالي نهاية القرن الحادى عشر،

كان نقل العبيد الغربيين يتم في اتجاهها من شمال وشرق أوروبا من جهة ومن إفريقيا السوداء من جهة أخرى. بالإضافة إلى ذلك كانت إسبانيا المسلمة تلعب أيضاً دوراً بارزاً العبور في بيع العبيد الأوروبيين في اتجاه شمال إفريقيا ومصر. غير أنه مع ظهور الحروب الصليبية صوب الأراضي المقدسة وكذلك حروب الفتوح المسيحية ضد إسبانيا المسلمة وشمال إفريقيا ابتداءً من نهاية القرن الحادي عشر حدث هنا تغير ملموس. إن الأساطيل المسيحية عندما سيطرت على البحر المتوسط عملت على تدعيم عملياتها العسكرية المتزايدة باستمرار في البر ضد الأراضي الإسلامية. ونتيجة لذلك بدأت تظهر في الأسواق الأوروبية أعداد مهمة من العبيد المسلمين.

كانت هناك في الواقع ثلاثة مصادر تزود أوروبا الغربية بالعبيد في القرون الوسطى: شن الحروب في إطار المعارك وحصار المدن ثم القرصنة البحرية وأخيراً عن طريق تجارة العبيد الدولية. إن القرصنة كانت في الحقيقة نوعاً من شن الحروب في البحر. ارتبطت بالقرصنة البحرية إجراءات ضغط كثيرة ضد جاليات التجار الأجانب والسفن التي تجأ إلى اليابسة حيث تصادر بطاقةها ومسافرها وحمولتها، كما يصادر الأشخاص والسلع التي سيطر عليها نتيجة غرق سفينة من السفن. إن العلاقة بين الدول المسيحية والدول الإسلامية كانت في العادة علاقة حرب، ما عدا في حالات اتفاقات خاصة (كانت توقع في الغالب بين الطرفين لمدة معينة) فكان يتم تحديد نوع العلاقة بين الدول الإسلامية والمسيحية. في إطار هذه العلاقة كان اختطاف الأسرى في البحر وفي مناطق العدو مسألة جارياً بها العمل. وكان الحكم يمنحون سفن القرصنة، مقابل دفع مبلغ من المال، ترخيصاً يسمح لهم ببيع غنائم الأسرى في موانئ الربط كعبيد، إلا أن السفن التجارية أيضاً في حالة تعرضها لهجوم ما، كانت تتكشف في طريقها عن قراصنة إلى أن ينتهي الهجوم وتنتقل الفنية بطريقة مشروعة إلى الأسواق المحلية، بعد أن يحدد المسؤولون الحكوميون أن الفنية ليس فيها رعايا الملك الذي تم عقد اتفاق وقف القتال معه. إن الاتفاques الدولية بين الدول المسيحية والإسلامية كانت تؤدي في الأوساط الإسلامية إلى مشادات حول وضعية بعض المجموعات من الأسرى. هل يمكن مثلاً مساعدة

الأساري المسلمين من بلاد أخرى بعد أن تمكنا من النزول في ميناء مدينة بلد مسلم هريراً من سفينة مسيحية طاقمها من رعايا ملك عقد معه الحاكم المسلم معاهدة سلم؟ أم يجب إرجاع هؤلاء الأساري المسلمين إلى السفينة التي فروا منها. يجيب ابن سيراج عن هذه القضية الأخيرة بالتفصي.

فيما يتعلق بالطريق الأخيرة في تزويد أوروبا بالعبيد المسلمين، أي بواسطة تجارة العبيد الدولية فإنها كانت في النهاية مبنية على المصالح المشتركة للطرفين الإسلامي والمسيحي. ومن ثم ففي إطار القانون الدولي آنذاك، كانت ذات طبيعة "سلمية". إن هذه التجارة جلبت خاصة العبيد الإفريقيين بقوافلهم عبر الصحراء وعن طريق شمال إفريقيا إلى أوروبا الجنوبيّة. وفيما بعد حوالي ١٤٧٠ حول اتجاه قوافل العبيد هذه إلى إفريقيا الغربية أي إلى الموانئ التي تم فتحها من طرف البرتغال بما في ذلك غينيا.

خلال القرون الوسطى المتأخرة أصبحت نسبة العبيد الذين يعيشون في دول أوروبا الجنوبيّة محدودة. إن علاقات القوى الدوليّة المتذبذبة هي التي كانت تحدد نسبة العبيد المسلمين بين مجموع العبيد الموجودين في بلد وزمن معينين. في صقلية مثلاً خلال القرن الثالث عشر كانت أغلبية العبيد ذات الأصول الإسلامية، غالباً ما تحدّر من إسبانيا المسلمة والمغرب. وفي القرب الرابع عشر انعكسَت الآية بحيث أصبحَ أغلب العبيد هناك، خاصة في صقلية من اليونان والقبار والألبان والبلغار والروس والترك. على عكس ذلك زاد في القرن الخامس عشر عدد العبيد الإفريقيين بسبب صعوبة المنفذ إلى أسواق العبيد في أوروبا الشرقيّة نتيجة تزايد سلطة الأتراك وسقوط القسطنطينيّة.

إن العبيد ذوي الأصول الإسلامية في جنوب أوروبا خلال القرون الوسطى المتأخرة نجدُهم ممثّلين في مختلف القطاعات الاجتماعيّة. نجدُهم ك فلاحين وحرفيّين وخدم في الأديرة وعند الرهبان. نجدُهم كذلك ك خليلات ومطريات ومستخدمين في بلاط النبلاء. من البديهي أن هذه الجماعات لعبت دوراً صلّة الوصل داخل اللقاء الثقافي المسيحي الإسلامي في القرون الوسطى خاصة في ميدان الثقافة

المادية والعلوم التقنية والموسيقى والشعر والقصص. في بعض الحالات يمكن إثبات هذا على أساس الوثائق، فمثلاً هناك حالة عبد مسلم حرره سيده شريطة تعليمه إياه فناً خاصاً في صياغة الحرير التي كان هذا العبد وحده على معرفة بها في حين كان هذا الفن غير معروف في البلاد المسيحية.

المعروف أن الغالبية العظمى من هؤلاء العبيد المحررين لم يكونوا يعودون إلى وطنهم الأصل. إن إدماجهم في المجتمعات الأوروبية تزامن مع عملية تصويرهم وتعميدهم. غالباً ما كان العبيد المسلمين قبل بيعهم للمرة الأولى يتم إخضاعهم للتচير وتلقيبهم بأسماء مسيحية. في الوثائق المتعلقة بهذه القضية كان غالباً ما تتم الإشارة إلى أصولهم الإسلامية بصورة عامة وأحياناً يتم ذكر اسمهم الإسلامي السابق. في أحيان أخرى ومع نهاية القرن الحادى عشر، كان التصير والتسمية يحدثان بعد البيع الأول. في دير القديسة مرريم في سبرادو Santa María de Sobrado في إقليم لاكورونيا كان العبيد المسلمين يتم تصويرهم مباشرة بعد وصولهم، فكان المسمى "غالب" يطلق عليه "طوماس" وعلى يدعى لورينتيوس Laurentius إلخ أما وضعيتهم الدينية قبل تصرفهم فيتم الإشارة إليها في الوثائق المتعلقة بهذا الموضوع "بالوثسين" païens. غير أن هناك في الحقيقة عدداً من الأمثلة المعروفة عن العبيد الذين حافظوا على اسمهم الإسلامي مما يدل على أنهم لم ينصرفوا. إلا أن هؤلاء لم يكونوا يتمتعون بالحرية الكافية لممارسة شعائر دينهم. أما أطفال العبيد فكانوا ينصررون أيضاً مباشرة بعد ولادتهم.

إن التصير الفعلي للعبد المسلمين لم يكن في حقيقة الأمر نتيجة ضغط مادي مباشر - مما يعارض ونصوص التعاليم الكنسية- بل كان نتيجة ثقل الضغط الاجتماعي بحيث كانت حظوظ تحسين الوضعية الاجتماعية للعبد كالترقي مثلاً من وضعية عبد إلى قن أو التحرر تلعب دوراً مهماً في هذا المجال. إن هاتين الطريقتين في تحسين الوضعية الاجتماعية للعبد كانت ترد في البلاد المسيحية بعد عملية التصير. غير أنه لم يكن يلتزم بهذا الشرط بدقة خاصة في مناطق من إسبانيا المسيحية حيث الأقليات الإسلامية كانت تتمتع بنوع من التسامح الديني المعتاد. في

قانون طرطوشة Codex de Tortosa كان التصير يعتبر شرطاً لازماً لكل تحرير ولكن لم يكن سبباً له. من ثم كان للملك المسيحي الحق في بيع العبيد المسلمين المنصرين.

إن اليهود لم يكن يسمح لهم بامتلاك عبيد مسيحيين وكان العبيد المسلمين في يدهم يشكلون خطراً بسبب إمكانية تصيرهم. من ثم كانت القاعدة السائدة في تجارة العبيد بين اليهود والمسيحيين التصيص في العقود التجارية على أن البائع المسيحي يشرط على نفسه استعادة قبول العبد المسلم وإرجاع القدر المالي إلى المالك اليهودي في حالة ما إذا قرر العبد المسلم الدخول في المسيحية. إن التصر كوسيلة ينهجها البعض للتحرير ثبتها العديد من الوصايا القراءسطوية حيث أن العبيد المتعلق بهم الأمر غالباً ما يتم تحريرهم بعد عدد من السنوات في خدمة مالكيهم شريطة حدوث التصير.

إن المسلمين الذين كانوا يعيشون بوصفهم أقلية تحت الحكم المسيحي المتسامح يطلق عليهم اسم Mudéjares، الاسم الذي يحمل اشتقاقة من اللفظة العربية مدجن بمعنى المخضع أو المطوع. وبعد تصيرهم مع بداية القرن 16 لم يعد يطلق عليهم Mudéjares بل أصبحوا يدعون الموريسكيون مما يفيد نوعاً من القدر، يكتب Croce di : "إن المسلمين جمعوا ثروات كبيرة ووضعوها في خزينة، وبعد وقت معين فتحوها وقدموها لسلم ثقة يذهب إلى مختلف الأقاليم يفتدي بها الأسرى والبيهق المسلمين الذين يوجدون في السجن عند المسيحيين أو دول أخرى".

الإسلام التساري

إن تصير العبيد المسلمين كان يكرس إن صحة القول ضرورة اندماجهم التام. كان الأمر يؤدي بهؤلاء العبيد المنصرين إلى الخضوع للقوانين والقواعد الكنسية بما في ذلك محاكم الفتوى حيث أصبح من الصعب المحافظة على عقيدتهم الإسلامية. إلا أن عمليات التصير الواقعية تحت ضغط اجتماعي بين العبيد المسلمين

كانت غالباً ما تؤدي إلى الاستمرار في التشكيك بالعقيدة الإسلامية بطريقة سرية. بعبارة أخرى أدى هذا الواقع إلى ظهور نوع من الإسلام التستري يمكن مقارنته بالإسلام الذي كان يمارسه الموريسكيون خفية في إسبانيا القرن السادس عشر قبل نفيهم في بداية القرن السابع عشر.

إن آثار مثل تلك الطرق الاعتقادية الإسلامية الخفية نجدها مثلاً في ملف محاكمة من بداية القرن الرابع عشر ضد فرسان الهيكل في الدولة البابوية. إن المستجوب غوالتيروس Gualterius أحد فرسان الهيكل شهد أن زميله البرتوس Albertus، بعد انتماصه للطريقة، دعا شريطة عدم إفشاء السر أن يجدد الاعتقاد بال المسيح. وعلى سؤاله: لكن بماذا سأؤمن إذن؟ أجابه البرتوس قائلاً: بذلك الإله الأكبر الوحيد الذي يعبده المسلمون. من أجل معرفة تجارب الحياة الدينية للأسرى والعبد المسلمين في أوروبا الغربية إلى حد ما يمكن الرجوع إلى الآثار الدينية الأصلية النادرة التي تركها البعض منهم. هذا مثلاً شأن الديوان الشعري للشاعر الأندلسي عبد الكريم القيسى من القرن الخامس عشر حيث يحتفظ بمجموعة من القصائد التي ترجع إلى مرحلة أسره في المدينة البرتغالية آبرة. من تلك القصائد قصيدة في مدح النبي يختتمها بدعاء للخلاص، نقتطف منها هذه الأبيات:

يحيى لديهم ذلة وصفارا	يا موثقاً بين العدى بقي وده
ما في عظيم بلائه يتماري	حكم الإله عليه بالأسر الذي
تكتب لديه من الأنام خيارا	اصبر لحكم الله وارض بما قضى
لترى له عن عاجل أسرارا	وسل السراج بجاه أفضل مرسل
عن خلقه كانت تهول وناراً	فبجاهه رفع الإله شدائداً

وفي خاتمة قصيده يتوجه الشاعر بدعائه إلى النبي نفسه قائلاً:

يا خير هاد محتداً ونجارا	فأشفع لنا يا ربنا في كرينا
ولك الوسيلة في الجنان جهارا	فلك الشفاعة في غد مخصوصة

صلى عليك الله ما بلغ المنى

وابتل قطر الزهر من قطر الندى

من أم قبرك في القبور وزارا

سرى النسيم يرقم الأشجارا

غريبوٌ يعودون لاكتشاف الهوية المفقودة

بناء على ما تقدم تجدر الإشارة إلى أن على المؤرخين الأوروبيين للمسيحية أن يأخذوا في اعتبارهم احتمال وجود مسلمين متسترين بين المجموعات المسيحية التي يدرسونها.. بالنسبة لإسبانيا يمكن إثبات وجود هؤلاء المسلمين بناء على المستندات العربية إلى حدود القرن التاسع عشر. وإن إرغام هذه الأقليات المسلمة على التنصير من أهم العوامل التي تفسر لنا النجاح الذي تلقاه اليوم الحركات الإسلامية الإحيائية في الغرب حيث يعاد اكتشاف الإسلام كهوية أصلية مفقودة. هذا لا يهم فقط ما يدعى "الصحوة الإسلامية" وسط أقلية مسلمة من أصل إسباني خاصية في إقليم أندلوسيا، بل يخص أيضاً "المسلمين السود" في الولايات المتحدة الأمريكية. إلا أنه لا يهم في هذا المجال معرفة ما إذا كانت هذه الأقليات تتحدر مباشرة أو لا من سلف مسلم. المهم هو أن هذه الأقليات المسلمة تجد في الإسلام عنصر إلهام بحيث ترى فيه استعادة لجد ثقافة وهوية مهضومتين، خاصة وأن الضغط على الإسلام ومحاربته في الغرب كان واقعاً تاريخياً. هكذا تتضح لنا حدود رؤية تاريخية حقيقة لوضعية الإسلام في غرب أوروبا اليوم، وذلك من خلال دراسة مصائر الأسرى والعيدي المسلمين وخلفهم وكذا القمع الممارس على عقيدتهم الإسلامية. إن هذا التاريخ الذي ما يزال في معظمه مجهولاً يمكن اعتباره مرحلة تتصدر ما قبل تاريخ الجاليات الإسلامية في غرب أوروبا منذ نهاية القرن التاسع عشر وإلى اليوم. من خلال هذه الرؤية التاريخية يتضح كيف أن عوامل مثل عصر التوир والثورة الفرنسية وإعلان الحرية الدينية كحق إنساني وإلغاء العبودية لعبت دوراً جوهرياً لأنبعاث المرحلة الجديدة في تاريخ الإسلام الغربي التي شهدتها اليوم.

الفصل الثالث

لقاء الإسلام والآخر

نجحتنا في اللقاء الأول وفشلنا في الثاني

يتمثل نجاح المسلمين في اللقاء الأول بتمكنهم من إقامة دولة إسلامية ومن استمرار حكمهم وبسط سيطرتهم طوال قرون. وأنشاء ذلك نجحوا في التحاور مع الغرب المسيحي ومع الأقليات اليهودية، وفي تكوين فكر وثقافة مشرقة وفي مذ ازدهار واسع في تلك البقاع.

لم يكن المسلمون الذين قاموا بالفتحات الكبيرة يحملون مؤثرات العقد التي نحملها نحن اليوم أي لم يكونوا قد ابتلوا بالعقدة التي نطلق عليها اسم عقدة الأندلس، ولذلك فقد كانوا أكثر تسامحاً وانفتاحاً على الآخر، وكانوا محاورين حقيقيين للأخر مهما كان انتماً. لكننا اليوم وبفضل عقدة الأندلس والتفرعات التي نشأت عنها صرنا أقل انفتاحاً وصار فينا من هو أكثر تطرفاً وعداءً للفرب.

خاض المسلمون تجارب اللقاء عديدة مع الآخر غير المسلم. وكانت اللقاءات القديمة ناجحة ومفيدة ونتج عنها تعاور إسلامي حضاري مع الآخر واعتراف بثقافته وحضارته. واستفاده من نتاجه وارثه وفكرة. فقد التقى الفاتحون العرب المسلمين مع حضارة فارس ومع الشعوب الشرق آسيوية. وعاش العرب المسلمون الأوائل في بلدان بعيدة مثل أندونيسيا وجنوب الدول الروسية والهند وباكستان وغيرها وكان اللقاء الأوروبيين الأول في غزو المسلمين لأوروبا واستمرار سيطرتهم طوال سبعة قرون على مناطق واسعة منها، واندحرهم عنها بعد سقوط غرناطة.. بعدها قام الغرب المسيحي بإعدام الإسلام وإزالته من أوروبا كلها. كانت تلك التجربة الأولى، ولعل استمرارها طوال سبعة قرون لا يجعلها فاشلة. بل كانت ناجحة على كافة الأصعدة.

والتجربة الثانية بدأت بأعمال هجرة فردية إلى الدول الغربية. فقبلها الغرب ورحب بها طوال القرن العشرين كله. ونتيجة لتلك المجرات أصبح المسلمين كياناً قوياً في تلك البلدان، وأصبح الإسلام ديانة أوروبية. وأصبح الدين الثاني بعد المسيحية. وبلغ عدد المسلمين في أوروبا كلها خمسة عشر مليوناً، وفي فرنسا وحدها خمسة ملايين مسلم تقريباً. فهل سيفشل المشروع الإسلامي الثاني في أوروبا ؟

وإذا ما فشلت التجربة الثانية هذه فسنكون مضطرين لطرح سؤال عريض
وخطير يقول:

ألا يستطيع المسلمون اليوم أن يتحاوروا مع الغرب؟

لقد كان اللقاء الأول للإسلام مع الغرب قائماً على صفة بيضاء ليس فيها سابقة مؤلمة ولذلك كان ناجحاً. أما اللقاء الجديد الثاني فقد شابته عقدة الماضي الأندلسي والتي ارتبطت بالحروب الصليبية المبررة والغزوات الغربية الكثيرة للبلدان الإسلامية ولهذه الأسباب فلم ينجح اللقاء الثاني حتى يومنا هذا.

وتضاف إلى أسباب الفشل الحاضر في العلاقة بين الإسلام والغرب أن الغرب نفسه مريض الماضي ومريض العلاقة القديمة. وأنه مازال يتصرف بموجب مرضه وخشيته من مذبحة موريكوس جديدة يباد فيها المسلمين الغربيون بمن فيهم أبناء الغرب نفسه وهم المسيحيون الذين يتحولون إلى الإسلام.

تجربة الممالك العربية

حكم المسلمين السنة بلاد الأندلس طوال سبعة قرون، وخلالها حصل التفاعل الفكري والديني والاجتماعي بين الشعوب العربية والإسلامية من جهة، وبين الغرب المسيحي من جهة أخرى، وكانت تلك هي التجربة الأولى بالنسبة لهذين الشعبين. وقد بلغ هذا التفاعل أوجهه عندما دخلت في دين الإسلام أفواج كثيرة من مسيحيي الغرب، وعندما تطور فكر أبناء الشرق فتلت صياغة علوم كثيرة جديدة، ومنها هندسة عمارة جديدة وثقافة أدبية وعامة تمثلت بالشعر والفن والموسيقا وغيرها، وبلغت تلك التفاعلات أوجها في نتاج فكري وفلسفي تمثل ذلك في ابن باجة: الذي قال بنظام العزلة والوحدة مع الكتب والفلسفة. وابن طفيل الذي أحرقت كتبه في النهاية ولم يبق منها إلا حي بن يقطان. وابن رشد الأندلسي، الذي اعتمد على الإسلام كعقيدة دينية ساوية، وعلى الفكر اليوناني كموروث غربي إنساني عريق. وبنفس الوقت فقد سحر الحاضر الذي كان يشهده وهو التحاور الإسلامي مع الغرب ومع المسيحية الغربية. وصاغ ابن رشد فكراً وفلسفه استطاع بها أن يكون

فليسوف الغرب ومنظر الفلسفة الأوروبية التي تلته. وبنفس الوقت فقد حافظ على عقيدته كمسلم سني محلل لفكر ابن تيمية وأبي حنيفة. وهنا لا بد من الإشارة إلى تسخيره لفكر ابن تيمية وأبي حنيفة تسخيراً حضارياً فقد توصل إلى بناء فلسفة حضارية، ولم يتوصل من خلالها إلى استبعاد الغرب والمسيحية ولا إلى معاداتها، كما تفعل السلفية المعاصرة. كان ابن رشد قاضي القضاة في عصره، وقد منحه السلطة حرية التفكير والبحث والتوصيل إلى نتائج، فخالف ابن سينا الذي جعل الفلسفه دينية، وقام ابن رشد بفصل الدين عن الفلسفه. وطالب السلطة بإجراء إصلاحات سياسية ودينية وقانونية. لقد فرض على الجميع من قبل السلطة، ولذلك تمكّن من التطور في البحث. كان مفكراً في مجالات متعددة، السلطة، الدين، اللاهوت. وكانت الفلسفه بالنسبة له إلزامية. وعندما فقد دعم السلطة له فقد مكانه ونتائج البحث. وتوقف عمله. وفي الأندلس أيضاً ظهر ابن ميمون، صاحب كتاب دلالة الحائرين، وكان يجمع الأساسي والجوهرى بغية إدخال العلم إلى العالم. وحاول أن يوفّق بين العلم والحكمة.

وعندما توقف ذلك النتاج الفكري المميز بدأت العلاقة بين الإسلام والمسيحية بالتدحرج. واستمرّ هذا التدهور حتى عصرنا الحديث.

وبعدما قام الغرب بطرد وإبادة المسلمين، قام بتطهير المجتمع الغربي من الإسلام. وحصلت أعمال إبادة بشعة لل المسلمين العرب والغربيين وعاد من أراد النجاة بنفسه إلى الديانة المسيحية. كانت نهاية التجربة مؤللة للمسلمين في أوروبا. وكانت نتائجها مؤللة بالطبع. ومن المفيد أن نكتشف بأن محاولة إبادة الإسلام في أوروبا آنذاك لم تنجح، لأنهم كانوا يبيدون الكيان الملموس والمرئي الذي هو المسلم بذاته. لكن عقيدة هذا المسلم ونتائجها قد تغفلوا في العقول والنفوس الغربية، فأصبح الإسلام جزءاً من التراث وال מורوث الغربي الحتمي ولم يكن من الممكن إزالته.

وبعد ذلك بدأ الغرب بصياغة تركيب جديد للكيان الغربي بشكل عام. فمن ناحية الفكر الفلسفية تم الاعتماد على نتاج ابن رشد وتطوير الفكر الغربي الذي خطأ خطوات كبيرة وذهب إلى مسافات بعيدة.

ثم قام الغرب بصياغة المسيحية نفسها كديانة وعقيدة. فانقسمت الكنيسة على نفسها عدة انقسامات. وبشكل عام تمت صياغة مسيحية تعتمد على مبادئ إسلامية كثيرة. فقد استعار الغرب المسيحي من الإسلام قسماً من العقائد والشرائع الأخلاقيات، واستعار أيضاً مفاهيم الحلال والحرام وأضافها إلى مسيحيته مع حفاظه على الصيغة الرئيسية والشكل العام لديانته المسيحية. وفي هذه الصيغة حافظ على عقيدة التثليث وعقيدة أن المسيح ابن الله رغم أن بعض المجتهدين المسيحيين أخذوا آنذاك بالرأي الإسلامي كله الذي يقول بنبوة المسيح وبطبيعته البشرية الخالصة.

إن التجربة الإسلامية الأولى في أوروبا كانت أنجح بكثير من التجربة الإسلامية الثانية فيها، فقد استمرت التجربة الأولى سبعة قرون، أي ما يعادل نصف العمر الزمني لرسالة الإسلام منذ ظهورها. بينما لم يمض على التجربة الثانية قرن كامل وبدأت تشيع مظاهر رفض المسلمين داخل المجتمع الأوروبي. ونسمع كل يوم عن اعتقالات ومحاكمات للمسلمين، وعن طرد لآخرين وإغراق لسفن تحمل مهاجرين مسلمين.

إن أحد أهم أسباب فشلنا في اللقاء الثاني مع الغرب هو عناد الغرب نفسه بشأن المعاورة مع المسلمين. وثبتات الغرب على مواقفه القديمة المعادية للإسلام، ورسوخ عقدة الغرب من المسلمين وتعامله معنا بمحاجتها. فلستنا وحدنا من يحمل مسؤولية الفشل في المعاورة الجديدة بل إننا نحن والغرب نتحمل المسؤلية بالتساوي.

تسامح مسلمي الأندلس

اتسم مسلمو الأندلس بالانفتاح الحضاري الواسع على الآخر، وبالتسامح وبالقابلية للاندماج الاجتماعي والثقافي والفكري. وللتعرف على ذلك الانفتاح نتصفح كتاب ثقافة التسامح في إسبانيا الوسيطة الذي صدر في العام ٢٠٠٢، مؤلفته الكاتبة الإسبانية مينوكال. التي تعتبرها شاهداً أوروبياً مسيحياً على ازدهار الحضارة الإسلامية الأندلسية. إذ تصر المؤلفة على أن الحداثة الأوروبية تعود في

كثير من مظاهرها وأفكارها إلى ما قدمته الأندلس من نموذج حضاري وإنساني، وترى أن تعايش الديانات السماوية الثلاث في ظل الإسلام بالأندلس العربية يظل حلمًا إنسانياً مفتوحاً على المستقبل. وتمتد الفترة التي تعرضها المؤلفة من منتصف القرن الثامن الميلادي إلى بداية القرن الثالث عشر، وتتطرق المؤلفة من افتراض أن استقرار الأمويين بأوروبا يعتبر حدثاً حاسماً أسس أوروبا الحديثة وصنعها صنعاً، وتتوقف الكاتبة أمام أشكال التأثير التي مارستها الحضارة العربية على العلوم والأمية على الخصوص، الفنية والمركبـة والفردية في نوعها، في الثقافة الأوروبية الحديثة، ومن خلالها في حضارة العالم بأسره. وتحدث عن الحوار والتسامح بين الديانات الثلاث التي تعايشت في الأندلس آنذاك، ومن التساكن الذي غالب على تجاوز القيم الثقافية المتقافرة والمت乃مية إلى شعوب وجماعات إثنية متعددة.

وتعتبر أن قرطبة الإسلامية كانت عاصمة العالم. وتصف غناها المذهل وحماماتها العمومية التسعـعـائـة، وحوائـتها التي تصل إلى عشرات الآلوف، ومساجدها التي بلغت الآلوف، وماها المسـكـوبـ في القنوات، وشوارعها المبلطة. كانت قرطبة جوهرة العالم الساطعة التي تلمـعـ في الفـربـ، مدـيـنـةـ النـبـلـ، مـعـروـفةـ بـثـرـوـاتـهاـ وـبـكـبـرـيـائـهاـ، يـحـفـيـ بهاـ لـمـلاـذـهاـ وـمـتـعـهاـ، مـتـالـقـةـ فيـ كـلـ شـيءـ، لـامـعـةـ عـلـىـ الـخـصـوصـ بـالـعـلـوـمـ الـعـقـلـيـةـ السـبـعـةـ.

وتقول الكاتبة وهي تحـدـثـاـ عنـ إـنـشـاءـ لـؤـلـؤـةـ قـرـطـبـةـ وـمـسـجـدـهاـ "إنـ مشـروعـ قـرـطـبـةـ وـالـأـنـدـلـسـ كانـ يـتـمـثـلـ فيـ السـعـيـ إـلـىـ إـنـتـاجـ ماـ دـمـرـ فيـ سـوـرـيـاـ، وـهـذـاـ يـفـيدـنـاـ كـثـيرـاـ فيـ فـهـمـ اـشـفـالـ الـأـمـوـيـنـ بـالـحـفـاظـ عـلـىـ هـذـهـ الـدـوـلـةـ وـتـعـدـدـهـاـ الإـثـنـيـ

والـدـيـنـيـ".

وتـقـلـ الكـاتـبةـ نـصـاـ بـلـولـ أـلـيـفـارـ الـقـرـطـبـيـ الـمـسـيـحـيـ يـقـولـ فـيـهـ: "يـعـشـقـ الـمـسـيـحـيـونـ قـرـاءـةـ الـأـشـعـارـ وـالـقـصـائـدـ الـعـرـبـيـةـ، وـيـدـرـسـونـ الـفـقـهـاءـ وـالـفـلـاسـفـةـ الـعـرـبـ، لـاـ مـنـ أـجـلـ الرـدـ عـلـيـهـمـ أوـ مـجـادـلـهـمـ، وـإـنـمـاـ مـنـ أـجـلـ اـكـتـسـابـ عـرـبـيـةـ جـيـدةـ وـأـنـيـقةـ. هـلـ يـوـجـدـ مـنـ بـيـنـ غـيـرـ الـمـتـدـيـنـينـ مـاـزـالـ يـسـتـطـيـعـ قـرـاءـةـ الـحـواـشـيـ عـلـىـ الـكـتـابـاتـ الـمـقـدـسـةـ بـالـلـاتـيـنـيـةـ، أـوـ كـيـفـ يـعـكـفـ عـلـىـ درـاسـةـ الـأـنـجـيـلـ أـوـ الـأـنـبـيـاءـ وـالـدـعـاـةـ وـالـمـبـشـرـيـنـ؟ـ

للأسف، فبحماس يقرأ الشبان المسيحيون ويدرسون الكتب العربية، إنهم يصرفون أموالاً طائلة في جمع مكتبات هائلة. يحتقرن الأدب المسيحي، ويعتبرونه غير جدير بالاهتمام. ومن فرط ذلك نسوا لغتهم. فمقابل كل رجل قادر على كتابة رسالة باللاتينية، هناك ألف يتعدّثون العربية بتأفافه، وينظمون بهذه اللغة الأشعار.

وان ظاهرة تعلم العربية إلى حد الاتقان أدى إلى اعتناق الكثيف للإسلام، إذ كانت جموع غفيرة تفادر الكنيسة وتضم إلى الدين الجديد. وتصاعد اعتناق الدين الجديد وتعلم اللغة العربية الفاتحة حتى تعرّيت المسيحية واليهودية بكتبها المقدسة وصلواتها الخاصة، فأطلق العرب على هؤلاء اسم "المستعربين". وبفضل التلاحم والافتتان تولدت لغة جديدة هي "الموزارب" وتسليت إلى البيوت منقلة من جيل إلى جيل ، فعاشت "الموزارب" اللغة الرومانية لسيحيي الأندلس في حضن دار الإسلام، وكانت تحاذى العربية وتحاورها باستمرار.

ويتحدث بعض اليهود المعاصرين اليوم وهم جماعات دينية معادية للصهيونية عن ازدهار اليهود في الأندلس الإسلامي ويصفون تلك المرحلة بأنها أفضل مرحلة ازدهار عرفة اليهود طوال تاريخهم الطويل. وتكتشف الكاتبة الإسبانية ازدهار اليهود في قربة الإسلامية وتقول: اختار اليهود الأندلسيون طريق الاندماج في الثقافة العربية الإسلامية، وانفتح الباب على مصراعيه أمام وجههم، حتى بلغوا أعلى المراتب عن جداره وكفاءة، وبرز منهم من وصل منصب وزير الخليفة. ويعتبر حسدياي بن شبروت نموذجاً لثقافة الاندماج والتسامح، وهذا بعد أن كانوا يحتلّون أسفل المراتب الاجتماعية والثقافية في عهد القوط المسيحيين . ومع ذلك لم تؤخذ العشيرة اليهودية حسدياي على النجاح الذي حققه داخل الخلافة، بل بقي "ناصي" العشيرة وأميرها، وكان يرتفع شأنه في كل سنة، فعاش اليهود حالة التفتح والرخاء التامين. ومن مظاهر تأثير الاستعراب في الثقافة اليهودية والديانة اليهودية عودة الحياة للغة العربية وخروجها للمرة الأولى منذ آلاف السنين من المعابد لتصبح متعددة الاستعمال، وتتنظيم شعر حي يفيض بالعنوية والجمال. فقد تأثر اليهود بشيوع اللغة العربية وباعتبارها لغة القرآن ولغة اللسان الدارج في وقت واحد. اكتشفوا من جديد

موروثهم الخاص الذي كان مستمراً منذ زمن، ورأوا أن لغة التوراة تستحق، مثل لغة المسلمين أن تتجاوز حدود الصلاة. فتجاوزت الصلاة إلى الغزل والحب وغير ذلك. ظهرت لأول مرة في تاريخ اليهود أشعار حب وغزل باللغة العبرية. واعتبر اليهود هذه العبرية لغة مقدسة رغم أنها لم تكن فيما مضى لغة التوراة. لقد حكم مسلمو الأندلس بالإسلام السنوي الذي نتمي نحن إليه اليوم، وكانوا أكثر افتتاحاً على الآخر منا نحن المسلمين المعاصرين. فلماذا تراجعت فيما مفاهيم التحاور والتمازج والافتتاح؟ أليس لأننا بني أحكاماً على أسس غير متينة؟ هذه الأسس التي هي أحداث مرحلية غير ثابتة!. هذه التي تمثل بالصراع العربي الإسرائيلي ودعم حكومات الغرب لإسرائيل واحتلال جيوش الغرب للعراق وضغوطهم على الكثير من الدول الإسلامية: هذه الأحداث عنونت طريقة الأسس الثابتة عند المسلمين في تعاملهم مع الغرب. لكن الأسس الثابتة يجب أن تقوم على قواعد وقوانين إسلامية ثابتة. كان العصر الأندلسي عصراً ذهبياً بالنسبة للمسلمين والمسيحيين ولليهود أيضاً. والفضل في زهائه لا يعود إلى المسلمين وحدهم بل أيضاً إلى المسيحيين الأوروبيين أنفسهم الذين كانوا على درجة من الارتفاع تفوق ارتفاع الأوروبيين المعاصرين. والذين تفهموا أهمية الحوار والتفاعل الحضاري وحددوا ثمراته. فقد أقبل الإسبان آنذاك على الإسلام بكثرة. وكان إسلامهم متحضرأً ينمّ عن تفهمهم للديانات السماوية لدرجة أنهم خلطوا بين الإسلام والمسيحية ظهر بعضهم كأشخاص يعتقدون الديانتين ويعؤمنون بهما ويمارسون الطقوس والعادات والعبادات والمعاملات بصفتين دينيتين في وقت واحد. وعندما هم المسيحيون المتعصبون بذبح مسلمي إسبانيا والتخلص منهم نهائياً. يقول وثائق المحاكمات إنه كان من العسير على القضاة معرفة المسيحي من المسلم. فالمسلمون الذين أريد القضاء عليهم تبين أنهم ما زالوا أيضاً مسيحيين وأنهم لم يختلفوا في شيء يمكن ملاحظته عن مواطنיהם المسيحيين. ورغم تلك الشبهة فقد كان يباد بالحرقة أو يقطع رؤوس كل من كان مشبوهاً بانتسابه للإسلام. وذلك الظلم الكبير الذي مارسته المسيحية المتطرفة آنذاك لجم أفواه الأوروبيين طوال قرون عن ذكر كلمة إسلام. فوقع الغرب في عقد الخوف من الإسلام ومن عودته وتدمده.

الحوار الإسلامي القديم مع الغرب

يمكننا الوقوف على النتاج الفكري والأدبي والفلسفي، لمحاولة الكشف عن النمط العلائقى الذى تشكّلت منه الروابط الثقافية، بين الثقافة "العربية الكلاسيكية" وثقافات الشعوب الأخرى، خلال عصور الازدهار، لنجد أنَّ النتائج المتخضنة عنها، تتصحّ عن علاقة فعلية قوية وحقيقة ربطت الذات العربية في تلك الآونة بالذوات الحضارية الأخرى، ولعلَّ الانفتاح الذهني الذي كان يتمتع به أجدادنا قد حرمنا منه نحن الأحفاد المعاصرین.

لأنهم كانوا يواجهون الآخر بدون عقدة ولأننا نستمر اليوم في الحكم على هذا الغرب كله من منظار عقدة شديدة العمق في أغوارنا. فلا يستطيع الفرد منا أن يذكر الغرب بدون أن يذكر تاريخ المجد الإسلامي في تلك القارة الفنية.

فالمسلمون الذين يقصدون أوروبا لأجل التعلم والدراسة فيها يعتقدون بأنهم أصحاب حق في نهل هذه العلوم العلوم الغربية، اعتماداً على رأي مسبق يحملونه وهو أن لأجدادنا الفضل العلمي على الغرب كله، بل ويقول البعض اليوم إن الغرب أخذ من علومنا ما ينفع ويفيد وترك لنا العادات والموروث الثقافي الذي لا يفيده فوائد مباشرة.

لقد كانت عملية النهل من جميع الثقافات المبثوثة في العالم أمراً محبباً عند أجدادنا المسلمين وكانت جزءاً لا يتجزأ من تكوين الذات المجتمعية، حيث يبدو أي علم مثبت في الكون هو ملك الجميع، ولا ينحصر في أحد دون سواه. وذلك انطلاقاً من المفهوم القرآني للعلوم والتعلم. بينما اليوم يتخلّى بعض المسلمين عن علوم كثيرة، بل إنهم أحياناً لا يعتبرونها علوماً. كالعلوم الموسيقى والرسم الزيتي والنحت والأدب والمسرح والرقص.

وقد شكلت حركة الترجمة والتأليف من قبل دوراً بارزاً في نمو الحضارة العربية، في ظلّ اجواء تفتح ثقافياً مميّزاً ومبدعاً، لم تخش فيه الذات العربية من "الغزو الفكري أو الثقافي" ، فلم يكن المترجم العربي وقتها يخشى على هويته من الضياع، بل كان يعدّ اي علم منتشر في الإنسانية هو جزء من كينونته. وقد لعبت

اللغة دوراً محورياً في هذا التواصل الحضاري والتفاعل الثقافي انعكس في طريقة الترجمة نفسها، مما ميّز المترجمين العرب بقدرة عالية على هضم النصوص المترجمة، وتطويعها، وإعادة انتاجها، بمفردات الثقافة العربية، حيث كان يبدو وكأن النص المترجم هو عربي الأصل والمنشأ والغاية والهدف، فقد كان المترجم يؤقلم النص ويضمه إلى اللغة ويقضي على عناصر الغرابة فيه، الأمر الذي يوصف بابتلاع النص أسلوبًا ومضمونًا، بحيث يتم إدخال النصوص المترجمة في دائرة الأنا "العربية" شعوراً بأنَّ هذا النص هو ملكها ذائب فيها، لذلك فإنها في مرحلة متقدمة تستغنى عن "الأصل بلغته الأساسية" لأنها رقت به إلى لغتها وأصبح جزءاً من مفرداتها بل ويخدم أهدافها.

وفي هذا السياق كان المترجمون العرب والمسلمون يترجمون الأسماء فيعرّيون أسماء الأشخاص والمدن ويعربون المصطلحات ومفردات النظرية الجديدة التي يقومون بتعريفها. ويتبعون مصطلحات جديدة. ولم تكن هناك خشية على تأثير النصوص على الفكر والعقيدة الإسلامية، فكانت الجرأة في ترجمة الفكر اليوناني الذي يحمل عقائد وثنية وإلحادية تؤله الأشخاص والأشياء كالشمس والقمر والرياح والنار. وتقدّس سلسلة طويلة من الأشياء.

وكان في تلك الفلسفات عقائد دينية وطقوس وعبادات كثيرة، لم يرّ المترجمون فيها خطراً على الإسلام بينما مسلمونا المعاصرون يرون أخطاراً على الدين والعقيدة في أفكار ومظاهر غريبة شديدة الصغر كالخطر الذي رأه البعض في (العبة باري) فنحن في عصرنا الحاضر نفتقر لعملية الترجمة بكامل تفاصيلها. وقد وقف العرب تقريباً عند نتاج الغرب في سنوات الستينيات من القرن الماضي. إذ أنجزت ترجمات العظام حتى ذلك التاريخ أمثال هوغو وراسين وفولتيرو وكانت ديكارت وبليزاك وقاموا وغيرهم.

وترجمت روایات عالمية لأمثال آغاٹا کریستی وغيرها. وتوقفت بعد تلك العقود أعمال الترجمة الحقيقة المستمرة. وفي هذه السنوات تصدر من هنا وهنالك ترجمات قليلة ونادرة لبعض النتاجات الغربية. لكنها لافتة في مجلد الحركة الثقافية

والفكرية والعلمية الغربية. هذا من ناحية الكم أما من الناحية التقنية فينقلب المشهد ويتحول من تفاعل إلى انفعال ومن "تواصل" إلى "أنوصال" وتبعة بلهاء، ويصبح "التناقض" فيه "انثقاف" ويفدو "التحاور" فيه "انحوار". فالعرب ينتقدون مترجماتهم انتقاماً مزاجياً بحيث يتحقق الموضوع المترجم مع وجهات النظر والإيديولوجيات والسياسات الشائعة فحسب. فقد ترجم غارودي لأنه يساند القضية العربية والإسلامية. وأنه تحول إلى الإسلام. وترجم نعوم تشومسكي لأنه يعادي السياسات الأمريكية والإسرائيلية.

ولعل القاريء العربي المنحاز أيضاً هو الذي يشارك في اختيار الموضوع المترجم إلى العربية. وهذه الترجمات الانتقائية قليلة الـ *الكم* والتوع مقارنة مع النتاج الغربي والعالمي الكثيف. وفي المجالات العلمية كافة تقدر الترجمات مما يجعلنا متخلفين علمياً عن العالم المعاصر. وتعاني الذات العربية اليوم انجرافاً عميقاً لم يجد ترياقه بعد، لذلك فإنها تلجم إلى الماضي بقوّة تبحث في التاريخ متمسكة "بهوية مقدسة خالدة" محدثة قطيعة حادة مع غيرها من الذوات الحضارية، وفي الوقت عينه الذي تطلب فيه من الآخر الاعتراف الدائم بها. فعلى صعيد اللغة، نحن اليوم لا نشعر أننا نرقى بالنص عندما ننقله إلى العربية، ولا نشعر بذوبان النص المترجم في ذواتنا، ويبقى بعيداً غريباً نافراً عنا، بل وأبعد من ذلك، فنحن اليوم نرقى بالنص العربي عندما نترجمه إلى غير العربية! وهناك العديد من الكتاب والمفكرين العرب من يعمد إلى الكتابة أو النشر الأول للكتاب بغير العربية، ثم يترجم كتابه ليقرأه العرب بعدما قرأه أبناء الغرب، لأن المرور عبر لغة الآخر هو الطريق المضمون للوصول إلى القارئ العربي! فلو أن هذا الكتاب الذي بين يديك الآن عزيزي القاريء كتب بلغة أوروبية وترجم إلى العربية لكان انتشاره العربي أكبر بكثير من انتشاره الحالي ككتاب عربي. هذا رغم أن الكتاب والباحثين الغربيين لا يفوقونا قدرات ولا معرفة ولا خبرة.

وتكثر في نصوصنا العربية المفردات الأجنبية المنقولة بحروفيتها، ولكن ذلك إن دل على شيء، فإنه يدل على أن المثقف العربي اليوم لا يتكلم لغته إلا عبر لغة

أخرى، فهو وبالتالي لا يعترف بذاته إلا إذا اعترف بها الغير، وهو يمارس كل ذلك في الوقت نفسه الذي يعمد فيه إلى إقصاء الآخر وإبعاده والتعامل معه على أساس أنه "غازٌ وشريرٌ ومتآمر". فتحن اليوم لا نعيش حالة تفاعل حضاري، بل انفعال أشبه ما يكون بردّة فعل، لأننا لم نعد ندرك ذواتنا، إلا عبر إدراك الآخر لنا.

نجاح الاندماج في شرق آسيا

في عصور الفتوحات هاجر عدد من المسلمين إلى بلدان شرق آسيا واستوطنوا فيها (ماليزيا - أندونيسيا - الهند - الصين وغيرها)، واستطاعوا عبر العصور اللاحقة أن يتعايشوا بسلام ووئام مع أهل البلاد الأصليين.

والأهم من ذلك أنهم استطاعوا رغم قلة تعدادهم أن ينشروا الإسلام في تلك البلدان. وكان المسلمون أقلة في تلك البلدان فأوجدوا فكراً إسلامياً يتاسب مع وضعهم العددي والعرقي. لم يمارس أولئك الدعاة بالطريقة التي يمارسها الإسلاميون اليوم بل انعطف الناس نحوهم وأعجبوا بإسلامهم واعتنقوه.

ولم يملؤوا بمنطق الجهاد الذي تعلم به القاعدة اليوم، وإنما فكأنوا سبادون بالكامل. وضع أولئك المسلمين الأقلة يشابه تقريراً وضع المسلمين الغربيين المعاصرين ومن هنا نشير إلى ضرورة الاستفادة من طريقتهم.

للحظ أن الإسلام لم يباد ولم يحظر ويعنى في شرق آسيا كما حصل في التجربة الأوروبية. ولذلك فلم يخلف ذلك الوجود الإسلامي أية عقدة ثقافية بين الشعبين الإسلامي والبوذي. فقد كان التسامح الديني متبدلاً بين الطرفين واستمر متبدلاً طوال القرون التالية. ولذلك فلم ينتج عن ذلك الحوار والتعايش صدام شبه أبيدي كالصدام الذي نشأ بين الغرب والشرق.

المواطنة الإسلامية الحديثة في أوروبا

تجربة المواطننة الإسلامية الحديثة في أوروبا، بدأت فعلياً مع انتهاء الانتداب والاستعمار الغربي للبلدان العربية ومع انتهاء الحرب العالمية الثانية، وهي مازالت مستمرة حتى يومنا هذا. وقد رحب الغرب بالماهجرين إليه وجعلهم أبناء مجتمعه بفضل المفاهيم الحضارية السائدة عنده. وقد ازداد عدد المسلمين في الغرب فأصبح خمسة ملايين في فرنسا تقريباً، وأصبح الإسلام هو الديانة الثانية فيه بعد المسيحية. وتأتي اليهودية في الدرجة الثالثة رغم قدمها في أوروبا. وأصبح عدد مسلمي أوروبا الغربية حوالي خمسة عشر مليوناً. وإن هذه المواطننة الإسلامية في المجتمع الغربي المسيحي هي تجربتنا الثانية من نوعها عبر التاريخ الإسلامي. ويتوجب علينا بلاشك أن نصونها ونحافظ على تواجدنا هناك وأن نمتنّ علاقتنا مع أبناء الغرب المسيحي كي لا تفشل تجربتنا الثانية من نوعها.

وفي هذه التجربة الثانية حصل التمازن الاجتماعي والتبادل الثقافي والفكري بين الشعبين وتحاور الإسلام مع المسيحية، وتأثر المسلمون بالغرب وتأثر الغرب أيضاً بال المسلمين. كما وشغل المسلمون وظائف مهمة وأصبح لهم نفوذ سياسي ومالى واجتماعي. وظهر تأثيرهم على الانتخابات العامة فاحتاج إلى أصواتهم المرشحون للرئاسة. وقد سحر أصواتهم جورج بوش وجاك شيرالك. وفجأة تسمم ربيع التجربة الإسلامية في الغرب، وجاء ذلك في أعمال العنف التي يقوم بها مسلمون متطرفون ومتغصبون. فنتج عنها اعتداءات على المساجد الإسلامية وعلى كنائس مسيحية عربية وعلى المسلمين أنفسهم. وذهب ضحيتها قتلى وجرحى عديدون. كما أدت تلك الاعتداءات إلى المراقبة الصارمة للهجرة العربية والإسلامية إلى الغرب. وإلى استصدار قوانين جديدة تحدّ منها. وإلى اعتبار الغرب للمواطنة الإسلامية في أرضه مشكلة تحتاج إلى الحل.

والحقيقة أن هناك إشكالية دائمة في تعامل المسلمين الأوروبيين مع الغرب وفي تعامل الغرب معهم. فلا أحد من الفريقين فهم الآخر أو استطاع التوصل إلى صيغة نهائية في التعامل معه. ورغم النجاح الظاهر في ظاهرة الإسلام الغربي فإن المسلمين

ما زالوا عاجزين عن الانفتاح الحقيقي على مجتمعاتهم التي يقيمون فيها، كما وتنسم مواقفهم بالخوف من الغرب الذي هو موطنهم الفعلي. إنهم يعيشون هناك بأجسادهم ويعيشون في بلدانهم الأصلية بأرواحهم.

بد لا يدعوا الأميركيين لاعتناق الإسلام

دعا زعيم تنظيم القاعدة أسامة بن لادن الأميركيين إلى قبول الإسلام لإنها الحرب في العراق وأضاف مخاطباً الشعب الأميركي في شريط بث في الثامن من أيلول ٢٠٠٧ أن هناك طريقين لإنهاء الحرب في العراق إما "تصعيد القتل والقتال ضدكم، أما الثاني فهو أن ترفضوا النظام الأميركي وتقبلوا الإسلام". ويأتي طلب بن لادن للأميركيين باعتناق الإسلام ليدلّ على معرفته بالغليان الإسلامي الكبير والإقبال على اعتناقه بكثرة في الولايات المتحدة ودول العالم كله. ومما لاشك فيه بأن طلبه هذا سيكون مؤثراً على شعوب العالم وسيكون له صدى واسع. وسيكون مساهمة حقيقة في انتشار الإسلام في العالم كلّه، فمن لادن هو اليوم أهمّ وسيلة إعلامية في العالم. ويُكاد يهتم بخطابه غالبية شعوب العالم. حتى أولئك الذين يكرهون الشيخ بن لادن فسوف يصلهم خطابه وسيكون له تأثير ما في نفوسهم. وبين لادن نفسه يحمل عقدة الأندلس وأداؤه العام تجاه الغرب ودعوته الغربيين إلى الإسلام يدل على ذلك.

التطادم بيد الحفارات

يرى بعض المفكرين والمنظّرين الإسلاميين أن التصادم بين الإسلام والمسيحية الغربية أمر حتمي لا مفر منه، وهو لاء يقومون بتعزيز الكراهية والفرق بين هاتين المنظومتين. بل ويقوم بعضهم بتحضير الرأي العام الإسلامي لخوض تلك المواجهة. ويقول الدكتور محمد عمارة: (الصراع بين الغرب والشرق واقع وقديم) (في الغرب ينشرون ثقافة الكراهية السوداء ضد الإسلام والمسلمين) ويسود هذا الرأي في

المجتمعات العربية الإسلامية، كما نلاحظ انتشاره في بلدان إسلامية أخرى كمالزيا وأندونيسيا وباكستان.

وفي الوقت نفسه، نكتشف في الغرب المسيحي نفسه استعداداً كبيراً ورغبة عارمة للتحاور مع الإسلام والمسلمين. إذ لا بد من الفصل بين الشعوب وبين حكامها، فحكام الغرب يخوضون صراعات مع الإسلام لأنهم يتحركون ضمن منظومة صهيونية، وهذه المنظومة لاتلقى تأييداً في الشارع الأوروبي كله. كما يلاحظ في الغرب اهتمام كبير في التعرف على الإسلام، ودراسته ودراسة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية. واقبال على اعتناق الإسلام كدين سماوي وتوحيد وحضاري. وبناء على تلك المعطيات يرى الباحثون الغربيون بأن لاصدام بين الحضاراتين على الاطلاق، وأن المستقبل سيشهد حواراً متظوراً وتفاهماً أوسع بينهما.

صحيح أن الغرب كله يبحث اليوم عن الإسلام، ففي الأسبوع الذي تلا هجمات أيلول ٢٠٠١ بيعت هناك ملايين من نسخ الكتب التي تعرف بالإسلام وتتحدث عنه. وكان ذلك تعبيراً عن الذهول الكبير الذي أصاب أبناء الغرب، وسعياً لإيجاد أجوبة عن الأسئلة الكثيرة التي طرحتها كل المواطنين هناك. ترى ما هو هذا الإسلام الذي يجعل أشخاصاً أثرياء يعيشون في جبال أفغانستان؟ ما هو الإسلام الذي يجعل أشخاصاً متدينين يعيشون بيننا ويبذلون في دراسة الطيران ويقدرون على إجراء دراسات هندسية وعلمية عديدة لهذه الأبراج ثم يدمرونها في ساعة واحدة؟ ولأن الكتاب الأول الذي يقرأه الغربي لن يعطيه الجواب الكامل عن الإسلام. فإنه سيقرأ الكتاب الثاني ثم الثالث ثم عشرات الكتب وتلك في النهاية ستوصله إلى اعتناق الإسلام. كما نلاحظ في الفترة الأخيرة كثرة السياسيين الغربيين الناطقين باللغة العربية. ويقول ليغلي ماك أوخلاند، وهو أستاذ التاريخ الإسلامي في جامعة ايكس سيرلنديه: .. نلاحظ إقبالاً بريطانياً شديداً ومتزايداً على دراسة الإسلام وتاريخه، ونلاحظ اهتماماً جاداً بالدين الإسلامي والحضارة الإسلامية. والبريطانيون يدركون أن القاعدة لاتمثل المسلمين جميعاً. ونحن في هذا القسم توجهه إلينا باستمرار دعوات من كافة المناطق البريطانية لحضور فيها ولتعرفهم على الإسلام

وعلى أركانه وعقائده، وعلى التاريخ الإسلامي. وهذه الدعوات أصبحت شبه أسبوعية. ورغم أحداث الهجوم على قطارات لندن فقد ظلَّ هذا الاهتمام قائماً، ولم يتأثر بها...” وتميز دراسة الإسلام بأنها كشراب البسم الشافعي، فمن بدأ يتعرف عليه يطلب المزيد من علومه، وكلما تعمق في التعرف عليه كلما ازدادت فنايته به. ولن تؤدي دراسة الإسلام إلا إلى الإيمان به واعتقاده كدين. فإن أكثر المستشرقين الأوائل الذين بدؤوا بالتعرف على الإسلام اعتقوه في نهاية المطاف.

لماذا تفشل المواطننة الإسلامية الحديثة في الغرب؟

يحمل المسلمون في وقت واحد رأيين متناقضين عن الغرب، ونرى هذا التناقض عند أغلب الأفراد تقريباً. وأما الرأي الأول فيتمثل في الإعجاب الكبير بالغرب والانبهار به، والانبهار بكل ما حققه الغرب من علوم وصناعات وحرفيات فردية وديمقراطيات وغير ذلك. وهذا الرأي يتناقض مع الرأي الثاني الذي يحمله كثير من المسلمين والذي يتمثل في معاداة الغرب واعتباره عدواً للعرب والمسلمين، ومفتاحاً لأرضهم ولثرواتهم. وفي معاداة المسيحية الغربية عند البعض، وفي اتهام الغرب بالفوضى والانحلال والفساد الخلقي، ويتضخم هذا الاتهام عند البعض ليصبح اتهاماً بالجاهلية، واعتبار الغرب لا يمثل حضارة معاصرة على الإطلاق. وضمن أشكال الفهم هذه ينحصر تعامل المسلم مع الغرب. فالمسلم (العربي الذي نعرفه) يذهب إلى أوروبا ليأخذ منها ما يريد هو أخذه، وبينس الوقت ليترك أوروبا للأوروبيين. وسيحافظ على أسلوبه ورأيه هذا طوال عشرات السنين. ويستمر هذا العربي المسلم بالنهل الدائم من الثقافة العربية ويشمل ذلك ثقافة معادية للغرب ولوافقه رغم أنه انتهى لذلك الغرب. وبذلك يعزز باستمرار انفصاله عن الغرب وعن المجتمع الذي يعيش هو بداخله.

ومن غرائب أخبار المسلمين في الغرب أن أحدهم ذهب بجلد زوجته في السويد. وآخر قام بختان ابنته في الولايات المتحدة، فقد قامت والدتها الغربية برفع دعوى على الزوج وحكم عليه بالسجن ست سنوات. ومن أسباب فشل المواطننة الإسلامية في

الغرب أيضاً، أن الغرب في حقيقته حال من القيم الإنسانية، بينما مواطنونا المسلمين مفعمون بها. فتسوء علاقتهم مع الغرب ككل نتيجة لذلك التناقض.

عجز المسلم عن الاندماج في المجتمع الغربي

الاندماج في المجتمع الغربي لا يعني تخلٍّي الفرد عن دينه وإسلامه، بل نقصد به أن يشعر الفرد بأنه مواطن وابن هذه الدولة التي اختار العيش فيها، وأن انتماه لها أهم من انتماه لبلده السابق. إن عجز المسلم عن الاندماج كحقيقة الشعوب الأخرى داخل المجتمع الغربي لا يرتبط بتدين هذا الفرد، ولا يرتبط بتعصبه لقوميته بل هو من نتاج الموروث التاريخي والاجتماعي الذي يحمله الفرد، ويتألخص هذا الموروث بعبارة واحدة (الشرق شرق والغرب غرب) وعمر هذا الموروث عشرات القرون. وهذا الموروث خفيٌّ لا يراه المستشركون أو الدارسون لمجتمعاتنا الإسلامية، ولذلك فإن معظمهم يخرجون بنتائج متفايرة للغاية، ويررون إمكانية التحاور اليisser بين الحضاراتين. وتأتي تلك الاستنتاجات بعد محاوراتهم مع العرب المسلمين وبعد دراسة الإسلام وعقائده وأفكاره. وأن الإسلام أكثر تطوراً وأكثر تصوراً من المسلمين أنفسهم، وأن الإسلام لا يتأثر بالموروث التاريخي والاجتماعي ويبقى إسلاماً عظيماً شامخاً، فإن تعرف المستشرقيين على الإسلام يجعلهم متفائلين للغاية. وليس الإسلام سبباً في عدم تمكن المسلمين من الانفتاح على المجتمعات الغربية التي يعيشون فيها لأن الإسلام موجود هناك وليس نادراً وأن المساجد قائمة والمسلمون موجودون في كل مدينة أوروبية تقريباً. بل إن غالبية المسلمين المفترضين لا يحملون تجاه بعضهم البعض مشاعر الود والتعاون والتحالف والتفضيل، بل إنهم في أغلب الأحيان يحملون تجاه بعضهم البعض مشاعر البعض والمكر والحسد والعداء. وهذا يعني أنهم لا يجعلون من العامل الإسلامي أساساً في مواقفهم وتعاملاتهم وحيواتهم اليومية. ويعني أيضاً أن مشكلاتهم مع المجتمع الغربي لا تتعلق بإسلامهم على الإطلاق.

نجد بحاجة ماسة للغرب

نحن بحاجة ماسة للغرب، وبجاجة للاستفادة من نتاجاته الحديثة كلها. فالغرب في الحقيقة مدارس وعلوم في السياسة والفنون والصناعة والفكر والإعلام والتكنولوجيا وغير ذلك. ونحن نمتلك فكراً إسلامياً وتاريخاً مجيداً نستطيع أن نقدمه للغرب. فهو بجاجة لبضاعتنا ونحن بجاجة لبضاعته. ومن هذا المنطلق تسقط كافة الدعاوى الطائفية والجهادية التي تسعى لتأجيج المواجهة مع الغرب. يطلق بعض المسلمين وخاصة المتطرفون شعارات معاداة الغرب، ومقاطعته، بل وتطور الأزمة أكثر عند أفراد القاعدة الذين حاولوا إجراء فصل تام بين الغرب والشرق الإسلامي. ففي بياناتهم الكثيرة أمروا المسلمين المقيمين في دول الغرب بأن لا يدخلوا المباني أو الأبراج أو القطارات وكادوا أن يأمروا المسلمين بالعودة إلى بلدانهم الإسلامية ليتم الفصل النهائي بين الغرب والشرق.

وإن أفراد القاعدة أنفسهم ورغم إعلانهم الصريح عن عدائهم للغرب وعن رغبتهم بتدميره، فهم شعروا باستمرار بجاجتهم للغرب نفسه ولنتاجه الصناعي والعلمي والتكنولوجي والمصرفي وغير ذلك الكثير. فعندما قاموا بتدمير مركز التجارة العالمي استخدمو الكومبيوتر والأنترنت ودرسو قيادة الطائرات وركبوا سيارات وقطارات وطائرات وكل ذلك من نتاج الغرب نفسه. وعندما نتأكد من أننا بجاجة لعلوم الغرب ونتاجه ندرك أهمية التحاور معه. وأهمية المصالحة معه، ونستبعد نزوة محاربته.

وفي مجتمعات الدول الإسلامية كلها يستفيد الفرد من نتاج الغرب كله. ففي هذا العصر استطاع الغرب أن يطور كافة العلوم ويصل بها إلى نتائج مذهلة. وصحيح أن فينا أطباء وفيزيائيين وفنانين وأدباء مبدعين ولكنهم جميراً يستخدمون سلّم النتاج العلمي الحديث ويتحركون بواسطته ويتطورون من خلاله. فصحيح أننا نصنع السيارات في بلدانا، لكننا لأجل صناعتها نستخدم آلاف العناصر والصناعات والنظريات العلمية المستوردة من الغرب.

لكننا بهذا الجهاد الإسلامي اكتشفنا أن قتل الآخر ليس سوى عقبة وعرقلة لجهادنا هذا ، ويصبح القتل جريمة تستهدفنا نحن المجاهدين الحقيقيين. وتستهدف أصدقائنا المسلمين الآخرين والسيحيين عرب وغربيين.

العلاقة المحققة بين المسلمين والغرب

يمكن تلخيص العلاقة القائمة بيننا وبين الغرب من الناحية الثقافية والسياسية على الشكل التالي:

١. علاقة خصومة وكراه وعداوة وعلاقة تحامل كل فريق على الآخر، وعلاقة حرب واسعة نراها في الكثير من البلدان الإسلامية.
٢. وينفس الوقت فهي علاقة حاجة كل فريق للآخر. فتحت بحاجة ماسة للغرب وكل نتاجاته وهو بحاجة ماسة لنا من نواح كثيرة. فالغرب بحاجة للمهاجرين المسلمين أنفسهم. ففي أواخر القرن الماضي، أعلنت الخارجية الكندية عن حاجتها لتوطين بضعة ملايين جدد من المهاجرين إليها. وجاء في الإعلان الحرص على أن يكون هؤلاء المهاجرون من المسلمين ومن الشرق الأوسط بالذات، نظراً لعدم إمكانية تفشي الإيدز في هذه الشعوب (وبالطبع فالتقرير يقصد بأن دينهم الإسلامي يمنعهم من الموبقات وينظفهم ويطهّرهم).
٣. وينفس الوقت فهي علاقة انبهار كل فريق بالآخر. فالغربيون يقصدون الشرق باستمرار لينهلوا من ثقافاته وتراثه وعمرانيه وهم مولعون بتاريخه وأشاراته العريقة. ثم إنَّ الغرب استعار ثقافة وفكراً من الإسلام وعمل بها بكل ثقة: وألبسها ثوباً جديداً فجعل بعضها بمثابة فكر مجدد ومتطور للمسيحية الغربية، وجعل بعضها الآخر بمثابة فكر ثقافيٍّ حضاريٍّ ضروريٍّ للبشرية. وحول الانبهار ذكرنا أن بعض المسلمين هم انتحاريون في سعيهم للوصول إلى أوروبا فهذا الانبهار يصل إلى حد الانتحار والتضحية بالنفس مقابل التواصل مع الغرب.
٤. هي علاقة عقدة قديمة وحاضرة عقدة خصومة وعقدة عدائية.

٥. علاقة خوف كل فريق من الآخر. وهذا الخوف كما ذكرنا سابقاً يصل عند البعض لدرجة الرعب من الآخر.

٦. علاقة الرغبة الحقيقة الدفينة بالحوار مع الآخر.

٧. علاقة تبادل حقيقي قائم في كافة المجالات تقريباً.

وبالنتيجة فإن هذه العلاقة تحوي متلاقيات كثيرة وتتسم بالتعقيد، وتحتوي على عناصر علائقية لا يمكن حلّ عقدها إلا بحوار جادّ تراوّقه رغبة في التفاهم بين الطرفين، ولما كان النظام الغربي المسيطر على مقدّرات السلطة لا يسعى للحوار الجادّ فيصبح من الضروري التحاور العربي الإسلامي مع هيئات ومنظمات مدنية تمثل المجتمع والأفراد وتجاوز السلطات الاستعمارية الغربية.

سلطة الإسلاميين

بعد حلم طويل دام قرابة القرن من الزمن، وبعد عمل فكري وتنظيمي وجهاز كبير استطاع الإسلاميون اليوم أن يكونوا المحرك الرئيسي للأحداث التي ترسم مستقبل الأمة الإسلامية. فهم القادرون اليوم على توجيهه ورسمه الحدث والمستقبل في لبنان والعراق وأفغانستان والصومال، وبعض الشيء في اليمن والسودان ومصر. إضافة لتحكمهم بمستقبل المسلمين في الغرب. فطوال القرن الماضي كان مفكروهم وقادتهم يحلمون بيوم واحد من السيطرة على الحكم ودفة الأحداث ويعدون الجميع بالعدالة والرفاه والأمان ويتطبيق عدل الله وشريعته. واليوم يتحكم الإسلاميون الشيعة والسنّة في أحداث العراق وكانت منهم حرب إسلاموية إسلاموية، وطائفية وهنوية وتصفوية وعرقية. وبرزت أعمالهم كمشاريع إبادة قذرة تتلاصق مع شريعة الله، وتبين أنهم عجزوا عن القدرة على إدارة أمور المسلمين منذ اللحظة الأولى لتسليمهم تلك الإدارة. وتشير تلك النتائج إلى أن الجماعات الإسلامية عجزت عن تطبيق الحلّ الديني الذي كانت منذ قيامها تسعى لترسيخه. وأنها بعجزها هذا إنما تستغني عن الحلّ الديني نهائياً وتتجأ إلى الحل العلماني الذي كانت تستقره وتحاربه طوال عقود مضت. وإن الفترة الزمنية القصيرة القادمة

ستحدد المستقبل النهائي لتلك الحركات الإسلامية، ومستوى مناصرتها أو معاداتها في المجتمعات الإسلامية. فإن استمرت في مشروعات الاقتلال الطائفية والعرقية وبذلك ستدفع الأمور نحو تعميق التمزقات الدينية والاجتماعية وزعزعة أسس الاستقرار العام، ومن ثم تجعل من المعطى الديني عامل تفجير للحمة الداخلية وتمزق عرى السلم الأهلي بدل أن يكون عامل توحيد ورأب للتصدعات، عندئذ تثبت للمسلمين أنفسهم أن الإسلاميين عجزوا عن قيادة شعوبهم. وأن الإسلام عاجز بطبعه عن بناء أسس الإجماع العام، مما يؤدي إلى تحبيط هذه الحركات الإسلامية نهائياً وطي صفحتها لزمن ليس بالقصير. بل ودفتها كما دفن العالم في حينه حركات كثيرة فاشلة. فحينما تعجز الحركات الإسلامية عن بناء المشترك ومد جسور التواصل بين الأفراد والمجموعات، وحينما تحول إلى عامل تناحر وانقسام، فإن أتباعها هم قبل غيرهم أول من يؤسس شروط تجاوزها وإلغائها، ومن ثم يشرعون الباب واسعاً أمام الحل العلماني باعتباره الأقدر على ضمان السلم المدني واستعادة مقومات الوحدة وعوامل الانسجام الاجتماعي . وإن مدخل علاج الأحداث الطائفية لا يقوم على تأجيج هذه الصراعات وإنماك الجسم الإسلامي. بل يكون بالالتزام بميزان العدل والإنصاف، وترسيخ عرى الوحدة بين مختلف المسلمين وانتفاء انتم المذهبية والقومية. ويلاحظ أن كثيراً من عمليات الاقتال تحمل طابع التصفية العرقية والمذهبية، وهذا هو طابع الإبادة الجديد بكل مفاهيمه ومعانيه على شريعتنا وثقافتنا، وقد شاعت فلسفة الإبادة في الغرب على أيدي مفكرين يهود وصهاينة . فاعتبرت الصهيونية تلك الفلسفة، وروجتها في أوساط السياسة الغربية. وهاهياليومتفزو مجتمعاتنا الطيبة. لكن تلك المشاريع ستفشل ولاشك، وسيظل هناك سنة وشيعة وسلفية ومتصوفة، ومسيحية وعروبة وكردية وأشورية وغيره.

الفصل الثالث

الطاولة الممسوحة حسب ديكارت

Tabula Raza

الطاولة الممسوحة

كما يقول الفيلسوف الفرنسي ديكارت في نظريته (لنسخ الطاولة ولنبدأ من جديد). فإننا ندعو المسلمين والمسيحيين الغربيين إلى فتح صفحة جديدة في العلاقات تكون خالية من عقد وأوهام الماضي المؤلم وتوسّس لحوار حضاري جديد بين الطرفين. ولابد من مسح الماضي المشعون كله ذلك الذي يحوي مجازر واحتلالاً وغزوارات وأعمال إبادة وأحقاداً. ولنحدد نحن المسلمين الكيان الذي نتحاور معه في الغرب. فما دامت حكومات الغرب تضم الآذان عن التحاور الجاد معنا فلنتحاورمنذ اليوم مع الكنائس الغربية ومع المؤسسات الدينية المسيحية، فقد اختار الرسول شخصاً واحداً مسيحياً ذات يوم للتحاور معه وكان ذلك الشخص النجاشي. ولابد أن حوارنا سيتطور باستمرار ليصل إلى مؤسسات غربية رفيعة.

وبسبب تأثير الصهيونية الكبير على الإعلام والنفوذ في الغرب فعلله من الضروري أن نسلك طريق الحوار مع اليهود المعتدلين والمتدينين والعلمانيين المعادين للصهيونية. فإن نسبة اليهود المعادين للصهيونية يبلغ بالفعل وحسب تقديرنا ثمانين بالمائة من مجموع يهود العالم. وهؤلاء جميعاً يفرزون أنفسهم عن الصهيونية وأعمالها، ويمتلكون قابلية للتحاور مع العرب والمسلمين، بل وبينهم حاخمات يدعون لإقامة دولة عربية أو إسلامية في أرض فلسطين، وإيضاح هذه الصورة يمكن الرجوع لكتاب يهود ضد الصهيونية.

طعنة لإعتبران المسلمين والمسيحيين

شهد التاريخ عدّة حوادث. باسم السيد المسيح، ونحن كمسيحيين نعتذر ويتجوّب علينا أن نعتذر عما قام به هؤلاء الأشخاص من أذى للمسلمين. باسم السيد المسيح. ونحن المسيحيين نعتذر أيضاً عن كافة أعمال الفزو والقتل والتدمير التي يرتكبها جنود الغرب بأمرة حكامهم المعتدين."

"ونحن المسلمين في الوقت نفسه، فإننا أيضاً نقدم اعتذارنا للمسيحيين عن كل خطأ أو اعتداء حصل من بعض المسلمين ضد المسيحيين باسم الإسلام، لأننا لا نريد أن يؤذى بعضاً البعض الآخر."

تلك هي صيغة الاعتذار الواجب تقديمها كمنهج أول في سبيل الحوار الإسلامي المسيحي. الأمر الذي يطيب القلوب ويرئ المجتمعات العامة مما يفعله الأفراد من أخطاء. لأنَّ أخطاء فردية تجاه أفراد من أتباع ديانة ما تجعل الكثير منهم يعتقدون بأنَّ جميع أتباع الديانة الأخرى يحملون لهم الكره والقتل والتدمير.

فحين أعلن جورج بوش الصغير عن عزمه على القيام بحرب صليبية ضد المسلمين عجز عن إقناع مسيحيي العالم بذلك المشروع الطائفي. فما كان منه إلا الاعتذار كتصحيح صوري لخطئه. والأهم من هذا هو أنه لا يمثل المسيحية بل إن المسيحية براء من صليبية بوش الصغير، فالمسيحية سلام وعدل وحوار.

وإنَّ اعتداءات التطرف الإسلامي في دول الغرب سببت موجة من خوف المسيحية الغربية من الفزو الإسلامي المدمر لدول الغرب. وجعلت الكثير من أولئك يتهمون الإسلام كله والمسلمين جمِيعاً ويحملونهم مسؤولية ماحدث. ومن هنا تأتي ضرورة الاعتذار وضرورة الانطلاق من هذا الاعتذار إلى مرحلة الحوار والوفاق.

وعلى ضوء هذا، نحن نتمنى السلام للعالم كله، على أساس أن تتبادل خيراتنا، وأن تحرك طاقاتنا في سبيل الخير للإنسان ككل الإنسان.

وفي هذه الدعوة نشمل اعتذار الشرق من الغرب واعتذار الغرب من الشرق. فهذا الاعتذار المرجو عن الماضي المعقد سوف يهيئ لمستقبل واضح ومشرق في العلاقة بين الفريقين.

وهذا الاعتذار الذي نرجو حدوثه يعتبر ضرورة ملحة في هذا العصر وليس مجرد رجاء وحلم.

يتعين علينا كمسلمين أن لا نشرط قبل اعتذارنا أن يكون متبادلاً، وأن لانطالب الغرب على الفور بالرد على اعتذارنا بالمثل، بل من الممكن أن نكون نحن المبادرين والموضحين لأهمية الاعتذار التاريخي، وبناء عليه ندعوا أطرافاً كثيرة في

الغرب أن تتفهم اعتذارنا وتقوم بعمل مماثل. ومما لاشك فيه أننا سنجد في الغرب
آذاناً صاغية ومتفهمة لمبادرتنا هذه.

المسيح رسول السلام والخزانة رسول العهديونية

يعتقد المسيحيون بأنَّ المسيح رسول سلام إلى البشر كافة. ويؤمن المسلمون أيضاً بأنَّ السيد المسيح جاء بالسلام على الأرض، وبأنَّ كل الأديان السماوية تدعو إلى السلام، فالتحية الإسلامية التي يلتقي فيها المسلم مع الآخرين هي (السلام عليكم)، فكأنَّه بذلك يقول للآخر: إن علاقتي معك هي علاقة سلام، بمعنى أنني لا يمكن أن أسيء إليك أو أؤذيك أو أحاربك أو أرهبك.

والقرآن الكريم يتحدث عن أهل الجنة ويصفهم : (تحييهم فيها سلام). والجنة في المصطلح الإسلامي هي دار السلام، والناس في الجنة هم ناس السلام، ولا يمكن أن يسيء أحد إلى أحد، لأنهم يعيشون السلام بين يدي الله. وفي بعض النصوص الإسلامية، أن الله هو السلام، وهو الذي يجسُّ السلام، وإن أحد أسماء الله الحسنى التي يتناولها المسلمون هو السلام، وإن السلام على الأرض ينطلق من خلال احترام الإنسان للإنسان، وهذا هو الذي نسميه العدل؛ أن يكون لكل إنسان الحق في أن يعيش ويعيش، وأن يمارس كل طاقاته في الخير، وأن لا يحرم إنساناً حقه في الحياة وفي الحرية.

لذلك، نحن مسلمون ومسيحيون نؤمن بالسلام مع العدل؛ أن يعيش العالم السلام، وأن يأخذ كل إنسان حقه في الحياة وفي الحرية.

وبحسب الآية القرآنية فإنَّ كل الرسالات وكل الرسل الذين أرسلهم الله تعالى، وكل الكتب المقدسة التي أنزلها الله، إنما كانت من أجل أن يقوم الناس بالعدل، ومن أجل أن يحل السلام، وعندما نجد حكاماً في الغرب لا يمارسون إحلال السلام على الأرض فاؤلئك ينافقون عقائد شعوبهم المسيحية والمسلمة ويخالفون تعاليم القرآن والإنجيل والتوراة. وبمخالفة أولئك الحكام لرغبات وعقائد شعوبهم يصبح

من الواجب أن نقوم بالفصل مابين أولئك الحكام وشعوبهم، وبالتالي أن تؤكد على تحاورنا مع الشعوب المسيحية، وأن نجرد المسيحية من الأخطاء والأعمال والعدوان الذي يرتكبه أولئك الحكام باسمها.

فليست المسيحية هي التي غزت واحتلت العراق وأفغانستان، بل إن الذين يغزون بلدان المسلمين ويمارسون الإبادة على شعوبها هم حكام مستبدون متصهينون.

لقد أرسل الغرب مبشرين مسيحيين إلى البلدان الإسلامية، وكثيرة جداً محاولات التبشير تلك. وكانت النتائج أنه فشل في كافة مشاريع التبشير تلك. والسبب واضح وهو أن الغرب ليس مسيحياً حقيقياً أصلاً فكيف به أن يدعو لمسيحية دينية. وكان مبشروه ولاشك لا يرون ضرورة لتبشيرهم داخل مجتمعات متدينة ومؤمنة بالله الواحد ومعتقدة لديانة سماوية هي الإسلام. لقد فشل المبشرون لأنهم لم يكونوا مؤمنين لا بأدوارهم ولا حتى بالعقيدة التي يريدون أن يدعوا لها. فأولئك تعلموا الدين والعقيدة والإيمان هنا في البلدان الإسلامية واعتنقوا الإسلام بدل من أن يزححوا المسلمين عن عقيدتهم. لقد اعتق الإسلام حوالي نصف المبشرين الغربيين تقريباً. بل وأصبح هؤلاء هم رسل الإسلام إلى الغرب ودعاة الإسلام في الغرب. ففي وثيقة لوزارة الخارجية الفرنسية في زمن الانتداب الفرنسي لسوريا نقرأ هذه النصوص:

"أقام المبشر *** ثلاثة أشهر في الحي الشيعي بدمشق وطوال تلك الفترة لم يستطع أن ينصر ولا شخص من أبناء حارة الشيعة نقترح بإلغاء المحاولة لأننا لن نتوصل إلى أية نتائج معهم".

الفصل التام بين المسيحية الغربية والبيانة المسيحية

منذ أن اعتقت أوروبا المسيحية لم تتحالف المسيحية العربية مع المسيحية الغربية. بل بقيتا على خلاف دائم. وتشير أحداث التاريخ منذ القديم إلى وجود

خلافات ونزاعات أحياناً بين هذين الفريقين. فالرومانيون المسيحيون اقتتلوا مع الأقباط والآشوريين والكلدان والغساسنة المسيحيين.

وطوال التاريخ كان الغرب المسيحي من ناحية أخرى يقوم بمحاولات لاستقطاب المسيحية العربية ولم يفلح فيها جميماً. وفي عصرنا هذا نلمس فراغاً كبيراً بين هذين الفريقين وفي الأحداث الأخيرة لم يستطع الأميركيون أن يتحالفوا مع مسيحيي العراق بل ولم يقم الغرب بأدنى محاولات لحماية الأقليات المسيحية الكلدان وأشور.

ونرى أميركا تتحالف مع الأحزاب الكردية وتنجحها سلطات وقوات وحماية. الأمر الذي يعني أن أميركا لا تحمل أيديولوجية دينية مسيحية حقيقة بل تحمل استعمارية صهيونية. ومن جانبهم فإن المسيحيين العراقيين لم يسعوا لأي تحالف مع الفرازة الجدد لأنهم لا يعتبرونهم مسيحيين. وفي لبنان تتعكس الصورة ضد الفكر العدوانى الغربي إذ يحكى عن تقافم اجتماعي بين شيعة الجنوب والفرازة الأوروبيين المسيحيين، ونسمع عن حالات زواج كثيرة بين بنات الجنوب المسلمات وجندو الفرازة الذين اعتنقا الإسلام وأحبوا أهله.

الكنيسة الإنكليزية تتقدّم سياسة بريطانيا

للكنيسة الغربية نفوذ فعلى ما زال قائماً وقوياً رغم العلمانية المعلنة في الغرب. فهي تتدخل في الأمور الحساسة وتعلن عن مواقفها بقوة وجرأة. فتارة تصدر تصريحات معادية لقضايا المسلمين، وتارة أخرى تلتفت إلى مصالح الغرب نفسه وتطلب الحكومات الغربية بالتوقف عن العسكرية والإحتلال والفوز بغية حماية الجنود الفرنسيين فحسب. يقول تقرير الكنيسة الإنكليزية إن أخطاء الحكومة البريطانية الكارثية في الأزمة العراقية دفعت المسلمين في بريطانيا إلى انتهاج سياسة أكثر تشديداً. وإن سياسة بلير تجاه العراق أضرت بصورة بريطانيا، وأدت إلى عزلتها في أوروبا.

وقد صدق روان ولیامز أسقف كارتبري على هذا التقرير الذي أشار إلى أن بريطانيا باتت مركزاً لتجنيد الجهاديين بسبب احتلال العراق ومواصلة الحكومة سياستها "غير العادلة" في المنطقة.

وأشار التقرير إلى أنه بدلاً من مكافحة التطرف شاركت الحكومة في الحرب ضد الإرهاب مما أمد القاعدة بالدعية الازمة لجذب المسلمين المعارضين للهيمنة الغربية.

وكما نلاحظ فإن الموقف الكنسي البريطاني في تقريره يسعى فحسب لصالح بريطانيا وسكانها وهذا جائز له. لكنه لا ينتقد المظالم والاعتداءات العنصرية والاحتلال ودعم الغرب لإسرائيل. فالرؤية الكنسية البريطانية ليست إيمانية صافية وليس تسامحية وليس إنسانية كما كان يجب أن تكون. وبالتالي فهي ليست رؤية مسيحية خالصة بل رؤية عنصرية تم تسخيرها لصالح القضايا الغربية. بينما المسيحيون العرب ينطئون برؤى مسيحية إيمانية حقيقة.

مسلمو أمريكا أكثر اندماجاً من مسلمي أوروبا

تدل هذه الدراسة على أن العقدة الغربية من الإسلام هي في أوروبا أكثر تجدراً مما هي عليه في أمريكا. فهي في أوروبا متوارثة تاريخياً وهي أيضاً مفاهيم شعبية وفولكلورية وثقافية وموروث متوارث، وسيطر في الغرب الأكثريه الذين هم من أصول أوروبية عريقة. أما انتقال عقدة الغرب من الإسلام إلى دول الغرب الأخرى كالولايات المتحدة وكندا وأستراليا والكيان الصهيوني فذلك النقل للعقدة حدث عن طريق المهاجرين الغربيين إلى تلك الدول، وهؤلاء المهاجرون ليسوا أكثريه طاحنة في تلك الدول. وتدل هذه الدراسة أيضاً على إمكانية اندماج المسلمين في المجتمعات الغربية عندما تتهيأ الأجواء المناسبة للاندماج. ففي الولايات المتحدة يتصرف المجتمع بقلة عدائته للمسلمين مقارنة مع المجتمعات الأوروبية.

جاء في دراسة أمريكية جديدة أن المسلمين مندجون بشكل جيد في المجتمع الأمريكي وأن آراءهم معتدلة بالمقارنة مع غيرهم.

كما جاء أن المسلمين الأمريكيين، ومعظمهم مهاجرون، يؤمنون بقيم أمريكا كقدسيّة العمل ورفض التطرف . كما أن مداخيلهم ومستوى تعليمهم لا يختلف عن عامة الشعب الأمريكي، حسب الدراسة. لكن معظم المشاركين في استطلاع الرأي الذي اعتمد عليه الدراسة قالوا إن حياة المسلمين اليومية صارت أصعب بعد هجمات 11 سبتمبر. ويجدر بالذكر أن نصف المسلمين من غير المهاجرين هم من السود، وعدد كثیر منهم اعتنق الإسلام بعد ديانة أخرى. وحسب نفس المصدر، فإن المسلمين عامة نظرية إيجابية عن المجتمع الأمريكي، كما يقول معظمهم إن الحياة في أوساطهم جيدة. وتحتّل آراء المسلمين الأمريكيين عن أمثالهم في أوروبا الغربية، فيقول مركز "بيو" للأبحاث إن معظم المسلمين في بريطانيا وفرنسا وأسبانيا يشتكون من البطالة والتمييز ضدهم .

لكن حسب نفس استطلاع الرأي، فإن مسلمي أمريكا يرفضون التشدد أكثر من غيرهم في بلدان أخرى، غير أن هناك تقبلاً له في بعض الأوساط المسلمة التي تم استطلاع رأيها، كالسود مثلاً.

كما أن عامل السن يلعب دوراً مهماً حيث نسبة الشبان الأمريكيين التي تقول إن الهجمات الانتحارية دفاعاً عن الإسلام يمكن تبريرها أكبر منها بكثير عند كبار السن .

كيف تحاور مع الآخر؟

الحوار مع الآخر الذي هو مسلم ينتمي إلى مذهب إسلامي آخر يجب أن نسخره للمصلحة المشتركة والمصلحة العامة وقبل كل شيء للمصلحة الإسلامية. وأن نحقق منه فوائد لنتائج سلبية. إذ لا ضرورة لحوار لا يعود على الجميع بالفائدة. ولا حاجة لحوار نخرج منه مختلفين. فإذا تحاورنا بهدف الاختلاف، وخرجنا متشارعين

متاقضتين أكثر مما كنا قبل الحوار، وأساء كل فريق للأخر، عندئذ لن يوصف أحد منا بالبطولة ولا بالانتصار على الآخر بل سيوصف المتعاونون بالخلاف والإساءة للإسلام عموماً.

إذا تعاورت مع مسلم ينتمي لمذهب آخر بهدف الإساءة لمذهبة، فإنك بذلك تسعى للإساءة إلى الإسلام نفسه. لأنه هو ومذهبة من الإسلام، ولأن انتقادك لمذهبة سيكون موجهاً لأحد أركان أو مظاهر الإسلام.

ويجب أن يتم الحوار ضمن إطار يجري الاتفاق عليها فلا يتعداها أحد المتعاونين كي لا يصبح الحوار نفسه فتنة.

عندما يتم الحوار بين شخصين يتبعن على كل محاور منهما أن يعتبر الآخر مسلماً وألا يستهين بإسلامه أو بانتقامه. ولا بعض العقائد التي تتعلق بمذهبة، فإذا انطلقت إشارات النقد والاستهانة فإنها ستثبت في أذهان المتابعين للحوار (إذا كان الحوار مذاعاً) وستصبح منذ تلك اللحظة إشارات تفرقة واختلاف. وإن حوارات تلفزيونية استفزازية عديدة بين سنة وشيعة أدت إلى تعريف الجمهور بمصطلحات انتقادية جديدة، وساهمت في ازدياد المشاعر الطائفية بدلاً من مساحتها بإيجابيتها.

الحوار يعني تبادلاً مفيداً للمعلومات والثقافات والعقائد، فلتكن الفائدة هدفنا منه، ولن تتحقق الفائدة إلا من خلال الالتزام بأدبيات الحوار وديمقراطيته.

نبحث عند الآخر عن النقاط التي نشارك بها معه وعمانراه ايجابياً عنده، وهذه النقاط التي تجمعنا مع الآخر هي التي تعزز الحوار والتبادل المعلوماتي بل والتعامل كلّه بيننا. وبنفس الوقت فسوف يتلزم هو بشروط الحوار هذه ويكتشف كلّ منا ايجابيات الآخر وسيكون الحوار مفيداً لكلينا.

لابحث عما نراه نقاط خلاف بيننا أو نقاط استفزاز للأخر، وإن مررت بذلك فلاندكراها. فذلك يقودنا نحن الاثنين إلى الاختلاف والشعور بالطائفية، وعندئذ يكون الصمت أفضل من الحوار.

ليس كل ما عند الآخر مرفوضاً نهائياً، بل إنه من الطبيعي أن يبدع أهل السنة في أمر ديني لم يتوصل إليه أهل الشيعة، وكذلك فمن الممكن أن يبدع الشيعة في

أمر ديني لم يتوصل إليه أهل السنة. ولذلك فمن الطبيعي أن يستقيد كل قوم من القوم الآخرين مع الحفاظ على عقidiتهم المذهبية. فقد بدأت الصحوة الإسلامية الحديثة عند أهل السنة منذ محمد عبد، وقام الإيرانيون بترجمة كل النتاج الفكري السنّي طوال قرن من الزمن واستفاد الشيعة كثيراً من الفكر الإصلاحي السنّي. ولم يتعاملوا معه على أنه فكر الآخر. وبانتصار الثورة الإيرانية بزعامة آية الله الخميني أنتجت الشيعة فكراً إسلامياً غزيراً ومتوحاً لكن العرب والسنّة لم يعيروه أي اهتمام ، ولم يقم أحد بترجمته ودراسته. ومن بين تلك العناوين :

(الإعلام الإسلامي، الإخراج السينمائي الإسلامي، الدين والسياسة، الحجاب الإسلامي) تلك أبحاث لا يمكن أن نحكم بأنها شيعية أو سنّية، بل هي إسلامية تناسب مع كل المذاهب الإسلامية وخاصة مع أهل السنة. فقد استطاع الشيعة أن ينتقلوا من الحوزات العلمية ومن المنفى المأساوي ومن السجون إلى رأس السلطة، ثم إنهم حققوا نجاحات باهرة في استمرارهم في السلطة، وثمة نجاح شيعي باهر أيضاً وهو ظاهرة حزب الله، فمهما كان الانتفاء السياسي للقاريء اللبناني فإنه بلاشك يقدر عالياً تمكن حزب الله من طرد الصهاينة ثم قصفهم بالصواريخ في الحرب الأخيرة. كل ذلك يستدعي المسلم السنّي لأن يعرف معارف وتجارب وخبرات المسلمين الشيعة. لأنها معارف إسلامية تتحقق له الفائدة ولن تضره بشيء. وبينما الوقت فلن تؤثر على انتقامه المذهبي.

ان لكل كلمة نطقها أشقاء الحوار المذهبي أهمية كبيرة وخطورة بنفس الوقت. وقد تؤزم الحوار وتسبب المشاكل بين المتحاورين، وقد حدث اقتتال يحمل سمة الطائفية والسياسية في جامعة بيروت العربية بسبب سوء التفاوض بين شخصين. لاستخدام كلمة طائفة ولا كلمة طائفية. فنقول مذهب ومذهبية، لأننا عندما نحمل مصطلح (طائفة) ونستخدمه فهذا يؤدي إلى مشاكل طائفية حقيقة. لا شك بأن كل متحاور هو صاحب عقيدة ويعتقد بأن مذهبه وعقيدته هي الاعتقاد الديني الصحيح، وإن دعوه لعقيدتنا لن تم باستفزازه والتهمج عليه ولا يأبهانه عقيدته، بل بعرض أيجابيات عقیدتنا ومذهبنا، وذلك سيقوده إلى محاكمة ذاته واختيار ما وجده

أفضل اعتقاد أو مذهب. ومن الطبيعي، ومن الإسلام أيضاً أن يسعى كل من السنّي والشيعي لنشر مذهبه في أوساط المجتمع الآخر. بل إن المسلم الذي ينتقل بين هذين المذهبين لن يصبح كافراً، ولذلك فإن مثل هذه الأحداث يجب ألا تشكل نقاطاً اختلافاً بين السنة والشيعة.

دعوة الآخر إلى مذهبنا أو عقیدتنا لن تم بحوار واحد ولا بحوار لساعات أو أيام بل قد تستغرق أشهراً أو سنوات. وبنفس الوقت فقد ينضم الآخر إلى مذهبنا من تلقاء نفسه دون دعوة أو تعريف بمذهبنا. وإن أحياناً فردية في الانتقال بين المذهبين السنّي والشيعي لن تفيد ولن تضر أيّاً من المذهبين، بل ستبقى حالات فردية خاصة، وبنفس الوقت فهي تعبير حقيقي وصادق عن التحالف والتفاهم والارتقاء بين المذهبين. أفضل وسيلة للدعوة إلى الإسلام هي أن نتعلّم نحن المسلمين بصفات ينبعها الآخر ويجد فيها الجوانب العديدة التي يفتقدها هو في حياته وعقيدته (وهذه الصفات هي الإسلام نفسه). وعندئذ سينضم إلى ديننا أو مذهبنا من تلقاء نفسه. ففي العصر الحديث يدخل الإسلام مئات الآلاف من الأشخاص دون أن يقوم أحد بدعوتهم إلى ديانة التوحيد. ويقول مدير أحد المراكز الإسلامية في إفريقيا: في كل دقيقة يأتينا شخص يعلن إسلامه، إنهم يقبلون على الإسلام بشكل مذهل. لا يحق للمتحاور أن يكفر الآخر اعتماداً على قواعد وفقة مذهبة هو. أحياناً يحمل الحوار السنّي الشيعي الذي نشاهده على الفضائيات، اتهامات بأعمال سياسية ويتبادل الطرفان الاتهامات فيما بينهما. تلك هي اتهامات سياسية، وأحداث سياسية، فالإجابة على أسئلة من نوع: من قام بتفجير تلك الحافلة، ومن قام باغتيال ذلك الشخص، تلك اتهامات لأفعال سياسية ويتوّجّب على المتحاورين ألا ينماقاً الأحداث السياسية بنهج طائفى. حين يكون الحوار الإسلامي الإسلامي تبادل اتهامات وتلاسن بالكلمات، وتدخل بالشرائع المذهبية لكل متحاور. عندئذ يصبح هذا الحوار جزءاً من معركة الافتال الطائفي، ومكملاً لها بـ مروجاً وداعماً. ويصبح إيقاف الحوار أفضل من متابعته. وفي هذه الحال نحكم على المتحاورين بالانحياز الطائفي لـ بالفقهاء والعلماء والمفكرين.

الفصل الرابع

أسلمة أوروبا حقيقة قادمة

أسلامة أوروبا في العهد القارئ

يتحدث الأوروبيون أنفسهم عن الغليان الإسلامي الكبير في الغرب وعن توقع أسلامة أوروبا جزئياً على الأقل في العقد القادم، وتأتي هذه التوقعات من المواطنين العاديين الذين يشاركون بمشاركات في صفحات الأنترنت ومن رجال الكنيسة الغربية ومن الفاتيكان ورجال السياسة الكثر. هذا وينظر عالمياً إلى الأقليات الإسلامية في أوروبا على أنها عامل التطور الأكثر حسماً بالنسبة للقاراء الأوروبيين بأكملها، فرغم أن عدد مسلمي أوروبا حسب الإحصائيات الرسمية لا يتجاوز العشرين مليوناً، فإن قاعليتهم تفوق حجمهم بكثير، وينظر الغرب إلى نشاطهم وفاعليتهم على أنهما عوامل خطر يهدد الكيان الغربي وينذر بامتداد نفوذ الإسلام فيه.

وأمام هذا المد الإسلامي الكبير في أوروبا والذي لا يشابهه إلا زمن الفتوحات الإسلامية المتتسارع، تطرح في الغرب العديد من الطرق والأساليب التي يأمل منظروها أن تحدّ من النفوذ الإسلامي فيه، ورغم ذلك تشير النبوءات المستقبلية إلى احتمال تمكّن المسلمين الأوروبيين من السيطرة على أوروبا أو جزء منها في المستقبل القريب، وتأتي هذه النبوءة ضمن احتمالات عديدة أخرى تتناول تحليلها في هذا الكتاب. فمن ناحيته يسير الإسلام خطوات كبيرة في أوروبا بشكل آلي ودون حاجته للتدخل البشري. ويفرض نفسه على الأفراد والقوانين رغم مشاريع الإعاقة الكثيرة التي تتبعها أنظمة الحكم الغربية في طريقه، وسنوضح في هذا البحث تفاصيل تلك المسيرة التي ستؤدي إلى سيطرة الإسلام على أوروبا في العقود القادمة كما هو واضح وفي حدّيثه عن التطرف الإسلامي (أيلول ٢٠٠٧) اعتبر الرئيس بوش أن التطرف الإسلامي ينتشر ويغزو العالم. وهو يقصد ضمناً أن الإسلام يغزو العالم.

أوروبا مجبرة على اعتناق الإسلام

أوروبا مضطرةاليوم للثقف العميق بالإسلام وباللغة العربية التي هي لغة القرآن. وتشاء هذهالضرورة منأسباب كثيرة ومن أهمها: أنّ أوروبا حكومات وشعوبًا باتت تعتبر الإسلام جزءاً من كيانها الخاص، إذ يعتبر الإسلام هو الديانة الثانية فيأغلب الدول الأوروبية. فالإسلام هو ديانة جزء من شعب أوروبا وهذا ماوجب على أوروبا كل أن تضطر لتصعيد اهتمامها به. وهذا الاهتمام أسفر عننتائج كثيرة تظل دوماً في صالح الإسلام والمسلمين. فعلى الصعيد الحكومي وال رسمي والسياسي تزداد المشاريع والمؤتمرات والدراسات الخاصة بالإسلام والمسلمين. وعلى الصعيد الشعبي في كل يوم يكتشف الأوروبي جوانب جديدة صحيحة تتعلق بالإسلام. فلا تصدر صحيفة غربية إلا وتحوي جانباً من الحديث عن الإسلام والمسلمين. وتزداد اهتمامات الإعلام الغربي أحياناً فتجري استطلاعات واسعة وتحقيقات وتدرج ملفات كبيرة تتعلق بالإسلام. وكلّ هذه الاهتمامات الغربية تساهم بشكل يومي في زيادة إقبال الأوروبيين على الإسلام مما سيؤدي في النهاية إلى أسلمة أوروبا بكمالها.

التربية الأوروبية تساهم في نشر الإسلام

التربية الأوروبية بما فيها حرية التفكير والاعتقاد وحرية الفكر والمعرفة وانتشار عادة الثقاف القراءة، والأهم من ذلك هو الانفتاح الإعلامي الواسع الذي لاحدود له تقريباً: هذا الانفتاح يمكن الصحافة والإعلام والأقلام العديدة من نشر كل ما يمكن تصوره وكل ما يمكن أن يقال عن الإسلام. إنهم في الغرب لا يمتلكون محظوظات إعلامية ولذلك فهم ينشرون مواضيع ومقالات مازال يمنع التحدث بها في بعض الدول الإسلامية. وهذه الصراحة في الخطاب الغربي تساهم في نشر الإسلام بسرعة كبيرة في دول الغرب.

التربية الغربية بكل خصائصها جعلت الفرد مؤهلاً لاعتناق الإسلام. ويضاف إلى ذلك خصائص المجتمع الغربي الحالية، هذه الخصائص جعلت الفرد الغربي

مؤهلاً لاعتقاد الدين الإسلامي، فالإسلامة هناك تعني الثورة على الجمود الفكري الغربي، والانتفاضة على الواقع المزيف. والجرأة على رفض الأكذوبة التاريخية الغربية.

الأكذوبة التاريخية الغربية

هي أكبر أكذوبة عرفتها البشرية، وتلك الأكذوبة التي مارسها الغرب كسلطة كنسية متطرفة وسلطة حاكمة مستبدة على أبناء الغرب كلها. فقد تم خداع الغربي بمفاهيم تعادي الإسلام ومن أهم هذه المفاهيم التي استطاع الغرب أن يحافظ على ترسيختها طوال قرون خلت:

- تصوير الإسلام على أنه وثنية إلحادية كافرة، وهذا التصوير يحمل في طياته تحذيراً شديداً للغريبي يمنعه من اعتقاد الإسلام.
- تصوير المسلمين على أنهم معادون للديانة المسيحية السماوية، وبالتالي فهم أعداء للفرب كله ولقيمه حسب تلك الأكذوبة.
- تصوير العرب والمسلمين على أنهم يعملون باستمرار على العودة للفرب والسيطرة عليه وعلى أنهم إن استطاعوا ذلك فسوف يذبحون أبناء الغرب ويستعبدونهم وبالتالي فقد تم إقناع الغريبي بضرورة هيمنة الغرب على الدول الإسلامية وشعوبها، وبضرورة أن ينهب الغرب ثروات هذه الشعوب وخيرات بلدانهم.
- وفي سياق تلك الأكذوبة تم سحق مسلمي إسبانيا وتحذير غيرهم من اعتقاد الإسلام، واتجهت الحملات الصليبية نحو البلدان الإسلامية، وتبعها تقاسم الوطن العربي وسيطرة الاستعمار الغريبي عليه، ثم تنصيب صهاينة أوروبيين في فلسطين للحفاظ على النفوذ الغريبي الدائم المستمر على البلدان الإسلامية. وأخيراً عاد التدخل الغريبي بقوة ليمارس إبادة حقيقية للمسلمين في العراق وأفغانستان وفي الصومال وهو يسعى لغزو دول أخرى. هذا التدخل الغريبي في شؤون المسلمين يأتي في سياق الأكذوبة الغربية التي تعادي الإسلام ويرسخ عند الغريبي نفسه تلك الأكذوبة

العدائية. ويحذّره في الوقت نفسه من مناصرة المسلمين أو من اعتناق الإسلام، فالصورة السائدة المفروضة هناك والمطلوب اتباعها هي صورة العدائية للإسلام وواجب الغربي بأن يقاتل في جيوش الغرب فيقتل ويبيد المسلمين.

تلك الأكذوبة وفضولها لم تعد تتطلّى على المواطن الغربي، فالانفتاح الإعلامي مكّن الغربي من التوصل إلى الحقيقة. وبفضل الحرفيات المعلنة في الغرب فقد أصبح تطور الغربي يعني تملّصه من فضول ذلك الانتماء الزائف وتلك الأكذوبة المفروضة عليه بالقوة. وأصبحت حرية الأوروبي ترتبط حقيقة بتحرّره من عناصر تلك الأكذوبة ومن هيمنة السلطات الكنسية والحكومية على عقله.

لقد أصبح تحرّر الأوروبي يعني اعتناقّه الإسلام.

الحدث العالمي والظروف تساهُم في انتشار الإسلام

الظروف الحالية كلها والمناخ السياسي والثقافي والأحداث العالمية الجارية كلها تساهُم في نشر انتشار الإسلام في العالم. فالمراحلة التي نعيشها اليوم لا يعادلها في التاريخ الإسلامي إلا مرحلة ظهور الإسلام وانتشاره السريع في العقود الأولى من التاريخ الهجري. إن اهتمام الغرب بالإسلام. ومعداته في بعض الأوساط، تعمّد البعض الإساءة إلى الإسلام وغزوّات الغرب ضدّ البلدان الإسلامية وتعقد قضية الكيان الصهيوني العنصري. هذه أيضًا عوامل تزيد من انتشاره.

وفي الجهة المقابلة هناك مسلمو الغرب والمسلمون الجدد من أبناء الغرب، وهناك أعمال التطرف وأصوات قادة الجماعات المتطرفة، وهناك الإعلام العربي والإسلامي الذي غزا العالم في السنوات الأخيرة. هذه أيضًا عوامل مساعدة في انتشار الإسلام.

اعتاد الغرب على تفشي موضة بين أفراده. وكانت موضة الماركسية والوجودية والسوسيالية وغيرها واليوم حان وقت موضة جديدة تتفشى في الغرب كله وهي أفضل ما اكتشّفه الغرب بعد طول التجارب والتنقلات المؤلمة. وهذه موضة الإسلام الأوروبي إذا صحّ التعبير.

أوروبا إسلامية منْ الآخِر

عندما يتحدث أي سياسي أوروبي عن الإسلام والمسلمين فإنه يتحدث عن شأن يخص دولته أيضاً، ومنهم من يقول بوضوح شديد (الإسلام دين مواطن) لأن الإسلام هو دين لجزء كبير من مواطنه، وال المسلمين هم أيضاً مواطنو دولته. ولن يحاول ولن يقدر أن يقصي الإسلام والمسلمين لأنهم مواطنوه. بل إن ما يحدث هو العكس في غالب الأحيان، إذ يأتي مرشحو أوروبا إلى استمالة المسلمين والحصول على أصواتهم. وإن الانتقاد الذي وجهه نيكولا ساركوزي لمنظمي أعمال الشغب من المسلمين في ضواحي باريس ٢٠٠٧ لا يستهدف المسلمين الفرنسيين ككل بل يستهدف منظمي الشغب أنفسهم. ويوجه مثل هذا النقد لمواطني الدول العربية والإسلامية أحياناً من قبل سياسي بلدانهم.

من هذا المنطلق أصبح سياسيو الغرب يمتلكون حقاً في التعبير عن الإسلام والمسلمين، ولم يعد ذلك حكراً علينا نحن بمفردنا. ولنمس ذلك بوضوح وللمس جرأتهم واندفاعهم أثاء الحديث عن الإسلام، ففي المقابلات والحوارات المتألفة عندهما يسأل الصحفي العربي سياسياً أوروبياً عن أمر يتعلق بمسلمي أوروبا يستفر الأخير معتبراً عن حقه في تناول القضية الإسلامية ويعبر عن امتلاكه لتلك القضية فيتعامل معها على أنها قضيته وقضية حكومته وشعبه، وفي كثير من الأحيان يقول السياسيون الغربيون بوضوح إن الإسلام هو دين شعوبهم ومواطنيهم. وإن هذه المسؤولية التي يحملها السياسيون الغربيون هي ذات حدّين اثنين ويرتبط أحدهما بتطوير وتحديث الفكر الإسلامي والذي ينجم عنه ارتفاع في عدد الداخلين في الدين الحنيف.

بوابات الإسلام إلى أوروبا

يدخل الإسلام في هذا العصر إلى أوروبا عن طريق بوابات عديدة واسعة ومفتوحة بالكامل أمام الدين الحق. وعبر هذه البوابات يصل الإسلام بسهولة ويسر إلى أي أوروبي يريد التعرف عليه والتأمل به.

البوابة الأولى: وهي الإسلام التركي العلماني الوعي والمتفهم للحضارة العالمية المعاصرة. والخالي تقريباً من العنف والجهادية. والإسلام التركي قريب من أوروبا من حيث جغرافية تركيا الملائقة للدول الأوروبية. وقريب من حيث العدد الكبير للجالية التركية المستوطنة في دول الغرب وفيها جماعات إسلامية تتبع أيدلوجياً للفكر السياسي الديني عند الجماعات التركية. والإسلام التركي قريب من أوروبا من حيث علمانيته ونضجه الحضاري والسياسي والفكري.

البوابة الثانية: منطقة المغرب العربي القريبة جداً من أوروبا والتي تمتلك جالية إسلامية كبيرة في دول الغرب، وتبعد هؤلاء فكرياً وثقافياً واجتماعياً عن دولهم الأم. وهم سواء أرادوا نقل الإسلام أم أنهم لم يعلموا على نقله في كلا الحالتين هم رسل الإسلام إلى أوروبا. وهم إسلام حي يعيش في وسط أوروبا. وبذلك يساهمون في نقل الإسلام أو بالتعريف به على أقل تقدير.

البوابة الثالثة: المسلمين الأوروبيون، الذين هم من أصول عربية وباكستانية وغيرها. وهؤلاء يحافظون على قضايا بلدانهم الأصلية ويقومون بدور التعريف بالإسلام والدعوة لاعتاقه. وهؤلاء سفراء للإسلام في دول الغرب وهم يساهمون بوجودهم في الغرب على أقل تقدير في التعريف بالإسلام ونقله إلى المجتمعات الغربية، وهؤلاء يمتلكون ثقافات متعددة نظراً لأنحدارهم من دول كثيرة وهذا النوع الثقافي والاجتماعي والعرقي للمسلمين الغربيين يعتبر عاملاً مساعداً في نشر الإسلام في أوروبا.

البوابة الرابعة: الإسلام الشيعي الإيراني: يذكر هنا أن إيران الإسلامية تمتلك مخطوطات ومناهج عمل لتوسيع مناطق نفوذ الإسلام في العالم، وهي تخصص لذلك مبالغ كبيرة من المال. وترسل العلماء والدعاة والمتخصصين بالدعوة إلى أوروبا وغيرها. ويدرك على سبيل المثال أنَّ عدد أفراد الدبلوماسية الإيرانية في دولة الفاتيكان يبلغ ثمانين شخصاً. وهذه أكبر بعثة دبلوماسية في الفاتيكان، مما يدل على جدية إيران في الحوار الإسلامي المسيحي والحوار الحضاري مع الغرب وأبنائه. ويعتبر الشكل المذهبي عند الإيرانيين نموذجاً وصورة أخرى عن الإسلام. فالإيرانيون

بعيدون عن أعمال القاعدة ونهجها الذي يخيف الأوروبيين، وعناصر الفقه الشيعي تعطي صورة جديدة عن الإسلام للفريبي الذي تعرف على صورة الإسلام السنّي وقد تكون الصورة الشيعية أحياناً أكثر جاذبية لبعض الأفراد الأوروبيين فمن خلالها يعتقدون الإسلام. سواء اعتنق الغربي الإسلامي الشيعي أم السنّي أم الصوفي أم الوهابي فإنه بالنتيجة يكون قد ركب القطار الإسلامي الطويل، ويكون قد انضم إلى مجموع المسلمين.

البوابة الخامسة: الإعلام بأنواعه والأنترنت. وهذا الإعلام الذي أشاع الفكر الإسلامي ونشره للعالم كله، فأصبح في متناول الجميع. هذا الإعلام المفتوح الذي فرضه الغرب القوي علينا يساهم في نشر الإسلام بسرعة مذهلة في المجتمعات العالمية كلها. فقد أدرك العالم كله تقريباً حقيقة أولى مفادها أن الإسلام دين قيم وأخلاق وبناء للفرد وحمايته من الاندحار والفساد الأخلاقي. وحول الرأي السائد عن الإسلام نقل ما عرضته قناة الجزيرة في برنامج وثائقي إخباري:

في دول شرق آسيا وفي مناطق كانت تابعة للاتحاد السوفياتي السابق، ينتشر الفساد والانحلال وهلاك القيم، ويقوم دعاة نشطاء مسلمون بتربية الأفراد وتشتيتهم حسب الشريعة والدعوة الإسلامية. فيتحدث هؤلاء الدعاة والمشايخ لقناة الجزيرة ونرى في التقرير المصوّر سيدات مسيحيات وغير مسيحيات يأتين بأولادهن إلى هذه المدارس الدينية ويقلن للشيخ: .. خذ ابني وربيه وعلمه القيم والأخلاق كما ت يريد وكما يجب أن يكون لأننا نريد أن ننقد هذه من مستقبل منحط ومن الانسياق في ركب العصابات والفساد." يعلق الداعية على ما يحدث فيقول: "هؤلاء الأسر لا يهمهم إن صار أولادهم مسلمين أم لا فهم يدركون أن أولادهم لا يعرفون أية قيم دينية ويهتمون تعليمهم القيم الدينية عندنا فهم يثقون بنا ويعجبون بما توصل إليه طلابنا ويتقنون بعلومنا وقيمنا."

لقد أصبح الإسلام حلّ لمشاكل المجتمعات الغربية وأبناء الغرب يعترفون بهذا الحل، ومن هنا ينتشر الإسلام بسرعة كبيرة في الغرب. ونتوقع له مستقبلاً مذهلاً.

البوابة السادسة: المسلمين الجدد من أبناء الغرب، وهؤلاء يعتبرهم الغرب أكبر خطر يهدد كيانه وهم الذين سيقومون بتحقيق كل أوروبا، ويزداد عددهم بشكل كبير كل يوم، وهؤلاء هم الوحيدين الذين لا تقدر أوروبااليوم على إيقاف نشاطهم أو إيقاف تفكيرهم عن العمل. فالغرب مبني على أساس الحرية الفردية وحرية الاعتقاد وهذا ما يساهم في تزايد اعتقاد الغربيين للإسلام.

لقد أصبح تحرر الغربي من هيمنة السلطات الكنسية والحكومية على تسيير عقله يعني اعتقاده الإسلام. فأصبح الإسلام هو من موجبات تحرر الغربي نفسه.

البوابة السابعة: الغرب نفسه بكل نشاطاته: فالغرب كله، بكل خطاباته ونشاطاته أصبح أحد أهم السبل الرئيسية التي تؤدي إلى أسلامة أوروبا. حتى عندما يكون الخطاب معادياً للمسلمين في غرضه ومحظاه فهو يؤدي دوراً إيجابياً في أسلامة أوروبا، فعندما أعلن أحد النواب الهولنديين عن مطالبه بحظر القرآن الكريم في هولندا، فإن إعلانه يحضر الهولنديين وغيرهم على التساؤل والتعرف على هذا الكتاب الذي يطالب نائب برلماني بحظر تداوله. ويأتي نتيجة لذلك اطلاع الغربي على القرآن الكريم وهنا تبدأ سلسلة لا تنتهي من التعرف على الإسلام ستؤدي في أحد فصولها إلى اعتقاد هذا الفرد للإسلام مهما كان موقفه المبدئي من هذا الدين.

تبرئة المسيحية من حكام الغرب

اننا نتفق مع المسيحية عموماً ومع جزء من المسيحية الغربية أيضاً في نقاط تفاهم مشتركة عديدة، وعلى هذا فمن الحكمة أن نتحالف معها. وفي هذه السنواتخصوصاً نحن في مواجهة كبيرة وتحدى ديني مع المسيحية الصهيونية التي تستغل ليل نهار بهدف إيقاف موجات الأسلامة في المجتمعات المسيحية الغربية كلها.

ان مواجهتنا للمشاريع الاستعمارية الكبيرة يجب أن لا يجعلنا ننفهم في معاداة الغرب كله، بل إن الطرق الواسعة المفتوحة أمامنا والتي لا يستطيع حكام الغرب أغلاقها دوننا تمثل في تحالفنا مع أبناء الغرب والتحاور معهم وكسب مواقفهم،

وسيكون ذلك تحولاً في معركة مواجهتها مع الغرب. وستكون مكاسبنا فيها أكبر وأكثر.

لا يحق للرئيس الأمريكي أن يتكلم باسم مسيحيي العالم ويعلن عن حرب صليبية جديدة، لأنه ورغم زعمه باعتناق المسيحية فهو ليس مسيحياً. إنه يعلن صراحة وبواسطة برامجه العديدة عن انتمائه للمسيحية الصهيونية تلك التي لم تعد ديناً بل أصبحت أيديولوجياً سياسية تخدم الصهيونية ودولة الكيان المؤقتة.

الغرب مقبل على الإسلام لأن حجة الإسلام شاملة

تحدث الصحفية الأمريكية ديبورا بوتر التي اعتنقت الإسلام مؤخراً عن قناعة الغربيين بالإسلام وتحمية الوصولهم إلى اعتقاده وتقول:

"إن الناس في أوروبا وأمريكا يُقبلون على اعتقاد الإسلام بأعداد كبيرة لأنهم متغطشون للراحة النفسية والاطمئنان الروحي بل إن عدداً من المستشرقين والمبشرين النصارى الذين بدأوا حملتهم مصممين على القضاء على الإسلام وإظهار عيوبه المزعومة ، أصبحوا هم أنفسهم مسلمين ، وما ذلك إلا لأن الحق حجته دامنة لا سبيل إلى إنكارها" ("رجال و نساء أسلموا" ج ٨ / ص ١١٤).

والقرآن يبين لكم الحق وإن عيسى عليه السلام بشر، وإنه رسول الله إلىبني إسرائيل ، وإن رسالته كانت الدعوة إلى توحيد الله وبيان أن ذاته سبحانه وتعالى ليست بمركبة، وليس صفاته مشابهة، وأنه يتزه عن الولد. قال الله تعالى: (يَا أَهْلَ الْكِتَاب لَا تَغْلِبُونَ فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا حَقًّا إِنَّمَا الْمُسِيحَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرِيمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتهوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكَيْلًا) (النساء الآية ١٧٠)

(وقالوا اتخد الرحمن ولداً. لقد جئتم شيئاً إداً . تكاد السموات يتقطرن منه وتسق الأرض وتحر الجبال هداً. أن دعوا للرحمن ولداً. وماينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً) مريم الآيات ٨٨ - ٩٢.

وقوله تعالى (ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى بوفكون) المائدة الآية ٧٥.

فقد قرن الله لفظ المسيح وأمه ((ابن مريم)) ليُلْفِتَ الانتظار بأنه ابن مريم لا ابن الله. وبين أن المسيح وأمه كانوا يأكلان الطعام ، ومن أكل الطعام تحول الطعام في جسمه دماً ولحماً وعظماً ، وينضج عرقاً ، ويخرج فضلاته التي لو بقيت في الجسم لأضرته..

وكما قال بحق الدكتور عبد الحليم محمود _ في كتابه _ التفكير الفسلي في الإسلام : إن كائناً من هذا النمط لايمكن إلا أن يكون بشراً خاضعاً لكل القوانين البشرية التي لا تؤدي إلى نقص في مرتبته كرسول ، ويصور القرآن محاكمة مقبلة _ يوم القيامه _ تبرئ عيسى مما أصلقه به أتباعه من التثليث وتدينهم فيقول الله تعالى:

(إذا قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ، قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ماليس لي بحق إن كنت قلت فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب. ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن أعبدوا الله ربكم وربكم وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شئ شهيد. إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) المائدة الآيات ١١٦

ثلاثة احتمالات يواجهها المسلمون في أوروبا

الوجود الإسلامي في أوروبا هو اليوم غليان إسلامي كبير يقلق الغرب: وقد وصل هذا الوجود إلى نقطة الذروة ويبشر بمرحلة جديدة حاسمة، فما هي المرحلة الجديدة التي ستحدد مستقبل الإسلام والمسلمين في قارة أوروبا؟

الاحتمال الأول: إدماج تواافقي للمسلمين في المجتمعات الغربية، بحيث ينصرف المسلم انصرافاً تاماً في المجتمع الغربي. ويتخلّى عن أخلاقيات الإسلام بكمالها، كأن يوافق (مثلاً) على ظاهرة المثلية الجنسية.

الاحتمال الثاني: الذي يتوقع حدوثه كثیر من الغربيين وهو طرد تام للمسلمين، أو إبادتهم بالكامل والتخلص من ظاهرة الإسلام الأوروبي إلى الأبد كما يأمل أصحاب هذا الرأي العنصري، ويدرك أن الأوروبيين ارتكبوا جرائم الإبادة هذه عندما سقطت الخلافة الإسلامية في الأندلس حيث قامتمحاكم التفتيش بأعمال إبادة تامة لكافحة المسلمين من الأصول العربية ومن أبناء الغرب الذين كانوا قد اعتنقوا الإسلام.

الاحتمال الثالث: الذي يتباين به كثير من المحدثين في الغرب، والذي يتتناوله الخطاب السياسي في أوروبا وأمريكا بوضوح تام، ويعرض أبرز المرشحين برامج لمنع حدوثه. وهو يتباين بوصول إسلامي إلى السلطة في إحدى الدول الأوروبية وتالي الوصول إلى الحكم في الدول الأوروبية الأخرى. فأي سيناريو من هذه السيناريوهات هو الأكثر احتمالاً وما الذي ستشهده العقود الأوروبية القادمة من أحداث؟

عوامل داخلية تدفع أوروبا نحو الإسلام

أولاً: تفريح المسيحية الغربية من قيمها التاريخية وتقاليدها الدينية

إن عدد المسيحيين الملتزمين يتناقص في الجيلين الماضيين لدرجة أنه بدأ يطلق على أوروبا اسم "القارة المظلمة". ويقول المراقبون في هذا الصدد إن مساجد بريطانيا يعمّرها عدد من المسلمين هو أكبر من عدد الذين يذهبون إلى الكنيسة

الأنكليكانية في أيام الأحد، رغم قلة عدد المسلمين بالنسبة للمسيحيين فيها. وهذا يعكس ارتباط المسلمين بدينهم وابتعاد المسيحيين عن المسيحية.

إن التيارات والميول الحاضرة توحى بأن "أسلمة" أوروبا ستحدث لا محالة لأن الأوروبيين يجدون حضانة الأطفال شاقة وإيقاف الهجرة صعباً، وحتى تنويع مصادر المهاجرين غير متوافر، وفيضان القنوع والتسليم بما يطلقون عليه "الحرف الحضاري" لقد بلغت أوروبا، في الوقت نفسه درجة عالية من الازدهار والسلام وأظهرت قدرة فريدة على الحفاظ على تمسكها.

ثانياً: عظمة الإسلام

إن صفات الدين الإسلامي وميزاته العظيمة التي تجعله جذباً للنفس البشرية مما كان نوعها. فالإسلام دين يملأ الفراغ الديني عند المواطن الغربي، ذلك الفراغ الذي صاغته العلمانية الأوروبية طوال ما يقرب قرنين من الزمن، والذي ساهمت الصهيونية العالمية في ترسيجه. والحقيقة فإن خشية الأوروبيين الحقيقة تكمن في ما يجدهونه خطر تحول الأوروبيين إلى الإسلام، وهذه الخشية تفوق ما يرونونه خطر الإسلاميين أنفسهم. وإن كافة الدراسات الغربية تعبر عن هذه الخشية الكامنة في الإسلام نفسه.

ثالثاً: تدني نسبة الولادات المسيحية في أوروبا

إن سكان أوروبا الأصليين يتضاءل عددهم يوماً بعد يوم. وتذكر إحصاءات الاتحاد الأوروبي أن النسبة المطلوبة للحفاظ على عدد سكان أوروبا الحالي يتطلب نسبة ولادة تبلغ 2,1 للمرأة الواحدة، في حين أن النسبة الحالية هي 1,5 وهي آخذة في التدني. وتشير دراسة إلى أن سكان أوروبا سيتدنى عددهم من 375 مليون نسمة إلى 275 في عام 2075 إن لم تستمر الهجرة إلى البلدان الأوروبية. ويحتاج الاتحاد الأوروبي إلى 1,6 مليون مهاجر سنوياً ليحافظ على التوازن بين المواطنين العاملين

والمتقاعدين. أما الآن فانه يحتاج إلى ١٢.٥ مليون مهاجر لتسوية النقص الحاصل من قبل.

لذلك فإن الإسلام والمسلمين يأتون ملء هذا الفراغ. ففي حين تندفع المسيحية يزداد الإسلام قوة، ويؤكد وجوده ويعمل على تحقيق طموحاته. وفي حين يتلاصص عدد الأوروبيين بسبب الشيخوخة، والإعراض عن الزواج أو الزواج المتأخر، أو بسبب انتشار الزواج المثلث. يتکاثر المسلمون الذين يتزوجون في أعمار مبكرة، ويکثرون من الإنجاب. وإن نسبة ٥ في المئة من الاتحاد الأوروبي، أو ٢٠ مليون نسمة يعتبرون أنفسهم مسلمين، وإن استمرت الأمور على ما هي عليه ستصل النسبة إلى ١٠ في المئة في عام ٢٠٢٠. وإن تركت العناصر غير الإسلامية أوروبا فستصبح غالبية السكان من المسلمين في عقود قليلة.

حين يحصل هذا ستبدو الكاتدرائيات الضخمة كبقايا أثرية من عصر بائد، على الأقل إلى أن يحولها نظام مثل حركة طالبان إلى مساجد. وستذبل الثقافات القومية مثل الفرنسية والإيطالية والبريطانية وتذوي لتحل محلها الهوية الإسلامية التي تضم عناصر من أفريقيا الشمالية وتركيا وأسيا وغيرها. هذه التطورات ليست جديدة. ففي ١٩٦٨، ألقى السياسي البريطاني خطابه الشهير "أنهار الدم" الذي حدّر من خلاله من السماح لكثير من المهاجرين بالاستيطان في أوروبا، وكانت بريطانيا حينها تزدحم بشكل خاص بالهنود. (وقد تسببت هذه الكلمات بعرقلة مستقبله السياسي).

رابعاً: حاجة الأوروبي للإسلام

بعد ارتفاع مشاكل وأمراض "الإلحادية" التي شاعت في الغرب منذ عقود، وبعد فشل الأطروحات الفلسفية كبديل عن التدين، ظهرت الحاجة ماسة للتدين عند الغربيين المحسوبين على المسيحية. ولما تم تشويه المسيحية الغربية أصبحت بوضعها الراهن غير قادرة على ضم المؤمنين، بل إن الكثيرون من الكنائس قد بيعت أو تم تحويلها إلى متاحف وقصور. وفي هذه الأجواء يبحث الفرد عن الاعتقاد الديني الذي

يربطه بالله، فلا يجد أمامه سوى العقيدة الإسلامية التي تناهيه وتسعى إليه. وهذا ما يعلل ظاهرة الأسلامة الواسعة في أوروبا بدون وسيط أو داعية للإسلام. إذ تفيد استطلاعات بأن نسبة ٤٠٪ من المسلمين الجدد في ألمانيا قد دخلوا الإسلام بدون وسيط.

خامساً: الحرية الفردية

إنَّ تطور المجتمع الأوروبي ومنحه حريات واسعة لم يشهدها تاريخ البشرية من قبل، ذلك يمنح الفرد مساحة كبيرة للتفكير والثقف والتعرف على ثقافات البشر الغربية عنه. وتنمِّي حرية اعتناق دين جديد بدون آية مسألة. وذلك سيؤدي إلى موجة اعتناق واسع للدين الإسلامي. فإنَّ القرآن الكريم وأياته وعظمتها كفيلة بجذب المتفكر بها إلى الإيمان بالله الواحد العظيم واعتقاد الدين الحنيف. فقد نزلت الآيات لقوم يتكلّمون، لقوم يوقنون، للفرد الذي ينظر ويتصرّف بأيات الله في خلقه، وسيكون المطلع الغربي على القرآن واحداً من هؤلاء. وستؤدي حرية المجتمع الأوروبي إلى انتشار الإسلام فيه. ولن يكون بوسع أنظمة الغرب وقوانينه كلها الحد من تلك الحريات، ولن يكون بمقدور آية إجراءات غربية منع الفرد من اختيار دينه. لأنَّ الحرية الفردية تلك هي أحد أركان المجتمع الغربي وثوابته. وإن جرت محاولات للتدخل فيها فسوف يؤدي ذلك إلى انهيار أركان المجتمع الغربي بكمالها، وبالتالي ستكون فوضى وانهياراً للمجتمع وأسسه وعلاقاته.

سادساً: رغبة الأوروبي بالتحرر من الأكذوبة الغربية الكبيرة

بفضل التطور الإعلامي والأحداث الجارية أدرك المواطن الغربي أنه ظلَّ مخدوعاً طوال قرون خلت. وأن تخويفه من الإسلام لم يكن سوى خدعة رهيبة مارسها ضد الغربيين كلَّ من السلطات الكنسية والحكومية، وأنَّ تلك الخدع والأكاذيب كانت مفروضة على العقل الأوروبي وتمتنع تحرره. ومن هنا فالغربي اليوم من حقه أن يتحرر ويصبح حراً مثلنا نحن العرب أو المسلمين. وهذه الحرية التي اكتشف

عنصرها يمكنه تحقيقها واكتسابها بواسطة التعرف على الإسلام أو باعتناق الدين الإسلامي. ونحن المسلمين ندرك أن التعرف على الإسلام هو الطريق الحتمية في أغلب الأحيان التي توصل الفرد إلى اعتناق الدين الإسلامي. وأن السلطات الغربية (كنيسية وحكومية) كانت تدرك هذه الحقيقة فقد ظلت طوال قرون تمنع الغربي من التعرف على الإسلام، بل حتى من ذكر كلمة إسلام.

مصطلح: المستعمرة الإسلامية الأوروبية

هذا مصطلح جديد يطلقه الغرب نفسه ويتبأ بأن تصبح أوروبا كياناً إسلامياً في العقود القادمة. ويدرك كثيرون من مسلمي ومسيحيي أوروبا إلى التبع بسيطرة الإسلام على أوروبا في العقود القليلة القادمة، وذلك انطلاقاً من مشاهداتهم للمجتمع الأوروبي، ولحالة الغليان الإسلامي فيه. والذي يتمثل عن الاعتقاد الواسع للدين الإسلامي في كافة أوساط المجتمع. كما يتوجه العديد من مؤرخي وسياسيي الغرب إلى هذا الاستنتاج والذي يرون أنه سيكون حتمياً في آخر المطاف.

وكانت الراحلة "أريانا فالاتشي" قد لاحظت أنه مع مرور الزمن "تحول أوروبا كل يوم أكثر فأكثر إلى مستعمرة للإسلام". وهي تتصور شكل هذه المستعمرة المقلبة التي تراها ماثلة لامحالة. وتأتي هذه التبعات من الكثيرين غيرها نتيجة ملاحظاتهم لقبال الغربيين على الإسلام. كما نسمع في كل فترة عن أسلمة أحد المشاهير الغربيين وكان آخرهم المغني مايكل جاكسون.

التحول السريع للتراث الإسلامي في الغرب

إن غالبية المواطنين العرب المسلمين أثداء إقامتهم في بلدان الغرب يصبحون أكثر تعصباً لدينهم أو لقوميتهم، وأحياناً أكثر تديناً. وهذه ظاهرة صحية تدل على عظمة الإسلام وعلى قوّة رسوخه في النفوس وفي القلوب . فقد اعتقدنا نحن السوريين أن نستقبل حجاج بيت الله الحرام، وقد تغير سلوكهم العام كأفراد، فأصبحوا

أكثر التزاماً بقواعد الإسلام، وأكثر تديناً. والحقيقة أن الذين يعودون من أوروبا أيضاً، يأتون أكثر تديناً والتزاماً مما كانوا عليه قبل هجرتهم إليها. ويلاحظ أيضاً أن الجيل الثاني والثالث من العرب أو المسلمين حافظ على التزامه بالانتماء اللغوي والإسلامي العربي.

إنه ثمة أدسِباباً عديدة تجعل المسلم أكثر تديناً أثناء إقامته في الغرب، ومن هذه الأسباب:

- امتلاكه حرية كافية للاعتقاد والتمذهب والدين والتعبير عن نفسه، وهذه الحرية ربما لم تكن متاحة له في بلده الأصلي. فقد ظهر المسلمين واحتاج الكثير منهم لقضايا منع الحجاب في المدارس العامة في بريطانيا، وقبل ذلك حدثت أزمة كبيرة بسبب قصة حجاب فتاتين مسلمتين في فرنسا. ولو أن هذه القضايا حدثت في بلد إسلامي لما استطاع المسلمون الاحتجاج لأجلها.

- يرى سكان الأحياء والمدن البعيدة عن باريس أن الاقامة في باريس جنون وسرعة وضجر وعقد تعب الأفراد وتضليلهم. وهذه حقيقة في تلك المدن، وهي غريبة وجديدة على مواطننا المهاجر الجديد. وكراهة فعل على ذلك الصخب الكبير يعود المسلم إلى دينه وعبادته التي تمنحه الثقة والراحة والطمأنينة، وبذلك يعود إلى هويته الأصلية.

- قد يتعرض بعض المسلمين لانتقادات عنصرية من أبناء الغرب، وفي تلك الحال لن يجد المسلم ردة فعل على تلك الانتقادات أفضل من التدين والالتزام بالإسلام وسيكون الإسلام نفسه الهوية التي ينتمي هو إليها في الأصل والهوية التي منحه إياها ذلك الغري العنصري.

- في حالات قليلة ولأسباب مشابهة لتلك يتطور هذا الانتماء الإسلامي عند البعض ليصبح انتماء إسلامياً حركياً.

قوة الحق عند المسلمين

الكاتبة الإيطالية الشهيرة أوريانا فالاتشي، والتي أصدرت كتاباً بعنوان: قوة المنطق. تعتبر أن أوروبا ستصبح يوماً بعد يوم إقليماً من أقاليم الإسلام، أو مستعمرة إسلامية بفضل قوة المنطق عند المسلمين، ولعل هذه الصحافية على حق إذ إن الإسلام أخذ يغزو معمق المسيحية القديم أوروبا بقوة وبسرعة لم تعرفها أوروبا نفسها منذ قرون. وترى أوريانا فالاتشي أن هناك قوتين تساهمان في هذا التغيير الذي قد يهز العالم وهما تفريح أوروبا من مسيحيتها ، وتدني نسبة الولادات فيها.

لكنها غفلت أو تغافلت عن حقائق أخرى يسهل علينا تقصيّها في الصفحات التالية من كتابنا هذا. وهي التي تتعلق بجدارة الإسلام نفسه. وإن مصطلح قوة المنطق الذي جعلته عنوان كتابها ليس سوى تعبير وإشارة إلى مصطلح "قوة الحق" في الدين الإسلامي.

قوة الحق عند المسلمين وهي القوة الآتية من قوة الحق في الإسلام هي التي تفشل كافة مشاريع الغرب المعادية للإسلام، ويدرك الغرب هذه القوة وهذا الحق. ولذلك فهو يخشاها. ويكون هذا أحد جوانب الخوف الغربي من المسلمين.

وجه أوروبا يتغير بسرعة مذهلة

إن أوروبا هي الآن في مرحلة تغيير كبير لامثيل له على الإطلاق، وهذا التغيير لا يعادله إلا تغيير واحد عرفه تاريخ العالم من قبل. وهو الذي حدث في زمن الفتوحات الإسلامية الأولى، حيث كانت تتحول شعوب وأمم وقوميات بأكملها إلى الديانة الجديدة. ستتغير أوروبا بسرعة مذهلة، وتقوم بالتخلي عن معتقداتها السابقة. وإن عالم الغرب بكل أركانه يدركاليوم هذا التغيير المحتمل. ويعمل بمقتضاه، فالانتخابات الرئاسية الفرنسية ٢٠٠٧ سارت وفق مقتضيات هذا التغيير،

وأولئك الذين تحمسوا لاختيار ساركوزي إنما اختاروه لأجل شعاراته التي تبين منها بأنه سيتصدى بقوة لظاهرة ازدياد المد الإسلامي. لكن الأسباب والعوامل التي

تجعل أوروبا تزحف نحو الإسلام تلك لا يستطيع لا ساركوزي ولا غيره بأن يوقفها. ومن ملامح هذا التغيير، اعتقاد نسبة كبيرة من أفراد الغرب بعدلة القضية العربية، وبأحقية الدين الإسلامي، وانتشار التحول إلى الإسلام. وسينتج عن ذلك كله في المستقبل القريب ضغوط على الحكومات الغربية لاتخاذ مواقف مناصرة للعرب وال المسلمين. وعندئذ سيتغير وجه أوروبا بالكامل.

أوروبا أرض خصبة لنفوذ الإسلام

لقد أتيح للمسلمين من حرية العبادة في أوروبا وممارسة الحياة الكريمة ما لم يتح لهم في عدد من الدول العربية الإسلامية. وقد حصلوا على اعتراف بعض الولايات الألمانية التي قدمت الدعم للمدارس الإسلامية وحصل مثل هذا في بريطانيا بعد معركة طويلة قادها يوسف إسلام. ولذلك فإن ما كتبه الأستاذ عبد الحليم خفاجي بعنوان المستقبل للإسلام في أوروبا وأن أمريكا أرض خصبة لبث الدعوة فيها حتى ظهر سفير أمريكي يعلن أن الإسلام إذا انتشر في منطقة فإنها تصبح متميزة بالروابط الاجتماعية القوية بين أفرادها وتصبح نظيفة من الجريمة والمخدرات والزناء.

تصور حرب شوارع في باريس

المحلل الفرنسي "ميشيل غورفينكيل" يراقب تصاعد نفوذ المسلمين في أوروبا ويتبأ بتحولها إلى الإسلام خلال عقود قليلة وهو يستحضر الأدلة والشاهد على رأيه هذا ويقول:

"إن اسم "محمد" هو الإسم الأكثر انتشارا في بروكسيل بين المواليد الجدد منذ بضع سنوات، وهذا يشير إلى تمسك المسلمين بالإسلام." وهو يقارن هذه الصورة الحيوية بصورة تراجع الإيمان المسيحي لدى الأوروبيين.

وعن تزايد عدد المسلمين في أوروبا يقول: "قد تصبح "مستيردام" و"روتيردام" في حدود سنة ٢٠١٥ أكبر مدينتين أوروبيتين ذاتأغلبية مسلمة. ويرى "ميشيل

غورفينكيل" أن حرب شوارع لو حدثت الآن في أزقة فرنسا فإنها سوف تشهد مواجهة بين أبناء الفرنسيين الأصليين وأبناء المهاجرين بنفس الأعداد متساوية تقريباً. ويعبرّهنا عن قلق الأوروبيين من ارتفاع الروح المعنوية عند الشباب المسلمين ومن انخفاضها عند الأوروبيين. فقد جرى الحديث كثيراً عن مشكلة تأثير شباب الغرب وأضعاف رجولتهم وجعلهم يعتمدون في كلّ شيء على خدمات ومساعدات الدولة. وفيما يخصّ الديمغرافيا الإسلامية تقدر التخمينات الحالية أن يتشكل الجيش الروسي منأغلبية مسلمة ابتداءً من ٢٠١٥ وأن تكون أغلبية سكان روسيا عموماً مسلمة ابتداء من ٢٠٥٠.

مصطلح أوروبا المخيفة

مصطلح أوروبا يطلقه الغربيون هذه السنوات وهو مشتق من كلمتين أوروبا وعربية.

صورة أوروبا الإسلامية المخيفة لبعض الأوروبيين كما نسمع باستمرار، ليست في حقيقتها مخيفة على الإطلاق، بل هي تحرر وتحديث فكري للأوروبيين وبالتالي لبلدانهم. وهي إنقاذ حقيقي للأوروبيين من ظلامية التشرد الفكري والديني الذي يعانون منه منذ عقود وقرن. وقد صدر مقال ذو أهمية كبيرة في صحيفة "ذى إيكonomist" في منتصف سنة ٢٠٠٦ يؤكد على أنه "في الوقت الراهن فإن رؤية أوروبا تبدو أمراً مخيفاً ومتشارقاً".

إنّ صورة أوروبا المسلمة أو العربية كما يرى البعض أصبحت حقيقة ماثلة عند قسم من الأوروبيين. وهم لا يجدون شكلاً آخر لصورة أوروبا المقبلة. وهذه الصورة تخيف بعض الأوروبيين وترعبهم منذ الآن. سيما وأنها باتت حتمية. فلو قام الأوروبيون بإبادة الإسلام وأهله كما يتخيّل البعض فإنهم بذلك يبيدون مواطنיהם ليس العرب أو الذين من أصول غير أوروبية فحسب، بل المسلمين الذين هم من أصول غربية عريقة. وهؤلاء لا تقل نسبتهم عن ٣٠ % من مسلمي أوروبا.

وفي كلّ يوم يتضاعد عددهم بكثرة، والخلاصة فإن الخوف الأوروبي من المسلمين لا يكتثر بال المسلمين المهاجرين بل ينطلق من ظاهرة الجسد الإسلامي الجديد الذي يتشكل ويكبر وتنسخ مساحته مطلع كل يوم. وهذا هو التشكّل الذي تعجز أوروبا كلها اليوم عن إيقافه، ولا تجد نفسها إلا في رعب منه في حين أنه هو لا يسبب لها الرعب بل يمنحها الأمل والحرية والعظمة.

مسلمون ينادرون الإرهاب

تظهر كل المجتمعات الإسلامية التي تم مسح الرأي العام بها عن تأييد قوي وثابت لأسامي بن لادن. عند سؤالهم هل يثقون به، ردوا بالإيجاب، وترواحت النسبة بين ٨٪ (في تركيا) و٧٢٪ (في نيجيريا). وفي الأحياء الشعبية التابعة للعاصمة المغربية، صرّح كثير من الشبان بوضوح بتأييدهم لحركة القاعدة وأعمالها، وقال بعضهم: نحن نحب بن لادن لأنّه يدافع عننا، الحكومة لا تدافع عننا. بالمثل تتمتع التفجيرات الانتحارية بالشعبية، حيث تتراوح نسبة المسلمين الذين يرون أنها مشروعة بين ١٣٪ (في ألمانيا) إلى ٦٩٪ (في نيجيريا). تشير هذه الأرقام المخيفة إلى أن للإرهاب الذي يقوم به المسلمون جذوراً عميقاً وأنه سوف يظل خطراً على أمن أوروبا و المسلمين في الأعوام القادمة.

المسلمون البريطانيون والنيجيريون هم الأكثر عدائياً، فغير المسلمين يتبنون وبصورة لافتة اتجاهات أكثر إيجابية نحو الإسلام والمسلمين بالمقارنة مع أي مكان آخر في البدان الغربية، فمثلاً، ٢٢٪ فقط من العينة البريطانية ترى أن المسلمين يتصفون بالعنف، وهي نسبة تقل بدرجة دالة عن النسبة في فرنسا (٤١٪) أو ألمانيا (٥٢٪) أو إسبانيا (٦٠٪). وفي الجدل الذي دار حول الرسومات الكاريكاتورية التي تعرضت لرسول الإسلام، كشف البريطانيون عن قدر أكبر من التعاطف مع وجهة نظر المسلمين بالمقارنة مع باقي الأوروبيين. واللافت للنظر في آراء الأوروبيين من غير المسلمين هو أن نسبة المتعاطفين مع الإسلام والمسلمين تعادل ٥٠٪ وهي نسبة ممتازة.

وتشير إلى مستقبل زاهر للإسلام في أوروبا. وإلى أن احتمال التصادم مع المسلمين ضعيف نظراً لتفهم قضيتهم.

إلا أن المسلمين البريطانيين يردون الجميل باتجاهات معادية للفرب هي الأشد افتراءً وضرراً في أوروبا. فالعديد منهم يرون الغربيين يتصرفون بالعنف والجشع والأخلاقية والتكبر والتغطرس وبنسبة أكبر من المسلمين في فرنسا وألمانيا وأسبانيا. فضلاً عن ذلك، عند سؤالهم عن مكانة المرأة في المجتمعات الغربية، كانت اتجاهاتهم هي الأكثر تطرفاً وبصورة ملحوظة.

إن الموقف في بريطانيا إنما يعكس ظاهرة "لندنستان" (على وزن باكستان وأفغانستان. حيث البريطانيون يبادرون بالانحناء والتملق بينما المسلمون يستجيبون لهذا الضعف بالتحدي).

وبصفة عامة فالMuslimون النيجيريون هم أصحاب أكثر الاتجاهات عدوانية في مسائل وقضايا مثل حالة العلاقات بين المسلمين والغرب، واتهام الغربيين بالانحلال الأخلاقي والتغطرس والتكبر، وتأييد أسامة بن لادن والإرهاب الانتحاري. لاشك أن هذا التطرف إنما ينشأ عن حالة العنف التي تتصف بها العلاقات بين المسلمين والمسيحيين في نيجيريا.

مما يثير الدهشة والعجب أن نجد أشد صور عدوانية المسلمين في بلدان واحدة يتمتع فيها المسلمين بأكبر قدر من التوافق والثانية يعني فيها المسلمين من انخفاض التوافق لأدنى مستوياته، مما يوحى أن المسار المعتدل الوسطي هو الأفضل - حيث المسلمين لا يفوزون أو يتمتعون بمزايا خاصة، كما في بريطانيا، ولا يكونون في حالة متقدمة من العدائية والكراهية، كما هو الحال في نيجيريا.

تمَّ نتائج الدراسة عن رسالة لا يمكن إنكارها أو نفيها تزداد بأزمة تمتد عبر عموم العالم الإسلامي.

تصور إمارة إسلامية في الضواحي باريس

في شهر رمضان نجد أن هناك جوًّا من التدين يسيطر على الضاحية الفرنسية ككل كما يمنع الشباب من العنف والعصبية، ويمنع المدخنون من إظهار إفطارهم. ولكن ما يجذب الأنظار في نفس الوقت هو عدم وجود تيار حركي من الإخوان المسلمين وكذلك غياب الخطاب السلفي والتبلیغ. ولكن الإسلام المعتدل الذي يتاسب مع ثقافة تلك الضواحي هو الذي يظهر بوضوح في هذه المناطق ويساعد على انتشاره أشرطة الكاسيت الذي يأتي بها البعض من مصر وخاصة للداعية عمرو خالد الذي يمثل هذا التيار وتبدأ كثیر من الفتيات في ارتداء الحجاب بعد سمعها تلك الأشرطة التي تساعدهم على الطاعة كما تحول بعضهن إلى داعيات تجتمع مع غيرها من الأخوات لدعوهن إلى طاعة الله عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وكل ذلك يتم في اجتماعات غير رسمية.

وفي ضاحية مثل مانس يهتم الشباب ببعض الأمور الدينية مثل اللحية وهل حلقتها حلال أم حرام ويهتمون خلال شهر رمضان بصلة الأرحام بشكل كبير. ويمكن القول إن عودة الإسلام بمبادئه تكون بطرق متعددة بشكل طبيعي في هذه الأحياء ولكن ليس في صورة ثورية لاستعادة الهوية الإسلامية والأفكار المرتبطة بالإسلاميين.

اقتراحات متطرفة لـإعاقة التحول إلى الإسلام

الكاتب الفرنسي جان راسبييل نشر في السبعينات رواية بعنوان "مخيم القدسين" تصور فيها أوروبا وهي تعج بالماهجرين القادمين من شبه القارة الهندية. ورأى تحول أوروبا من حضارة إلى أخرى بطريقة سلمية لم يسبق لها مثيل في التاريخ. ويقترح راسبييل ثلاثة إجراءات لايقاف المذا الإسلامي داخل أوروبا ويقول: "ما زالت هناك إمكانية لإعاقة هذا التحول، لكن التطلعات إلى ذلك قد تتلاشى مع الوقت. وينبغي ببعض الطرق الممكنة لتحقيق ذلك، وهي: تشجيع الإيمان

المسيحي، وزيادة نسبة الولادات، وصهر المهاجرين الجدد." ولمناقشة هذه النقاط التي يعرضها جان راسبيل.

أولاً: إعادة الإيمان المسيحي

يعرض راسبيل اقتراحات لتشجيع متغيرات تؤدي إلى عودة الإيمان المسيحي وزياحة نسبة الولادة بين المسيحيين الأوروبيين، ولكن هذه المتغيرات لن تحدث في أوروبا على الإطلاق بالطريقة التي يرغبها المسيطرówون على مقدار تحريرك أوروبا. فإن البنية الشخصية للفرد هي الحكم الرئيسي في هذا الشأن. ولن تغير بنية الفرد مالم تغير عقيدته. فالمواطن الغربي عموماً ذكرأً وأنثى، يعتقد اليوم كمثال، بالملة الجنسية بحرية. ويرى فيها سعادة ولهواً وعاده طبيعية. وهذه الملة ترتبط بممارسة تحول بينه وبين كثرة الإنجاب. وإن كافة السياسات والإجراءات التي تسعى إلى زيادة الإنجاب والولادات لن تنجح مع الأوروبيين ماداموا غارقين في هذه العقيدة المشتة التي تبيح كل شيء ولا تحظر أي شيء. بل إنهم لن يقدروا على التخلص من هذه العادات التي تدمرهم إلا عند دخولهم الإسلام. وقد بدأ الغربي يدرك عيوب الحضارة الغربية، وعيوب المجتمع وعيوب التربية، وبدأ يدرك أن الإسلام هو وحده قادر على تصحيح العيوب الكثيرة في مجتمعه وعيوب تلك الحضارة الناقصة. وينشغل ساسة الغرب بمنع حدوث هذا الإدراك، ومنع أبناء الغرب من معرفة طريق النور الإسلامي، لأن تلك المعرفة ستتمكن الفرد من رفض الطرق التربوية السائدة والتي تهدف إلى تغييب دور الفرد وإلى تسطيح المجتمع الغربي. وهذه السياسة الغربية في الداخل لن تستمر لأن المواطن الغربي بدأ في مرحلة تجاوزها بالفعل، وهذا التجاوز سيقضي على شكل التكوين العام الذي يسير الحكومات والسياسات الغربية، هذا الشكل الذي بدأ منذ نهاية الحرب العالمية الثانية واستمر حتى عصرنا هذا.

لقد شوّه الغرب المسيحية أسوأ تشويه، وتمادوا في خروجهم عن المسيحية المؤمنة الثابتة. فتعددت في الغرب الطوائف والكنائس الجديدة وكان آخرها كنيسة العلمانية (أو السينتولوجيا) والتي أسسها مغامر ألماني يسعى للكسب المال. وهذه

التشويهات الكثيرة تعيق إعادة الغربيين إلى المسيحية وتضيّع سعي من يحاول إعادة أوروبا إلى الإيمان المسيحي. لأنّ هذه المحاولات نفسها وأشاء فشلها مع الأفراد ستوصلهم إلى طريق الإيمان الإسلامي الذي يعلن عن نفسه في كل حين وفي كل مكان.

ثانياً: تغير أوضاع المسلمين

الاحتمال الذي يقترحه راسبييل والذي يتمثّل بإحداث تحديد إسلامي كبير، في أوساط المسلمين الأوروبيين لسبب ما، حيث يقول:

"العصرينة تؤدي إلى انخفاض في معدلات الولادة بشكل جذري، وقد تكون الأسباب التي تؤدي إلى تقييف المرأة المسلمة، أو الإجهاض عند الضرورة، أو أنّ مشاغل الإنسان في الحياة العصرية التي تأخذ الكثير من وقته تؤدي ب المسلمات الغرب إلى إنفاس عدد الأولاد والإنجاب". وهذا لن يحدث أيضاً بل سيبقى مجرد سعي أوروبي جاف. كذلك فإن تحديد العالم الإسلامي نفسه من جهة أخرى، (حسب تقدير الأوروبيين) قد يؤدي إلى انخفاض معدل الهجرة من العالم الإسلامي إلى أوروبا. وتعمل أوروبا والولايات المتحدة وفق برامج عديدة تهدف إلى إحداث هذا التغيير في المجتمعات الإسلامية العالمية، ومن ذلك مشروع ماسمي بشرق أوسط جديد، ومشروع الشرق الأوسط الديمقراطي، ومشروع إحلال عملية السلام النهائي في الشرق الأوسط. لكنّ كافة هذه المشاريع وغيرها تحمل مباديء واضحة هدفها تثبيت سيطرة الغرب وإسرائيل على المنطقة وتفرغ الدول العربية والإسلامية من قوتها، أي هزمهما وإخضاعها، وبينما الوقت تسعى لوقف هجرة المسلمين إلى أوروبا، وهذا ما لا يقبل به العرب المسلمون شعوراً وحكومات. ولذلك فإن هذه المشاريع الغربية ستفشل وستبقى الحالة على ما هي عليه. وسيستمر المجتمع الإسلامي على حالته، وقد أثبتت الأحداث أن التحرش بال المسلمين وفق مخططات غربية معادية تزيد من التطرف الإسلامي ومن توليد حركات إسلامية جديدة.

ثالثاً: إشغال المسلمين بالهزائم

يتبنى الغرب مشروعًا يهدف إلى إشغال الشعوب الإسلامية والحركات الإسلامية بصراعات إسلامية إسلامية، تؤدي إلى إضعاف المسلمين جميعاً وانهزامهم، وانتشار الفقر والجوع والموت والأوبئة في أوساطهم الاجتماعية، وخفض عدد المسلمين في العالم. وهذا ما صنعته الغرب في العراق، ثم في الصومال. وحاول نقله إلى لبنان والدول الأخرى، لكنَّ مثل هذه الفوضى الطائفية لن تستمر عند المسلمين على الإطلاق، بل إنَّ المسلمين قد واجهوها بوعيٍّ كبيرٍ وصل إلى حد التدخل المباشر من الحكومات والحكَّام، مثل السعودية وإيران وسوريا ولبنان. ولأجل إيقاف هذه الاقتتالات الطائفية انعقدت مئات الحوارات الدولية. الأمر الذي يعكس وعي المسلمين لصلحتهم ومصالح شعوبهم. وفي ساحة الاقتتال الطائفي المخزي في العراق استمرت أعمال المقاومة ضد القوات الغازية. بل واستمر الفريقيان المقاتلان بالتصدي للغزاة. وفي العراق نفسه، ورغم المأساة الطائفية، فإن الأفراد عموماً استمروا في الاعتقاد بمبدأ الوحدة الإسلامية ورفض الصراع المفروض. واستمرت حياتهم اليومية في العيش معاً وإقامة الصلوات المشتركة. ومن هنا فإن محاولة الغرب إلهاء المسلمين في صراعات داخلية لن تنجح على الإطلاق. لقد أعلن في الثامن من أيار ٢٠٠٧ عن تزايد عدد القتلى من الأطفال العراقيين، وبينت الإحصائية بأن نسبة كبيرة منهم تموت قبل تجاوز السنة الثالثة من العمر. وكذلك فمن الطبيعي أن تنخفض نسبة الإنجاب إلى أدنى درجاتها عند (النازحين العراقيين) الذين يزيد عددهم عن عشرة ملايين، وهذا ينبع بانخفاض عدد العراقيين بشكل عام، وبما في ذلك عدد القتلى والمصابين في الحرب العراقية فإننا سنصل في السنوات القادمة إلى نتائج ديمografية شديدة الخطورة لم ينتبه إليها الكثيرون حتى الآن. ولم يحدث كل ذلك مصادفة بل إنه مخطط غربي محكم الدقة والتنفيذ.

رابعاً: الحل الديمغرافي الوثني

أن تقوم أوروبا باستقبال مهاجرين من بلدان أخرى مسيحية مثل أميركا اللاتينية ما قد يسمح لأوروبا بالحفاظ على هويتها التاريخية. ويقترح استقبال توافق

الصينيين والهندود الوثنيين والهندوس مثلاً ليخفف من إمكان سيطرة العناصر الإسلامية حسب رأي الغربيين. وإن مثل هذه المشاريع ستبقى دراسات على الأوراق، فإن دول أمريكا اللاتينية بدأت تشهد ازدهاراً حضارياً ومادياً، وتطوراً صناعياً واقتصادياً، كما أن المسافة الشاسعة بينها وبين أوروبا تحول دون الرغبة في هجرة أولئك إلى أوروبا. كما أن هجرة الصينيين إلى أوروبا لن تكون ممكناً في العقود القادمة بفضل التطور الصيني المتتسارع في مجالات الاقتصاد والصناعة والحضارة. إضافة لوجود الجدار الصيني الأعمى الذي يمنع هجرة الصينيين إلى الخارج. وعلى المدى المنظور فإن المسلمين العرب هم وحدهم المرشحونملء الفراغ الديمغرافي الأوروبي المنتظر، ويساهم في ذلك عشق العرب لأوروبا، هذه الظاهرة التي يمكن أن تطلق عليها أيضاً تسمية "الانبهار العربي بأوروبا" وتمثل بالتطedium العربي الإسلامي الدائم والمستمر نحو أوروبا، ويعود ذلك التطلع إلى تاريخ الوجود العربي في جنوب أوروبا ثم الاندحار عنها في القرن السابع المجري.

يقول دانيال بايس: "إن أوروبا ستصبح يوماً بعد يوم إقليماً من أقاليم الإسلام، أو مستعمرة إسلامية،"

وأوريانا فلاتشي في كتابها قوة/المنطق ترى أن عدد المسيحيين الملتزمين يتافقن مقابل تزايد عدد عمّار المساجد، ففي بريطانيا على سبيل المثال عدد الذين يذهبون إلى المساجد أكبر من عدد الذين يذهبون إلى الكنيسة الإنجيلية. وتضيف فلاتشي أن السبب الآخر هو أن سكان أوروبا الأصليين يتضاءل عددهم يوماً بعد يوم. فالنسبة المطلوبة رسمياً للحفاظ على عدد سكان أوروبا الحالي يتطلب نسبة ولادة تبلغ 2.1 للمرأة الواحدة، في حين أن النسبة الحالية هي 1.5 قابلة للنقصان لا للزيادة. ومن ثم فإن الاتحاد الأوروبي يحتاج إلى 1.6 مليون مهاجر سنوياً ليحافظ على التوازن بين المواطنين العاملين والمتقاعدين إضافة إلى أنه يحتاج بالأساس 12.5 مليون مهاجر لتسوية النقص الحاصل من قبل. وتضيف الكاتبة أنه في الوقت الذي يتافق فيه عدد الأوروبيين بسبب الشيخوخة، يتکاثر المسلمون الذين يتزوجون في أعمار مبكرة حيث ستصل نسبتهم إلى ١٠٪ من مجموع المسلمين الغربيين.

أورابيا المستحمرة الإسلامية الكبيرة

يتغير وجه أوروبا في هذه السنوات، وتتغير ملامحها التي عرفت بها طوال القرون الماضية. والجديد فيها هو ما تكتسبه من صفات إسلامية، ومع كلّ مطلع فجر تكثر فيها هذه الصفات. وبالمقابل تجري محاولات دؤوبة وعلى كافة الأصعدة لوقف امتداد الإسلام فيها. لكن رغم ذلك ورغم تضييق الخناق على المسلمين أنفسهم فإن الإسلام أصبح يتمدد بمفرده، وأصبح الأوروبيون يقدمون عليه ويعتنقه بعضهم بدون أن يدعوه أحد إليه. ومن هنا يرى كثيرون من الباحثين الأوروبيين أن أوروبا مقدمة لامحالة على عصر جديد تتغير فيه ملامحها وتتصبح إسلامية. منحت المؤرخة بات يي أور لاوروبا صفة المستحمرة الإسلامية القادمة، وأطلقت عليها اسمًا هو "أورعربياً، أو أورابياً"، وذلك انطلاقاً من دمج كلمتي أورو- عرب.

استبعاد المواجهة بين المسيحية والإسلام

أجرت BBC استطلاعاً واسعاً للرأي في مختلف دول العالم للتعرف على آراء الشعوب في رغبتها بالتحاور والتقاهم بين الأديان، والتحاور بين الحضارتين الإسلامية والأوروبية. وجاءت الأغلبية الساحقة تسعى لذلك التحاور وترفض التفرقة. واعتبر القليل منهم أن الصراع بين الحضارتين حتمي. ومن خلال هذا الاستطلاع يمكننا التكهن بأن غالبية الأوروبيين لن يدخلوا في صراع مع المسلمين بل يرجّحون التحاور معهم، وهذا يعني استبعاد حدوث مجازر وإبادة مسلمي أوروبا. ونقل هذا الجدول عن BBC

استطلاع للرأي حول العلاقة بين الحضاراتين الإسلامية والغربية

الصراع حتمي	التفاهم ممكّن	
23%	69%	فرنسا
39%	49%	المانيا
15%	77%	بريطانيا
24%	35%	الهند
51%	40%	اندونيسيا
14%	78%	إيطاليا
35%	46%	كينيا
26%	68%	لبنان
37%	53%	نيجيريا
23%	49%	روسيا
29%	49%	تركيا
31%	64%	الولايات المتحدة

أوروبا مرغمة على الإسلامة

يتباً "والتر لاكور" في كتابه أوروبا العربية بأن: "أوروبا كما نعرفها سوف تكون مرغمة على أن تتغير وعلى أن تصبح مستعمرة إسلامية". ويؤيد هذا الرأي الكثير من الباحثين الغربيين. فبالمقارنة بين ظاهرة الإقبال الكبير على الإسلام وجعله الحل الفكري الوحيد الذي ينقذ الفرد من الضياع وبين الظاهرة الأخرى التي تتمثل بمشاريع إعاقة انتشار الإسلام والحدّ من نفوذه في المجتمع الغربي. نكتشف أن

الأولى هي الأقوى وهي التي تفرض نفسها. إذ لا تستطيع ولم تقدر كافة الإجراءات على منع الفرد من اعتناق الفكرة التي يريد اعتاقها.

فهؤلاء الأفراد أصبحوا هم الحكم الفصل في قضية مستقبل أوروبا وأصبحوا هم محورها الرئيس، ولما كان الإسلام بيناً وجذاباً ومرغوباً بالإضافة لكونه هو الحل الفكري الصحيح لمشاكل الضياع الفكري الغربي فإن الإقبال عليه محتوم وانتشاره محتوم وسيطرته باتت محتومة.

وإن مساعي الكنائس الأوروبية كلها والكنيسة البابوية نفسها في إبعاد نور الإسلام عن أوروبا لن ينجح في تحقيق أية خطوات في هذا الاتجاه. فالغربي لم يعد يثق بكنسيته ولا بخطابها الديني. خاصة وإن كنسيته الغربية قد تخلت عنه منذ قرون. لقد افتقد الغربيون الحوار مع كنائسهم. وبات من المستحيل إعادتهم إلى صفوفها.

الفاتيكان تواجه مشروع أسلامة أوروبا

بات مشروع أسلامة أوروبا حقيقة وواقعاً. ومواجهة معلنة. فبعد الصمت المعمد والطويل، صدر اعتراف من الفاتيكان بحقيقة وجود هذا المشروع. ويرفض الفاتيكان له، ويسعى لها مواجهته. ففي مطلع آب ٢٠٠٧ قال السكرتير الخاص لبابا الفاتيكان: "إن أوروبا لا ينبغي أن تتجاهل المحاولات الرامية لإدخال القيم الإسلامية إلى الغرب لأن من شأن ذلك تهديد هوية القارة. وينبغي رفض محاولات أسلامة أوروبا"، غير أنه لم يقدم أمثلة عن حالات معينة ولم يدخل في التفاصيل. وإن هذه التصريحات وتوقيتها قد تؤثر سلباً على دعوات الحوار بين الأديان، الذي يتوجب على الفاتيكان تبنيه والعمل فيه.

وإن التدخل الكنسي الغربي على مستوى الفاتيكان نفسه يدلّ على وجود صراع خفي ما زال مكتوبتاً وهو صراع كنسي مسيحي وإسلامي متشدد على امتلاك أوروبا. كما ويشير هذا التدخل إلى قلق الكنيسة الغربية المرتبط بعقدة

الأندلس القديم والخشية من عودة الماضي الأندلسي الإسلامي. والكنيسة الفاتيكانية تذر وتهدد وتشير إلى عدم بقائها محايده عن التمدد الإسلامي الجديد.

أوروبا مستحمرة إسلامية منذ الآن

كتاب "أمريكا بمفردها" والذي صدر مؤخراً لمارك شتاين. يتناول باستفاضة ما يطلق عليه شتاين "القوى الكبرى الناشطة في العالم المتقدم والتي تركت أوروبا ضعيفة جداً إلى الدرجة التي تعجز فيها عن مقاومة تحولها الذي لا يلين ولا يضعف إلى يورابيا. وهو يعتقد بأن أوروبا ستكون إسلامية لامحالة، وأنها لن تكون في المستقبل إلا مستعمرة للمسلمين. وانطلاقاً من تلك الرؤية فهو يذهب في نصح الأوروبيين والأمريكيين ويقول: "إن سكان أوروبا القادمين هم بالفعل قد استقرروا فوق الأرض الأوروبية" والسؤال الوحيد هو عن درجة دموية وعنف الكيفية التي سوف يكون عليها انتقال ملكية الأرض والثروة إلى المسلمين". وهو يفسر تغيرات مدريد ولندن واغتيال ثيو فان كوخ فيAmsterdam بوصفها طلقات تدشين بداية الحرب الأهلية الأوروبية، ويقول: "إن أوروبا مستعمرة منذ الآن". ويشير عنوان الكتاب "أمريكا بمفردها" إلى توقيع أن الولايات المتحدة بخصائصها السكانية سوف تكون الناجي الوحيد من هذه البوتقة ومن هذا الاختبار القاسي.

وإن أوروبا ستموت بينما أمريكا لاتموت لذلك "فالقاربة الأوروبية مباحة ومتاحة لكل من يود امتلاكها والسيطرة عليها وهو الأمر الذي لا ينطبق على الولايات المتحدة.

وإن الجمهور الذي يتوجه إليه شتاين هو في المقام الأول الجمهور الأمريكي، إذ يقول للأمريكيين: انتبهوا، وإلا سوف يقع عليكم نفس الشيء.

اقتراحات شتاين للأوروبيين

يوصي شتاين بإجراءات كثيرة تمنع على حد قوله التمدد الإسلامي السريع في أوروبا. ستفصل توصياته والنتائج المحتملة منها. وسنكتشف أنه هو نفسه يعتبر تلك التوصيات احتمالات مرغم الغرب على العمل بها، وسيكتشف شتاين أن الغرب وبعد العمل بها سيفشل في وقف الامتداد الإسلامي وسيضطر لأن يقبل الإسلام كدين مجتمعاته وستفصل أوروبا عن السياسة الأمريكية وعندئذ تبقى أمريكا وحدها صامدة في وجه الأيديولوجيات الإسلامية.

أمريكا وجدها

يتبع شتاين بفشل كل تلك الإجراءات الغربية الرامية لمنع أسلامة أوروبا.ويرى أن الفكر الإسلامي سيسيطر على أوروبا ويفصلها عن التبعية للأمريكيين. ويقول: عندها فقط " يستطيع الأمريكيون تجميع الإرادة الكافية لتشكيل جزء واحد على الأقل من العالم الجديد ، وسوف تكون معهم صحبة ورفقة كافية للمضي قدماً في عزم وتصميم". ولو فشل الأمريكيون في ذلك فيتوقع شتاين العودة إلى عصور الظلام على حد قوله " عصور ظلام جديدة. وركوكب تتم إعادة الجزء الكبير من خارطته إلى العصور البدائية .

اقتراح إيقاف العمل بانظمة الرعاية

يقترح شتاين التوقف عن "أنظمة الرعاية والمساعدة الاجتماعية التي تضخم دون مبرر" والإعلان بأنها تمثل تهديداً للأمن القومي، والتقليل من حجم ومسؤوليات الدولة، والتأكيد على فضيلة الاعتماد على الذات والإبداع والابتكار الفردي. فقد لمس الغرب استفادة الجالية الإسلامية الغربية من هذه الأنظمة. وهم لا يستطيعون الفصل بين مواطنיהם (مسلم ومسحي) ولا يقدر أي قانون أوروبي على تخصيص المساعدات الاجتماعية للمسيحيين ومنعها عن المسلمين. ولذلك يقترح شتاين التوقف عن العمل بها كلياً، وهذا غير ممكن أيضاً، مما يجعل اقتراحه غير قابل للتنفيذ.

استقلال القرار الأوروبي

يقترح شتайн على الأوروبيين التوقف عن "سياسة الانكماش الإمبريالي أو الاستعماري" والتوقف عن "الاحتماء الأوروبي الذليل خلف أمريكا القوية". وهو يعبر بذلك عن الرفض الجماهيري الأوروبي لتبعة حكومات بلدانهم للسياسة الأمريكية الاستعمارية.

فهذه التبعة توجّح حقد المسلمين على السياسات الأوروبية، وتحتم المواجهة وتكتثر من أعمال العنف الإرهابي الموجه ضد أوروبا.

والحقيقة أنَّ إيقاف التبعة الأوروبية للأمريكيين يقلل من تلك المواجهة مع الإسلاميين لكنه لا يمكن أن يقلل من انتشار الإسلام نفسه في أوروبا بل يمكن أن يزيد من سرعة انتشاره. إذ أنَّ المصالحة الجماهيرية بين المسيحيين الأوروبيين وال المسلمين عموماً تزيد من تقبُّل اعتناق الفكر الإسلامي.

وعندئذ تصبح المساعي التي كان هدفها وقف التمدد الإسلامي عاملأً قوياً في انتشاره، وتؤدي عكس الفرض المراد منها. بل وتنظر تحبّط المنظرين الأوروبيين وعجزهم عن مواجهة الفكر السريع الانتشار.

الهوية الإسلامية لاتسقطر

قد تكون الهوية الإسلامية هي الهوية الوحيدة التي لاتسقط عن الفرد حين يحصل على أية هوية أخرى. وهذه الظاهرة تدل على ع祌مة الإسلام، وعلى قوه نفوذه عند المسلم نفسه.

ان الظواهر العديدة التي شهدتها المسيحية من نشوء كنائس مسيحية صهيونية، وتحول مسيحيين بأعداد كبيرة إليها، هذه الظاهرة لايمكن أن تحصل عند المسلمين. وإن ظاهرة التخلّي عن الهوية الدينية كلها، تلك التي تحدث عند أتباع بعض الديانات لايمكن أن تحدث عند المسلمين أيضاً. فالمسلم يختلف عن غيره من

شعوب العالم كله بأنه محافظ على انتماهه الدائم للإسلام. لكن هذا الانتماء لا يعني تطرفه للإسلام. ولا يعني بنفس الوقت تطرفه ضد الغرب.

يستخدم الغرب مصطلحات كثيرة تهدف في حقيقتها لتفجير الهوية الإسلامية لسلمية. ومن هذه المصطلحات قوله "دمج المسلمين ، التعايش السلمي مع المسلمين الغربيين ، تثقيف المسلمين " وهذه المشاريع تحمل أسماء مغایرة لمضمونها ، ولا يخفي سرّها على أحد. ولما كان هم الغرب هو تثقيف المسلمين كما يدعى نجده لا يقدر اليوم على إيقاف موجة الأسلامة في مجتمعاته المسيحية. ويصبح عاجزاً عن تثقيف هؤلاء المسلمين الجدد.

انقران أوروبا الحالية

"مارك شتاين" في كتابه "أمريكا وحدها: نهاية العالم كما نعرفه" يذهب في تحليلاته أبعد من ذلك ويؤكد أن جزءاً كبيراً من العالم الغربي "لن يتمكن من الاستمرار إلى آخر القرن الواحد والعشرين، وأن جزءاً كبيراً منه بما في ذلك أغلب الدول الأوروبية سوف تقرض خلال جيلنا الحالي".

وهناك ثلاثة عوامل ستساعد على تعاظم نفوذ الإسلام وهي: الإيمان الإسلامي المميز، والديموغرافيا البشرية في أوروبا. والتراكم الثقافي الأوروبي المهدد بالزوال. وتؤكد هذه العوامل (حسب شتاين) أن أوروبا آخذة في التأسلم لامحالة وبتأسلمهما تكون أوروبا بشكلها الحالي قد انقرضت وسترى أوروبا أخرى بتقسيماتها وشعوبها وسياساتها وثقافتها.

أوروبا في حكم المنتهاء

كتب مارك شتاين، كتاباً هاماً بعنوان: "أمريكا تقف بمفردها: نهاية العالم كما نعرفه" ويجمع شتاين بأسلوبه بين العديد من الفضائل والمزايا التي من النادر أن توجد معاً. والتي يطبقها على ما يدعى البعض بأنها أهم قضايا عصرنا وأكثرها

تأثيراً على المستقبل. ويعتبر الكاتب أنّ أوروبا هي في حكم المنتهية منذ الآن. وأن لاأمل من استعادتها. فأوروبا لل المسلمين لا محالة، ولن تفلح أية إجراءات في تخليصها من ذلك المستقبل.

اغتراب المسلمين الأوروبيين

روبرت لا يكن، الخبير في شؤون الهجرة والأمن الوطني، وفي مؤلفه "حملة الجهاد الكوني: الهجرة والأمن القومي بعد 11 أيلول" يقول:

أعمال العنف ضد الغرب "تفيد بطرificتين من الهجمات الإرهابية: الخلايا النائمة والفرق الضاربة"

الفرق الضاربة تتشكل من أجانب يدخلون البلاد وفقاً لمهمة محددة، مثل ما حصل في 11 أيلول حين جاء الخاطفون (للطائرات) من الخارج. أما الخلايا النائمة فتشكل من عناصر متمركزة في مجتمعات المهاجرين. ويقول رئيس الاستخبارات الفرنسية بياري بوسك: إنهم "لا يثرون الشبهات أو الشكوك لأنهم يزاولون أعمالاً يومية (مثل بقية المواطنين)، ولديهم عائلات وأطفال وعنوان ثابتة ويدفعون إيجارات بيوتهم!!" أما عناصر الخلايا النائمة، فإنهم إما يدعمون شبكات إرهابية من خلال "الجمعيات الخيرية والمؤسسات والندوات، والجموعات الأكademie، والجمعيات غير الحكومية، والشركات الخاصة" (مثال على ذلك سامي العريان الأستاذ في جامعة فلوريدا الجنوبية) أو يأمرون بشن عمليات إرهابية (مثل المغاربة الذين قتلوا ١٩١ شخصاً في مدريد من شهر آذار الماضي).

إن حياة المسلمين في أوروبا الغربية تختلف عن حياة إخوانهم في أميركا الشمالية. إذ إن المسلمين الأوروبيين شهدت مجتمعاتهم غرية ثقافية وتهميضاً اجتماعياً وبطالة بين الجيل الثاني من المسلمين أدت إلى تشكيل عصابات وموجات من المعاداة للسامية والعنف المناهض لأمريكا، إضافة إلى الأيديولوجيات المتطرفة الغاضبة والإرهاب

مقابل ذلك، فإن مسلمي أميركا الشمالية لا يعانون من أي غرية وليسوا مهمشين ولا يعانون من أوضاع اقتصادية صعبة. لذلك يقول لا يمكن إنهم لا يمليون كثيراً إلى السلوك الانعزالي (اجتماعياً) و"العنف الإسلامي". أما هؤلاء الذين يدعمون الإرهاب فإنهم عادة لا ينخرطون فيه شخصياً. لذلك فإن أكثر العنف الجهادي في أميركا الشمالية يتم تطبيقه من قبل الفرق الضاربة التي تأتي من الخارج.

خلافاً للتوقعات، فإن هؤلاء (من ينتمون إلى الفرق الضاربة) لا يأتون من بلدان مثل سوريا والمملكة العربية السعودية ومصر لسبب بسيط، ذلك أن القادمين من هذه البلدان يخضعون لإجراءات أمنية دقيقة وإضافية. كما أن الإرهابيين المسلمين ليسوا أغبياء، إذ إنهم يلاحظون الرقابة المفروضة على هذه البلدان، لذلك فإنهم يقومون بتجنيد مواطنين من ٢٧ دولة أوروبية يستطيع مواطنوها دخول أميركا والبقاء فيها لمدة ٩٠ يوماً من دون تأشيرة دخول.

برغم ذلك، الفرنسيون، مثلاً، يختلفون أيضاً عن بعضهم البعض. إذ إن هناك ذكرياً الموسوي، وهو مهاجر جزائري، يجذب الانتباه أكثر بكثير من ميشال كريستيان جانتشارسكي، وهو مهاجر بولندي من أصول ألمانية، وهو ما يجعل معتقاً جديداً للإسلام مثله "جهادي" يتمتع بقدرات أكبر (من موسوي) مثل صعوبة اكتشافه. ويقع الآن جانتشارسكي في سجن فرنسي لاتهامه بـلـعـب دور رئيس في تفجير كنيس يهودي في تونس في نيسان ٢٠٠٢.

إلى حدّ ما، الأمر عينه ينطبق على إسرائيل، إذ إن حزب الله يبذل جهوداً لتجنيد الأوروبيين مثل ستيفن سمایرک، وهو معتق جيد للإسلام والذي قبض عليه قبل أن يمتشق حزاماً ناسفاً.

وقد جندت حماس كلّاً من المواطنين البريطانيين آصف محمد حنيف وعمر خان شريف اللذين قتلا ثلاثة أشخاص في حانة في تل أبيب. كذلك فإن هذا النمط ينطبق على استراليا مثل قضية المعتق الفرنسي للإسلام والمفترض أنه كان سيصبح جهادياً ولي بريجيت.

إن رؤية لا يكُن تؤدي إلى الاستنتاجات الآتية:

إن صهر المجتمعات الإسلامية في الغرب أمر حاسم بالنسبة للأمن القومي الغربي على المدى الطويل. وبينفس الوقت فإنه يعتبر مستحيلاً بالنسبة للمسلمين الغربيين وغير الغربيين، وهؤلاء الآخرون لهم تأثير ونفوذ كبيران على قرار المسلمين الغربيين. ويرى المراقبون أن التهديد الإسلامي المتطرف لأمريكا بات يأتي من أوروبا. فيطالب هؤلاء حكومات الغرب باتخاذ إجراءات صارمة لمنع تسليه.

أوروبا تجمّد فكر الأوروبيين

يتحدث شتاین عن مشاريع منع الأوروبيين من الأسلامة وبصفتها بأنها تجميد لهم. وتصفيه لشأنهم وتحقير لإنسانيتهم فيقول: "إنّ أوروبا الحالية بحِكمَتها تقوم بعمل منهجي معاد لتحرر الأوروبيين من الظلامية الفكرية التي تمارس عليهم". والقسم الأول من هؤلاء الأوروبيين هم المسلمون الذين أصبحوا أبناء الغرب شأنهم في ذلك شأن ملايين الأوروبيين المتعدد الأعراق والأجناس. والقسم الثاني من هؤلاء الذين تمارس ضدهم حملة التجميد هم مجموع الأوروبيين المتعدد الأصول. وتقوم الماكينة الحاكمة في الغرب بمنع وصول الإسلام إلى هؤلاء جميعاً. وتستخدم لأجل ذلك المنع كلّافة الطرق الممكنة بما فيها الطرق والأساليب القذرة واللامانة.

أوروبا الصحفية

يعترف شتاین بضعف أوروبا في هذه المرحلة الزمنية ويقول:

"لأن المسلمين قد أتوا إلى أوروبا في وقت تتصرف فيه بالضعف السياسي والثقافي لذلك نراهم يغيّرون أوروبا تغييراً عميقاً وكبيراً". ويكتشف شتاین حيوية المسلمين ونشاطهم المفعم. وقدرتهم على التثقف وأداء الأعمال الموكلة إليهم. فيقول: "الإسلام يمتلك الشباب والإرادة بينما أوروبا تمتلك كبار السن والرفاهية والرخاء". والحقيقة فإن أوروبا اليوم ضعيفة في قدرتها على اعتناق المسيحية نفسها والالتزام بتعاليمها.

وضعيفة في إيجاد مناهج فكرية مقنعة تطرحها على أفرادها وتتبناها كأسس بديلة عن الإسلام أو عن أي فكر ديني آخر. فقد جرّب الأوروبيون مناهج الاشتراكية والشيوعية والماركسيّة والوجودية واليهودية. وانتهت الأوروبيّي أيضًا اللين والتأنّث والإباحية والتمرد والرخاء ومارس القتل والإبادة والوحشية والعنف والحقن والعنصرية. وهذه كلّها عناصر ضعف لأوروبا والأوروبيين. وفي المرحلة الأخيرة من مسيرة المجتمع الغربي لابدّ له من الاعتراف بأخطائه وهذا ما يحدث اليوم بالفعل. إذ يقوم كلّ فرد بتحليل الحالة الغريبة بمفرده. ومن ذلك بدأ البعض ينتهج الإسلام كحلّ آخر لكافة الأزمات.

اختفاء جزء من أوروبا

يتباين شتاين وبطريقة مباشرة بأن جزءاً "كبيراً" من العالم الغربي "سوف يعجز عن البقاء في القرن الحادي والعشرين، وأننا سوف نشهد في سنوات حياتنا انهيار وختفاء جزء كبير منه بالفعل، وسوف يشمل ذلك العديد إن لم يكن معظم البلدان الأوروبية". ويُضيف وبصورة أكثر درامية ويقول:

"إنها نهاية العالم كما نعرفه". ويقول بأن ما يسميه إسلام ما قبل الحداثة سيهزم ما يسميه مسيحية ما بعد الحداثة.

وإن ما يعتبره شتاين مسيحية ما بعد الحداثة ليس في حقيقته سوى ابتعاد عن المسيحية وعن الطابع الديني المسيحي كله. فال المسيحية الغربية بأشكالها المتعددة ليست سوى مستحدثات وثنية وتدمرية. بل إنها هي التي أوصلت الفرد الأوروبي إلى الطريق المسدود الذي يتعثّر به أبناء الغرب اليوم.

تحقيق دور المواطن الأوروبي

اختفاء جزء من أوروبا يعني في الغرب اليوم سيطرة الإسلاميين المقللة على الجزء الأوروبي الذي سيختفي من الهوية الغربية. فالغرب شديد القلق اليوم من ظاهرة أسلمة الشباب الأوروبي وتعاطف هؤلاء المسلمين الجدد مع القضایا العربية والإسلامية بل وعملهم المعلن ضد القضایا الأوروبية العنصرية. فالأسلامة تعني العدالة ومناصرة المظلوم وتعني قول كلمة الحق وتعني الدفاع عن القضایا الإسلامية ومن هنا يصبح المسلمون الجدد أعداء لسياسة أوروبا ولغزوتها ضد البلدان الإسلامية ولدعمها المعلن لدولة الكيان الصهيوني العنصري. يعرض الباحث شتاين أطروحة جريئة صادمة ويعود لسلسل التاريخ الأوروبي منذ عصر الأنظمة الشمولية إذ يستهل بالحديث عن إرث نظامين شموليین. فتحت تأثير الصدمة من الجاذبية الانتخابية للفاشية، تم تشييد الدول الأوروبية فيما بعد الحرب العالمية الثانية بطريقة أو أسلوب يبدأ من القمة ثم يتوجه إلى القاع، "حتى يتم عزل الطبقة السياسية بصورة كاملة عن الضفوط الشعبية وضفوط العامة". ترتب على ذلك أن المؤسسة السياسية أصبحت تتظر إلى الناخرين بوصفهم أطفالاً وهو بذلك يتجرأ على انتقاد الانتخابات التي تجري في الدول الأوروبية والتي تصنف بالديمقراطية. فهو يعتبرها منافية للديمقراطية، ثم ينتقد زيف الغرب وخداعه للمواطنين الغربيين طوال عقود مضت، ويدعو المواطن الغربي إلى ما يسميه الاستيقاظ من غفوته ومن تضليل السياسيين له.

وإن مثل هذه الانتقادات الجريئة الجديدة بدأت تنتشر في الغرب كله، ولن تتوقف بعد اليوم. فالمواطن الغربي يشعر اليوم بأنه في موقع الخطر فإما أن يخضع لسياسة الحكومات والمضي في طريق التضليل الذي يمارس عليه أو أن ينقد نفسه من خطر رهيب قادم يتمثل بالصراع مع الأصولية الإسلامية. لقد فتح التطرف الإسلامي وأعمال الهجومية في الغرب فتح أبواب نقاش كثيرة وكبيرة ولن تغلق هذه الأبواب قبل أن يحدث شيء جديد في الغرب.

الرفاهية وتأثيرها على المواطن الأوروبي

أدت السياسة الغربية المالية إلى الانتصار على الكتلة الشرقية بحلول عام ١٩٩١، لكنها أدت إلى نتيجة جانبية غير مقصودة وأقل نفعاً هي تحرير وضخ الأموال الأوروبية من أجل بناء دولة الرخاء والرفاهية. وكان لدولة الرخاء والرفاهية العديد من النتائج السيئة والضارة. وقامت الدولة الغربية بتدليل الأوروبيين ومعاملتهم كأطفال، وجعلتهم ينشغلون بأمور قضايا كاذبة مثل تغير المناخ، والحد من انفلونزا الطيور. وثقب الأوزون، وبينما كانت الحكومات تعمل على إكساب الذكور خصائص أنوثية. وقامت أيضاً بتحييدهم، حيث قامت بالاستيلاء على "معظم الوظائف الجوهرية الأساسية لمرحلة الرشد"، واستهلت ذلك بغريرة التكاثر. منذ حوالي ١٩٨٠، تهافت معدلات المواليد بحيث أصبح أساس تأمين معاشات العاملين اليوم غير كاف. ولأنها قائمة على سياسة ونظام الدفع عند الشراء، أصبحت في النهاية تمارس عملية احتيال ونصب تتم عبر الأجيال، حيث يعتمد العاملون اليوم على أطفالهم وأبنائهم للحصول على معاشاتهم، وأدى هذا الانهيار السكاني إلى أن الشعوب أو السكان الأصليين لبلدان مثل روسيا وإيطاليا وأسبانيا هي على حافة هاوية الموت السكاني. وأدت دولة الرفاهية والرخاء إلى انهيار في الثقة الذي بدوره خلق حالة من "الإجهاد الحضاري" الذي ترك الأوروبيين في حالة من عدم الاستعداد للقتال من أجل أنفسهم ومن أجل حضارتهم ومن أجل مصالحهم. ومن أجل الحفاظ على دوران الماكينة الاقتصادية كان الحل هو قبول العمال الأجانب وبديلاً من تطبيق خطة طويلة المدى تهدف إلى الاستعداد إلى حضور الملايين العديدة من المهاجرين الذين تحتاجهم أوروبا، قامرت النخب الأوروبية ورحبوا تقريباً بكل طلبات الهجرة المقدمة إليها، وأرغمت نفسها على تقبل المهاجرين المسلمين الذين يتکاثرون اليوم بكثرة في الغرب ويتجاوز عدد هم بسرعة وستصبح أعدادهم في العقود القادمة مؤهلة للاستيلاء على القرار الأوروبي على أقل تقدير. ومقارنة مع برامج تأثير المواطن الأوروبي واشباع بطنه يصبح المسلمين الغربيون اليوم أجدر في المواجهة داخل الشوارع من مواطنين غربيين ضعفاء.

كما يتم إشغال المواطن الأوروبي عادة بمشاكل نجدها نحن العرب صغيرة جداً. ويقال هناك بأنها مشاكل إنسانية عظيمة وتهم المجتمع والبشرية كلها. كأن تتشغل بريطانيا كلها لعدة أسابيع باختفاء فتاة ما... ونحن بدورنا نعظام مثل هذه الحوادث ونحزن لاختفاء فتاة أو مقتلها أو لاغتصاب فتاة مثلاً. لكن أمام الأحداث العظيمة والسياسات المروعة التي تستعدى بلداناً وشعوبينا وأمام مشاهد مقتل الأبرياء بالمئات في البلدان الإسلامية يتعمّن علينا لا نشغل عقولنا على الدوام بمشاكل صغيرة كتلك. ولدى الأوروبي واجبات كبيرة جداً للتعرف على أعمال جنود الغرب خارج الغرب وعلى سياسات حكام الغرب على حقائقها. ومن هنا يتم إلقاء الغربي وإشغاله بمشاكل صغيرة ليست بواسطتها عن معرفة الكبيرة. وبهذه الخدعة يتم تأنيث الغربي وترفيهه وإبعاده عن ساحة ما يجري في السياسة. فالأحداث الصغيرة تملأ عادة عنوانين الصحف الغربية. ويصبح الخبر المتعلق باختفاء الفتاة أهم مما يقوله بوش وساركوزي ويوتين. والغربي يقرأ مقابلة مع شقيقة الفتاة المخفية ولا يقرأ في الصحيفة نفسها لقاء مع سياسي عالمي.

الإسلام هو المورد الأساسي للأوروبيين

بعد ما تم تسطيح العقل الغربي وتأنيث الرجل الأوروبي وبالتالي منعه من التعرف على حقائق عالمية وكونية كبيرة، كان لابد للغربي من الصحوة الحقيقية. هذه الصحوة بدأت بالفعل في العالم كله. وهي هناك أشد من حالتها هنا. فالغربي كان في نوم عميق طوال قرون. وقد جرى تنويمه وغسل دماغه وإرعاشه وتحذيره من الاطلاع على كل جديد. فقد اعتدنا جميعاً أن نسمع من الأوروبي عبارة هذا لا يعنيني. فالغربي المهندس لا يعرف عادة إلا الهندسة. ولا يعرف ولا يريد أن يتعرف على شيء في الطب أو المطبخ أو الزراعة أو الفكر على عكس مواطننا الذي يخبر شؤون الحياة والعلوم وبهتم عادة بكل جديد. وبعد نوم الأوروبي اضطر اليوم لأن يصحو ويفكر، وساهم في إنقاذه والحق يقال خطابات الجماعات الإسلامية الموجهة للغربيين وللعالم كله. هذه الخطابات جعلت الغربي يتساءل عن مكانه ومكان

أعدائه ومكان حكومات الغرب وعن السياسات وعن الدعم الغربي للصهيونية وكل ذلك انصب في سعيه للتعرف على الإسلام هذا الذي كان محظوراً عليه طوال قرون. فهذا التعرف على الآخر الإسلامي (أو العدو حسب بعض الأوروبيين) سيعدى الأوروبي نفسه بنعمة الإسلام.

إذا أراد الغربي الخروج من أزماته الدينية والفكرية والاجتماعية والدخول في حل جديد وواسع شامل يقضي على كافة مشاكله ويدخله عالماً إيمانياً فسيحاجأ خالياً من العقبات فإنه سيختار الإسلام فحسب. وليس أمامه إلا الإسلام. وإن أوروبا كلها بكنائسها وسياسييها ومفكريها تدرك هذه الحقيقة. فقد أصبح الإسلام هو المورد الوحيد للأوروبيين. وفي كل يوم يتتأكد لآباء أوروبا أهمية هذا المورد الإيماني الوحيد وضرورة الاعتماد عليه.

يكتب شتافين: "إن الإسلام الآن هو المورد الأول والأساسي للأوروبيين الجدد" وذلك بفضل القرب الجغرافي للبلدان الإسلامية من أوروبا وسعى سكان تلك البلدان إلى الخروج من بيئه مثقلة بالأزمات ومتهمة للمزيد منها".

لقد خاض الأوروبيون تجارب فكرية وفلسفية كثيرة. واعتقو مبادئه وقيم وعقائد كثيرة أيضاً. وقد أوصلتهم تلك التجارب إلى الطرق المسودة والآلام والأمراض والعقد.

وادركواحقيقة أن الإسلام هو المخلص الوحيد من تلك المشكلات الكثيرة. وباتوا على علم بأن الإسلام يسمو عن التخاريف الكثيرة التي تمت تجربتها. ولم يبق بينهم وبين اعتقاد الإسلام إلا اتخاذ القرار الفردي لكل شخص منهم. والحقيقة أن مجتمعنا العربي خاض مثل تلك التجارب الغربية وتوصل إلى نتائج مشابهة. فأين الشيوعية والماركسية العربية التي شاعت في السبعينات والستينات؟ وأين ظاهرة الهيز والإغتراب والوجودية والسوسيالية العربية؟

الإيمان المسيحي والإيمان الإسلامي

عندما يتوقف الناس عن الإيمان بالله فإنهم لا يؤمنون بلا شيء بل يؤمنون بأي شيء.

علينا أن نميز في الحكم على ظاهرة الإيمان المسيحي بين مسيحيي الغرب الذين خلت قلوب أكثرهم من الإيمان، ومسيحيي العرب ومن في حكمهم، فهؤلاء ما زالوا محافظين على الإيمان وملتزمن بعقائد وعبادات وتقى وتحريم.

هناك علمانية قصوى تهيمن في أوروبا، خصوصاً بين نخبها، لدرجة أن المسيحيين المؤمنين يُعتبرون في نظر المراقبين والأفراد مختلفين عقلياً وغير قادرين على الاضطلاع بمسؤوليات الشأن العام. ولقد تم في سنة ٢٠٠٥ منع "روكوبوتيفليون"، وهو سياسي متّيّز، من تولي منصب عضو في اللجنة الأوروبيّة عن إيطاليا بسبب آرائه المتخلفة حول المثلية الجنسيّة. وإن هناك تصاعداً لعلمانية صارمة معادية للمسيحية بالتوازي مع تزايد فراغ الكنائس: ففي لندن يقدر الباحثون أن المساجد تستقبل يوم الجمعة من المسلمين أكثر مما تستقبل الكنائس من المسيحيين يوم الأحد" على الرغم من كون المدينة تضم من المسيحيين أكثر بسبعين مرات مما تضم من المسلمين.

وأنه يقدر ما تبدو المسيحية أكثر شحوباً وامتناعاً" بقدر ما يبدو الإسلام أكثر جاذبية وإقناعاً - ولقد أعطى الأمير شارل مثالاً معتبراً عن الجاذبية التي يمارسها الإسلام على العديد من الأوروبيين. ومن المحتمل أن تشهد أوروبا عدداً كبيراً من حالات اعتناق الأوروبيين للإسلام في المستقبل" ذلك لأنّه، كما تؤكد هذه المقوله المنسوبة إلى "جاك شيسستيرتون": "عندما يتوقف الناس عن الإيمان بالله" فإنهم لا يؤمنون بلا شيء، بل يؤمنون بأي شيء"

الإيمان الأمريكي والعلمانية الغربية

الخطاب الأمريكي الرسمي يطلق على أنه الإيمانية المسيحية عادة. وهو في حقيقته بعيد كلّيًّا عن الإيمانية المسيحية إذ يختلط بالعقائد الصهيونية اليهودية. كما يظهر الخطاب الحكومي الأمريكي صراحة في الكثير من الأحيان جوانب صهيونيته العقائدية.

يعتبر الأمريكيون أن العلمانية الغربية قد تطرفت كثيراً عن الخطاب الديني المسيحي. ففي التصريحات الأكثر شهرة للرؤساء الأمريكيين تتضمن تقريباً دائماً مقاطع من الإنجيل. ففي فبراير ٢٠٠٣ حين انفجر المكوك الفضائي كولومبيا. فلو أن المكوك كان فرنسيًّا وليس أمريكيًّا، ولو كان على الرئيس الفرنسي "جاك شيراك" أن يدلّي حينها بتصريح في الموضوع لكان ربما لجأ إلى المقارنة مع شعراء البلّياد السبعة . أما الرئيس الأمريكي فعندما تدخل في إطار مراسم ابتدأت وانتهت بمقاطع بالعبرية الإنجيلية، فقد تصرف بشكل مختلف. لقد فتح كتابه في صفحة عيسى" المقطع ٢٦٤٠ وقرأ نصوصاً دينية. وإن التمسك الظاهر بالدين عند الأمريكيين لا يدل بتاتاً على عمق إيمانهم. فإن إيمانهم سياسي أكثر مما هو ديني. وهم بالطبع يخلطون بين المسيحية واليهودية لتصبح يهودية عنصرية متعصبة تتجاذب مع سياسات الولايات المتحدة وغضيرتها. ولم يكن في القارة الجديدة دين سماوي عند اكتشافها وظللت عقوداً طويلاً بدون هوية دينية. وقد تم نقل المسيحية إليها عن طريق أوروبا. فعند قيام الولايات المتحدة أعلن بأن دين الدولة هو المسيحية. وكثُرت هجرة اليهود إليها مما مكّنهم من فرض عقائدهم الدينية هناك. فنتجت عن ذلك مسيحية صهيونية. وينتقد بابا الفاتيكان بين الفترة والأخرى قادة وحكام الدول الغربية ويتهمهم بالابتعاد عن المسيحية. كما ويدعوهم للتمسك بقيم المسيحية التي يعتقد هو بها ، وقد طالب البابا أن تظلّ أوروبا مسرحاً للمسيحية وأن لا يسمح بدخول تركيا الإسلامية في الاتحاد الأوروبي الذي يعتبره فضاء مسيحياً. وب يأتي هذا الحرص من ضمن الإجراءات الغربية التي تحاول إيقاف المذاق الإسلامي والغليان الإسلامي داخل الساحة الأوروبية المسيحية.

الاندحار الديمغرافي الأوروبي

تشير العديد من الاحصائيات إلى ظاهرة تسمى موت اليهود، وتدلّ هذه التسمية على التناقص المستمر ليهود العالم ويتبعها الباحثون الديمغرافيون اليهود وغيرهم بانقراض اليهود في نهاية هذا القرن تقريباً.

وبالنسبة للأوروبيين ككل تشير الدراسات الديمغرافية الأوروبية إلى تناقص مستمر في عدد الأوروبيين المسيحيين وتزايد عدد المسلمين هناك ويطلق البعض على هذه الظاهرة تسمية الاندثار الديمغرافي الذي يشير بدوره إلى أنّ أوروبا تتأسلم. فالنسبة العامة للخصوصية تتراجع حول ١.٢٪ لكل امرأة، بينما الحفاظ على شعب ما يقتضي نسبة تفوق قليلاً طفلين لكل زوجين أو ٢.١٪ لكل امرأة. والنسبة الحقيقية لا تمثل حالياً إلا ثلثي هذه النسبة المفترضة. إنّ ثلثاً ضرورياً لا يولد بكل بساطة في أوروبا. ومقابل ذلك انتبه الغرب إلى ارتفاع نسبة الانجاب عند المسلمين الأوروبيين، فقد قال نيكولا ساركوزي في حملته الانتخابية مهاجماً المسلمين وذوي الأصول العربية: إنّ هؤلاء يكثرون الأولاد كالمفارخ بغية الحصول على التعويضات العائلية. ومن أجل تقاديم انهيار ديمغرافي كامل، مع كل الشرور التي يستتبعها ذلك وخصوصاً غياب عاملين لتمويل برامج التقاعد السخية فإنّ أوروبا في حاجة إلى استقطاب مهاجرين جدد، وإلى عدد كبير جداً من المهاجرين ويجب ألا تقلّ نسبته عن الثلث الذي تفتقده أوروبا بسبب تضاؤل الخصوبة فيها. وهذا الثلث المستورد لن يكون بدون شك إلا من المسلمين في غالبيته، والسبب في ذلك في جزء كبير منه هو أن المسلمين قريبون جداً من أوروبا. وكذلك بسبب أن العلاقات الاستعمارية لا زالت تربط آسيا الجنوبيّة مع بريطانيا العظمى والدول المغاربية مع فرنسا" كذلك بسبب انتشار العنف والفقر في العالمين العربي والإسلامي الحالي والتي تتسبب في أمواج مهاجرة لا تتوقف.

قدرات العامل الإسلامي

يمتلك الإسلام ديناميكية مؤثرة في السلوك والقيم وبعداً تكوينياً نفسانياً في المجتمعات الإسلامية، وكانت الخصوصية الدينية العامل الأساسي في تحفيز وانطلاق حركات التحرر من الاستعمار الغربي السابق. وقد شهدت السبعينات موجة عودة فكرية وثقافية، وموجة إحياء ديني إسلامي في العالم كله.

وشهدت تراجعاً للأفكار والتنظيمات القومية والاشراكية، وبدأت مرحلة إعادة صياغة للمجتمعات وال العلاقات يمثل الإسلام مكوناً مهماً فيها، وتطور الإسلاميون فأصبحت لهم دولة إسلامية في إيران، وحازوا على مقاعد نيابية وبلدية في مصر والأردن وغيرها. ثم استطاعوا أن يرأسوا الحكومة في تركيا. وقد يستطيعون التوصل إلى رئاسة الجمهورية فيها. وفي فلسطين المحتلة، فازوا بالانتخابات ورؤسوا الحكومة. وفي لبنان قاموا بشنّ حرب عظيمة وانتصروا فيها على الصهاينة الغزاة.

وعلى الصعيد الدولي، تم إنشاء منظمات إسلامية كبيرة مثل المؤتمر الإسلامي، والمنظمة الإسلامية للتربية، واتحاد الإذاعات الإسلامية وغيرها، كما نشط الأفراد في تأسيس أعمال إسلامية عالمية كالبنك الإسلامي والفضائيات الإسلامية، وانتشرت الأنشودة الإسلامية، والمسرحيات الإسلامية للأطفال.

لقد أثبت المسلمون قدرتهم عبر التاريخ على توظيف كافة القوى البشرية الموجودة في البلد الإسلامي. ولم يتم توظيف القوى الإسلامية فحسب بل القوى والقدرات المسيحية واليهودية المقيمة داخل المجتمع الإسلامي، فلم يعرف اليهود طوال مسيرة تاريخهم الطويل أفضل من المجتمع الإسلامي الذي احتواهم وحافظ على كيانهم واستفاد من تسخير طاقاتهم، فأصبحوا التجار الأثرياء في كافة البلدان الإسلامية التي أقاموا فيها. يستطيع العالم الإسلامي أن يكون قوة عالمية اقتصادية واستراتيجية دون أن يحتاج إلى موارد وشروط إضافية. فالعالم الإسلامي يمتلك كافة شروط النهضة والوحدة والسيادة. وإن كلَّ ما يحتاجه هو التوظيف الصحيح لكافة الموارد والقوى والإمكانيات المتوفرة فيه.

ومن هنا تبرز ضرورة تخلّي الحركات الإسلامية عن العنف الموجه ضد الغرب. والذي لم يكن الوسيلة الفعالة في تطوير البلدان الإسلامية بل هو الوسيلة المدمرة للاحتمال والنهوض.

ويقدم الإسلام رصيداً معنوياً كبيراً يجمع المسلمين ويوحدهم ويعززهم ويمدهم بثقافة محركة للعمل والتعليم. وستكون نهضة العالم الإسلامي سريعة لا تحتاج إلى زمن طويل بسبب توافر المؤهلات والشروط الازمة، ولكن المشكلة ستبقى في الإرادة الفعلية والأداء الحقيقي المفيد، والرغبة في التخلص من اليمونة الاستعمارية. وفي مشروع النهضة المطلوب تصبح التعددية العرقية والمذهبية والدينية عاملأً إيجابياً في مجتمعاتنا، فالصحوة الإسلامية بحاجة للمسلم الأمريكي والماليزي والهندي والأفريقي، وكذلك وداخل المجتمعات العربية الإسلامية هي بحاجة للمسلم الشيعي والسنني وللمنتسبين للقوميات غير العربية كالأكراد والشركس والتركمان. ويتquin على مشروع النهضة الإسلامية أن يضم كافة جهود المسيحية العربية إلى صفة ويسعى لتمييزها عن المسيحية الغربية بطوائفها المتعددة. وفي هذا السياق النهضوي المرجو تصبح ولاشك كافة الأحزاب العلمانية العاملة داخل المجتمعات الإسلامية جزءاً لا يتجزأ من العمل الإسلامي نفسه.

الرابطة الأورومتوسطية

الرابطة الأورومتوسطية هي رابطة قوية وحقيقة وتحكم بالعلاقات بين الحكومات الأوروبية من ناحية وحكومات المنطقة العربية الإسلامية من ناحية أخرى كما أنها تشكل عاملأً في التقارب بين الشعبين وامتزاجهما. وهذه العلاقة تأسست بقوة في فترة الانتداب الأوروبي لبعض الدول العربية، وهي التي تحكم اليوم بزيادة الهجرة العربية الإسلامية إلى أوروبا، وقد تحدث عنها جاك شيراك عدة مرات وعمل على توسيع نفوذ هذه العلاقة ورأى أن أوروبا والمنطقة العربية تمثل كان حاجة واحدة مشتركة وهي التفاعل الأورومتوسطي. وأثناء حملته الانتخابية رأى نيكولا ساركوزي في مطلع أيار ٢٠٠٧ أن العلاقة الأوروبية مع تركيا الإسلامية لن

تكون ضمن الاتحاد الأوروبي بل ضمن تطوير العلاقات الأوروتوسطية وهو بذلك يعترف بحتمية الرابطة الأوروتوسطية ويسعى لإبعاد تركيا الإسلامية عن الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي، نظراً لما يمثله مسلموها من خطر ديمغرافي على أوروبا، ومما سيؤدي إلى تضاعف كبير ومحاجيء لمواطنيه المسلمين. والرابطة الأوروتوسطية تعني مساهمة أوروبا في التفاعل والتنمية والتطوير لدول المتوسط العربية. وترى بأن تطوير هذه الدول وشعوبها يصب في صالح أوروبا الجارة الشمالية للعرب المسلمين. ومهما تعدد التسميات فالغرب مضطّر للتحاور الفعال والبناء مع هذه الدول. وهذا التفاعل يعتبر أحد السبل المؤدية إلى أسلامة أوروبا. ويطرح الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي بقوة الرابطة الأوروتوسطية كسبيل للتحالف والحوار بين الشمال المسيحي الغني والجنوب الإسلامي الذي يمتلك الطاقة والمال، ولما كانت الأوروتوسطية محاولة للاتفاق على المذاهب الإسلامية التي يهدد أوروبا بهويتها التقليدية فإن هذا الالتفاف سينعكس على أوروبا نفسها وسيكون أحد دعامات المذهب الإسلامي نفسه الذي تسعى أوروبا للتحبيده.

الرابطة الأوروتوسطية هي محاولة (إنقاذ أوروبا من الأسلامة) حسب التعبير الغربي. وحسب مجريات الأمور وتطور الأحداث في المستقبل فسوف تكون وبدون شك، أحد الطرق الموصلة إلى الإسلام.

لقد انفتحت الأبواب في الغرب كله لدخول الإسلام إليه. ولم يعد من الممكن إغلاق هذه الأبواب ولا إيقاف موجة الأسلامة الواسعة هذه.

تباطل الإنماء في الغرب

الاغتراب الحضاري الذي يحسه العديد من الأوروبيين يعتبر الانطباع الذي لديهم بأن ثقافتهم لا تستأهل الدفاع عنها، بل ولا تستحق حتى الحفاظ عليها. والاختلافات بين الأوروبيين في هذا الصدد واضحة. والبلد الأقل تأثراً بهذا الاستلاف هو فرنسا التي لازالت فيها الروح القومية التقليدية حية والناس لا يزالون فخورين بهويتهم الوطنية التي تجمعها وتعزّزها اللغة الفرنسية، خاصة وأنّ الفرنسية تنتشر في ٥٢ دولة

عالمية تجمعها مع فرنسا رابطة الفرنكوفونية.. بينما بريطانيا العظمى هي البلد الأكثر إصابة بمرض المعضلة القومية ، كما يبين ذلك برنامج الحكومة الذي يحاول برعونة أن يعيد الحياة إلى وطنية البريطانيين عن طريق مصالحتهم مع "كنوزهم القومية" مثل "الدب ويني" و"الميني جيب". ولم تعد اللغة الإنكليزية قادرة على تعزيز الانتماء القومي لدى البريطانيين. إذ أن انتشارها العالمي الكبير جعل منها لغة عالمية ملِّكاً للبشرية كلها ، وسحب منها هوية الخصوصية البريطانية.

ولأن غياب الثقة هذا كانت له تداعيات مباشرة بالنسبة للمهاجرين كما يفسر ذلك "أنيش تازير" الذي يقول:

وإن الانتماء إلى الثقافة البريطانية مثلاً هو المظهر الأكثر اسمياً بالنسبة للعديد من الشباب الباكستانيين- البريطانيين. وبالنسبة للعديد من هؤلاء فإن الثقافة الصحراوية العربية لها جاذبية أقوى من الثقافة البريطانية أو الأوروبية عموماً. فبشعورهم بأنهم متزعون انتزاعاً من الشعور بامتلاك هوية دائمة، فإن باكستانيي الجيل الثاني يجدون هوية جاهزة في رؤية العالمية التي يمثلها الإسلام المتطرف على حد قول تازير.

إن المسلمين المهاجرين يحتقرن بعمق الحضارة الغربية ، وبالخصوص فيما يخص الانفلات الجنسي (البورنوغرافيا ، الطلق المنتشر بكثرة ، المثلية الجنسية). والمسلمون لا يجدون أنفسهم ولا يندمجون في أي مكان بأوروبا ، والزيجات بينهم وبين غيرهم من الأوروبيين تبقى نادرة. وقد أفادت دراسة ميدانية إحصائية قامت بها BBC بأن نسبة ٨٠ % من خطباء المساجد في بريطانيا والذين هم من أصول باكستانية وشرق آسية لا يجيدون اللغة الإنكليزية وأنهم يؤدون خطب الجمعة بلغاتهم وبالعربية ويعتقدون بتحريم تعلم الإنكليزية.

ومن كندا عائلة "حضر" المعروفة على أنها أول عائلة كندية تعاطت الإرهاب ، عادت إلى كندا قادمة من أفغانستان في ٢٠٠٤ وصرّحت بأن معسكرات التدريب التي تديرها "القاعدة" هي أفضل مكان تحلم به لأبنائهما. وقالت: "هل تريدونني أن أرببي أبنائي في كندا ، حتى يجدوا أنفسهم متعاطفين للمخدرات أو مثليين جنسين في

سن الثانية عشرة؟ هل هذا ما ترون أنه أفضل؟" كان الأوروبيون في القرون السابقة يحتقرون المسلمين بسبب تعدد الزوجات لديهم، وكانت ظاهرة "الحريم" لدى أثرياء المسلمين تبدو لهم على أنها تكشف عن هوس جنسي، وكانوا يشعرون بأنهم متفوقون عليهم أخلاقياً في هذه النقطة بالتحديد، وفي هذا العصر تعكس المفاهيم. وتصبح مشكلة المسلمين مع الغرب هي الانفلات الجنسي.

أوروبا مفتوحة أمام الإسلام

أوروبا مفتوحة مشرعة أبوابها اليوم أمام المد الإسلامي أكثر من أي يوم مضى. وهذا ما يقلق حكام الغرب كلهم. فقد أعلن بابا الفاتيكان قبل أيام من طبع هذا الكتاب بأن الفاتيكان لن يقف مكتوف الأيدي أمام مشروع أسلمة أوروبا.

أدلة كثيرة تبين أن أوروبا سوف تتأسلم، وأنها سوف تخضع أو تعتنق الإسلام بدون مقاومة ذلك لأن الطبق الإسلامي يتواافق بالكامل مع ماتشتته أوروبا، وتكامل الصورة المشوهة لأوروبا عند أسلمتها: فضعف الدين لدى أوروبا يعوضه قوة تدين في الإسلام، والضعف في الاعتزاز بالهوية وبالثقافة لدى الأوروبيين، تقابلها بكمال الحرية، هذه هي الحقيقة التي يعبر عنها الكثيرون اليوم، لكن آخرين يرون عكس ذلك، فالمحلل الأمريكي رالف بيترس يستبعد هذا الاحتمال ويرى أن المسلمين سيعرضون للإبادة في أوروبا قريباً. ولن ننتظر سنوات أخرى لنعرف ما سيحدث، لأن الحقائق شديدة الدلالة والتأكيد على أسلامة أوروبا وأن لمجال لحدوث إبادة للمسلمين فيها كما يتصور البعض.

الخليان الإسلامي في العالم

يكثير الإقبال على الإسلام. نشرت مجلة "المسيحية اليوم" دراسة جاء فيها: إن خلاصة دراسة المشاركون تبين أن الإسلام أسرع انتشاراً من المسيحية في دول الغرب

عموماً، فالإسلام ينتشر بنسبة ١.٩% سنوياً، بينما تنتشر المسيحية بنسبة ١.٣% في السنة. ويخوض الإنجيليون في هذه الأيام سباقاً محموماً مع دين الإسلام الذي يتزايد معتقده الغربيون بالآلاف دون نشاط دعوي كبير للمسلمين، إذ يقوم الإنجيليون بإجراء الدراسات والحسابات والمعادلات لوقف هذا الانتشار والظهور الإسلامي الكبير. وحسب الإحصائيات المنشورة فإنه يعتنق الإسلام سنوياً ما بين ٢٠ ألف و ٤٠ ألف فرنسي، و ٥٠٠ ألف أميركي منذ تغييرات ١١ سبتمبر/أيلول ٢٠٠١. كما وينتشر الإسلام في أفريقيا بسرعة أكبر بكثير، وقال الشيخ هارون سينجوبا من اتحاد مجلس مسلمي شرق ووسط وجنوب أفريقيا "في أوغندا ينتشر الإسلام بسرعة غير متوقرة. وفي كل دقيقة يأتيانا أناس يريدون اعتناق دين الإسلام...". كما وينتشر الإسلام في جنوب أفريقيا بين السود حيث أن نسبة ٨٠% من السكان البالغ عددهم ٤٥ مليون نسمة نصارى. وهذا ما يقلل المنظمات المسيحية العالمية. حتى أن هذا الانتشار الواسع جعل أحد القساوسة الألمان يقدم على الانتحار مخافة من امتداد الإسلام. وفي ألمانيا يتزايد الإقبال على اعتناق الإسلام فحسب الأرقام الرسمية الألمانية، فإن ألف مسيحي ألماني اعتنقوا الإسلام في العام ٢٠٠٥ وارتفعت النسبة كثيراً في العام ٢٠٠٦ فبلغ عددهم ٢٠٠٠ ألماني. أي ما يعادل تسعة حالات دخول في الإسلام يومياً في ألمانيا وحدها. ويدرك أن بعضهم تعرف على الإسلام بدون مساعدة أي مسلم وقائماً آخر استفادوا من حوارات الكترونية مع المسلمين. وما لا شك فيه أن خوض المسلم في مجال الدعوة للإسلام والتعريف به والتقارب من الغربي المسيحي ومصالحته ومصادقته وكسب وذه وموافقه. ذلك أفضل بكثير من الخوض في التطرف ونفي الغربي ونفي المسيحي واستعدائه. ففي هذه السنوات تتفتح أمام المسلمين منافذ وأفاق واسعة ومتعددة، وتوجب عليهم استثمارها لأنها فرصة تاريخية. وبنفس الوقت فإن في الغرب منظمات صهيونية ضاغطة تحارب الإسلام وتحول دون انتشاره. مما يوجب علينا التيقظ والحذر والتصدي لفتها وأضاليها. ولن نقدر على القيام بتلك المهام إذا بقينا منشغلين بأتون الطائفية.

أبناء الغرب يهتمون بالإسلام اليوم أكثر منا نحن المسلمين. والأسلمة صارت هناك أشبه (بموضة فكرية) فقد اعتاد الغربي على ظاهرة الموضة التي تتشهي بسرعة كبيرة وتفزو العقول والأفئدة. فمثلاً كان الغربي يعتقد السوريالية أو الوجودية ويجعل منها محوراً للفكر والفن واللبس والفناء والسياسة والعقيدة، ومثلاً كان يلبس تلك الموضة وتلبسه فإن الإسلام قد أصبح في الغرب اليوم هو الموضة الدارجة والمهمة والحديثة والمعدية إذا صح التعبير.

أسلمة الأوروبي لا يحتاج لجهد كبير

تعريف الأوروبي بالإسلام ودعوه لاعتقاده أمر ليس بالصعب، ولا يحتاج لجهد كبير. فالغربي عاقل واع ومناقش بارع، ومفكر حاذق. وهو يعرف مصلحته ويبحث باستمرار عن الحلول الجديدة لمشاكله وألامه. وعندما يكتشف أنَّ الإسلام مفيد له فهو بسهولة يعتقه ويتبني قضاياه. والغربي لا يخجل من مجتمعه ولا من الأفراد المحيطين به. فهو يمتلك ملء الحرية في اعتقاد الفكر الذي يريد لنفسه. وإنَّ صفة المجتمع الغربي هذه والتي تمنح الفرد كافية حرياته تسهل كثيراً انتشار الإسلام في الغرب كله.

ولما كانت مجتمعاتنا العربية مختلفة ومنفلقة ولما كان المجتمع الصغير يشغل طوال أشهر مثلاً بقصة شاب حليق الشعر أو طويل الشعر أو يعتقد مذهباً إسلامياً آخر، فإنَّ عادات مجتمعاتنا تعيق أي تطور فكري عند الفرد. ولهذا السبب تقل كثيراً حالات اعتناق مسيحيين للدين الإسلامي في بلداننا. كما تقدر حالات انتقال الأفراد المسلمين إلى مذهب إسلامي آخر.

فبرغم أنَّ الدروز مثلاً مسلمون فإنَّ داعية مسلمًا كبيراً يقدر على دعوة ألف أوروبي مسيحي لاعتقاد الإسلام، وبينفس الوقت قد لا يقدر على دعوة مسلم درزي واحد للتحول داخل الإسلام إلى المذهب الجعفري أو السنّي مثلاً. وأنينا بهذه المفارقة لنبيان فحسب مدى سعة قلب الغربي لتقبل الفكر الجديد. وإنَّ كافة الصفات والخصائص التي تميز الغربي اليوم تجعله جاهزاً ومهيئاً ومؤهلاً لاعتقاد الإسلام.

الإسلامية بدأت بمواجهة العلمانية الفرنسية

دخل الإسلام في السنوات الأخيرة في مواجهة حقيقة وجهاً لوجهاً مع فكر وقيم ومبادئ العلمانية الفرنسية، والتي تعتبر منذ قرون نموذج الفكر السياسي والعلمياني الليكي الذي انتشر من خلال أنظمة الجمهوريات السياسية في دول عالمية كثيرة. فالفرنسيون يقدمون نظامهم الجمهوري العلماني باعتباره النموذج الأمثل في مجال الاجتماع السياسي، لعموم البشرية في مختلف قارات العالم، لما يقوم عليه هذا النظام من أسس حداثية وتوبيرية غير مسبوقة على حد اعتقاد مفكريهم. وظلت التجربة الفرنسية وما زالت بالنسبة للكثير من النخب الفكرية والسياسية في العالم كله، نموذجاً ملهمًا ومثالاً يحتذى.

ورغم ما يطفو اليوم على النموذج الجمهوري الليكي الفرنسي من أزمات عميقة وأعطال واسعة فإن الفرنسيين لا يكفون عن التعلق بالوثوقية والتباشيرية بالحل الجمهوري الليكي. ومن اللافت للانتباه أن المفكرين المسلمين بكل أنواعهم بدأوا في السنوات الأخيرة بحملة انتقادات واسعة تنشر بعدة لغات عالمية لأسس وقيم العلمانية الفرنسية وانطلقت حملة إسلامية تشکك بجدارة وديمقراطية تلك القيم. فمنذ بروز أزمة الحجاب في فرنسا اعتبر الإسلاميون أن خصمهم الحقيقي هو العلمانية الفرنسية التي تسير الجمهورية. والحقيقة فإن الإسلاميين هم الذين بدأوا بهذه المواجهة الفكرية من جانب واحد ولم نسمع حتى الآن عن آية ردود فرنسية على تحرشاتهم هذه. وتعتبر هذه المواجهة بحد ذاتها إحدى مراحل وأحد أوجه الصدام المرتقب بين المسلمين مع الغرب كله. فالغرب يلمس كل يوم اتساع نطاق النقد الذي يوجهه الإسلاميون له ولقيمه، لكنه غالباً ما يصمت الآذان عن تلقى الانتقادات والرد عليها. وقد جاءت مواجهات الضواحي الفرنسية كأحد أشكال الانتقاد الإسلامي لأسس العلمانية والجمهورية الفرنسية. وكانت تلك أوضاع أشكال التمرد والنقد. ومع تعاظم المواجهة الفكرية بين الجانبين خرجت الكنيسة البابوية وأعلنت بوضوح في أول آب ٢٠٠٧ بأن لا مجال للسامح للإسلاميين بتغيير وجه أوروبا المسيحية وبغزوهم الفكري لها.

العلمانية الفرنسية تسلطية

تتأسس الليكية الفرنسية على نزعة تدخلية صارمة وثقيلة الوطأة للدولة، وتقوم هذه النزعة التدخلية بدورها على دعامة نظرية مفادها اعتبار الدولة الليكية ضامنة الوحدة الاجتماعية والسياسية وحارسة الموية العامة، وذلك بحكم قدرتها "الخارقة" على تجاوز الانقسامات الاجتماعية والقيممية التي تخر الجسم السياسي، ومن ثم قدرتها الفائقة على التعبير عن المصلحة العامة المتجاوزة للمصالح الجزئية والعينية للأفراد والمجموعات. وتتأسس هذه الفكرة على تقليد أنواري مبكر يشدد على شفافية السياسي وقدرته على بلورة الإرادة الكلية وال العامة، أي قدرته على التعبير الوفي عن المصالح الكلية والجامعة التي تشمل مجموع الأفراد والجماعات، وتعود جذور هذه الفكرة إلى القرن الثامن عشر وتحديداً إلى الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو الذي غَدَ الدولة بمثابة الإطار المعبر والجسد للإرادة الكلية للمواطنين. فقد تميزت الحالة الفرنسية بصفة عامة، بما في ذلك زمن الملكية بوجود دولة تدخلية ومركبة، متساندة مع سلطة كنессية شديدة الضبط وبالغة القهر. ومع تراجع دور الكنيسة على ضوء مجمل الصدمات التي تلتقتها بعد الثورة، امتصت الدولة الجمهورية الليكية جل الخصائص الــكلية والبنيوية للمؤسسة الكنسية الكاثوليكية وافتكت جل الوظائف التي كانت موكولة إليها، بما في ذلك وظيفة فرض الوحدة الاجتماعية والسياسية على مجتمع منقسم على نفسه طائفياً وعرقياً، وإحلال التجانس الثقافي واللغوي. فالدولة عند الليكينيين الفرنسيين ليست مجرد أداة لتنظيم الشأن العام، ولا هي مجرد مؤسسة وظيفية لإدارة حياة الناس وتصريف أحوالهم ومعاشرهم، بل هي "صوت الأمة" و"روح" الشعب. وموضع حلول العدالة الكاملة والخير الأعظم، وهذا ما يعطيها مشروعية التدخل على النحو الذي تريد وفي الوقت والوضع الذي تريده لفرض قيمها وتصوراتها الخاصة على الأفراد والجماعات، مفترضاً فيها أن تكون القيم العامة والكلية للمجتمع نفسه، بحيث تتطابق مصالح المجتمع مع مصالح الدولة، وتتصهر الإرادات العينية والجزئية للمواطنين في الإرادة العامة والكلية التي تعبر عنها الدولة الليكية. ومن الواضح

هنا أن الفكر السياسي الفرنسي يقوم على خيرية الدولة وشفافيتها بما يجعلها جديرة بتجسيد وحماية القيم السياسية النبيلة، وفي مقدمة ذلك قيمتا الحرية والمساواة. وهنا يتتساوق الدور التدели والإكراهي للدولة الفرنسية على نحو ما تجسّد ذلك في تجربتها التاريخية الحية، مع نظرية سياسية متمركزة حول الدولة. وتشتغل الليكية الفرنسية عبر ذراعين متكاملتين ومتعاوضتين: أولاً عبر آلية الرقابة والضبط العقابي للدولة الجمهورية الليكية التي تقوم على "حراسة" القيم الجمهورية الليكية وضبط حدود المباح والمنوع من منظار هذه الدولة. ثانياً عبر أدوات التوجيه الثقافي والأيدولوجي التي تتم بمقتضاهما صياغة الشخصية الفردية، وشحن الفضاء العام بالقيم العلمانية. وعلى رأس ذلك مؤسسة المدرسة والترشيد التربوي. ولعل هذا ما يفسر كثرة الضجيج والسباق الذي يثيره الفرنسيون حول دور المدرسة والتعليم بما لا نظير له لدى أمم أخرى في العالم. فالليكية الفرنسية لا تكتفي بتحرير السياسي من سيطرة الكنيسة وإنما تراهن على مقارعة الدين عامة وطرده من الفضاء العام لتحول محله "القيم الليكية الصلبة"، وهنا تحل المدرسة محل الكنيسة في إعادة صياغة الوعي الفردي والجماعي.

وما يجمع هذه الأنماط السلطانية تعلقاً المفترض بالدولة والعمل على تغيير شروط الوجود البشري بصورة مثالية وحالة عن طريق تدخل الفعل السياسي المبرمج والمخطط الذي تحتل فيه الدولة موقع الصدارة والتوجيه. وإن الليكية الفرنسية ليست مجرد آلية سياسية لمعالجة قضية الانقسام الديني أو الطائفي، بل هي أشبه ما يكون بالعقيدة الشمولية والصارمة التي تراهن على الحلول محل الأديان والعقائد بعد انتصاص الكثير من مظاهرها وتعبيراتها في قالب علماني. ودليل ذلك ما تحاط بـ الليكية الفرنسية من تقديرات ومحرمات، ما يجعل المرء عرضة للتجریح والإدانة بمجرد الاعتراف على بعض التصورات أو المسلطات الليكية، أو مجرد الحديث عن محدودية الحل العلماني. وإن الثقافة السياسية الفرنسية على نحو ما تشكلت في مبدأ الليكية ومرادفها الجمهورية قامت على نزوعات لا تعرف معانٍ التوسط والوفاق ومن مظاهر ذلك التعلق بتصورات مثالية للزمن والتاريخ، العمل على صنع

تاريخ ونمط من الاجتماع السياسي مطلق الجدة وفي قطيعة مطلقة مع الماضي، فضلاً عن السعي إلى صنع مفهوم مجرد ومتعال للمواطنة لا علاقة له بالواقع وممكنته الفعلية. وذلك بالإضافة إلى ميل أهل تلك الثورة إلى الحلول الجذرية والقصوى بدل البحث عن الحلول الوفاقية الوسطى. وفعلاً فإن القراءة الثاقبة للتجربة الفرنسية سواء في موطنها الأصلي أو في مختلف البلاد التي امتد إليها نفوذها الاستعماري، تكشف لنا عمّا رافقها من أبعاد تسلطية ثقيلة الوطأة ومن مظاهر التشديد على دور الدولة في إحداث التحولات السياسية والاجتماعية وفي هندسة البنية الاجتماعية السياسية بصورة فوقية ومتغالية عن مشاغل الناس و حاجياتهم. والفرنسي بدأ يحسن اليوم بهيمنة الحكومة ووطأتها على حريته، ولا يجد سبيلاً لتحريره منها سوى اعتناق أيديولوجية جديدة تجاوب مع تطلعاته، وكثير من الفرنسيين اكتشفوا في الإسلام المنفذ الوحيد لتحريرهم. فالمتاخ الفرنسي العام يؤهل الفرنسيين أيضاً للانضمام إلى قافلة الإسلام.

أسلامة الأوروبي تعني مناهضة العرب والمسلمين

إنَّ ما يقلق سلطات الغرب من ظاهرة انتشار الأسلامة في مجتمعاتها ليس الإسلام كدين وعقيدة وعبادة وممارسة طقوس فحسب ، بل الإسلام كأيديولوجيا تشمل العدالة والحق ومناصرة الضعيف والمظلوم والدفاع عنه ومعاداة المعتمي. ومن الملاحظ بأنَّ الغربي المتأسلم ينقلب ضدّ سياسات الغرب الظالمة والمعتمي وحليفته إسرائيل، ويصبح مناصراً للقضية العربية والإسلامية ومدافعاً ضد المظالم التي يرتكبها الغرب القوي بحق الدول الإسلامية التي تمتلك الموارد والمال. والأمثلة على ذلك كثيرة جداً. فروجيه غارودي الذي اعتنق الإسلام أصبح بعد ذلك معادياً أولاً للصهيونية ولأكاذيبها ولمارساتها. وقد اتجه فكره بالكامل بعد اسلامته للدفاع عن قضايا العرب والمسلمين. فكتب (الأساطير المؤسسة للصهيونية) وكشف فيها عن أكذوبة المحروقة وتلفيقاتها ، وعن جرائم الصهيونية الإبادية. ثم كتب ينتقد الفزو الصهيوني للبنان وطالب بتجريم الكيان المعتمي وتحرير لبنان. ونلاحظ أنَّ الكثير من

الأوروبيين الذين يتأسلمون يقيمون فترات زمنية في بلدان إسلامية. وهم بذلك يعلنون عن ولائهم وانتمائهم لهذه البلدان الإسلامية.

والإسلام هو الحق والصدق والعدالة والإنسانية والإخاء والحب والوفاء والأمانة والإسلام هو التوحيد وهو عظمة الكائن البشري بفضل صلته بالله وحده. ومن هنا فإن المسلمين الغربيين الجدد هم اليوم وسيكونون في المستقبل معادين للاستعمار والإبادة والظلم واغتصاب الأرض واغتصاب ثروات الشعوب. وأسلامة الأوروبي ستجعله سياسياً كبيراً معادياً لحكومات بلاده. ومن هنا يأتي معاداة حكام الغرب لظاهرة الأسلامة الواسعة.

أسلامة الأوروبي تحني قلب المعايير الغربية

ما كانت الأسلامة تعني انتماء جديداً للمواطن الغربي إلى القضية العربية والإسلامية، فإنها تعني أيضاً قلب كافة المعايير الغربية السياسية التي تقوم عليها أوروبا اليوم. وإن الخوف الأوروبي من الإسلام لا يكمن فقط في ممارسة الدين كعبادة وطقوس، بل هو خوف عميق من انهيار كافة المعايير التي تقوم أوروبا على أساسها. والتي تقوم السياسات الغربية كلها على أساسها.

فالسياسة الغربية كلها قائمة اليوم على أساس متحابلة يمكن تشخيصها بهذه النقاط:

أولاً: إبقاء الصهيونية في قلب العالم العربي كعنصر شفب وتدمير للعرب وعنصر يمنع حدوث أي تطوير عربي. وهذا الكيان لم يكن في الأصل إلا نموذجاً غربياً مصفرراً. فأسلحته وميزانيته وثقافته كلها تأتي من دول الغرب.

ثانياً: استمرار سياسة الغرب في كسب كافة طاقات وقدرات الدول العربية والإسلامية. إذ لا يخفى على أحد أن كافة الأموال العربية موضوعة في مصارف الغرب، وهذا يعني أنها تغنى الغرب نفسه وتقرر العرب وحدهم. ثم إن الفائض الذي يحدث من تلك الأموال تشتري الدول العربية به بل تجبر على شراء أسلحة كثيرة

لا حاجة لها ولا ضرورة لشرائها. وقد تحدث حسنين هيكل بوضوح عن صفقات الأسلحة الكثيرة تلك وقال بوضوح: "إن الدول العربية تشتري الأسلحة وهي تدرك أنها ليست بحاجة لها) كما نلاحظ في كل حين أن صفقة الأسلحة التي تباع للعرب ترتبط بقرار سياسي مفيد للغرب وحده. ففي أول آب ٢٠٠٧ وبزيارة وزيرة الخارجية الأمريكية للسعودية أُعلن عن شراء السعودية صفقة كبيرة من الولايات المتحدة.

وفي اليوم التالي وبزيارة رئيس الجمهورية الفرنسية لليبيا أُعلن عن شراء ليبيا كمية كبيرة جداً من الأسلحة من فرنسا.

لقد جاء ساركوزي إلى ليبيا كشحّاذ يطلب الصدقات، وهو بحاجة ماسة في بداية عهده حكمه لدعم مالي للخزينة الفرنسية يعلن بها عن تحقيق إنجاز أولى لفرنسا ويتمكن من البقاء في الحكم وتتجدد الولاية. ولذلك جاء الدعم الليبي له بمنحة فائضاً مالياً لليبيا كبيرة يحقق الرخاء الفرنسي وبنفس الوقت يحقق الفقر والعوز للبيبين.

إن انتقال المال العربي إلى الغرب يحقق الرخاء لأبناء الغرب وبالتالي يتعزز سلطتهم على الدول العربية والإسلامية. وهذه المعايير الاستعمارية التي يقوم الكيان الغربي على أساسها سيفقدها حين تتأسلم أوروبا وحين تصبح مناصرة القضية العربية. ومن هذا المنطلق أيضاً يتآثر الخوف الأوروبي من ضمّ تركيا إلى الاتحاد الأوروبي.

الفصل الخامس

التنبؤ بإرباده المسلمين الأوروبيين

الإسلامة أو الحرب الأهلية

يلخص المعلم الأميركي دينيس براجير رؤيته لمستقبل أوروبا ويقول: من الصعب جداً تصور أي سيناريو آخر بالنسبة لأوروبا الغربية غير الإسلامة أو الحرب الأهلية. وبالفعل فإن هذين البديلين السيناريين إلى أقصى حد ويبعدونهما يحددان الخيارين الوحيدين أمام أوروبا المرتهنة بين قوتين متبازنتين" واحدة يمكن أن توصل المسلمين إلى الحكم والأخرى تدعوا إلى طردتهم. فإما أن تتحول أوروبا إلى امتداد لإفريقيا الشمالية أو أن تدخل في وضع شبيه بالحرب الأهلية. فـأي طريق سوف تسلكه أوروبا؟ يتسائل المحللون الغربيون.

ظاهرة خوف المسلمين الغربيين

ومن الظواهر الجديدة التي رسمت ملامح مسلمي الغرب في السنوات الأخيرة ظاهرة خوف المسلمين هناك. إذ أصبحوا يخشون من قرار حكومي مفاجيء يأمر بطردتهم أو ترحيلهم القسري.

كما تنتشر ظاهرة خوفهم من أعمال الإبادة الجماعية والتي يعتقد البعض بأنها قد تحدث بين لحظة وأخرى. وهذه المخاوف يجعلهم يعيشون في قلق دائم. وفي خوف مربع. والحقيقة أن هذه المخاوف لا يمبر لها وأن الغرب لن يرتكب حماقة كهذه بحق شعبه المسلم. ولعل من فوائد هذه المخاوف أنها ساهمت في إعادة قسم من المسلمين إلى الالتزام بقواعد الإسلام وقيمته. وإلى ازدياد ظاهرة التدين الإسلامي هناك.

وحشية الأوروبيين

وحشية الأوروبيين كبيرة وقاسية إلى حد أن الأوروبيين ظلوا طوال قرون يخشون من ذكر كلمة إسلام أو مسلم. فالتعصب الكنسي كان يمنع بقوة مرعبة التطرق

لإسلام كله. وبحذر من التعرف عليه. وبناء على تلك التربية الوحشية تربى الأوروبي طوال قرون على أساس شديدة العداء للإسلام. وهذه الوحشية التي مورست على الأوروبي منذ إزاحة المسلمين عن الأندلس، ظلت مسيطرة في الغرب حتى عقود قليلة. فالاليوم بدأ الغربي يتحرر من تلك الوحشية رغم أنه لم يتحرر منها بالكامل بعد، لكنه اليوم بدأ يسير في طريق هذا التحرر. ولتعزيز تحرر الأوروبي من هذه الوحشية التي تتطلّب لابد من تدخل العرب والمسلمين في التأثير على المواطن الأوروبي. ويعتبر تدخل أسامة بن لادن وجماعة القاعدة في هذا الشأن ذا تأثير مفيد للمواطن الغربي نفسه في طريق تحرره الحقيقي الكامل. ففي مرّة دعت القاعدة الأفراد الأوروبيين إلى اعتناق الإسلام وفي أيلول ٢٠٠٧ دعا بن لادن بوضوح الشعب الأمريكي لاعتناق الإسلام.

يقول المحلل الأمريكي "رالف بيترس" إن سيناريو السيطرة الإسلامية على أوروبا تماماً بعيد عن المستقبل كلّ البعد. وإن احتمال أن يكونوا على موعد مع الاستمتناع بالأمل في الاستحواذ على أوروبا عن طريق إنحصار الأطفال فهذا مستحيل كل الاستحالة، فإن المسلمين يعيشون في هذه القارة آخر أيامهم. فالغرب الذي انتبه إلى خطرهم لن يستمر في احتوائهم على الإطلاق. بل إنه بدأ يرفضهم بقوة، وسيزداد هذا الرفض تباعاً. فالتبؤات بالحصول على السلطة في أوروبا من طرف المسلمين هي تبؤات تتجاهل التاريخ والوحشية المتقدمة في أوروبا نفسها".

صحيح أنّ التاريخ الأوروبي حفل بالمجازر الوحشية الكثيرة. فقد أباد الأوروبيون آلفاً من المسلمين بعد هزيمتهم في الأندلس. وأبادتمحاكم التفتيشآلافاً من الأبرياء الآخرين. كما أن الحريين العالميين أبادتا من الأوروبيين حوالي ستين مليوناً. لكن العصر قد تغيراليوم، والمفاهيم قد تغيرت. فالمواطن الغربي أصبح مدللاً والذكر أصبح مؤثراً كما يعترف بذلك الأوروبيون أنفسهم.

وان مساحة الحرية الكبيرة التي حصل عليها الفرد تمكّنه من رفض التجنّد في جيوش تمارس الإبادة. كما أن الحداثة والتطور والإعلام وغيره كل هذا يكشف

الحقائق لكل فرد ويبين الزييف والخديعة السياسية الغربية. فلم يعد من الممكن أن تقوم حكومة غربية بخدع شعوبها ويجرّهم إلى حرب أهلية إبادية ضدّ أبرياء.

تمثلت وحشية الأوروبيين في منع الإسلام وحظره بالنتائج التربوية التي جعلت الفرد يخشي من ذكر الإسلام أو المسلمين. وبالأعمال والنتاجات الغربية من رواية وقصة وشعر ومسرح ورسوم زيتية كلها كانت تصور المسلمين على أنهم سفاحون متعطشون للدماء ومتخلفون وكارهون. وسلم الفكر الفلسفي الغربي تقريباً من العدائية للإسلام، لأن أولئك المفكرين كانوا منطقيين في أحکامهم. وهم الذين استفادوا من نتاجات الإسلام ومن ثقافته وادعوا بأنهم اكتشفوا تلك الأفكار المنطقية. وهؤلاء لزموا الصمت تقريباً تجاه الإسلام.

المسيحية لم تهذب الأوروبيين

اعتق الرومان المسيحية وحملوها من الشرق إلى أوروبا وجعلوها ديانة الإمبراطورية الرومانية. فراحت المسيحية تنتشر في أوروبا ومنها انتقلت إلى العالم. وقبل اعتقاده المسيحية كان الغرب متواحاً ضالاً. وقدراً. وكانت أبرز سماته:

الاستهانة بحياة الإنسان، وممارسة القتل بوحشية، بل والتسلّي والتمتع بمشاهدة القتل والذبح والفتوك وإراقة الدماء. ومن ذلك حلقات النزال بين شخصين أو بطليين يشاهدها الملوك والمتفرجون وتنتهي حتماً بموت أحد المتصارعين. وبقي اليوم من تلك العادات التمتع بمصارعة الثيران والتي تنتهي بموت المصارع الشهير أو الثور البهيم. ومن ذلك أيضاً مصارعة الديوك في بعض القرى الغربية.

وكان الغرب يظلم أبناءه ويفتك بهم ويمارس ضدهم استعباداً جائراً وقاسياً. كما كانت حملات الغرب تفتّك بالشعوب وتنهب خيراتها.

وباعتاق الغرب للمسيحية لم يتغير العقل الغربي ولم يتهذب الغربي ولم يتحلّ بأخلاق إيمانية جديدة يمكن ذكرها. فالغرب منذ عشرين قرناً مضت ظلّ غارقاً في قذارته واستعباد الإنسان والفتوك بالأرواح ونهب الخيرات.

وقد استشعر فلاسفة الغرب ومفكروه تلك المشكلة فذهبوا في مساعٍ كثيرة لتهذيب الغرب ولتحميه فيماً أخلاقية وإنسانية وعقائدية. وأضطر الكثير منهم إلى الإستعانة بنتائج الفكر الإسلامي دون الإشارة إلى مصدره، وقاموا بزرع هذا الفكر بين شتات النتاج الفكري الأوروبي. كما وأضطرر الغرب للبحث عن بدائل سريعة لحل معضلات القيم في مجتمعاته، فكانت الفلسفة الأوروبية الحديثة هي الملجأ الإضطراري له. وانطلقت الفلسفة من إيطاليا موطن الفاتيكان. وعمّت أوروبا وسعت لتهذيب العقل الغربي. وأضطررت الفلسفة أيضاً لأن تستعير من الإسلام فكرًا ونهجًا وقيماً كثيرة. وهذه كلها ما زالت محفوظة في النتاج الفكري الغربي وما زالت تشهد على أهمية الإسلام بالنسبة للغرب، ورغم ذلك لم يتهذب الغرب كما يتوجب.

فبعدما عجز الغرب عن التهذب اعتماداً على القيم الدينية المسيحية ظهرت الفلسفة كبديل عن المسيحية. وأن مقصد الفلسفة كان تهذيب الأوروبي فقد أضطرر الفلاسفة للاستعانة بالفكرة الإسلامي ليصبح التهذيب أكثر انضباطاً. ورغم ذلك كله فقد بقىت الفلسفة بالنسبة للغربي مجرد فلسفة وضعية وفكراً بشرياً قابلاً للتغيير والنقد. ولذلك فلم تتمكن الفلسفة من تهذيب الأوروبي بشكل كامل بل قامت بتحسين أخلاقه وقيمه وتوجهاته وقامت بتهذيب دور الدولة التي أضطررت لمنح الفرد المزيد من الحقوق والقيم والحريات. وإذا قارناً الغرب المعاصر الذي اعتنق المسيحية منذ ألفي عام والذي استفاد من الفلسفة طوال قرون نجده لم يتغير كثيراً عن الأوروبي المتواحش القديم.

فال الأوروبي اليوم ما زال يسعى لنهب خيرات الدول الأخرى. وهو يرتكب مذابح في الدول التي يستعمرها. وإسرائيل هي نتاج الأوروبي تسعى لإلهالك المنطقة العربية وتقوم بابادة الفلسطينيين بشكل يومي. وفي أوروبا نفسها نسمع عن سفاح يقتل خمسين امرأة، وآخر يقتل أطفالاً في مدرسة، وجرائم كثيرة مشابهة وكلها تعني أن الأوروبي لم يتهذب بعد، وأنه بعيد عن القيم الدينية والإنسانية. ثم، تقول آخر الإحصائيات إنه في الثانية الواحدة تحدث ثلاثة آلاف محاولة انتحار في الغرب وحده. فاليسجحية إذاً لم تهذب الغرب رغم أنها قادرة على تهذيب النفس الإنسانية. لقد كان

"عرب قبل الإسلام مجتمع قيم وعدل وقال فيهم الرسول الكريم: "إنما بعثت لأتمم فيكم مكارم الأخلاق" ولم يكن الغرب كالعرب ولن يصبح بمقامهم إلا إذا اعتنق الإسلام، فالإسلام وحده هو الحل الوحيد للمشكلة الغربية التي لم تجد حلًا طوال آلاف السنين.

الفاتيكان الذي يرمز للمسيحية الغربية يقذف بلسان البابا عداوة وعنصرية تجاه الإسلام والمسلمين، وذلك لاتررضى به المسيحية على الإطلاق. فاندفعت المسيحية العربية بكل أطيافها إلى استكبار تحرشات البابا بنديككتوس.

ويحكى عن قساوسة ورهبان مثليين وشاذين جنسياً، وعن آخرين تحرشوا بالغلمان والأطفال. ورغم شذوذهم الإجرامي هذا أبقيتهم الكنيسة في مناصبهم الدينية.

والكنيسة نفسها لم يحافظ الغرب عليها، إذ يجري بيع مباني وصروح كنائس قديمة، وتتابع أحياناً لوحات وأثريات دينية تتزعز من الكنائس لتتصبح سلعاً يقبض البعض أثمانها، وفي ألمانيا سيطرت جماعة السينتولوجيا على عدد من الكنائس وجعلتها مكاتب لها. وكل هذه الصور لا يمكن أن نراها في المسيحية العربية المحافظة. إذ يحافظ في سوريا على الكنائس المسيحية وتحاط بأشد الرعاية والحفاوة. فالمسيحيون العرب هم من المجتمع العربي الذي وصفه الرسول الكريم حين قال: "إنما بعثت لأتمم فيكم مكارم الأخلاق"

لقد صاغ الغرب المسيحية للتماشي مع ثقافته وطبياعه، ولم يحافظ على العقائد المسيحية، ولذلك فهو ليس أميناً عليها. ولهذا توجب إطلاق دعوة عالمية لوضع الثقة بالمسيحيين العرب وتحميلهم مسؤولية الحفاظ على الديانة المسيحية ورعايتها والتكلم باسمها.

هل اقتربت ساعة الجسم في أوروبا؟

يرى البعض أن مستقبل العلاقة الأورو-إسلامية مجهولة، ويرجح هؤلاء أن الأحداث الحاسمة التي سوف تحدد علاقة أوروبا بالإسلام لا زالت في طور التشكّل، مما يجعل أن لا أحد يمكنه أن يُصدر حكمًا نهائياً. ولكن ساعة الجسم قد اقتربت. فمن هنا إلى أواسط العقد المُقبل تقريباً سوف تكون التذبذبات الحالية قد وصلت إلى نهايتها، بحيث سوف تتضح الأمور، والمعادلة "أوروبا-إسلام" سوف تُضيق، والمنحنى الذي سوف يقرر مستقبل القارة سوف يكون عليه أن يظهر بوضوح. فإنه حري أن يكون من الصعب استباق هذا التحول، لا سيما وأنه دون سابقة تاريخية. فليس هناك أي مساحة ترابية بهذه الشساعة سبق أن انزلقت من حضارة إلى حضارة أخرى على إثر انهيار ديمغرافي، أو ديني، أو هوياتي لساكنيها. وليس هناك أي شعب سبق له أن انتصب أو تمرد إلى هذه الدرجة ليدعوا إلى تراثه التاريخي. إن المشكّل الأوروبي هو غير مسبوق وممتدٌ وواسع لدرجة أنه من الصعب جداً فهمه، ومن المغرّ جداً تجاهله، ويُكاد يكون من المستحيل استشراف أو التّبوء بتطوراته الممكّنة. إن أوروبا تسير بقاطنيها جميعاً في اتجاه المجهول.

لقد اقتربت ساعة الجسم كما تشير الأحداث. ولن تكون دموية كما يدعو بعض الغربيين لجعلها دموية. لقد دعا مسؤول أوروبي كبير (عن قناة الجزيرة ١١ أيلول ٢٠٠٧) دعا الأوروبيين للتظاهر ضد مآسماء محاولة أسلامة أوروبا. وهذه الدعوة تعني ضمناً المواجهة بين مسلمي أوروبا و المسيحييها وتعني تسريع المواجهة منذ الآن. والقضاء على ظاهرة أسلامة أوروبا. وربما تحمل ضمناً رغبة بالقضاء على مسلمي أوروبا. مما يدل على أن ساعة الجسم باتت قريبة جداً.

التّبّؤ بإبادة مسلمي الغرب

يسترسل المحلل الأميركي في التّبّؤ بمستقبل المسلمين الأوروبيين، فيرجح احتمال ابادتهم التامة على أيدي الأوروبيين أنفسهم. وفي هذا الصدد يصف أوروبا على

أنها المكان "الذي تم فيه ابتكار وإنقاذ الإبادة الجماعية والتطهير العرقي"، ويتبناً بأن المسلمين "سوف يكونون محظوظين إذا لم يتم إلا طرد هم فقط، وليس قتلهم وإبادتهم".

وتؤكد "كلير بيرلينسكي" على هذا الرأي في كتابها "تهديد في أوروبا: لماذا أزمة القارة هي نفسها أزمة أمريكا؟"

وتحاوله ضمنياً بإشارتها إلى النزاعات القديمة وأساليب التفكير التي تُبعت ببطء من غيوم التاريخ الأوروبي والتي يمكن بالفعل أن توقظ العنف لدى الأوروبيين. هذا السيناريو يحتمل أن الأوروبيين الأصليين الذين لا يزالون يمثلون ٩٥٪ من ساكنة القارة سيستيقظون يوماً ما ويلجؤون إلى فرض إرادتهم وسوف يقولون: كفى! ويعيدون إقامة نظامهم التاريخي من جديد. هذا هو احتمال الإبادة الذي يتوقعه كثير من المراقبين الغربيين. لكننا رغم إدراكنا لطبيعة المواطن الغربي ولتاريخه الطويل في ممارسة الإبادة فلا نتوقع أن يمارسها مرة أخرى على مسلمي أوروبا لأن أوربي القرن الواحد والعشرين ليسوا على الإطلاق مثل أوربيي القرون الوسطى.

المحلل الأمريكي رالف بيترس يرى أن المسلمين سيتعرضون للإبادة في أوروبا قريباً. ويستدلّ على رأيه بالكثير من الأدلة والشهادات. والحقيقة هي أن بين المواطنين الأوروبيين من يرجح هذا الاحتمال الخطير. لكن ذلك سيبقى حبراً على ورق وليس لتلك النبوءات مكان في التاريخ المستقبلي.

مطالبه بالتسليح الغربي الكامل

يقترح بعض الأوروبيون طرقاً لمواجهة هذا المعاشر الخصم الجديد حسب رأيهم. وهو المد الإسلامي. ويقترح البعض هذه الاستعدادات للمواجهة: إعادة التسلح بمعناه الثلاثي: التسلح العسكري بقوات تدخل مهيئة للتحديات الجديدة. والتسليح القانوني: بقوانين جديدة لمحاربة التهديد الإرهابي الجديد. والتسليح

الأخلاقي بمعنى إعادة التأكيد على قيم التراث المسيحي اليهودي للغرب، وهذه النقطة الأخيرة مهمة لأن المدافعين عن هذه النظرية تعودوا غالباً الحديث عن الانحطاط الأوروبي مؤكدين أن أوروبا التي أدارت الظهر للقيم المسيحية اليهودية ودخلت في اختلال سكاني كبير، وهي في الطريق إلى فقدان قدرتها على المنافسة الاقتصادية بل وتتفقر إلى الإيمان الأخلاقي الضروري للدفاع عن نفسها ستكون ضعيفة أمام التهديد الإسلامي. ويصل البعض حد الحديث عن شبح "أورابيا" [EUROABIA] أي: أوروبا الخاضعة للإسلام العربي. إن الخوف الأوروبي من شبح أورابيا لا يعبر عن خوفهم مما قد يفعله الغربيون المسلمين، بل هو ناتج عن الخوف الأوروبي مما سيفعله الغربيون الذين يعتقدون الإسلام بكثرة هذه الأيام ويناصرون القضايا المتعلقة بالإسلام والعروبة. ويستكرون سياسات الغرب الاستعمارية الظالمة، وهؤلاء الغربيون المسيحيون وغير المسيحيين يزداد اعتمادهم للإسلام في هذه الأيام حتى أصبحوا يشكلون خطراً حقيقياً على البنية الثقافية الغربية. وهنا يسعنا أن نذكر قوله تعالى: (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى).

تاريخ الإبادة عنــ الغربيــ

في أثناء الحرب العالمية الثانية مارس الغرب كلــه أعمال الإبادة الجماعية ضد أبناء الغرب نفسه، فكان الألمان يبيدون مدنــاً كاملاً، بكافة طرق التدمير والقتل، وكان الحلفاء يبيدون بالمقابل مدنــاً ومعسكــرات ألمانية كاملاً. ولا يتركون منها إلاــ الحطام والرماد. فقد أبــدــ في تلك الحرب خمسون مليوناً من الأوروبيــين والجنود الذين تم استخدامــهم. وبعد انتهاء الحرب، قام الحلفاء بــادة ملايين من الألمان بــجة اتهامــهم بالانتمــاء إلى النازية المندحرــة. وفي فرنســا وحدها تم قــل أكثر من مليون فرنسي بــجة تلك التهمــة نفسها. وقد ساهمــت الجماعــات والعصــابــات الصهيــونــية بأعمال الإبادة تلك. وإن تلك الأحداث المرعبة هي التي جعلــت المواطن الأوروبي يخضع ويــخــع لــسلطة العصــابــات الصهيــونــية، والتي مازالت تسيطر عليه وتفرض إــسكنــاته وختــمه حتى يومنــا هذا. كما أن الغرب مارــس إــبــادة مسلمــي الأندلس بعد هــزــيمة

ال المسلمين فيها. وتحوّل من أراد أن ينجو بنفسه إلى المسيحية. وفي العصور الوسطى مارست السلطة الكنسية إبادة ملايين الأوروبيين المسيحيين فيما سمي بمحاكم التفتيش. كما مارس الأوروبيون الذين استوطنوا في القارة الأمريكية أعمال إبادة للهنود الحمر. وشاركت الجماعات اليهودية بتلك الأعمال. وبررتها على أساس دينية يهودية آنذاك. وفي القارة السمراء أباد الغرب ملايين من الأفاريقين كما هو معروف. لقد أباد الغرب مسلميه بعدما (دحر المسلمين عن الأندلس) وقد تم سحق مئات الآلاف من المسلمين الغربيين آنذاك. وسكن في قلب الغربي رعب وخوف من ذكر كلمة إسلام.^١. واستمر هذا الرعب طوال قرون خلت. لكنَّ الزمان تغير اليوم ولم يعد بمقدور الغرب أن يبيّد أبناءه.

الإبادة من الحقيقة اليهودية إلى المسيحية

والإبادة انتشرت في الفكر الغربي وأصبحت عقيدة وممارسة واقعية. وقد ساهمت العقيدة اليهودية في بث هذه العقيدة في أذهان الأوروبيين. فاليهودي عندما يمارس طقوس العبادة في المعبد اليهودي يقوم بإبادة الأضحية وحرقها حتى الرماد، وذلك باعتقاده أنه يقدمها للرب كوجبة وتقديمة ومايئدة. والرب يطلب ويشرط في نصوص التوراة (المزيفة) هذه الإبادة. وتختلط صورة الإبادة كعقيدة عند اليهود بإبادة البشر واليهود منهم. فقد كانوا يقدمون أولادهم كأضاحي للرب، وتلك الأضاحي كانت تحرق وتباد. ومن هذا المنطلق كان زعم اليهود بأنهم قدموا أبناء يهودهم للرب كأضاحٍ تم حرقها في الأفران الألمانية. وقد نجح اليهود في نقل هذه العقيدة الإبادية إلى العقيدة المسيحية الأوروبية. فتبنتها أوروبا ومارستها في الحياة اليومية. ومن هذا المنطلق نسمع عن جندي غربي يقوم بقتل مدنيين مكبّلين ومسالمين أو أسرى أو عائلة في العراق.

والحقيقة أنَّ هذا الأمر ليس بعيد الواقع، لكنَّ احتمال حدوثه يبقى أقلَّ بكثير من احتمال ازدياد النفوذ الإسلامي وسيطرته. فأبناء الغرب مهماً أمكن للبعض أن يصفهم بالوحشية فهم ما زالوا بشراً وأناساً. وقسم كبير منهم اليوم يرجع المحاكمة

العقلية ويتجاوب مع المعلومة المقنعة، ولعل الإسلام من هذه المعلومات التي بدأ الغربي يتفهمها وينقبلها. وإن نسبة كبيرة منهم تتعاطف مع الذهن العربي والإسلامي. وإن ازدياد تعاطف حكام الغرب مع إسرائيل وازدياد معاداتهم للمواقف العربية يزيد من رفض مواطنיהם لهم. وبالتالي يزيد من تعاطف الغربيين مع القضايا العربية والإسلامية.

صراع بين شعوب الغرب وحكامه

في هذه المرة يتحول الصراع ويأخذ شكلاً جديداً. فقد أصبح صراعاً بين السلطة الحاكمة وشعوبها مسلمين وغير مسلمين. إذ تقوم السلطة بمنع تحرر مواطنها من قيوده، وบمنع دخول فكر جديد إلى ذهنه. وبمنعه من إجراء محاكمة عقلية للقضية الفكرية بمجملها، أي أن السلطة الحاكمة تريد إخضاع وختوع مواطنها لكلّ ماتملئه هي عليه من إرادة. ولعلّ أهم ما تريده إبقاءه في مواطنها هو المسيحية التي تم تغريتها بالكامل من كافة المعاني الدينية والمسيحية الأخرى التي تم تحويلها عقائد يهودية صهيونية. فأصبحت هذه مسيحية خرافية وأسطورية. بل وتسمى بالمسيحية الصهيونية. وفي هذه المرة اكتشف المواطن الأوروبي أسرار وأخطار لعبة التضليل التي تمارس عليه. فقد رأينا مظاهرات الاحتجاج في أوروبا وأمريكا ترفض خضوع الحكام للسياسة الصهيونية. وتطالب بوقف أعمال العداء ضد العراق وأفغانستان. وترفض مرات عديدة جرائم الصهاينة التي تمارس ضد العرب والمسلمين في المنطقة. فالصراع في الغرب إنما هو في حقيقته صراع حكام الغرب مع شعوبهم، وفي خضمّ هذا الصراع لم يكن أمام الغربي إلا منفذ واحد للنور الساطع والنور المنقد الذي يمكنه التعلق به ويأتي هذا النور من الإسلام نفسه. فشعوب العالم الإسلامي تتلقى باستمرار نداء الحرية من اليمونة الغربية، وهذا النداء التحرري هو نفسه نداء الأوروبي للتحرر من الحكم المسلط عليه. وبينما يقوم الأوروبي بالتعرف على مشكلة الشعوب الإسلامية مع حكام الغرب فإنه يكتشف حقيقة عنصرية السلطة الحاكمة في الغرب. ويتعرف على عقيدة المسلمين وعلى تاريخهم الطويل في

التسامح مع الآخر وفي احتواء الآخر وجعله من ضمن الكيان الإسلامي. وهذا التعرف على الإسلام هو الذي يجعل أبناء الغرب يتعاطفون مع المسلمين ويتمّنون عن إبادتهم في أي يوم من الأيام، بل ويجعلهم متذمّرين ليدخلوا في دين الإسلام أفواجاً. إن الصراع الذي يجعله حكام الغرب صراعاً إسلامياً مسيحياً إنما هو في حقيقته خشية حكام الغرب من تتوير شعوبهم بهدي الإسلام. أي أنه صراع حكام الغرب مع شعوبهم.

ذریعة: الحرب ضد الإرهاب

يشكل القضاء على الإرهاب الجهادي هدفاً مهماً مشتركاً للبلدان الإسلامية والغربية ورغم أن التعاون بهذا الخصوص ليس سهلاً على الدوام فإنه يبقى مطلوباً جداً. إن آلية عمليات جديدة ضد الغرب ستتهوي بصورة الإسلام في الغرب وتؤدي زيادة على ذلك إلى موجة خوف من الإسلام تعقد المساعي - التي تبقى مطلوبة - لدمج المسلمين الأوروبيين.

ومن هنا فال موضوع إذن يصعب استشرافه، إذ يعود أكثر إلى مهارة الأمن في إحباط عمليات معينة. ومهما يكن فيمكن التفاؤل - بحذر- لسبعين: أولاً، من المؤكد أن تأثيرات العمليات الإرهابية ضد الغرب تتجه إلى أن تصير أخف لأن المحاولات باتت أقل ولأنها تحبط غالباً. ثانياً: يبدو أن تأييد الشعوب للإرهاب الجهادي هو في طور التناقض.

محاولة إدماج المسلمين في المجتمع الغربي

في هذا السيناريو المحتمل، وهو الأكثر مداعاة للابتهاج عند الأوروبيين جمعياً، بمن فيهم المسلمين، يتوصل الأوروبيون الأصليون والمهاجرون المسلمين إلى التوافق على طريقة للعيش معاً، ويتعايشون مجتمعين في انسجام ووئام تام.

ويعرض الأوروبيون فكرة الإدماج على أنها الرؤية المتفائلة للمسلمين. وتقول دراسة صدرت سنة ١٩٩١ في "فرنسا، فرصة للإسلام" أنجزها كل من "جان-هيلين" و"بيير باتريك كالتينباش". تقول الدراسة: "الأول مرة في التاريخ، تمنح للإسلام فرصة أن "يستيقظ" في بلد ديمقراطي، غني، لائقكي، ومسالم". وهذا الأمل لا زال يجد له دعاء يواصلونه"

لعله من الواضح أن ما يطلق عليه في الغرب مشروع إدماج المسلمين هو في حقيقته محاولة لجعل المسلمين يتخلون عن شيء اسمه ثقافة وفكر وانتماء. وهذا يعني الإسلام. وهو التخلّي الذي لا يمكن أن يحدث لأي مسلم عادة. فيصبح الإدماج خديعة لل المسلمين تعني إرغامهم على التخلّي عن الدين الإسلامي. وضمن هذا السياق لينجح الغرب في محاولة الإدماج كلها. كان على الغرب أن يبدأ بتلك المحاولات منذ عقود وأن يصل في نتيجتها لقناعة بفشل محاولاته. واليوم سبق السيف العذل. وأمام ظاهرة المد الإسلامي الكبير في الغرب بات من الواجب أن يتّأسى الغرب فكرة الإدماج بكاملها.

أطروحة لدمج المسلمين الأوروبيين

يمكن أن يساهم المسلمون الأوروبيون، الذين ينتمون إلى العالمين في آن واحد، في مد الجسور بينهما لكن يكمن الخطر في اتجاه أقلية منهم إلى التشدد والعنف وهو ما يعرقل اندماجهم ويوفّر محضناً للإرهاب. ولا بد من بذل مجهود يجمع ثلاثة عناصر لتحقيق هذا الدمج المتوازن:

أولاً: الدفاع عن قيم الحرية بما في ذلك التأكيد على حرية النساء المسلمات في أن يقررن بأنفسهن دون أي ضغط ذكري، وأيضاً حرية الرأي الكاملة التي دافع عنها البعض بقليل من الحماس أشاء أزمة الرسوم الدانماركية.

ثانياً: تحسين وضع المسلمين من حيث العمل والتعليم والوضع المعيشي. وتحسين صورتهم في الإعلام من أجل تجنب أن يتحول الانتقام الديني إلى عائق عن الصعود الاجتماعي.

ثالثاً: المجهود القانوني والأمني من أجل استئصال أي محاولة إرهابية تطال المسلمين. وهذه الاعتداءات قائمة بالفعل، ويمكن تحاشي تصاعدها.

إن الصعوبات الموجودة اليوم في هذه العلاقات تعود في جزء مهم منها إلى مشاعر الاستياء لدى المسلمين الذين يحملون في الغالب الغرب المسؤولية عمّا يتعرضون له من مشاكل. ويتجه أن يكون تشجيع التفاهم والتعاون بين العالمين هماً مشتركةً وحقيقة نافذة.

دراسات حول الإنماط الثقافي

قام مركز "بيو" لأبحاث الشعوب والنشر بمسح كبير للاتجاهات في ربيع ٢٠٠٦، عنوان المسح "الانقسام الكبير: كيف يرى الغربيون والمسلمون بعضهم بعضاً"، وتم فيه مقابلة مسلمين من مجموعتين من البلدان: ستة بلدان أغلبية سكانها منذ زمن بعيد من المسلمين (مصر واندونيسيا والأردن ونيجيريا وباكستان وتركيا)، وأربعة بلدان في أوروبا الغربية يمثل المسلمون فيها أقلية حديثة العهد (فرنسا وألمانيا وبريطانيا وأسبانيا).

الفصل السادس

الانبعاث العربي بأوروبا

الانبهار بأوروبا مرضٌ حقيقيٌ

انبهار العرب بأوروبا الغريبة حالة مرضية حقيقة تلمسها في مجتمعاتنا رغم توعها. فالغبي والفقير والموظف والوزير والمتدين وغير المتدين كلهم ينبهرون بالغرب. والمجتمع العربي يمنع ميزات تفوق للفرد الذي زار أوروبا أو عاش فيها أو تزوج من أوروبية. كما يمنع ميزات الشخص الذي يتعامل مع الغربيين. كموظفو سفارة أو مترجم لدى شركة غريبة. وحالات اغتيال هؤلاء الموظفين والترجميين في العراق تدل على اعتقاد المتطرفين بتميزهم.

وكلنا نافق على تمييز خبر عادي فنقول مثلاً: قتل في العراق أوروبي وجرح بريطاني. فهذا الخبر يجعله مهما أكثر من آخر يقول قتل في العراق عشرة مدنيين. كما اعتاد مجتمعنا على أن يثق بكل ما هو غربي ف遑ل عن كاتب أو صحفي غربي ونهتم بقوله وبحديثه أكثر من اهتمامنا بحديث لعربي آخر حتى لو كان يفوقه قدرة ومعرفة.

هذا الانبهار بالغرب هو أحد أشكال عقدة تارixinنا في الغرب الذي كان مبهراً بحسب التصور الدارج. وهو انبهار مرضي. وتلمس مرضيته في ظاهرة الانتحارية في الوصول إلى الغرب.

mafias تهجير المسلمين

كثرت مafias تهجير البشر وأصبحت الرابح الوحيد من مجلمل هذه الأوضاع المعقدة، والتي غالباً ما تتهيى مسؤوليتها عن المهاجر في إلقائه عند أقرب شاطئ أوروبي ترسو عليه قواربها المتهالكة إن وصلت.

ما فيا لبنانية

أما المافيا اللبنانيّة فهي تنشط تحديداً طبقاً للتقرير أيضاً في مناطق الجنوب والبقاع والشمال اللبناني، ومعظم زبائنه من الشباب الذين يعانون من البطالة، وغالباً ما تكون محطة اللاجئين الأكراد المركزية هي ألمانيا، بينما يتوجه اللاجئون السوريون إلى السويد بسبب تسهيلات تقدمها للكنيسة السريانية.

وتعتبر الحدود التشيكية الألمانية مكاناً مناسباً لعبور المتسلين العرب ليلاً بمساعدة دليل تشيكى أو فيتامي يعرف جيداً مسالك العبور الجبلي والنهرى، لكن كثيراً ما أدت هذه المسالك إلى كوارث راح ضحيتها متسللون لا يجيدون السباحة لاقوا حتفهم أثناء عبور النهر، أو متسللون قضوا بسبب برودة الطقس في فصل الشتاء، وبعض خسر بعض أطرافه بسبب الثلج والجليد.

والخطير في موضوع مافيا التهريب اللبناني ضياع جوازات سفر اللبنانيين الذين يضطرون إلى تسليمها إلى المafيات الروسية والتشيكية قبل دخول أوروبا.

ما فيا روسية

نشرت مجلة "دير شبيجل" الألمانية تقريراً تلقته الحكومة من جهاز مخابراتها يفيد بأنّ طالبي اللجوء باتوا يتسللون إلى ألمانيا عبر دول الاتحاد الأوروبي، والذين يقومون بيايصالهم إلى ألمانيا هم رجال المافيا الروسية الذين باتوا يتمتعون بأساليب مبتكرة لتهريب البشر إلى الدول الأوروبيّة.

ويقدر التقرير أرباح تجارة تهريب البشر إلى أوروبا بخمسة مليارات دولار سنوياً، يذهب نصفها تقريباً لصالح المافيا الفيتامية التي برعـت هي الأخرى في تهريب البشر حسب التقرير الألماني، وتخصصت هذه المافيا في تهريب الناقمين على الدول الشيوعية والاشترافية في آسيا، ومنها الصين وغيرها، حيث يجري تهريب الصينيين إلى دول مثل النرويج والسويد والدانمارك وفنلندا وغيرها من الدول. ويشير تقرير الاستخبارات الألمانية إلى وسائل قاسية ودموية تستخدمها المafيات

الدولية في عمليات تهريب البشر إلى أوروبا، مما يؤدي في أحيان كثيرة إلى خسائر في الأرواح من قبيل غرق السفن التي تستخدم في نقل اللاجئين حيث تقوم المafيات الروسية على سبيل المثال بشراء سفن متهالكة تحتاج إلى صيانة وتهرب فيها البشر إلى شواطئ الدانمارك والنرويج، حيث مات المئات في البحار القاسية البرودة قبل وصولهم إلى موقع اللجوء، وحسب الدوائر الأمنية الأوروبية التي تعمل على ملاحقة مهربى البشر فإن المافيا الروسية تقوم بتهريب مليون لاجئ إلى دول أوروبا الغربية. ورغم القيود الأمنية الصعبة التي وضعتها الشرطة في العديد من الدول الأوروبية لمنع الهجرة إليها إلا أن مافيا التهريب نجحت في اختراق العديد من الخطط الأمنية وتحديداً بعد إلغاء الحدود بين الدول الأوروبية.

ويملك رجال مافيا التهريب أجهزة حديثة ومتطرفة لطبع الجوازات الأوروبية وتزييرها وطباعة التأشيرات، وهم الذين يحددون الطريق التي يجب أن يسلكها اللاجئون، فإذا كانت الحراسة مشددة في المطارات لجأوا إلى الحدود البرية واستخدام شاحنات خاصة في تهريب البشر، وإذا كانت الحراسة في الحدود البرية مكثفة، لجأ المهربيون إلى البحر حيث السفن القديمة التي يفرق معظمها، وقد أحصت مفوضية شؤون اللاجئين التابعة لجمعية الأمم المتحدة آلاف الضحايا في وسط البحار من بينهم نساء حوامل وأطفال، كما حدث في الدانمارك وإيطاليا.

مافيا مخربية

الخط الثاني الذي يسلكه المهاجرون المسلمين هو الذي يمر عبر شمال إفريقيا والشرق الأوسط عبر مراكزين رئيسيين هما المغرب ولبنان.

المهربون المغاربة أقاموا قاعدة لهم في المغرب لتهريب البشر إلى إسبانيا وبقية الدول الأوروبية عبر مضيق جبل طارق، ويتم التهريب من المغرب إلى الشواطئ الإسبانية بقارب متهالكة، وطالبو اللجوء السياسي والاقتصادي عبر هذا الخط هم من بلدان شمال وغرب إفريقيا.

وقد مات عبر مضيق جبل طارق مئات الفارين من بلادهم، كما أنَّ الكثير منهم تمَّ اعتقالهم من قبل شرطة الشواطئ الإسبانية، ويعمد الوافدون إلى إسبانيا إلى التسلل منها إلى بقية الدول الأوروبية كفرنسا وإيطاليا وألمانيا. ومن المعروف أنَّ الحكومات الأوروبية قد سنت قوانين تسمح لها بإبادة هؤلاء المحاولين الدخول إلى أوروبا بطريقة غير شرعية. ويتم إغراق مراكبهم في عرض البحر ثم تكاسل سلطات الطواريء في البحث عن الناجين. وقد تكررت هذه الأحداث عشرات المرات.

قوارب الموت والاتجار

كلما تسمع عزيزي القارئ عن غرق مركب يحمل مهاجرين غير شرعيين تأكُّد بأنه قد تم تدميره وإبادة من فيه من المسلمين. وتأكُّد بأن ذلك القتل المعمَّد يأتي في سياق منع الإسلام من التسلل إلى الغرب بل وفي سياق مشروع إبادة المسلمين، إذ من الجائز أن يفرق مركب من عشرة مراكب ومن غير المحتمل أن تفرق كافة المراكب التي تحاول عبور مضيق جبل طارق ذي المسافة القصيرة. وقد كانت مثل هذه المراكب تقل بهدوء عشرات العرب والمسلمين إلى الشواطئ الأوروبية دون أن تواجه مصاعب وغرقاً. وهنا نتعرف على واحدة من قصص المهاجرين المسلمين المندفعين نحو أوروبا. والتي تبين مدى عظمة حلم هؤلاء في الوصول إلى أوروبا. كما ونلاحظ تنويع طرق العبور وأساليب المتاجرة بأحلام هؤلاء. فقد جاء إبراهيم وبدراء من السنغال إلى موريتانيا يراودهما حلم بالهجرة إلى ما يعتقدان أنه الفردوس الأوروبي.

فبعد تشديد إجراءات الأمن والرقابة على الحدود المغربية وإبرام اتفاقيات التعاون الأمني مع إسبانيا اتجهت أنظار المهاجرين السريين إلى موريتانيا، وإلى مدينة نواذيبو الساحلية في أقصى الشمال الغربي على وجه الدقة، كطريق بديل يخضع لرقابة حدودية أخف نسبياً، لإبحار قواربهم المتهالكة نحو جزر الكناري الأسبانية. ويتدفق الشباب الأفريقي إلى نواذيبو للإقامة في أحياط و المجتمعات بعينها، حتى أن هناك حيًّا يدعى أكرا، وهو اسم عاصمة غانا، ويقطنه عدد كبير من غانا ومالي والسنغال.

هؤلاء لم يأتوا إلى موريتانيا باعتبارها محطة انتقالية نحو إسبانيا فقط، وإنما أيضاً سعياً وراء حياة أفضل وهربياً من ظروف معيشية قاسية.

ابراهيم وبادرا، وهما شقيقان يبلغان من العمر ثمانية وعشرين وتسعة وعشرين عاماً، هاجرا إلى موريتانيا قبل سنوات ليعيشا معاً في أحد الأحياء الفقيرة في نواديyo، حيث يعملان في الصيد في موسمه وفي ورش إصلاح السيارات، وذلك للإنفاق على أسرتهما في السنغال وتوفير المال للهجرة إلى إسبانيا عندما تحين الفرصة.

ويتحدث ابراهيم عن الرغبة بالهجرة ويقول: عندما أتينا إلى هنا لم نجد عملاً لأنه لم يكن هناك أحد يعرفنا أو يثق بنا، فاعتمدنا على المبلغ الذي كان معنا في تدبير السكن والأكل، وعندما نفد المال جاءت أيام لم نجد فيها ما نأكله.

أول ما جئنا لم نكن نفكّر كثيراً في الهجرة لأوروبا، لكن بعد أن أقمنا مع مجموعة تحضر للهجرة لاسبانيا أقنعونا بمحاولة توفير المال لدفعه للمهرب، وعندما عملنا لم نستطع توفير شيء بعد دفع إيجار السكن والمصاريف اليومية، ولذا ننتظر فرصة أفضل وقد يستغرق الأمر عشر سنوات لتوفير الاموال المطلوبة لرحلة أوروبا.

فعندما أردنا الذهاب لأوروبا جدي الذي يعيش في الولايات المتحدة أرسل لي المال وأمي أيضاً أرسلت لإبراهيم مبلغاً.

فما هي الأسباب التي دفعت أسرة إبراهيم وبادرا وغيرها من الأسر لذلك رغم المخاطر واحتمال موت أحبابهم غرقاً؟

يقول ابراهيم: "نعم تعلم أسرتنا المخاطر، لكن الظروف المعيشية في بلدنا صعبة للغاية حيث يمكن أن تعمل عملاً شاقاً وتكون المحصلة ضعيفة، لكن ليس أمامك سوى الاستمرار في العمل وإلا نموت من الجوع والبرد، وثانياً نحن نعمل أصلاً في البحر طوال الوقت والموت بيد الله في الطائرة أو السيارة أو البحر.

تحقيقات على المهاجرين المسلمين

منذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر وانتشار "الإسلاموفوبيا" وتصاعد هاجس الأمن لدى أوروبا اتبعت أوروبا سياسات مضادة للمهاجرين لم تكن تتبعها من قبل وأصبحت سياساتها أقرب لليمين في النظرة للقادمين الجدد، وموافقها أكثر ميلاً للتعامل بعنف معهم. يقول توم جينكينز، كبير مستشاري مؤتمر اتحاد نقابات أوروبا: "اعتقد أن بعض الحكومات تتصرف كرد فعل لليمين المتطرف في بعض البلدان، وبالتالي تعمد لايظهار نفسها أكثر تشدداً إزاء الهجرة" غير أن الواقع أن الناس سيهاجرون، ومن الأفضل أن يهاجروا بشكل قانوني حتى يمكن تطبيق معايير مناسبة عليهم".

ورغم أن معاهدة توسيع الاتحاد الأوروبي أعلنت التزامها بمواثيق حقوق الإنسان فيما يخص التعامل مع اللاجئ إلا أن المعاهدة منحت الأعضاء الحاليين بالاتحاد حق تحرير أسواق العمالة لديهم بالكامل أو فرض ما يرونه من قيود عليها حتى سبع سنوات قادمة، وهي الفترة الكافية لإفراغ أوروبا من غير المرغوب فيهم، خاصة إن كانوا مسلمين، واتباع إجراءات أشد عنفاً لمنع الهجرة إليها.

هذا الخوف الشديد من الإسلام (الإسلاموفوبيا) جعل دولة مثل اليونان لا تمنح تأشيرة دخول للأبيان المسلمين إلا بعد تغيير اسمائهم التي تدلّ على أنهم مسلمين. كاسم محمد ومجموعة الأسماء التي تبدأ بـ"ع بد". أما الإيطاليون فيفضلون هجرة الكاثوليك من دول البلقان إليها بدلاً من المسلمين.

مسلمو أوروبا الفقراء

تشغلنا بشكل أخص الظاهرة - القليلة دون شك - المتمثلة في كون المسلمين مقيمين في أوروبا وأحياناً مولودين فيها ينضمون إلى شبكات الإرهاب الجهادي كما نرى باستمرار. ولابد من البحث عن الدافع إلى التشدد في الشعور بالانتقام للمجتمع الأوروبي. فـ ٣٧٪ من المسلمين الفرنسيين و ٢٨٪ من البريطانيين و ٢٥٪ من

الأسبان و١٩٪ من الألمان يصرحون، بحسب استبيان مركز (PEW) عام ٢٠٠٦، بأنهم تعرضوا لتجارب شخصية من الاعتداء عليهم بسبب كونهم مسلمين. من جانب آخر فإن أغلبهم يشعرون بكونهم مسلمين قبل أن يكونوا مواطنين لبلدانهم باستثناء حالة فرنسا حيث يشعر ٤٦٪ منهم بأنهم فرنسيون قبل كل شيء مقابل ٤٢٪ يشعرون بأنهم مسلمون قبل كل شيء. وينضاف إلى كل ذلك كون المسلمين الأوروبيين -الذين ينتمي أغلبهم إلى الموجات المهاجرة والتي لا تحوي خبرات مهمة- يعيشون مستوى اقتصادياً أضعف في المتوسط من المواطنين الآخرين. وبحسب تقرير للمرصد الأوروبي للعنصرية يعيش المسلمون في أحياء ظروف الإسكان فيها سيئة والمستوى الدراسي أخفض كما يتركز المسلمون في المهن الأضعف دخلاً ومن بينهم نسبة بطالة مرتفعة.

حاجة أوروبا للمهاجرين المسلمين

حسب معلومات المنظمة الدولية للهجرة فإن عدد من تمكّن من عبور الحدود الأوروبية بطرق غير قانونية يُقدّر بحوالي ٢٥٠ إلى ٣٠٠ ألف شخص سنوياً في فترة التسعينيات. وفي عام ٢٠٠٠ وحسب معلومات وكالة الغوث الدولية فقد زاد الرقم إلى ٣٩٠ ألف شخص بطلب لجوء إلى الدول الأوروبية، ومعظم تلك الطلبات كان في بريطانيا ثم ألمانيا. ووفق الإحصاءات الرسمية للاتحاد الأوروبي يبلغ عدد المهاجرين بطرق غير شرعية إلى أوروبا سنوياً ٤٠٠ ألف أجنبي معظمهم من أوروبا الشرقية، وفي إيطاليا يوجد قرابة ٥،١ مليون مهاجر، منهم ٤٠٠ ألف مسلم من شمال إفريقيا ومسلمي البلقان.

وفي فرنسا قرابة ١٠٠ ألف مهاجر غير شرعي سنوياً، من بينهم ٢٢٣٧٥ طالباً للجوء السياسي.

وفي إسبانيا حوالي ٧٥٠ ألف مهاجر غير شرعي من ٩٠ دولة وفي سويسرا التي تضم ثاني أكبر جالية ألبانية في أوروبا بعد ألمانيا ينتظر ٢٠٠ ألف مهاجر غير شرعي قرارات بقبولهم كلاجئين سياسيين.

ويحتاج الاتحاد الأوروبي إلى ١.٦ مليون مهاجر سنوياً ليحافظ على التوازن بين المواطنين العاملين والمتقاعدين. أما الآن فإنه يحتاج إلى ١٢.٥ مليون مهاجر لتسوية النقص الحاصل فيه من قبل. وقد كشفت صحيفة (الاتحاد الاشتراكي) المغربية الرسمية أن السلطات احتجزت نحو تسعهآلاف من المهاجرين غير الشرعيين باتجاه إسبانيا، منهم ٧٦٨٠ مغرياً والباقي من دول مختلفة مثل الجزائر ونيجيريا وأنجولا وليبيريا وموريتانيا وباكستان وبنجلاديش.

وان المبدأ الحاكم الذي تقوم عليه المعايير الدولية لحماية اللاجئين هو "حظر الطرد أو الرد" بمقتضى المادة ٢٣ من اتفاقية اللاجئين لعام ١٩٥١ ، التي تنص على أنه "لا يجوز لآلية دولة متعددة أن تطرد لاجئاً أو ترده بأي صورة من الصور إلى حدود الأقاليم التي تكون حياته أو حريته مهددتين فيها بسبب عرقه أو دينه أو جنسيته أو انتمائه إلى فئة اجتماعية معينة أو بسبب آرائه السياسية". وينطبق مبدأ "حظر الطرد أو الرد" على الإرجاع القسري المباشر إلى دولة معينة مثلاً ينطبق على الإجراءات غير المباشرة التي قد تؤدي في الواقع الحال إلى إرجاع اللاجيء إلى دولة قد تتعرض فيها حياته أو حريته للخطر.

الفصل السابع

الإسلام والغرب حوار أم اقتتال

كويبيا اللحم المكشوف في أستراليا

يكشف هذا التصريح لسلم غريبي عن الرغبة بالاقتتال والمواجهة مع الغرب وثقافته. فما زالت تتطرق تصريحات من المسلمين هنا وهناك تعبّر عن عقد جنسية يحملها البعض، ويعبر عن عقده بخطاب يسميه إسلامي. كما تدلّ مثل هذه التصريحات الغبية عن عدم تفهم المسلمين الغربيين للحضارة الغربية التي اختاروا هم بمحض إرادتهم الانتماء إليها. ففي العام ٢٠٠٦ وفي إحدى خطب الجمعة في مدينة سيدني الأسترالية تحدث الشیخ تاج الدين الهلالي عن الحجاب الإسلامي وشبه المرأة التي لا ترتدي الحجاب الإسلامي باللحم المكشوف الذي يجذب الكلاب الجائعة. وفسّر المعنيون الأستراليون تلك التصريحات بأنها تبرّر الاعتداء الجنسي على المرأة غير المتحجبة، وتدعو لاحتقارها وإذلالها. فتسبيبت تلك التصريحات في خلق أزمة كبيرة بين الجالية الإسلامية والسلطات الأسترالية. فقامت رابطة المسلمين اللبنانيين بطرده من عمله، وعممت على الخطباء الالتزام بالقوانين العامة في خطبهم وتصریحاتهم.

ولو كان هذا الخطيب يلقن علومه الحضارية هذه في آية مدينة عربية لما استطاع وصف النساء غير المحجبات بهذه الأوصاف، وإذا كان خطباء بلداننا أكثر اعتدالاً من أولئك المفترضين فما هي الأسباب التي تدعوهن إلى التمادي بالتطرف. والانصراف إلى معاداة العلمانية؟

الغرب يحاور ويواجه المسلمين

رغم أحداث التصادم بين الغرب والإسلام فإنَّ الحوار بين الغرب والإسلام ظلَّ قائماً باستمرار وما زال يأتي من كلا الطرفين ويعبر عن رغبتهما باستمراره ، ففى الأيام التي تلت هجمات الحادى عشر من سبتمبر، وكانت أصعب اللحظات في العلاقة بين الإسلام والغرب، عقد جورج بوش الصفير اجتماعاً مع زعماء الجماعات

الإسلامية في البيت الأبيض. وبرزت يومها إمكانية فتح حوار مفيد لكلا الطرفين. وفي ذلك اليوم قال الشيخ حمزة يوسف:

إن الإسلام هو الذي اغتيل في قصف تلك الأبراج. كما قدم الرئيس لضيوفه غصناً من الزيتون تعبيراً عن الرغبة بالحوار والسلام. ثم اجتمع الرئيس بوش مع القادة الأميركيين المسلمين في أول حفل إفطار يحضره رئيس غربي مع الجالية المسلمة. وتبادلوا كلمات الغزل التي تعبّر عن الرغبة بالحوار والتفاهم. لكن ذلك الحوار لم يستمر، فاتجه الطرفان بعد ذلك إلى تبادل الاتهامات، فيما قامت الولايات المتحدة باحتلال أفغانستان والعراق، وبدأت بتهديد سورية وإيران، وطوال تلك السنوات، ظلت الشرطة الأمريكية تلاحق وتعتقل المسلمين الأبرياء داخل أراضيها وخارجها.

فالغرب ماض في سياسة مزدوجة فيها الحوار وفيها المواجهة مع المسلمين جميعاً. ومن شخصيات سياسية غربية مرموقة هناك تصدر انتقادات قذرة للإسلام والأهل، وبينفس الوقت تصدر اعتذارات وتعبير عن الرغبة بالحوار، فالرئيس الأميركي بوش يعلن ذات يوم بأنها حرب صليبية على المسلمين. ثم يعتذر ويستبدل عبارته. وليس ذلك إلا تحابياً على المسلمين جميعاً.

مراقبة الثقافة الإسلامية في الغرب

يجري الأميركيون مراقبة دائمة وتحقيقات عن المناهج والمدارس الإسلامية في الولايات المتحدة كلها. ونشرت نتائج بعض التحقيقات على هذا النحو:

في مدينة نيويورك: كشف تحقيق من قبل نيويورك دايلي نيوز في ٢٠٠٣ عن أن الكتب التي يتم استخدامها في المدارس الإسلامية بالمدينة "تمتليء بالأخطاء وعدم الدقة، والأحكام المطلقة والشاملة بإدانة اليهود والمسيحيين، وأفكار وعبارات تدعو إلى الإيمان بتفوق وسلامة وصحة الإسلام بالمقارنة مع الأديان الأخرى.

وفي لوس أنجلوس: أهدت مؤسسة عمر بن الخطاب ٢٠٠ نسخة تحمل عنوان (معاني القرآن الكريم) إلى إدارة المنطقة التعليمية بالمدينة في عام ٢٠٠١، وخلال بضعة شهور تم جمعها من المكتبات المدرسية بسبب ما جاء فيها من شروح وتفسيرات معادية للسامية. تقول إحدى التفسيرات أو التعليقات الواردة في كتاب معاني القرآن الكريم: "يَدْعُونَ الْيَهُودَ فِي تَكْبِرٍ أَنْ قُلُوبِهِمْ انطوتُ عَلَى كُلِّ حُكْمَ اللَّهِ وَعِلْمِهِ. وَإِنْ إِدْعَاءِهِمْ هَذَا لَا يَشَهِدُ فَقْطًا عَلَى كُبْرِهِمْ وَغَطْرِسِهِمْ وَإِنَّمَا أَيْضًا عَلَى افْتَرَائِهِمْ وَكَذْبِهِمْ عَلَى اللَّهِ". ولأجل هذه العبارة ومثيلاتها تم سحب النسخ بкамلاً وحظر تداول الكتاب.

وفي أجاكس، أونتاريو: معهد التعليم الإسلامي هو الطبعة الكندية لمدارس دوستانى الباكستانية. يهتم المعهد بالأمور الدينية فقط، يلزم طلابه بحفظ القرآن، ويطالبهم بالانعزال والانفصال الكامل عن الحياة والثقافة الكندية، ويشرط الفصل الكامل بين الجنسين. وقد شكا طلابه السابقون من إخلاص وتفاني المدرسة لرئيسها، عبدالمجيد خان، بطريقة لا تراها إلا في جماعة دينية سرية، على حد قوله، ومدرسة الجالية الإسلامية في بيتموك، أم دي، تتهم بأنها تملأ طلابها بشعور من الانفصال والاغتراب عن بلد़هم. وأيّينا المراقب بهذه الأمثلة:

قالت ميريام بالصف السابع لراسل واشنطن بوست في ٢٠٠١، "كوني أمريكية لا يعني سوى أنتي ولدت في هذه البلد". وصرح إبراهيم في الصف الثامن أن "كوني أمريكياً لا يعني شيئاً بالنسبة لي".

وفي الأكاديمية السعودية الإسلامية باليجزان، ومنذ عام ٢٠٠٤، يحوي أحد كتب المناهج، وهو من تأليف ونشر وزارة التعليم السعودية، عبارة تقول: "كل الأديان، بخلاف الإسلام، هي أديان محرفة وضالة، بما فيها دين اليهود ودين المسيحيين". ولهذا السبب تم حظر تدرسيه.

مراقبة مهندس العلوم الإسلامية

قامت حكومة الولايات المتحدة في عام ٢٠٠٤ بإلغاء تأشيرات دخول ستة عشر شخصاً ينتسبون لمهد العلوم الإسلامية والعربية في أمريكا ، بفارفاس، " جاء ذلك عقب توجيهاته اتهامات للمهد ، الذي هو بمثابة معهد تابع لجامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض ومتصل بها عبر الأقمار الصناعية ، مضمون هذه الاتهامات هو أنه يقوم بالدعوة لنوع من الإسلام يرى النقاد أنه إسلام متشدد متغصب لا يتسامح ولا يتعايش مع غيره من صور المسيحية واليهودية ". فضلاً عن ذلك ، فقد وضع المعهد تحت التحقيق لشبهة وجود صلات له بالإرهاب.

الجيل الجديد أكثر تشديداً

نذكر هنا النتائج الرئيسية لاستطلاع رأي أجراه معهد بحثي يماني ، وهو معهد الم辯ات الأمنية في بريطانيا :

استطلع خلاله آراء عينة عشوائية شملت أكثر من ألف مسلم ومسلمة يعيشون في أنحاء مختلفة من بريطانيا وقد أثار الاستطلاع جدلاً ومخاوف في المجتمع البريطاني ، إذ كانت من ملامحه الرئيسية زيادة التشدد بين الشباب المسلم الذي يعيش في هذا البلد ، وأن الجيل الأحدث أكثر تشديداً من آبائهم:

٨٦٪ من المسلمين يشعرون أن الدين أهم شيء في حياتهم.

٣٦٪ من الشريحة العمرية بين ١٦ - ٢٤ عاماً يعتقدون بأنه ينبغي قتل من يتحول من الإسلام لاعتقاد دين آخر ، مقارنة بنسبة ١٩٪ بين من تتجاوز أعمارهم ٥٥ عاماً.

٦٢٪ من الشريحة ١٦ - ٢٤ عاماً يعتقدون أن المشترك بينهم وبين غير المسلمين مثله مثل ما يجمعهم ببقية المسلمين ، مقارنة بقاسم مشترك أكبر في الشريحة العمرية التي تتجاوز ٥٥ عاماً ، بلغ ٧١٪ .

٢٥٪ من المسلمين يفضلون إرسال أولئك إلى مدارس إسلامية.

- فيما يفضل ٦٠٪ إرسال أبنائهم إلى مدارس الدولة المختلطة.
- ٣٧٪ من الشريحة العمرية ١٦ - ٢٤ يفضلون إرسال أبنائهم إلى مدارس إسلامية، مقارنة بنسبة ١٩٪ بالنسبة للشريحة العمرية فوق ٥٥ عاماً.
- ٢٨٪ من المسلمين في بريطانيا يفضلون العيش تحت حكم الشريعة الإسلامية، بينما تفضل نسبة ٥٩٪ العيش تحت القانون البريطاني.
- ٢٧٪ في الشريحة العمرية الأصغر، ١٦ - ٢٤ عاماً، ترتفع النسبة لتصل إلى ٣٧٪ يفضلون العيش تحت حكم الشريعة، بينما النسبة للذين تتجاوز أعمارهم ٥٥ عاماً تبلغ ١٧٪.
- ٧٤٪ من الشريحة العمرية ١٦ - ٢٤ عاماً يفضلون أن تخatar المسلمات ارتداء الحجاب، مقارنة بنسبة ٢٨٪ فقط من الشريحة العمرية التي تتجاوز الخامسة والخمسين.
- ٢١٪ من المسلمين تناولوا مشروبات كحولية.
- ٦٥٪ لا يدفعون الفوائد على قروض الإسكان.
- ١٩٪ قاموا.
- ٩٪ اعترفوا بتعاطي مخدرات.
- ٧٪ معجبون بتنظيمات مثل القاعدة مستعدة لقتال الغرب.
- ترتفع النسبة إلى ١٣٪ في الشريحة بين ١٦ - ٢٤ عاماً من الشباب المسلم الذين يعيشون في بريطانيا.
- ٤١٪ من مجتمع المسلمين قالوا إن السياسة الخارجية قضية هامة للمسلمين ولكنهم لم يكونوا بالضرورة أكثر اطلاعاً على السياسة الخارجية أو أكثر انخراطاً فيها من المجتمع الأشمل.
- ٥٨٪ يعتقدون أن "الكثير من مشكلات العالم اليوم مر جمعها التوجهات الغربية المتغيرة".

٢٧٪ يعتقدون أن "أحد فوائد المجتمع الحديث هو حرية انتقاد الآراء الدينية والسياسية للآخرين، حتى إذا أخذ هذا على محمل الإساءة.

٢٨٪ من المسلمين يعتقدون أن السلطات في بريطانيا تبالغ في الحرеч على ألا يفسر أي شيء على أنه إساءة للمسلمين أو مساس بما يخصهم.

٧٥٪ يعتقدون أنه كان من الخطأ أن أحد المجالس البلدية حظر الإعلان عن ترانيم أعياد الميلاد في المنطقة في عام ٢٠٠٣ خشية أن يحدث ذلك توتراً.

٦٤٪ يعتقدون أنه كان من الخطأ أن يحظر أحد المجالس البلدية كافة أشكال ورسومات الخنازير من مكتابه.

نتائج ومحاني التقرير

من الملاحظ أن نتائج التقرير وإن كانت هنا تعتمد الدقة فلا يمكن الأخذ بها على أنها مسلمة نهائية. فقد تتضارب مع استطلاعات وتقارير ودراسات ميدانية أخرى. وهذا ما لمسناه بعد مراجعتنا لتقارير واستطلاعات غربية كثيرة.

ينصح التقرير السابق بضرورة التوقف عن التأكيد على الاختلاف وإشراك المسلمين كمواطنين، وليس انطلاقاً من هويتهم الدينية الإسلامية.

إدرك التقرير بأن "الجالية" المسلمة ليست على نمط ونسق واحد، وأن السعي لإعطاء حقوق أو تمثيل لجماعات بعينها لن يخدم إلا في فقد ثقة قطاعات من المجتمع بشكل أكثر.

ضرورة الكف عن معاملة المسلمين على أنهم مجموعة مهددة أو ضعيفة أو عرضة للخطر، وأن تضخيم فكرة الإسلاموفobia أو وجود "ظاهرة معاادة الإسلام" لا يجعل المسلمين يشعرون بالحماية بل بدلاً من ذلك يعزز أكثر الشعور بأنهم ضحية وبأنهم مفتريون عن بقية المجتمع.

تشجيع نقاش فكري أوسع أفقاً لتحدي الكراهية التبسيطية للغرب ولما هو بريطاني التي تهيمن على الحياة الثقافية والفكرية. ويعني هذا السماح بحرية التعبير والتناظر والبحث، حتى إذا اقتضى الأمر المساس بمشاعر بعض الأقليات.

أخذ الأمور بالمنظور السليم، فـ"هوس" السياسيين والإعلام بتسليط الضوء باستمرار على المسلمين، سواء باعتبارهم ضحايا أو إرهابيين محتملين، يعني أن المسلمين يتم النظر إليهم باعتبارهم غرباء، بدلاً من كونهم جزءاً من المجتمع.

فصل مدرسة بريطانية منقبة

أقالت مدرسة ابتدائية بريطانية مساعدة مدرسية مسلمة كانت قد أوقفت عن العمل لارتدائها النقاب.

وكان قد طلب من عائشة عزمي، خلع نقابها بعد أن قالت المدرسة إن التلاميذ وجدوا من الصعوبة فهم دروسها.

وقالت عزمي إنها مستعدة لكشف وجهها أمام التلاميذ، ولكن ليس في حضور زملائها من الرجال.

من الواضح جداً أن ارتداءها النقاب في إطار الصف المدرسي يعيق قدرتها على مساعدة التلاميذ وتدريسهم.

وقال رئيس الوزراء توني بلير إن النزاع حول النقاب جزء من جدل لازم حول طريقة اندماج المسلمين في المجتمع البريطاني وإن النقاب "علامة انفصال" يجعل الناس من خلقيات عرقية أخرى يشعرون بعدم الارتياح.

وقال وزير شؤون مجلس العموم، جاك سترو، إن ارتداء النقاب يجعل العلاقات بين الجماعات أكثر صعوبة.

خاتمي: أنتم بريطانيون أولاً

حث الرئيس الإيراني السابق محمد خاتمي المسلمين البريطانيين على إطاعة قوانين البلاد وتقبل واجباتهم كمواطنين .

وقال خاتمي خلال زيارة لبريطانيا إن البلد مهقة في خوفها من التطرف، لكنه اعتبر أيضاً أنها زادت من المشكلة من خلال تورطها في العراق.

وقال إن مهمته هي إزالة الحواجز بين الغرب والشرق.

وفي هذا السياق أكد أن المسلمين البريطانيين يجب أن يعلموا أن لا واجب دينياً عليهم بارتداء النقاب، لكنه لديهم الحق في ذلك.

وقال مخاطباً مسلمي بريطانيا: "أنتم بريطانيون أولاً".

الخلط بين الدين وظاهرة التطرف

يخلط الغرب على الدوام بين الفكر الإسلامي الذي هو إيمان وتدين واعتقاد دين سماوي، وبين ظاهرة التطرف الجهادي الإسلامي، وهذا الخلط قد ينبع عن سوء فهم للإسلام أو جهل به عند البعض. وقد يكون متعمداً أحياناً ويهدف إلى استبعاد الظاهرة الإسلامية كدين يغزو عقول الشباب الأوروبي. ولذلك تستخدم ذريعة الإرهاب المتطرف. وفي هذه الحال ينطلق الغرب من عدائته الموروثة للإسلام والمسلمين. فقد أصدر وزير التعليم العالي في بريطانيا بيل رامل دليلاً عملياً بشأن مواجهة الترويج "للتطرف باسم الإسلام". ويعتقد مسؤولون بوجود تهديد خطير بالرغم من أنه غير منتشر، للتطرف العنيف في الجامعات. وكانت "مديرية التعليم والموهاب" قد قررت أن الدليل ضروري بعد أن أجرت محادثات مع جامعات وطلاب المسلمين وأجهزة安منية.

ويقول رامل إن التهديد حقيقي وجدى إلا أنه لا يريد أن تقوم المؤسسات التعليمية بالتجسس على الطلاب. "الموضوع جدي وعلينا أن نواجهه ولكن الموضوع يتعلق أيضاً ببناء لحمة إجتماعية في جامعاتنا. الأمر يتعلق بالتحدث إليهم والاستماع إليهم

وإلى مخاوفهم والعمل مع الأغلبية الواسعة من الطلاب المسلمين وغير المسلمين الذين يناهضون التطرف".

أما خبير الاستخبارات والأمن البروفسور أنطونи غلبيز الذي نشر تقريراً العام الماضي حذر فيه من مخاطر تطرف الطلاب، فاعتبر أنه يجب تشديد التحريات على الطلاب الأجانب. "لا بدّ من مقابلة الطلاب لمعرفة صدقية التزامهم بالتحصيل العلمي".

وقيل إن زرع أفكار متشددة لدى الطلاب من قبل جماعات إسلامية يشكل مشكلة متفاقمة في بعض الجامعات. ومن المضحك أنَّ إحدى جامعات لندن عيّنت شيئاً إسلامياً معتدلاً لإبعاد عدد من الطلاب عن التطرف. إلا أن تكتل "جمعيات الطلاب المسلمين" يصرّ على أن التشدد ليس منتشرًا.

ويقول رئيس شؤون الطلاب فيصل هانجارا إنه يعتقد أن هذه الخطوة لن تكون مفيدة بشكل عام لأنها تهدف لتضخيم التهديد وإعطائه حجماً أكبر مما هو عليه. وأعرب عن قلقه من أن تبدأ الإدارات في الجامعات والمدارس بالبحث عن أمور ليست موجودة في الأصل.

واتهم ممثلو عن "اتحاد الجامعات والمدارس الثانوية" الحكومة بأنها تريد من الإدارات التعليمية أن تقوم بملحقة واضحاء الطلاب المسلمين.

تجربات طائفية في هولندا

قال هيرت فيلدرز، وهو سياسي ليبرالي سابق يقود حزباً يمينياً، إن المسلمين يجب أن يتخلصوا من نصف القرآن إذا أرادوا البقاء في هولندا، وأنه يحوي أشياء فظيعة، وأنه كان سيطراد رسول الإسلام إلى خارج البلاد لو كان حياً الآن". وأضاف إن حزبه السياسي يسعى لإغلاق حدود البلاد أمام المهاجرين المسلمين، وأنه لا ينبغي أن يتم افتتاح أية مساجد أو مدارس إسلامية في هولندا.

واعتذر متحدث باسم الوزارة وقال إن وزير الخارجية بورت أعرب عن أسفه بشأن آراء فيلدرز، وقال إن حكومة بلاده لا تشارك فيلدرز في توجهاته.

وفي هولندا أيضاً أعلن أحد زعماء الحزب المتطرف المعارض وهو برلناني عن دعوة حزبه لمنع تداول القرآن الكريم في هولندا كلها. وتأتي هذه التصريحات ضمن سلسلة محاولات غربية لوقف المد الإسلامي في الغرب كله.

تربيـة الغـربـيـ هـيـ السـبـبـ فـيـ نـقـهـ لـلـقـرـآنـ

إن تربية المواطن الغربي وإخافته من الإسلام ومن اعتقاده أو التعاطف معه هذه الأسباب جعلت المبدأ المنتشر في الغرب هو معاادة الإسلام والقرآن. وإن الكثير من المسلمين الذين تعاملوا وتحاوروا مع الغربيين يقولون إن المواطن الغربي يصل معه إلى نتيجة يقول فيها: **كلامكم يعجبني. وتعريف الإسلام يعجبني والحوار والتسامح والفكر الذي تعرضونه يعجبني بل ما أعظمته لكن**.!! أخشى أن أكون مخدوعاً. وأن يفتک المسلمون بنا. هذه الحالة هي حقيقة في الغرب وتعكس العقدة الغربية القديمة التي مازالت قائمة وهي عقدة الغرب من عودة المسلمين وكذلك عقدة الغربي من الإبادة التي سيتعرض لها إذا ما هو تحالف مع المسلمين. يقول المفكر الفرنسي هنري دو كاسترو: آيات لما سمعها عتبة بن ربيعة حار في جمالها، وكفى رفيع عبارتها لاقناع عمر بن الخطاب فآمن برب قائلها، وفاضت "عين نجاشي" الحبشه بالدموع لما تلا عليه جعفر بن أبي طالب سورة زكريا وما جاء في ولادة يحيى وصالح القدس أن هذا الكلام وكلام عيسى جاءا من مورد واحد. لكن نحن عشر الغربيين لا يسعنا أن نفقه معانى القرآن كما هي لمخالفته لأفكارنا ومخايرته لما ربيت عليه الأمم عندنا. غير أنه لا ينبغي أن يكون ذلك سبباً في معارضته تأثيره في عقول العرب). ثم كيف يعقل أن النبي **ألف** هذا الكتاب باللغة الفصحى مع أنها كانت في تلك الأزمان الوسطى كاللغة اللاتينية، وما كان يعقلها إلا القوم العالمون. ولو لم يكن في القرآن غير بهاء معانيه وجمال مبانيه لكفى بذلك أن يستولي على الأفكار وأخذ بمجامع القلوب."

الدين والعلمانية الفرنسية

فرنسا ليست البلد الغربي الوحيد الذي يصر على الفصل بين الكنيسة والدولة - غير أنها تدافع عن هذا الفصل بضراوة تفوق غيرها من الدول.

فالعلمانية في فرنسا هي أقرب مفهوم بديل لدى أذهان الفرنسيين عن "دين الدولة" وقد كانت وظلت من المبادئ الرئيسية للفكر التقدمي للبلاد منذ القرن الثامن عشر وحتى هذا اليوم، فإن أي شيء يشتم منه رائحة اعتراف رسمي من جانب الدولة، بدين ما - مثل السماح بالحجاب في مدارسها - يعد أمراً لا يقبله الكثير من الفرنسيين.

وحتى من يعارضون فرض حظر على الحجاب يعارضون ذلك تحت اسم صورة أكثر حداثة ومرونة من العلمانية الفرنسية.

ويمكن النظر إلى الإرث العلماني في فرنسا على أنه أثر جانبي للكاثوليكية الفرنسية، حيث طالما نظر التقدميون الفرنسيون إلى النبر الدينى على أنه عدو، وليس منبراً بين منابر التعبير، خلافاً للوضع في بعض البلدان البروتستانتية .

ومفكرو التویر الفرنسيون مثل فولتير وديدريو ومونتيسكيو نظروا إلى الدين على أنه عامل تفریق وإظلام وتعصب.

ثم جاءت الثورة الفرنسية لتجلب صداماً مباشراً بين الكنيسة والدولة، فقد صادرت الثورة أوقاف الكنيسة وجعلت رجال الدين يقسمون بالولاء للجمهورية الفرنسية .

وخلال الثورة وخلال فترة الإمبراطورية الفرنسية التي تلتها قاوم الفاتيكان النمط الجمهوري الذي كانت باريس تسعى لفرضه في أنحاء أوروبا.

وكان أن زحف الجيش الفرنسي على روما مرتين، مرة في ١٧٩٨ ومرة في ١٨٠٩، حيث اعتقل من رفض الانصياع من البابوات.

وتوصل نابليون بونابرت إلى درجة من التوافق مع الكنيسة، والتي أصبحت خاضعة لسلطة الدولة - وإن ثُركت وشأنها طالما اقتصرت على الأمور الروحية.

واستمر هذا النوع من الاتفاق، والذي عرف باسم الكونكوردا، لقرن من الزمان، وفي عام ١٩٠٥ ومع تجدد حركة التحفيز ضد رجال الدين، أعلنت الجمهورية الثالثة مرسوماً يقضى بالفصل بين الكنيسة والدولة.

يعنى قانون الفصل الحياد الصارم للدولة فيما يتعلق بالشؤون الدينية، فالدولة الفرنسية لا تسمح بالدعوة لأى دين في الأبنية العامة، وبالتالي يُكيد في مدارسها حيث يجري تدريس مواطni الغد.

وتضرب فكرة الإصرار على خلو المدارس من أي صبغة دينية بجذورها في لب مفهوم المواطنة الفرنسية.

وطالما اعترفت الجمهورية بالأفراد، وليس بجماعات؛ حيث يدين المواطن الفرنسي بولائه للأمة، وليس لديه هوية عرقية أو دينية رسمية أمام الدولة.

ورغم أن هذا الأمر اشتغل أحياناً، مثلما كان رعايا المستعمرات في يوم ما يلقنون أن أسلافهم كانوا من الغال - وهم الشعب الأصلي للفرنسيين - إلا أن هذا المنظور للمواطنة جامع مانع وغير تميّزي.

وفي هذا الإطار يتم النظر إلى الحظر على الرموز الدينية في المدارس، إذ يأتي اتفاقاً مع جذور أقدم للعلمانية الفرنسية.

وفي عام ١٩٣٧ أمر وزير التعليم آنذاك مدير المدارس بالإبقاء على كافة الرموز الدينية خارج مؤسسات التعليم.

وفي ذلك اليوم لم يثر هذا الأمر جدلاً، بل واجه معارضة واهنة وسط خضم مجتمع علماني دعم أمر الدولة بهذا الصدد.

وفي السبعينيات والستينيات بدأت حركة هجرات ضخمة من مستعمرات فرنسا في شمال أفريقيا مما دفع بتحدٍ جديد.

غير أن هذا لم يؤد إلى التشكيك في العلمانية الفرنسية، فالمهاجرون الأوائل لم يكن لديهم الرغبة في أن يجدوا في فرنسا التي قصدوها رجال الدين الذين خلفوهم وراءهم.

والكثيرون من هؤلاء المهاجرين القدامي يصدرون الآن حينما يجدون أولادهم يتبنون ممارسات إسلامية متحفظة، وهؤلاء تصدروا الدعوات المنادية بحظر الحجاب في المدارس.

غير أن الجيل الثاني والثالث الأصغر من المهاجرين يرون الأمور بشكل مختلف، فقد عاشوا في فرنسا ولم يعهدوا غيرها ، وعاشوا في مناطق محرومة داخلها، وبالنسبة للكثيرين فإن التشدد والحجاب يعتبران وسيلة للتعبير عن الغضب ولتأكيد هوية مختلفة .

ولا يعرف على وجه التحديد عدد الفرنسيين المسلمين، ويرجع أن الرقم الذي يتم تداوله كثيراً وهو خمسة ملايين مسلم مبالغ فيه. غير أن الانتخابات الأخيرة لمجالس تمثيلية تشير إلى أن المسلمين المتشددين المعادين للعلمانية يتحدثون بصوت أعلى من زعمائهم الأكبر سنًا والأكثر اعتدالاً.

وأمام هذا التحدي غير المسبوق بالنسبة لفرنسا ، وجدت المؤسسة الفرنسية نفسها منقسمة، فالتقليديون داخلها شددوا على ضرورة تمسك الجمهورية بالمبادئ العلمانية الآن تماماً كما كان في الماضي بوجه الملوك الذي حكموا بزعم الحق الإلهي في القرون السالفة.

ويقولون إن الحجاب على الأخص لا يمكن القبول به في المدارس لأنه يمثل وسيلة دعاية لصورة غير متسامحة من الإسلام ورمزاً لقمع النساء.

غير أن أنصار الحداثة على الجانب الآخر قالوا إن فرض الحظر لن يكون من شأنه إلا تقوية المتشددين، وأشاروا إلى أن مبادئ العلمانية ليست منقوشة على حجر ويمكن أن تقبل باستثناءات.

فعلى سبيل المثال أبقى إقليماً الألزاس واللوارين - اللذان كانا ضمن ألمانيا حينما تم فصل الكنيسة عن الدولة في عام 1905 - بنظام الكونكوردا الذي يسمح لرجال الدين بتلقي رواتب من الحكومة.

وقد ساد الكثير من التخبط فيما يتعلق بأمر الحجاب في المدارس، بين شد وجذب.

وفي عام ١٩٨٩ ألقت المحكمة الفرنسية العليا بثقلها وراء أنصار الحداثة، حيث حكمت بأن فرض حظر في المدارس على الإشارات الدينية "غير قانوني"، وهو الحكم الذي يظل سارياً حتى صدور مرسوم قانوني بخلاف ذلك.

غير أن المحكمة نفسها أقرت بإمكان طرد طالب أو طالبة لارتداء علامة دينية تصل إلى حد الدعوة إلى دين معين أو التبشير به.

وفي عام ١٩٩٤ قال وزير التعليم إن الرموز "البارزة التي تحمل علامة التقاهر" يمكن حظرها، وترك الأمر لتفسير مدير المدارس.

وأعرب الرئيس الفرنسي جاك شيراك عن دعمه لقرار بحظر الحجاب والقلنسوة اليهودية والصلبان الكبيرة في المدارس.

حوار أم اقتتال ؟

المجتمعات الغربية التي تمثل المواطن الغربي كلها قابلة للحوار وترحب به وتسعى له. ويتعنى على المسلمين بكافة كياناتهم العمل بكلفة الطرق لتمكن الحوار مع الغرب بصفته مجموعة مواطنين.

الأنظمة المزيفة الحاكمة في الغرب والتي تخدع مواطنيها تعيق الحوار مع المسلمين وتفرض مصالحها الخبيثة كنتائج للحوار. هذا ما يحدث اليوم، لكن حركة الإسلام داخل أوروبا ستفرض على أنظمة الغرب أن تحاور المسلمين بعقل سليم.

ويأتي نفوذ المسلمين وتطورهم كعامل قوة في الحوار مع الغرب. فإن إيران الثورية الإسلامية تفرض بقوتها وحكمة سياستها ومنطق قراراتها تفرض على حكام الغرب قبول القرار الإسلامي. وكذلك تركيا رئاسة حكومة وشعباً اختارت الإسلام العلماني الوعي والمحاور القوي. والتي تتسم بالديمقراطية تركيا الجديدة تعتبر عملاً رئيسياً ومهماً في فرض المحاورة السليمة والعادلة المنطقية مع الغرب وبنفس الوقت فهي عامل أساسى في مشروع أسلامة أوروبا.

يتعين على المسلمين أن يحدثوا شرخاً بين الغرب والصهيونية من جهة وبين الغرب والمسيحية من جهة أخرى. وهذا الشرخ موجود في حد ذاته على الصعيد الاجتماعي وهو يزداد باستمرار، لكنَّ الذراع الصهيونية تستمر في فرض سيطرتها على الكيان الغربي وتحاول باستمرار إيجاد مبررات ومسوغات جديدة تحمل أساليب وطرق اقتصادية تتجدد باستمرار وفق تجدد الحدث وتطوره. ولبيث المسلمين أيضاً عن فضاءات جديدة ويفكروا وجودهم فيها كدول الصين واليابان وروسيا وأفريقيا.

التجمع المكاني الطائفي للمسلمين الفرنسيين

انتبهت السلطات الفرنسية إلى خطر التجمع المكاني للمسلمين الفرنسيين، وانتهت سياسة جديدة ومشاريع تهدف لدمجهم الاجتماعي مع غير المسلمين. لكنَّ كافة هذه المحاولات لم تنجح حتى الآن، بل وتواجه برفض شديد من عامة المسلمين الفرنسيين وغير الفرنسيين. وهؤلاء يعتبرون الدمج منافياً للأخلاق والقيم الإسلامية. وقد فجرت احتجاجات أبناء الضواحي الفرنسية في مطلع ٢٠٠٧ أزمة تهدد النموذج المثالي الذي سعت فرنسا لتحقيقه والذي يهدف إلى تجميع مهاجرين من أصول وأعراق مختلفة من زوج ومهاجرين من شمال أفريقيا ومزجهم في المجتمع الفرنسي، والمؤسسات المسئولة عن عملية الدمج عديدة وتأتي المدرسة في المقام الأول.

في ظل الحفاظ على النموذج التجمعي لجميع الأعراق في فرنسا اهتمت الحكومة الفرنسية فيما مضى بانحصار هؤلاء المهاجرين في أحياء خاصة بهم. مما أدى إلى تكوين أحياء يمثل ٩٠٪ منها مواطنون من أصول مغربية وجزائرية وهذا بالطبع أدى بدوره إلى جعلهم جماعة مهمشة وغير معترف بها، وفي السنوات الأخيرة أعلنت مشاريع دمج اجتماعي لهؤلاء المسلمين.

ولعله من الضروري أن يندمج مسلمو الغرب في المجتمعات الغربية وأن لا يجتمعوا في أحياء خاصة بهم. فذلك التجمع المكاني يعيق تحاورهم مع الغرب المسيحي الذي يعيشون ضمنه ويلغي تماماً ميزة أنهم غرباء.

انكماش الفئات الإسلامية في الغرب

من الملاحظ أن الفئات الإسلامية في الغرب على اختلاف أنواعها تنكمش على نفسها وتعيش غرية عن المجتمع الغربي الذي هي جزء منه وغرية عن الحضارة التي هي تتنمي إليها. وتتعدد مظاهر هذا الانكماش، إذ نجد انكمashaً إسلامياً عاماً تجاه الغرب كله ، وانكمashaً سنياً جزئياً داخل الكيان الإسلامي المنكمش على بعضه أصلاً. وكذلك انكمashaً شيعياً وآخر اسماعيلياً وآخر إسلامياً كردياً، وبهذه الانكمashات والتقوّفات تعود إلى ذاكرتنا صراعات الممالك الإسلامية القديمة في أوروبا من ناحية، والانكمashات المذهبية والعرقية القائمة في البلدان العربية والإسلامية من ناحية أخرى.

يشعر المسلمون في الغرب بالقلق والخوف من المجتمع الغربي الذي هو كيانهم. أي أنهم ما زالوا يفصلون أنفسهم عنه رغم مرور السنين. ورغم ذلك فهم يشعرون بأن وجودهم مؤقت في تلك البلاد. ولا يعبر لهذا الخوف وللهذا القلق، لأنهم مواطنون كل المواطنة. إنهم لا يستطيعون الاندماج في تلك المجتمعات رغم أنهم هم الذين اختاروا الانضمام إليها. إنهم لا يقدرون على التعايش والتفاعل مع تلك المجتمعات رغم مرور السنين.

ويلاحظ أيضاً أن العرب المقيمين في الغرب يحافظون على انتتمائهم الأصلي بكل معاناته. فالسوري الفرنسي يعتقد بأن رئيسه هو السيد بشار الأسد وليس جاك شيرالك، والأشخاص الذين تزوجوا من أوروبيات يلتجؤون في آخر المطاف إلى تطبيقهم والتزوج من عربيات.

أزمة المسلمين في التحبير عن الهوية

بعد إقامة عمرها ربع قرن ومتابعة للتحصيل العلمي العالي رزق عربي بمولود جديد، فأطلق عليه اسم درويش. وعندما سأله عن السبب في اختيار هذا الاسم قال: "أرسلت لأبي أخيه بالمولود الجديد فأمرني بتسميته درويش على اسم أبو جده".

ومن هذا المثال نلاحظ الارتباط المتين بين الفرنسيين العرب وموطنهم الأصلي بل وعاداتهم وثقافاتهم التقليدية. وكثيرة جداً الأمثلة المشابهة التي تدلنا على تعلق المفترب العربي بثقافته الاجتماعية وعلى إصراره على نقل هذه الثقافة بعيوبها إلى موطنه الجديد. واللافت أيضاً أنَّ اسم درويش من حيث المعنى واللفظ والتقبل الاجتماعي العربي له يعتبر موجة قديمة باطلة، ومن النادر أن يسمى المواليد به في سوريا. فكيف يصبح مقبولاً عند فرنسي من أصل عربي ثقافته ربع قرن في أوروبا؟ أليسوا هناك يعيشون أزمة التعبير عن الهوية فيذهبون للتمسك بما يعتقدون بأنه الجذور العربية؟ لا يبالغون في التعبير عن تمسكهم بالجذور العربية؟ فيصبحون أكثر قدماً منا؟

نقلوا إلى الغرب المجتمع والعادات والموروث

رغم أن المجتمع العربي بخصوصياته ومشكلاته وفتنه الطائفية لايمثل الإسلام فإن العرب الأوروبيين يقومون باستيراد قوالب جاهزة من هذه المجتمعات العربية ويقيمونها كأسس لحيواتهم اليومية وكمناهج لواقعهم العامة المتعددة. إذ تم نقل التكتلات المذهبية والطائفية والعرقية، فنجد هناك تكتلاً كردياً وأخر سنياً وأخر إخوانياً وأخر شيعياً وتكتلاً للأثرياء وأخر للفقراء وتكتلاً لرجال السفارات الذين يمتلون السلطات في بلدانهم. ويتم نقل عظام الأمور وصفائرها، فصورة المسلم الذاهب إلى المسجد والذي يحرض على مشكلات تافهة كالثوب الأبيض وحمل السبحة والتسوك بالمسواك، هذه الصورة التي نراها في دمشق والقاهرة تم نقلها إلى باريس ولندن رغم تفاوتها. وبفضل هذا النقل الدائم والمستمر أصبحت التجمعات الإسلامية في أوروبا نسخاً مصغرة عن المجتمعات العربية، وهذا ما يعيق اندماجها في المجتمعات الغربية. ويعيق فهم المسلمين للغرب نفسه وينفس الوقت يعيق فهم الغرب للإسلام وال المسلمين الأوروبيين. ويصبح التمازج الاجتماعي حلمًا بعيد المنال. كما وأصبحت مشكلات المسلم اليومية هي نفسها مشكلات المسلم العربي، إذ لم يسع المسلم الغربي ولم يتمكن من ابتداع أفق إسلامي أوروبي جديد، ذلك الأفق الذي

كان يتوجب عليه أن يوجده منذ عقود ولم يستطع أيضاً أن يخلص من عيوب المجتمعات العربية. ولما كان الغرب يجري دراسات وأبحاثاً للتعرف على الإسلام ومن خلالها يريد التوصل لطريقة فهم المسلمين الأوروبيين، وبسبب عملية النقل الدائم من البلدان العربية إلى الغرب توجب على إدارات تلك الدول أن تجري دراسات لانهابها عن مشكلات المجتمع العربي.

الفحنه الإسلامي في أوروبا

ان عجز مسلمي أوروبا عن التمازج مع مجتمعاتهم الغربية وتخلفهم عنها جعلهم يجهدون في تشكيل فضاء إسلامي خاص بهم. ومن بين أشكال ذلك الفضاء سعيهم لتأسيس مدارس خاصة بالحالية الإسلامية، بحيث تقوم بتدريس العربية والدين الإسلامي وتحافظ على الانتقاء العربي والإسلامي للأبناء. ولعل من أهم ميزاتها أنها تسمح بارتداء المحاب الإسلامي للفتيات المسلمات. ورغم أن تلك المدارس تحقق هذه الإيجابيات الثلاث للمسلمين لكنها في الوقت نفسه ستعزلهم عن معاورة الأفراد الغربيين والتعايش معهم وتبادل التأثير فيما بينهم. وستكون عقبة في تطور أولئك التلاميذ وفي مجاراتهم للمجتمع الغربي ولخصائصه. ونعتقد أن ظاهرة المدارس العربية هذه تخالف المنطق الحضاري نفسه والذي لأجله اختار أولئك المسلمين الإقامة في دول الغرب. فهنا في دمشق نجد صورة عكسية لتلك، إذ يرسل أبناء الأحياء البعيدة عن المدينة أولادهم إلى مدارس في المدينة ليتمازجو مع أفراد متحضررين ومعلمين مميزين، ومن أشهر المدارس الدمشقية العربية تلك التي قام الفرنسيون بتأسيسها أيام الانتداب الفرنسي لسوريا. ففي هذه المدارس يختلط التلاميذ مع مواطنיהם المسيحيين ومعلميمهم الذين من بينهم رهبان وراهبات. ولا يجد المسلمون المتدينون حرجاً في ذلك أبداً. وأعتقد جازماً بأننا لو قمنا بنقل عائلة إسلامية تحرص في فرنسا على تسجيل أبنائها في مدارس عربية، لو قمنا بنقلها إلى دمشق لسعت بكل قوة لتسجيل أبنائها في المدارس الفرنسية الأصل في دمشق. وهنا صورة التناقض في تلك الشخصيات الإسلامية الفرنسية. إنهم هناك يبنون وجودهم

على أساس التميز الإسلامي. ويتمثل هذا التميز في التصدي للثقافات العقلانية والعلمانية الجديدة سواءً أكانت صادرة عن الغرب نفسه أو عن المسلمين المترورين.

ألمانيا ساحة إسلامية حقيقة

ألمانيا اليوم هي ساحة إسلامية حقيقة وفضاء إسلامي حقيقي، لقد جاء اليوم الذي نستطيع فيه أن نقول إن دولة غربية أصبحت فضاء إسلامياً.

فقد هاجر العرب والمسلمون بكثافة كبيرة إلى الألمانيتين بدءاً من النصف الثاني من القرن الماضي. وكانت الألمانيتين ترحبان بهجرتهم ويعود ذلك إلى أسباب سياسية وتاريخية كثيرة ترتبط بتاريخ ألمانيا الهاشمية المعادي للغرب. فقد تحالفت ألمانيا الشرقية مع الدول المعادية للصهيونية ولكيانها، وقامت بتصدير بعض الأسلحة إليها، واستقطبت المهاجرين الفلسطينيين والأكراد والسوريين وغيرهم. وفي زمن عبد الناصر المصري أمدت ألمانيا الغربية الجيش المصري بالأسلحة والخبرات لمواجهة الصهاينة. ونتج عن ذلك كله كثرة المسلمين الألمان الذين يتواجدون وأبنائهم أو أحفادهم في ألمانيا اليوم. ولهذا يكثر الجدل حول أسلمة ألمانيا في الدولة كلها. فتشاهده في الشوارع وفي المقاهي وتستطلعه بكثافة على صفحات الأنترنت. فهناك جناحان قويان بنسبة متساوية تقريباً. وهما المسلمون المتواجدون بقوة والذين يجرون على فرض قيمهم وعقائدهم والذين يقولون كلمتهم فتصل إلى السلطات وتأخذ بها أحياناً مضطراً أو متعاطفة. وهناك المسيحيون المتطرفون الذين يعملون بقوة على وقف التمدد الإسلامي في ألمانيا. وأمام ذلك المشهد يقف مسلمو العالم متفرجين وينتظرون ماسترول إليه تلك المعركة الثقافية الهاشة.

ولأن ألمانيا تختلف عن الغرب كصفة عامة لها، فالألمان يبدون اليوم أكثر إقبالاً على اعتناق الإسلام من أبناء الدول الغربية الأخرى.

المسلمون في ألمانيا

ينتشر الإسلام في ألمانيا أكبر منه في معظم دول أوروبا. وفي أيلول ٢٠٠٧ أعلن عن القبض على متطرفين إسلاميين هم من أصل ألماني مسيحي. وهذا ما أشغال ألمانيا كلها. فلم يعد التطرف الإسلامي يأتي من الخارج، بل أصبح ناجحاً أوروبياً. وما يعنينا من ذلك الحدث هو أسلمة الغربي.

تضطلع هيئة حماية الدستور برصد أنشطة المتطرفين، بما فيهم الجماعات الإسلامية. وتشير كلاوديا شميد، التي تدير فرع الهيئة في برلين، سبب اعتبار الإسلاميين الذين لا ينتهيون العنف مبعث تهديد. وتقول " بإمكان هذه الجماعات أن تراوِل أنشطتها وتُروِّج لأفكارها، ولكن لا ينبغي عليها أن تتوقع أن تتلقى أموالاً من الدولة إذا كانت تسعى لتدمر اللبنات الأساسية والأصلية لدستورنا. وترافق هيئة حماية الدستور الألماني - التابعة لوزارة الداخلية الألمانية - عن كثب الجماعات الإسلامية مثل الإخوان المسلمين ونظيرتها التركية المعروفة باسم ملي غوروش. والانتفاء إلى تلك الجماعات أو الاتصال بها قد يعرض الشخص لعدم الحصول على الجنسية الألمانية وعدم الحصول على الدعم الحكومي. فالمواطنة المسلمة التي تعمل في أوقات فراغها كمتطوعة مع مجموعة شبابية إسلامية. ولأن تلك المجموعة تعمل مع جماعات عربية وتركية للإسلاميين، فقد تم حرمانها من التمويل الحكومي.

تطور العلاقة بين الكنيسة البروتستانتية والجالية المسلمة في ألمانيا

لا توجد جالية دينية في ألمانيا تتصل بكل صراحة ووضوح من العنف الناتج عن بواعث دينية مثل الجالية الإسلامية. وبالرغم من ذلك لا يزال رئيس الكنيسة في ألمانيا الأسقف فولفغانغ هوبير يطالب المسلمين بالتحول من العنف، وكان آخر ذلك في ختام مؤتمر الكنائس البروتستانتية في تشرين الثاني ٢٠٠٧.

وفي المؤتمر الصحفي الختامي قال رئيس الكنيسة إن التسامح لا يؤدي شماره لأن الفروق الحقيقة لن تظهر في الحوار كما هو الحال في قصة الخواتم الثلاثة

المتطابقة في الشكل في قصة "ناتان الحكم" للكاتب ليسنخ. وشدد الأسقف هوبر بالطلب على أن تظهر الكنيسة " بصورة خاصة" تميزها بوضوح عن الديانات الأخرى، وهو يقصد بذلك الإسلام.

ويتسائل الأسقف هوبر: هل يفتقر الحوار الإسلامي المسيحي إلى الموضوعات أم أنه في مأزق لا مخرج منه؟

في الحقيقة هناك توتر في الحوار الإسلامي البروتستانتي، وصارت القوى المعتدلة من الجانبين دون أهمية في الوقت الحاضر.

وهذا الوضع لا يساعد على خلق ثقة متبادلة. وهذه الثقة ضرورية لمناقشة المسائل الحرجة بالفعل. أضف إلى ذلك أن المسلمين غالباً ما يُظهرون فقط الجانب الحسن للديانة الإسلامية أثناء حوارهم مع المسيحيين.

قال رئيس الفيدرالية البروتستانتية في فرنسا جون أرنولد دي كليرمون أشاء أحدى المؤتمرات الإسلامية المسيحية في باريس إنه إذا ما أردنا مستقبلاً إسلامياً مسيحياً فلا بد من مواصلة الحوار الأوروبي بين المسلمين والمسيحيين. وأثناء هذا المؤتمر الألماني الفرنسي أيد نائب رئيس الكنيسة البروتستانتية في منطقة راين لاند، القس كريستيان، هذا الرأي دون أي تحفظات.

ولكن إلى أي اتجاه ينبغي أن تسير الجهد من أجل الحوار في المستقبل؟ هل نبقى على نفس المنهاج؟ إنه حقاً لن يكون من الحكمة بمكان.

جماعة "مالي غوروش" الإسلامية في ألمانيا

ينتمي إلى الجمعية أكثر من ستة وعشرين ألف عضو أغلبهم من أصول تركية، وبذلك تعتبر ثاني أكبر منظمة إسلامية في ألمانيا. ولها تأثير لا يُستهان به على عدة مساجد من خلال أعمالها الشبابية. وقد أسسها نجم الدين أربكان السياسي التركي المعروف بحكمته. وتم تصنيف "مالي غوروش" من قبل سلطات

الأمن الألماني على أنها جمعية متشددة، بيد أنها تعتبر نفسها ذات اتجاه وسطي تمارس الحوار.

تحدث دائرة حماية الدستور الألماني عن الجمعية ووجهت إليها اتهامات عديدة فقد ورد في التقرير الأخير لها:

إن مجموعات مثل "جمعية ميللي غوروش الإسلامية" تطالب بـ"إقامة وتوسيع الأوساط الإسلامية في ألمانيا"،

بالنسبة لحركة "ميللي غوروش" فإن الإسلام يفهم كنظام سياسي واجتماعي شامل يلغى التصورات الأخرى، صحيح أن الجمعية تؤيد عليناً اندماج المسلمين في ألمانيا، ولكنها تُعثر جهود الدولة في هذا المجال من خلال دفعه على أنه ذوباناً وليس اندماجاً.

وتتفى الجمعية عن نفسها تصنيف السلطات الألمانية لها على أنها منظمة "إسلاموية". ويتساءل الأمين العام للجمعية، أوغوز أوجونجو: "ما الذي نقوم به من نشاطات مختلفة وينتمي إلى بنيتها التحتية ويتعارض مع النظام الدستوري الألماني؟" فالتصاريح الرسمية للجمعية ليست سياسية متطرفة. وتعترف الجمعية عليناً وليس فقط بشكل صريح بالنظام الأساسي الديمقراطي الحر في ألمانيا، وتمدحه كمثل أعلى للدول الإسلامية. وتعمل "ميللي غوروش" جاهدة لتفعيل الحوار مع الجمعيات المسيحية واليهودية. وتتعدد بشكل دوري بالجمادات الإرهابية التي تقوم بها جماعات إسلامية متطرفة. كما أنها تحت أعضاءها إلى تعلم اللغة الألمانية والاندماج في المجتمع والحصول على الجنسية الألمانية. وهي بلا شك أكثر افتتاحاً على الغرب من الجمعيات الإسلامية التي تشمل أصولاً عربية.

وقد اتهمت الجمعية بمعاداة السامية بسبب مقال ورد في صحفتها الدورية ميللي غازيته، وكانت الصحفية قد رأت في عام ٢٠٠٣ أن اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر/أيلول تشكل جزءاً من مؤامرة صهيونية عالمية. وفي عام ٢٠٠٥ وصف رئيس منظمة الشبيبة التابعة للجمعية ديمقراطية الغرب "بالحضارة المزيفة".

وثمة اتهام آخر موجه لجمعية "ميلي غوروش" ، هو أن الجمعية لا تضع مسافة كافية بينها وبين "الأب الروحي" ، ورئيس الحكومة التركية السابق، نجم الدين إربكان. وطالب الحكومة الألمانية أن تفصل الجمعية عن أربكان انفصلاً تماماً.

وبالإجمال فانّ جمعية ميلي غورش تعمل بوعي وبحكمة. وهي تتطور باستمرار داخل ألمانيا وتقوم برعاية مصالح المسلمين فيها. ورغم ذلك فقد قاطعت الجماعة مؤتمراً للحوار بين الأديان انعقد في ألمانيا بتاريخ ١٢ تموز ٢٠٠٧ وفي كلمتها للمؤتمر انتقدت رئيسة وزراء ألمانيا جماعة ميلي غورش واعتبرتها متطرفة، وبدأت مواجهة جديدة بين الجمعية والحكومة الألمانية.

مسلمو الباب في ألمانيا

فئة من المسلمين الألمان أطلقت على نفسها اسم (مسلمي الباب) وتقول فتاة من هؤلاء: "أنا مسلمة وهذا قمة المصرية" ، هذه هي فحوى الرسالة التي يقولها مسلمو الباب في ألمانيا. يبدو وكأنّ اعتداداً إسلامياً جديداً بالنفس في طور النشوء، يريد النشاء المسلم تغيير صورة الإسلام في ألمانيا نحو الأفضل بعد أن أصابها عطب شديد بسبب الإرهاب. لذا ينشط هؤلاء لصالح المجتمع، فيقدمون دروساً إضافية لمساعدة التلاميذ في حل واجباتهم الدراسية على سبيل المثال، أو يوزعون شطائير الطعام على مدمني المخدرات وعلى المشردين. إلا أنهم ليسوا ليبراليين على الرغم من إطلاعهم الواقفة غالباً، فمسلمو الباب يضعون الإسلام فوق كل شيء، بما في ذلك الحكومة والدستور، ولا يريدون لأولادهم أن يشاركون في دروس السباحة، ويعتبرون أن للرحلات الدراسية مردوداً سلبياً على تلاميذ المدارس. يبدو أن هناك ثقافة نشاء إسلامية جديدة في طريقها للتطور، حيث لا تتفاوض فيها بين أن يكون المرء مؤمناً متديناً ومواطناً صالحاً في آن. مسلمو الباب ينشطون لصالح المجتمع ويريدون المشاركة في صياغته، لكن من وجهة إسلامية، ويلخص موقفهم بعبارة نعم للاندماج ولا للانصهار. إن مسلمي الباب يضعون الله فوق الحكومة والقانون وإن حركة الباب الإسلامية فهماً إسلامياً أقرب للمحافظة.

اختبارات خاصة بال المسلمين

يتم اختبار المسلمين في أغلب دول الغرب قبل منحهم الجنسية الغربية. ويرتبط هذا الاختبار عادة بمستوى خضوع المواطن لعقلية الغرب ولمستوى ابعاده عن التطرف الإسلامي بل والإلتزام بأخلاق الإسلام عموماً، ومن هنا فهذا الاختبار عنصري وظالم وترفضه جماعات حقوق الإنسان ومنظمات مكافحة العنصرية. ففي ألمانيا تم استخدام اختبار في ولاية بادن-فورتبورغ بات يطلق عليه "اختبار المسلمين وإن أحد الأسئلة الحساسة تتعلق بحقوق المثليين.

يقول أحد الأسئلة "اكتشفت أن ابنك مثلي، ويأتي إليك ذات يوم ويقول: يا بابا، أود الزواج برجل ألماني مثلي. كيف سيكون رد فعلك؟" يقول الصحفي أريكان "هل تتوقعون مني أن أضرب ابني، أو أقوم بما يطلق عليه "جريمة شرف"؟ هذا أمر سخيف حقاً.

ومن الأسئلة الأخرى التي يشملها الاختبار كيف تنظر إلى الرأي القائل إن على المرأة طاعة زوجها، ويمكنه ضربها إذا لم تفعل ذلك؟

- لو علمت أن أشخاصاً في الحي الذي تقطن فيه أو من أصدقائك أو معارفك نفذوا أو يخططون لتنفيذ عملية إرهابية، ماذا تفعل؟

- بعض الناس يحملون اليهود مسؤولية كل شرور العالم، ويدعون حتى أنهم كانوا وراء أحداث الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١ في نيويورك. ما هي نظرتك إلى هذا الرأي؟

وفي أستراليا تم استخدام اختبار جديد للحصول على الجنسية، ويتضمن الاختبار أسئلة صعبة كالسؤال عن تاريخ أستراليا، وعن أول من اكتشف القارة الجديدة وعن القوانين المحلية هذا إضافة إلى الأسئلة المتعلقة بالتطور وبالافتتاح على المجتمع الأسترالي.

لماذا تفشل مشاريع الاندماج في الغرب؟

تفشل مشاريع اندماج المسلمين في الغرب وبنفس الوقت مشاريع اندماج المتطرفين في مجتمعهم الإسلامي الصغير في الغرب، ومشاريع اندماج هؤلاء المتطرفين في المجتمع العام الغربي كله.

يحمل أي المسلم مقيم في دولة غربية مشروعًا ثابتاً في ذهنه، فهو في أحسن الحالات يتقبل الحوار لكن لا يتقبل الانصياع لمباديء جديدة ولا يتقبل الانحلال في المجتمع الغربي. ومن عناصر المشروع الثابت في ذهن المسلم:

اعتقاده الثابت بأنه قرر الإقامة في المجتمع الغربي ليحقق فوائد لم يستطع تحقيقها في موطنها السابق، وستكون هذه الرغبات مالية أو علمية أو العيش في الحرية أو تتمتع بمميزات الحضارة الغربية الكثيرة والمتنوعة. أو انفلاته من تخلف وفقر المجتمعات العربية.

إن مشروع المواطن الجديد بالنسبة له هو مشروع مكمل وتابع لمواطنته الأصلية في بلده الأصلي، ولذلك فهو لن ينسلاخ عن مجتمعه الأصلي السابق بل سيبقى على تواصل معه، أي أنه لن ينسلاخ عن أخلاقيات وعادات وعقائد (وتطرف عند البعض) مجتمعه الأصلي. ورأينا أن المسيحيين العرب الذين توطنوا في أمريكا وكندا لم ينتموا إلى المسيحية الغربية بل حافظوا على مسيحيتهم الشرقية وأقاموا كنائس خاصة بهم. وظل الجيل الثاني والثالث منهم ينتمي إلى هذه الكنائس الشرقية. وبنفس الوقت فقد حافظوا على طبائع شرقية تميزهم عن المجتمعات الغربية.

ظللت مشاركات العرب المغتربين قائمة وثابتة في بناء وتطوير وتنقيف المجتمع العربي الإسلامي. فمنذ المجرات الأولى أتحفنا الشعراء بالقصائد العربية المميزة، وحتى اليوم ما زال المفكرون والباحثون العرب المغتربون ينشغلون بأمور مجتمعاتنا. ويبحثون لنا عن الحلول. وبمتابعة وسائل الإعلام العربية نجدهم يشاركون في برامجها واستطلاعاتها باستمرار. ويرغم الهجرة والمواطنة فإنهم يعيشون هناك أجساداً لكن عقولهم وقلوبهم تتجه إلى مواطنهم الأصلية. وهذه الحال لا تطبق بالضرورة على كافة الشعوب الأخرى التي توطنت في الغرب.

إن العربي المسلم المقيم في الغرب ينتمي في وقت واحد لمجتمعين وهما مجتمعه الشرقي المسلم الأصلي الثابت بالنسبة له ومجتمعه الغربي الجديد وسيبقى يحاول التوفيق بين هذين الانتمائين. وإن محاولاته التوفيقية تلك ستزيد من غريته ونكره للمجتمع الغربي. وفي كل أداء يفعله سيقيس أداءه وفق معيارين كبارين هما معياره الأصلي ومعيار المجتمع الغربي الجديد، فإن سمح له المجتمع الجديد بالقيام بعمل أو أداء ما فإنه يجد قوة ضاغطة تجعله يقيس هذا الأداء بمعيار انتماهه الأصلي. وإن حالة الانتماء الدائم إلى مجتمعين تحمل الفرد عبئاً ثقيلاً إذ إنه يعيش مع نقضين اثنين، بينما المواطن الغربي الأصل الذي يتعامل معه يعيش مرتاح البال من هذه الناحية لأنه لا يحمل هذين النقضين. وعندما يصبح الفرد مشتتاً بين انتمائين وعندما يصبح في حالة اضطراب حتمية بين شد أمامي وشد خلفي معاكس يتوجب على هذا الفرد اتخاذ قرار يحل مشكلته. وهنا وفي أغلب الأحيان يعود إلى الالتزام بروابطه الأصلية ويقوم بتعزيز هذا الالتزام فيصبح البعض أكثر تدينًا مما كانوا عليه في موطنهم الأصلي، ويصبح آخرون أقرب إلى التطرف ويصبح قسم منهم متطرفاً حقيقياً.

لأن الغرب بديمقراطيته يبيح للفرد حالة التطرف الديني الإسلامي هذا التطرف الذي تلاحظه وتميزه أجهزة الأمن والحكومة العربية وتنميه في بلدانها، يلجأ إليه المسلم المواطن في الدولة الغربية ويعتبره شكلاً لمارسة الحرية التي حرم منها في بلده.

إن توطّن مواطنين هنود ويابان وأفارقة في المجتمع الغربي أسهل من توطّن المسلمين فيه لأن أولئك لا يحافظون مثلنا على انتماهم الأصلي. ولأن ذلك الانتماء لا يحوي روابط وميزات المجتمع العربي المسلم. ففي مطلع العام ٢٠٠٦ تظاهر الفرنسيون من أصل جزائري وأحرقوا حوالي خمسة آلاف عربة وحافلة، وقد مضى على إقامتهم في فرنسا نصف قرن من الزمن، ورغم ذلك فإنهم ما زالوا يعيشون في أحياط تعزلهم عن المجتمع العام كله، ولم يقدروا على الامتزاج مع ذلك المجتمع.

خوف البعض من نتائج التحديث

يخشى جيل الشباب المسلمين في الغرب من النتائج التي قد تحدث لهم في حال رضاهم وموافقتهم على تحديد المفاهيم الفكرية لديهم. إذ تضع الحداثة الكثيرة من القيم والتقاليد موضع مساءلة. فمثلاً الحرية الشخصية على الطريقة الغربية ينظر إليها من طرف كثرين لا فقط كأمر متناقض مع المبادئ الدينية بل كأمر متناقض مع أسس الحياة الاجتماعية. وينظر بشكل أخص إلى تحرر المرأة بالكثير من الارتباط انتلاقاً من تقليد شرقي يتأسس على الأبوية المطلقة. وبمقدار ما يصبح بالإمكان أن تحسب كل هذه المستجدات على الغرب يسهل الحكم عليها بالرفض. ومن هنا نلمس الانتشار الأكثر للتطرف الديني بأنواعه ودرجاته عند مسلمي الغرب وتضاؤله عند مسلمي البلدان الإسلامية. وهذا الخوف من نتائج التحديث في الفكر الإسلامي موجود عند المسلمين عموماً. ولنلمس نتائجه المؤلمة التي أدت إلى تخلف الفكر ثم المجتمعات الإسلامية.

اتساع المجتمعات الغربية

بالاطلاع على التوع الكبير لانتماءات الأفراد داخل المجتمعات الغربية نكتشف أن مجتمعاتنا تكاد تكون ذات نمط انتماي واحد. إذ تعتبر الولايات المتحدة هي البلد الأكثر توعاً للمواطنين في العالم: فهي تحوي كافة الجنسيات والأعراق والقوميات والديانات والمذاهب والحركات العديدة التي تتبع كافة المناهج التي عرفها العالم. إضافة إلى الأحزاب الأمريكية والعالمية، وإذا قمنا بتقسيم الانتماءات داخل المجتمع الأمريكي فستكون الأرقام كبيرة جداً. ومن المفيد أن نتعلم من الأميركيين الذين استطاعوا ضبط كل تلك الانتماءات لتؤدي في النتيجة أدواراً تصب في صالح الدولة،

ففي الولايات المتحدة مثلاً زنجي أفريقي وبوذي هندي وكوري ويهودي وأوروبي ودرزي لبناني وشيعي عراقي وعلوي سوري وأسماعيلي باكستاني وإخوان مسلمون

وألماني مت指控 قومي وياباني.. الخ وتلك كما نرى انتماءات متباعدة كثيرةً ولانجد فيها اشتلالات. بينما مجتمعنا يضيق بنا ويضمننا ويحولنا فيجعلنا حزمة واحدة ونحن في الحقيقة كذلك. فالفلسطينيون الذين تقاتلوا في غزة خلال شباط ٢٠٠٧ هؤلاء إخوة بالفعل. فمقاتل فتح تناول الطعام مع مقاتل من حماس قبل أيام، وهم في بعض الحالات إخوة أو أبناء عم . وقبل أسبوع واحد كانوا يتصدرون معاً للعدو الصهيوني.

وهنا نستطيع أن نطرح هذا السؤال:

- لماذا لا تشكل عوامل التّنوع الانتماجي الكبير في الغرب اشتلالات داخلية ،
وبنفس الوقت فهي تسبب في مجتمعاتنا باشتلالات كثيرة؟؟

ان الوضع العام في بلداننا غير مستقر وحتى يومنا هذا ما زالت بلداننا في مرحلة البناء والتطوير، إننا في حالة قلق دائم، وهذا القلق ينعكس على الأفراد ويظهر بطرق التعبير عن الانتفاء الصغير. مواطننا ما زال يسعى للحصول على لقمة الخبر، فهو في حالة صراع كامن ودائم مع المجتمع العام كله.

الغرب يتدخل بوضوح كبير وهو يعلن عن تدخلاته وأعماله الخبيثة التي تهدف إلى قيام النزاعات الطائفية والعرقية وغيرها. وإن كل متابع للأحداث يلمس وضوح ذلك التدخل ووقاحته. والأمثلة على ذلك كثيرة جداً.

أزمات المسلمين الأوروبيين

• في الغرب أفراد وجماعات وأحزاب لا ت يريد التحاور مع المسلمين الأوروبيين، وتسعى للحد من هذه الظاهرة، وأوروبيون آخرون يسعون لتضييق الخناق على المسلمين هناك. الأمر الذي يقلق المسلمين باستمرار ويهدد راحتهم وأمنهم.

• حمل المسلمين منهم من بلدانهم الأصلية تحالفهم في فهم الإسلام وحافظوا عليه هناك، وتعاملوا مع المجتمع الجديد وفق هذا المفهوم الخاطيء عن الإسلام. فكانت نتيجة ذلك إشكالية في علاقتهم بالمجتمع الغربي، وإشكالية مواطنهم وحقوقهم المتنوعة. فالمسلم الغربي يماثل المسلم العربي في معرفته عن الإسلام، وهو

يعاني من مشاكل الربط بين الإسلام كعقيدة والحياة اليومية التي يعيشها. كان يتوجب على المسلمين الأوروبيين أن يتطوروا في فهم الإسلام، ويتخلصوا قبل ذلك من مشاكلنا نحن، ويأتونا بنظريات جديدة في فهم الإسلام. لكن هذا لم يحصل. بل إن ماحدث هو العكس فهم ما زالوا يعتمدون على فكرنا الإسلامي السائد (وهو الفكر الناقص والمشوه للإسلام) وهو الفكر الدارج في البلدان العربية ويحرصون على استيراده باستمرار، ويقومون بتقليله. ولأسباب عديدة فهم يتعصبون له أكثر من تعصبنا نحن لهذا الفكر.

• فيما نحن نعتقد بأن تطوير الفكر والبحث الإسلامي، وتطوير فهم الإسلام وتعايشه مع الحضارة العالمية الجديدة، نعتقد بأن ذلك سيأتيانا من المسلمين الغربيين، لأنهم أكثر اطلاعاً على مكونات الحضارة الغربية الحديثة وعلى علوم الغرب، في الوقت نفسه فإن المسلمين الغربيين يعتقدون بأن مصدر الفكر والفهم الإسلامي ينحصر في نتاج المسلمين العرب، وفي الفقه الموروث، ويعتقدون بأن أي تحدي في الإسلام الموروث والدارج في بلداننا إنما هو نوع من الابتعاد عن الإسلام نفسه.

• يقوم المسلمون بمحاولة فهم كافة مظاهر الحضارة الغربية والتعبير عنها وفق مفاهيمهم الدينية الإسلامية السائدة، بما في ذلك العلمانية الغربية وكافة العلوم الحضارية. وأن مفاهيمهم الإسلامية ناقصة، فإنهن لن يتوصلا لإدراك الأبعاد العقلانية لتلك الحضارة ولن يقدروا على التحاور معها.

• لقد تختلف المسلمون الأوروبيون كثيراً عن فهم الغرب واللاحق برकبه، وتتأخرنا زمنياً عنه، فهم ما زالوا يطرحون مشكلات وقضايا كان يتوجب عليهم أن يتوصلا إلى حلول لها منذ عشرات السنين. فهم مثلاً ما زالوا يتساءلون عن قدرة الإسلام على التعايش مع الغرب ومؤسساته. ويعظمون مشكلات تافهة وصفيرة. فمشكلة حجاب تلميذتين مسلمتين في فرنسا شغلت المسلمين عقداً كاملاً من الزمن، واجتهد في تحليلها آلاف المسلمين، بل وصدرت عنها مؤلفات وكتب. ومن

المؤكد أن مشكلة مشابهة لو حدثت في دولة عربية فلن تشغل المسلمين أنفسهم الذين اشغلوا بذلك القضية الفرنسية.

• إن خيار المواطننة في أوروبا يعتبر بالنسبة لجميع المسلمين المهاجرين قفزة كبيرة ومشروعًا فريداً ونجاحاً لم يتحقق للكثير من العرب الآخرين. وإن البلدان العربية مفتوحة لمواطنة أي واحد منهم، ورغم ذلك فلن يعودوا إلى أي بلد عربي، أي منهم يصرّون بعناد على خيار المواطننة في أوروبا. وبينما الوقت فهم يصرّون على عدم تقبل المجتمع الأوروبي وعلى رفض الحضارة الغربية، وعلى معاداة الكيان الغربي كله. وبهذا فهم يعيشون في تناقض كبير مع أنفسهم.

• في الغرب يصبح الفرد مجبراً على أن يكون سفير الإسلام وممثلاً له ومتحدثاً باسمه. فهناك يسأله الجميع عن الإسلام وأحكامه وشعائره وفقهه. وهذه الأسئلة الكثيرة والتي لا تنتهي تجبره على أن يكون ناطقاً باسم الإسلام، وبالتالي عارفاً بعلوم الإسلام الكثيرة، ثم تجبره على أن يكون صورة حية وحقيقة عن الإسلام. ومن هنا يأتي أحد العوامل التي تجعل المسلم متعلقاً بدينه الإسلامي، فيقوم عندئذ باستيراد الصور والتجسيدات الإسلامية الجاهزة في البلدان العربية، لكن هذه الصور قد تكون مشوهة وخاطئة.

• لقد حمل المسلم معه إلى الغرب صورة العداء القديم معه، واحتفظ بصورة المستعمر الغربي الذي مارس القتل والتدمير والاستغلال، وإن كثيراً من هؤلاء يرى في نفسه شخصية عمر المختار وسلطان باشا الأطرش وغيرهما من مناهضي الاستعمار، وبينما الصورة يرى أن محاوره ومواطنه الغربي هو الجنرال غراسيني وأنبي وغيرهما من جنود الانتداب القديم. ومادامت تلك الصورة قائمة في الذهن الإسلامي الغربي فلن يتمازج المسلمين مع مواطنיהם الأوروبيين الآخرين.!! . ومقابل هذه الصور التاريخية مازال الأوروبي يرى في كل مسلم صورة طارق بن زياد وموسى بن نصیر وغيرهما من زحفوا باتجاه أوروبا ليقيموا فيها طوال سبعة قرون من الزمن. ومع استمرار تلك المشاعر يصعب التحاوار بين مسلمي الغرب ومواطنיהם وحكوماتهم. وإن إيجاد حل لهذه المعضلة يقع على كاهل المسلمين أنفسهم بالدرجة

الأولى. وهم بسلوكهم وأعمالهم المسؤولون عن استمرار تلك المعضلة. فالتخلص منها لا بد من انتزاع الصور القديمة عن الغرب والبدء معه بمحاورة جديدة وفق أسس عصرية قائمة.

تشكيل صورة الإسلام عن الغربيين

يحاول الغرب جاهداً كأفراد ومؤسسات تشكيل صورة واضحة عن الإسلام نفسه، تلك التي من خلالها يريد التعرف على المسلمين، أولئك الذين يتمثلون بحركة القاعدة ويهددون استقرار الغرب، وهؤلاء الذين هم أبناء الغرب نفسه ومواطنيه المؤثرين فيه. لكنَّ الغرب لن يتعرف على الإسلام بهذه السهولة، ولن يستطيع أن يفهم المسلمين من خلال كافة صور الإسلام التي تتشكل عنده. لأنَّ المسلمين أنفسهم لا يمثلون صورة عن الإسلام. كيف تتشكل صورة الإسلام عند الأوروبيين غير المسلمين؟ ولماذا يخطئ الدارسون للظاهرة الإسلامية أو المتحدثون عنها في فهم الإسلام ووصفه والتعامل معه؟ إنهم يقيمون ذلك الفهم على ثلاثة ركائز أساسية وهي:

تجارب الغرب القديمة مع الإسلام وتشمل تاريخ الحضور الإسلامي المزدهر في الأندلس، والذي تلته الحروب الصليبية ثم الانتداب الفرنسي للبلدان العربية والإسلامية. وبالنسبة للحضور الإسلامي الأندلسي، فإنَّ الفكرة الشائعة في المجتمع الغربي عموماً تعتبر أنَّ ذلك كان احتلالاً ظالماً. ويستقون منه دروساً تجعلهم يقللون من نفوذ المسلمين في الغرب. ورغم أنَّ تلك النظرة خاطئة ولا يمكن البناء عليها والتعامل مع المسلمين من خلال نافذتها الضيقة فإنَّ الغرب يعتبرها أساساً مهماً في معرفة الإسلام والمسلمين وفي التعامل معهم. وستبقى تلك واحدة من عقبات الحوار الإسلامي مع الغرب إلى أن تتكاثف الجهود المشتركة وتستطيع حلَّ ألغازها.!. ونحن المسلمين علينا أن نعترف في الوقت نفسه بأنَّ عيوننا ما زالت تتظر إلى ذلك المجد الغابر في الأندلس وتحسُّر على زواله. ونتمنى لو يعود، وقد أنسد الشاعر الباكستاني محمد إقبال يقول:

الصين لنا والعرب لنا

والهند لنا والكل لنا

أضحي الإسلام لنا دينا

وجميع الكون لنا وطنا

وهذه الأبيات تغزل بالمجده الإسلامي الفابر. والذي أضعاه المسلمين. وتؤكد على اعتقاد المسلمين بضرورة استعادته وامتلاكه.

وتتشكل صورة الإسلام عند الغربيين أيضاً من خلال رؤيتهم للMuslimين أنفسهم ولأعمالهم ونشاطاتهم، ومن ذلك أفواج المهاجرين غير الشرعيين والفقراء الجائعين الذين يعبرون البحار والحدود ويعرضون أنفسهم للأخطار، وصور المتحجبات المسلمات في شوارع أوروبا، ذلك الحجاب الغريب بالنسبة للأوروبي. وصور صفوف المصلين الراكعين والساجدين في مساجد أوروبا، وصور المشايخ بلحاظ الطويلة وثيابهم الطويلة الفضفاضة وعماماتهم التقليدية.

وت تكون الصورة الإسلامية عند الأوروبي أيضاً من أعمال المسلمين ونشاطاتهم ونتاجاتهم الصحفية والفكرية والدينية وغيرها. ومن تلك الأعمال بالطبع أعمال رجال القاعدة التي استهدفت وهددت عدة مرات مناطق ومواقع غربية. وتصريحات القاعدة التي لا تتوافق عن تهديد الغرب كله والمسيحية كلها. ويفضاف إلى ذلك تمرد المسلمين في ضواحي باريس واحراقهم لآلاف السيارات والأملاك العامة. ولعل تلك الأعمال تؤدي إلى المقاطعة بين الإسلام والغرب ولن تعزز الحوار والتفاهم بينهما. أما نتجات المسلمين الكثيرة والمتنوعة فقد نجحت واشتهرت في المجال الأدبي بالدرجة الأولى. حيث وصلت الرواية والقصة الإبداعية، التي أنتجها مسلمون، إلى كل بيت أوروبي تقريباً، لكن فيما يخص الأبحاث الإسلامية الحضارية والفكرية ودراسات تطوير الفكر الإسلامي والتعریف به، فلم يجرؤ المسلمين الغربيون عموماً على الخوض فيها، وينفس الوقت فلم ينجحوا بذلك، إذ لم نسمع عن أي بحث أو كتاب فكري إسلامي حقق نجاحاً وانتشاراً واسعاً في أي دولة أوروبية. رغم أن الأوروبيين بحاجة ماسةً مثل تلك الأبحاث.

والغربي يسعى للتعرف على الإسلام من المسلمين أنفسهم، لكن المسلمين عموماً ما زالوا يخاطرون بين عدة أشكال من الإسلام المعاصر، وتمثل هذه الأشكال :

الإسلام بصفته ديناً وعقيدة، وهنا تكثر تحليلات الفقهاء وتراقباتها أحياناً. كما وتتوزع المعرفة الإسلامية على مذاهب متباعدة في الفهم للإسلام ولأحكامه. الإسلام بصفته تاريخاً وأشخاصاً وأحداثاً. حيث كان للأحداث التاريخية وللأشخاص أهمية ودور كبير في التعرف على الإسلام أو الارتياب في معرفته أحياناً. فلا أحد ينكر تأثير أشخاص مثل ابن تيمية وابن عربي ومحمد بن عبد الوهاب وسيد قطب في اعطاء صور متعددة عن الإسلام.

الإسلام كسياق اجتماعي و מורوث ثقافي، وهنا تختلط عادات وخصائص الشعوب مع العقائد والمفاهيم الإسلامية.

ومن كلّ ما تقدّم نكتشف ضرورة أن يكون كلّ فرد مسلم صورة صحيحة عن الإسلام. فهو إن رغب أو لم يرغب يعتبر في نظر الغرب صورة واقعية ترمز للإسلام وتعبر عنه.

محضر التطرف الديني

في سوريا كمثال على الاستعمار قام الانتداب الفرنسي بكلّ أشكال تفتيت المجتمع وضرب كياناته ببعضها البعض، وقبل الخوض في الحديث عنها يتلوخى الحذر عند القارئ واعتبار الأحداث التي سنذكرها من صنع الاستعمار، وبناء عليه فلا يمكن أن نجرم أية فئة تعاملت معه آنذاك، وبالتالي فلا يمكن ربط الماضي بالحاضر:

تم تقسيم سوريا إلى دويلات صغيرة تقوم على أسس عرقية ومذهبية وطبقية. استقدم الفرنسيون جنوداً مغاربة كانوا يقاتلون الثوار السوريين وهم أبناء دينهم وعروبتهم. وهذا ما ولد آنذاك عداءً شعبياً للمغاربة.

كما وقام الاستعمار البريطاني بالتدخل المباشر في شؤون الدين الإسلامي نفسه، وفي عقائد أهله، فبغية التأثير على المسلمين أنفسهم، ولكي يصبح الأفراد أدلة لينة وطيبة في يده، قام البريطانيون بابتداع مذاهب إسلامية جديدة في مناطق نفوذهم السابقة في الهند وباكستان وغيرها. مما أدى إلى انشقاق أفراد من المسلمين عن المذاهب الرئيسية واللحاق بتلك المذاهب الاستعمارية الجديدة أنداك. ومن بين تلك المذاهب الأحمدية والبهائية. وتلك مشاريع تخريب للداخل الإسلامي قام بها الغرب منذ عقود، وما زال يحاول العمل بها في هذا العصر فتسمع عن بدعة سلمان رشدي ودعم البريطانيين له. ونشاهد فضائية ذات صبغة إسلامية ظاهرياً تبث من لندن بالعربية وتمارس تشويه الفكر الإسلامي بكليته.

فتون الغرب الجديـدة

لقد وجد الأميركيون والبريطانيون أنفسهم محاطين بشعب ثائر وعظيم ورافض للاحتلال، وكانت أهم مقاومة للفزو الأميركي تمثل في المقاومة السنوية. فقامت الدولة الغازية بنشر الفتنة الطائفية في العراق نفسه وفي الوطن العربي وفي العالم الإسلامي كله. وانشغلت بنشر الطائفية حملات إعلامية كبيرة تم توظيفها وتمويلها لتوصيل رسالة الطائفية إلى كل مسلم أينما كان:

فقد انقسم الإعلام العربي غير الحكومي إلى قسمين، قسم يروج لنصرة السنة ويكيّل الاتهامات على الشيعة العراقيين. وقسم يروج للشيعة العراقيين ويتهم السنة. وقد تجاوיבت الأحداث في العراق مع تلك الفتنة، ولاشك في أن الأميركيين أنفسهم كانوا وراء أحداث وتفجيرات تحمل صفة طائفية.

وأمام هذه الأحداث يصبح نوعاً من الجهل والانسياق في المشروع الاستعماري أن يخرج صوت محلي من بيننا ويتهم ببعضنا بصناعة الطائفية ويحمله مسؤولية الاقتتال الأهلي.

وان كل شخص يلجأ إلى اتهام نوع من الإسلام بأنه يمارس الاقتتال الطائفي ويحمله المسؤولية عنها إنما يكون هو نفسه الذي يمارس الاعتداء الطائفي والشحن الطائفي والعمل على توليد صراعات طائفية وتآجيجها. ويواجه المسلمون تحديات استعمارية دائمة، إسرائيل التي لا توقف عن مشروعها الإبادي، ودول الغرب التي غزت العراق وما زالت تمارس فيه الإبادة ومشاريع التشویه الكامل للعراق ولتاريخه ولشعبه. وعلاوة على ذلك فهي تهدد الدول الإسلامية الأخرى وتهدد بفزوها. بل إن حكام الغرب نفسه تحدثوا مرات كثيرة عن حرب صليبية جديدة وحرب شاملة على الإسلام !!

لقد أصبح الاستعمار عقدة كل مسلم وكل عربي تقريباً. فهذا الانشغال الاستعماري الدائم بال المسلمين يضطر بعضهم لاتخاذ مواقف عدائية متطرفة من الغرب عموماً ومن المسيحية الغربية كلها أحياناً. وظهور هذه العدائية في أعمال منظمة القاعدة، وفي كتابات حديثة عديدة لمفكرين ورجال دين إسلاميين، وفي مواقف شعبية كثيرة في الشارع الإسلامي.

إن انفاسنا في كره الممارسات الاستعمارية الكبيرة ضد المسلمين يجب أن تكون نوعية وغير شاملة و يجب ألا تغشى أبصارنا عن حقائق أخرى شديدة الأهمية. ومن ضمن هذه الحقائق:

الغرب الذي يغزو بلداننا ويهدد الأخرى ويتحالف مع الصهيونية ليمثل شعوب الدول الغربية. بل إنه يمثل طبقة الحكام والسياسيين، وهؤلاء أقلة في بلادهم، ولم يرض عنهم المجتمع العام كله. وهم حكام مستبدون اغتصبوا السلطة، ولم يكتروا بآراء شعوبهم. ولعل اتفاقهم مع إسرائيل على مشاريع معادية للمسلمين يجعلهم عصابة صهيونية عالمية تمارس العدائية على المسلمين وعلى شعوب الغرب أنفسهم. فعندما زار جورج بوش دول أمريكا الجنوبية قابله الشعوب بالرفض والاستكثار والطرد. وفي بلدانهم يواجه حكام الغرب المعتدلون على بلداننا استكراضاً شديداً.

في المجتمع الغربي اليوم رفض لسياسة الحكام، وهذا مانلاحظه في طبقات سياسية ضغطت على تونى بلير وعلى جورج بوش وعلى غيرهما في إيطاليا وأسبانيا وهولندا وأستراليا.

في المجتمع الغربي اليوم إقبال كبير على الإسلام ويتخذ هذا الإقبال عدة أشكال، فمنها دراسة اللغة العربية والتعرف على الإسلام، ومنها دراسة الإسلام والتاريخ الإسلامي والتخصص به في المراحل الجامعية والعليا، ومنها اعتناق الإسلام والإيمان به. إذ تقبل أفواج كبيرة على اعتناق الإسلام كقرار فردي توصل إليه الشخص دون أن يقوم أي مسلم بتعريفه على الإسلام أو بدعوته.

إننا نتفق مع المسيحية عموماً والمسيحية الغربية أيضاً في نقاط تفاهم مشتركة عديدة، وعلى هذا فمن الحكمة أن نتحالف معها. وفي هذه السنوات خصوصاً نحن في مواجهة كبيرة وتحدى ديني مع المسيحية الصهيونية التي تستغل ليل نهار بهدف إيقاف موجات الأسلامة في المجتمعات المسيحية كلها.

إن مواجهتنا للمشاريع الاستعمارية الكبيرة يجب أن لا يجعلنا ننفهم في معاداة الغرب كلها، بل إن الطرق الواسعة المفتوحة أمامنا والتي لا يستطيع حكام الغرب إغلاقها دوننا تمثل في تحالفنا مع أبناء الغرب والتعاون معهم وكسب موافقهم، وسيكون ذلك تحولاً في معركة مواجهتها مع الغرب. وستكون مكاسبنا فيها أكبر وأكثر.

طبقة حكام الغرب

الغرب الذي يفوز بلداناً وبهدد الأخرى ويتتحالف مع الصهيونية لا يمثل شعوب الدول الغربية. بل إنه يمثل طبقة حكام السياسيين، وهؤلاء أقلة في بلادهم، ولم يرض عنهم المجتمع العام كلها. وهم حكام مستبدون اغتصبوا السلطة، ولم يكتروا بأراء شعوبهم. ولعل اتفاقهم مع إسرائيل على مشاريع معادية للمسلمين يجعلهم عصابة صهيونية عالمية تمارس العدائية على المسلمين وعلى شعوب الغرب

أنفسهم. فعندما زار جورج بوش دول أمريكا الجنوبية قابله الشعوب بالرفض والاستكبار والطرد. وفي بلدانهم يواجه حكام الغرب المعتدلون على بلداننا استكباراً شديداً.

في المجتمع الغربي اليوم رفض لسياسة الحكام، وهذا ما نلاحظه في طبقات سياسية ضغطت على تونى بلير وعلى جورج بوش وعلى غيرهما في إيطاليا وأسبانيا وهولندا وأستراليا.

الفكر التقليدي

آن الأوان لأن نلتزم بالإسلام ونرفض الفكر الشعبي التقليدي الذي يدعونا لكراهية الغرب كله ويحثّ المواجهة معه. والذي يعتمد في أساسه على تاريخ الحروب الصليبية. اذ من الجور أن نحكم على المواطن الغربي المعاصر بناء على حكم أسلافنا على أسلافه. وكان مشروع سيد قطب أول مشروع إسلامي مواجه للغرب كله في العصر الحديث، إذ قام بتكفير الغرب وفصله عن المسيحية (التوحيدية) وجهله وحثّ المواجهة معه. وتالت هذه الدعوات الفكرية المتخصبة بعد سيد قطب، ويمكن أن نرصد في المكتبات العربية مئات الكتب الإسلامية التي تحثّ المواجهة مع الغرب. وكان حديثاً كتاب الدكتور محمد عمارة المعنون (الإسلام والمسلمون في عيون غربية) ويورد الكاتب عشرات الأقوال التي قام بالبحث عنها خصيصاً وانتقاها بدقة ليبرهن لنا على أنَّ الغرب يكرهنا كرهاً أعمى وأنه مصمم على مواجهتنا. ويخرج قاريء الكتاب بموقف عدائِي كبير للغرب وللمسيحية الغربية. ويصل إلى (حكمة محمد عمارة) التي تمثل بعدم إمكانية التحاور مع الغرب والمسيحية. وبذلك يعيينا الدكتور عمارة إلى الوراء قرناً من الزمن، ويعنينا من رؤية حقائق المجتمع الغربي. وإن مثل هذا الكتاب يقوم بزراعة بذور التطرف والعدائية، وبينس الوقت وعندما يعيينا بموقفه الفكري إلى الوراء فإنه يجعلنا رجعيين بعيدين عن أحداث العالم المعاصر. وكان بإمكان محمد عمارة أيضاً أن يجمع في كتابه مئات الأقوال الغربية التي تدل على ضرورة التحالف مع المسلمين

وتمتدح المسلمين لأن تلك الأقوال موجودة حقاً ويمكن جمعها! لكنه هو نفسه كان يحمل مشروعًا عدائياً للفرب وعمل على إحضار الأدلة على مشروعه. إننا حينما نتقد مفكراً إسلامياً سنتألي بديمقراطية تهدف إلى تطوير البحث والفكر عند المسلمين، لأنقوم باستعادته، بل نطالبه بتطوير أبحاثه التي تؤثر على فكر الشارع الإسلامي، ورغم أنني كباحث أستطيع أن أجتمع مئات الأقوال والأدلة التي تشير إلى عدائية الفرب للعرب والمسلمين فلا يمكنني أن أستنتاج منها قاعدة نهائية تحرّض على ترسیخ هذه العدائية. ذلك أسلوب قديم وتلك ثقافة قائمة يجب علينا أن نطوي فصولها وعناصرها، ونبداً من جديد.

في البحث عن كينونة إسلامية في الغرب

يبحث المسلمين في الغرب عن إيجاد كينونة إسلامية واضحة خاصة بهم ويرجع ذلك إلى سببين:

أحدهما: الحاجة لإيجاد ملجاً بعيد عن العداوة المتزايدة داخل المجتمع الغربي تجاه المسلمين. وإن هذا الاتجاه السلبي قد تزايد بصورة كبيرة منذ هجمات الحادي عشر من سبتمبر، إذ تظهر الدراسات هذه الزيادة في العداوة وقد أوضحتها جامعة كورنيل الأمريكية في ديسمبر عام 2004 ، والتي كشفت أن ٤٤٪ من الأميركيين الذين دخلوا ضمن هذه الدراسة يعتقدون أن الحكومة الأمريكية تقيد الحريات المدنية للمسلمين الأميركيين.

والسبب الثاني هو في أن يكونوا جزءاً من البعث الإسلامي المنتشر في جميع أنحاء العالم . وبالنسبة للكثرين من مسلمي الغرب ، لكي تكون مسلماً ظاهراً للجميع فلابد من القيام بالاعتراض على الحركات العالمية التي تدين الإسلام. وإن جيل الشباب منهم يشعرون أن عليهم الاختيار بين أن تصبح جزءاً متكملاً في المجتمع الغربي والذي يتطلب الموافقة على الأعراف الاجتماعية التي يجدونها شيئاً بغيضاً عن عقيدتهم، أو عليهم الانضمام إلى حملات البعث الإسلامي في جميع أنحاء العالم ، والكثير منهم يفضلون الاختيار الثاني. إن الدراسات الحديثة توضح

هذه الاتجاهات. وأحدى الدراسات التي أجريت في جامعة كندا، أظهرت أن هناك تزايداً كبيراً في عدد المساجد بسبب زيادة عدد المصلين على الصلاة في هذه المساجد.

وتبيّن أنه في المتوسط فإن الشخص الذي يشارك في المساجد يبلغ من العمر ٣٤ عاماً، وهو مهاجر منذ فترة طويلة متزوج ولديهأطفال ودرس في الجامعة وإلى حد ما ميسور الحال. وحوالي الخامس هم من الجيل الثاني من المهاجرين. وعلى عكس المسلمين في العالم الإسلامي الذين ينظرون إلى المساجد أساساً على أنها دور للعبادة فقد اكتشف الباحث باجبي أنه على الرغم من أن ٥٨٪ من هؤلاء الذين أجريت عليهم الدراسة لا يرون ذلك فإن ٤٢٪ ينظرون إلى المسجد على أنه مركز للتعليم والأنشطة. وإن معظم الذين قاموا بعملية المسح عليهم، يعتقدون أن الهدف الرئيسي من المسجد هو إمداد الشباب بالمعرفة الإسلامية. لقد تغير دور المسجد كثيراً في الغرب ، فأصبح مكاناً للاختلاط بالمؤمنين الآخرين ومكاناً للتجمع التعليمي والاجتماعي.

إن هذه المحاولة للتجمع الإسلامي وخلق كيانة خاصة بأتباع الدين الحنيف داخل مجتمع كبير وواسع هي محاولة تقوّع وانكفاء على الذات وهي في حقيقتها تقوّع ونوع من التطرف الإسلامي. ورغم أننا نتفهم ملابسات الظروف التي تحيط بالمسلمين فلعله من الأفضل عدم اللجوء إلى هذا التقوّع.

وعند سؤال المسلمين. كيف يمارسون طريقة عبادتهم فإن هؤلاء الذين طبقت عليهم دراسة المسح قد انقسموا بين ٣٨٪ يفضلون طريقة مرنّة لتفسير النصوص المقدسة، ولصياغة هوية إسلامية جديدة، فقد رجع الشباب الأمريكي إلى التعاليم الأساسية للإسلام، وذلك من خلال دراسة القرآن والسنة، وهما أهم مصدرين للشريعة. وهذا ما يجعلهم يلتّقون مع السلفية. وأنّ ظهرت دراسات أخرى تصاعد العدائية ضد المسلمين.

لقد قاموا بتخريب المساجد وكان الأطفال هم هدف التعليقات العنصرية في المدارس العامة. لقد عانى المسلمين التفرقة في المعاملة في أعمالهم، مما يؤدي إلى

تصاعد الشعور بالاغتراب والقلق والخوف في صفوف المسلمين. وللتخفيض من تلك الأزمة قام العديد من الجامعات بافتتاح فروع جديدة لتدريس الإسلام والتاريخ الإسلامي، ونرى ذلك في بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة. فقد تبين أن جهل السكان بالإسلام كان أحد أسباب ظاهرة العداية للمسلمين. وتقوم تلك الكليات إضافة إلى مؤسسات أخرى بندوات ولقاءات وحوارات للتعریف بالإسلام ويميل قسم من المتعصبين المسلمين إلى معاداة حكومات بلدانهم الغربية . ففي أمريكا تيار يعتبر المساعدات الأمريكية المقدمة إلى منظمات أو حكومات إسلامية حراماً ويتوجب رفضها، وبينى هذا الرأي على اعتبارها أموالاً قذرة. و كنتيجة لتلك الأوضاع الساخنة في الغرب يلاحظ تنامي تيار إسلامي جديد متشدد ويخشى أن يصطدم هذا مع الحكومات الغربية في المستقبل. وفي ألمانيا كانت الحكومة الألمانية والمؤسسات العديدة فيها تجد صعوبة في مخاطبة الكيان الإسلامي نظراً لتنوع المؤسسات والجماعات الإسلامية هناك وتعدد اتجاهاتها وموافقتها. وفي نيسان ٢٠٠٧ اجتمع بضعة آلاف من زعماء الجماعات الإسلامية المتعددة في ألمانيا واتفقوا على توحيد مؤسساتهم كلها ضمن مؤسسة واحدة وإدارة واحدة وتحمل رأياً واحداً. ويعتبر هذا الاتحاد الإسلامي في ألمانيا هو الأول من نوعه على الصعيد العالمي كله. إذ بين تلك الجماعات التي اتحدت اختلافات منهجية تقليدية. فمنها الجماعات السلفية التي تتاقض مع الصوفية ومنها الشيعية والإخوانية.

محاولة تجنيّ مسلمي أمريكا لمواجهة التطرف الإسلامي

عرض بداية عام ٢٠٠٧. كتاب من تأليف باول باريست بعنوان الإسلام الأمريكي: النضال من أجل روح ودين. وهو كتاب معتدل ويقدم فكرة شاملة عن أوضاع المسلمين في الولايات المتحدة. ويدافع الكاتب عن قضايا المسلمين. بل انه يبدو قد تفهم كل المشاكل التي يعاني منها مسلمو الغرب. وإن مثل هذه المواقف التي تصدر عن أبناء الغرب من غير المسلمين تبشر بمستقبل زاهر للإسلام في ذلك العالم.

ينطلق المؤلف في تناوله لموضوع الإسلام الأمريكي من حقيقة أن عدد المسلمين في الولايات المتحدة يزيد على 7 ملايين أمريكي، وأن الإسلام أصبح الدين الثاني في الولايات المتحدة بعد المسيحية. ذلك في الوقت الذي يجهل فيه الكثير من الأمريكيين المعلومات الأساسية عن الإسلام والمسلمين تاركين الفرصة لمجموعات مؤدلة من اليمينيين لتشويه صورة الإسلام وأتباعه والتشكيك في ولائهم للثقافة والمجتمع الأمريكي.

يسعى باول باريت في هذا الكتاب إلى تغيير سوء الإدراك السائد لدى معظم الأمريكيين عن الإسلام الأمريكي من خلال تناول الحياة الشخصية وال العامة وصراع الهوية والتفاعل المختلط بين الأيديولوجية والثقافة لسبعة نماذج من المسلمين الأمريكيين من ويست فرجينيا إلى أيدهو، ومن ميشيغان إلى نيويورك. هذه القصص التي سطرها المؤلف على صفحات كتابه تعكس مدى التسوع الكامن بين ملايين المسلمين الذين نشأوا في الولايات المتحدة.

وكان السؤال الذي يدور في ذهن الكاتب قبل أن يجري تحقيقاته هو: كيف يعرف المسلمون الأمريكيون أنفسهم في الواقع الديني الممزق بين التطرف والاعتدال، خاصة في ظل التسوع الكبير لأعضاء المجتمع المسلم من حيث العرق، والخلفية الثقافية التي يتقاتلون تأثيرها من جيل المهاجرين والجيل الذي ولد وترعرع في الثقافة الأمريكية. وقد أجاب الكاتب على هذه الأسئلة وغيرها بين ثانيا قصص سبعة نماذج اختارها.

أخذ المؤلف القراء في جولة داخل المجتمع المسلم، داخل البيوت والمساجد والتجمعات الخاصة في بيوت ومجتمعات متعددة من خلال قصص سبعة من المسلمين يعبرون عن واقع المسلمين الأمريكيين بكل تفاصيله وتعقيداته. في الفصل الأول يتكلّم عن أسامة سابلاني الناشر ذي الأصل العربي الذي يعيش في حاضرة العرب الأمريكيين في ولاية ميشيغان، والذي يختزل أزمة المسلمين الأمريكيين بعد 11 سبتمبر في التشابه بين اسمه وأسم أسامة بن لادن.

ويتناول شخصية الباحث خالد أبو الفضل أستاذ القانون الإسلامي بجامعة كاليفورنيا والتي تسبب رسالته المعتدلة للإسلام جدلاً واختلافاً في أوساطهم. ويتناول شخصية الإمام الذي ينحدر من أصول أفريقية في أحد مساجد بروكلين، والذي كان يوماً عضواً في جماعة أمّة الإسلام موضحاً خصوصية الإسلام بين الأمريكيين السود، وتطور العلاقة بين المسلمين السود وغيرهم من مسلمي الشرق الأوسط وشبه القارة الهندية.

ويتناول شخصية الناشطة في مجال الحركة النسوية إسرا نعmani ابنة المهاجر الهندي التي تدعو إلى حرية المرأة المسلمة وتتادي بالمساواة بينها وبين الرجل ، وقامت بفتح أبواب مسجد والدها أمام النساء دون تمييز بينهن وبين الرجال بنزعها للحاجز بين النساء والرجال في المسجد. ثم يتناول حياة وشخصية متصوّف مسلم، يرى الله في كل مكان على حد تعبير الكاتب.

وعلى الرغم من ازدياد ظاهرة الإسلاموفobia في المجتمع الأمريكي خلال السنوات الخمس الأخيرة، وفي الوقت الذي تشهد فيه مناطق مختلفة من العالم مشاعر مناهضة للولايات المتحدة، فإن المؤلف باول باريت يرى أن أكبر وأهم وسيلة في مستودع الولايات المتحدة في حربها على الإرهاب هي مسلموها في حال قدرتها على استيعاب هذه الجالية الإسلامية المتمامية.

ورغم الصورة المتوازنة الإيجابية التي يصورها الكاتب للجالية المسلمة في أمريكا، فإن سرده لقصة معاناة طالب الدراسات العليا في جامعة أيدهو، واعتقاله لفترة طويلة لاتهامه بالإرهاب وانتهائه بقوانين الأمن الداخلي، وعودته أسرته إلى السعودية ، وترحيله هو شخصياً حتى بعض تبرئته من التهم الموجهة إليه بزعم مخالفته لقوانين تأشيرات السفر، فإن هذه الحادثة وغيرها من الحوادث التي تعرض لها المسلمون في الولايات المتحدة، يزيد من الشعور داخل أوساطها بأن أمريكا تعاملهم على أساس أنهم جزء من مشكلة الإرهاب وأنهم يتحملون جزءاً من المسؤولية عن وقوع هجمات سبتمبر.

وفيما يتعلق بالانتقادات الموجهة إلى المسلمين الأمريكيين والقائلة بعدم سماع أصواتهم في شجب صريح للأعمال الإرهابية، ذكر الكاتب إن بعض المنظمات الإسلامية العاملة في الولايات المتحدة قد أصدرت أكثر من مرة تصريحات واضحة تشجب و تستنكر الإرهاب خاصة بعد تفجيرات لندن، و يرى المؤلف تردد بعض المؤسسات الإسلامية في انتقاد أعمال العنف والإرهاب التي يقوم بها مسلمون في مناطق مختلفة من العالم من خشيتهم أن يطول ذلك عمليات حماس و حزب الله.

وتوقع الكاتب في حديثه عن المسلمين من السود الأمريكيين أن تتراجع شعبية أمة الإسلام في أوساط السود لصالح التيار الإسلامي التقليدي. وقال إن هناك توتراً بين بعض المسلمين السود وغيرهم من المسلمين السلفيين الذين ينظرون إلى إسلام السود خاصة من منهم في أمة الإسلام على أنه بدعة. كما تطرق إلى الاختلافات في الجالية المسلمة بين السنة والشيعة وإلى الخلافات بين المعتدلين والمتطرفين قائلاً إن واقع المسلمين في أمريكا في هذا السياق لا يختلف كثيراً عن واقعهم في بلاد ومناطق أخرى من العالم ، حيث إن المهاجرين جاؤوا إلى الولايات المتحدة ومعهم خلافاتهم وأيديولوجياتهم المتباعدة.

وخلص الكاتب إلى أن المسلمين يواجهون خيارات صعبة في إطار نضالهم من أجل جوهر وحقيقة إيمانهم وعقيدتهم في الولايات المتحدة، خاصة وأنهم ليسوا شيئاً واحداً، وبالتالي فمن الصعب التبؤ بمن ينتصر في النهاية من أصحاب الأفكار والاتجاهات المختلفة. فذلك لا يعتمد على قناعات وخيارات المسلمين فحسب، وإنما يرتبط أيضاً بتطور الأحداث في الولايات المتحدة والعالم. ولذلك أوصى الكاتب بمجموعة من التوصيات التي ينبغي على الحكومة والمجتمع الأمريكي القيام بها من أجل مساعدة قوى الاعتدال بين الجالية المسلمة. وفي مقدمة هذه الجهود ، إدراك من لا يدرك من الشعب الأمريكي بحقيقة وواقع الضغوط التي يتعرض لها المسلمون منذ هجمات ١١ سبتمبر على المستوى النفسي والأمني والحقوق المدنية. كما ينبغي أن ننتقل من مجرد الكلمات الخطابية عن احترام الإسلام إلى التحاور مع الإسلام نفسه. ويرى أن هناك فرقاً بين الإسلام والإرهاب على مستوى السلوك والممارسات

التي يجب أن تتفير، فضلاً عن ذلك يرى المؤلف أنه ينبغي على الرئيس بوش والساسة الأمريكيين أن ينتقدوا صراحة حملات الكراهية ومناهضة الإسلام التي تتبعها شخصيات ومؤسسات مسيحية أصولية في الولايات المتحدة، كما دعا الكاتب إلى تغيير السياسة الخارجية الأمريكية السائدة في الشرق الأوسط خصوصاً في إدارة الصراع الفلسطيني الإسرائيلي ، والضغط على إسرائيل من أجل الانسحاب من المزيد من الأراضي التي احتلتها عام ١٩٦٧ . وأخيراً اعتبر الكاتب أن التأكيد من عدم انتهاك قوانين الأمن الداخلي ومحاربة الإرهاب وإساءة استخدامها يمكن أن يزيد من ثقة المسلمين بحياد المؤسسات الأمنية مما يساعد على تقوية الأفكار والأشخاص العادلين داخل مجتمع مسلمي الولايات المتحدة.

ظهور المفكرين الإسلاميين الجدد

هؤلاء هم "المثقفون المسلمين الجدد". ويضاف إليهم مفكرون غربيون كثرون يحاولون جاهدين إجراء دراسات حول الإسلام ونطجه وتطوراته ومستقبله، فمنهم مغالون في أحکامهم ومتحيزون في استنتاجاتهم، ومنهم الواقعيون الذين يمكن الإستفادة من نتاجاتهم. وهؤلاء سيكون لهم دور كبير في المرحلة القادمة في تطوير أوضاع المسلمين في الغرب. وفي تعاظم دور الإسلام هناك، فهم أكثر نشاطاً من رجال الدين التقليديين وأكثر خبرة وأوسع علمًا وثقافة.

فالاجتماع الذي تم في ليدن بهولندا في أبريل عام ٢٠٠٠ ، وكان موضوعه يدور حول "المفكرين المسلمين والتحديات المعاصرة" .. اجتماع نظمه المركز الدولي لدراسة الإسلام في العالم الحديث، وشارك فيه ١٤ مفكراً جاءوا من ٩ بلدان مختلفة هي الهند وباكستان وماليزيا ومصر وتونس وإيران، واللحظة هنا انه لا أحد منهم يمكن تصنيفه في موطنه أو في سياسة الأصلى تحت بند "المفكرين الجدد في الإسلام" ، إذ أن هؤلاء المفكرين لا يحملون هذا اللقب إلا في إطار من أشخاص ومؤسسات غريبة. وفي كثير من المؤتمرات الغربية المشابهة والمتخصصة

بالأبحاث الدينية تتم دعوة مفكرين حقيقين وشديدي الأهمية والقدرات، وبنفس الوقت فهم في بلدانهم لا يعتبرون من المفكرين.

إن هؤلاء المفكرين يختلفون مع علماء الدين المذهبين ومع المفكرين الطائفيين في كثير من النقاط، فمعظم هؤلاء المفكرين الجدد لا ينتمون إلى طوائف بعينها، إضافة إلى أنهم يتناولون مسائل لا يفكرون العلماء التقليديون، مجرد التفكير في طرحها ، ولا يرغب المفكرون العلمانيون في الإجابة عنها.

إن الحاجة التي أدت إلى ظهور هؤلاء المفكرين المسلمين الجدد تدرج في إطار عملية ديالكتيكية محددة، فظهورهم كان يستجيب من ناحية ما لتطور الصور والأشكال المحلية الحديثة ، التي تسعى للإجابة عن سؤال: "كيف يمكن ان تكون مسلماً؟" وهو سؤال يطرح نفسه في المجتمعات الإسلامية التي تدور في إطار عام من "إعادة صياغة الإسلام" يشمل العالم كله ..فتتأثر به او تقسم بسببه بشكل أو بآخر..وبدرجات مختلفة.

ومن ناحية أخرى، فإن الحاجة التي أدت إلى ظهور هؤلاء المفكرين الجدد تأتي في إطار البحث عن نوع جديد من "الإسلامية العالمية" لمواجهة إرهادات التحديد وما يطلق عليه أحياناً "الاختراقات" العالمية للحضارة الغربية. ولا يمكن فصل ظهور هؤلاء المفكرين عن تطور وسائل المواصلات والاتصالات العالمية "العولمة" ، وهو التطور الذي أدى إلى تغييرات جذرية بدأت منذ جيل كامل في العلاقات بين المفكرين والقوى القائمة في المجتمعات الإسلامية من جهة، وعلى الظروف التي تم فيها التفاعلات في قلب هذه المجتمعات من جهة أخرى. ولابد من إعادة ترتيب وضع هؤلاء المفكرين وتصنيفهم ضمن دورات النهضة والإصلاح، والتركيز على فكرة وضع مسألة الهوية الثقافية في قلب الجدل الدائر حول أهداف التعايش.

جهاز الدفاع عن الإسلام

تكثر على صفحات الأنترنت مواقع معادية للإسلام وتقوم هذه بنشر انتقادات كثيرة للمسلمين وللإسلام، ويطلع عليها الملايين من الزائرين الغربيين. كما وتنشر في الغرب كتب ودراسات وتصريحات معادية للإسلام والمسلمين وتلقى هذه الفتنة والافتراءات آذاناً صاغية تسعى لمعرفة كل جديد.

وهنا يتعين على المسلمين مواجهة تلك الافتئاءات بدراسات جدية وقوية وتناسب مع طبيعة العقل الغربي الذي نريد مخاطبته. ومن بين أولئك المعتدلين: برنارد لويس الكاتب البريطاني المقيم في الولايات المتحدة الأميركيّة والناطق الأدبي والأكاديمي باسم اليمين الديني الأميركي المنحاز للصهيونية، وقد وضع برنارد لويس كتابين معاديين للإسلام وهما "ما الذي وقع" و"أزمة الإسلام"، ويمكن تلخيص الأفكار الأساسية لهما في أن المسلمين يكرهون الغرب وحضارته وديمقراطيته وعلمانيته مجرد أنهم مسلمون، فدينهم وقرآنهم هو السبب في كل هذا، وليس الاستعمار الغربي ولا الاحتلال الأميركي لأفغانستان والعراق، ولا العدوان الصهيوني الأميركي على فلسطين ولبنان. ويعتبر الرد على هذا الصهيوني وعلى افتئاته عملاً جهادياً إسلامياً، ويعتبر التمكّن من الوصول إلى القاريء الأميركي وإيضاح الصورة الإسلامية في ذهنه ودحض كلّ الافتئاءات الصهيونية نصراً لا يقلّ أهمية عن النصر في معركة عسكرية مع الصهاينة.

ولعل أيسر جهاد ممكن أن يقوم به كل واحد منا هو دخوله إلى الواقع الإلكتروني المعادي والمساهمة بكتابه نصوص تعرّف بالإسلام وتدافع عن حققه، ويستطيع الزائر الضعيف باللغات الغربية الإستعانة بالترجمة الإلكتروني ويترجمة كافة النصوص. فتلك لعبة مسلية ومفيدة وينفس الوقت تؤدي غرضاً جهادياً كبيراً وهو واجباً دينياً إسلامياً.

حوار الإسلام مع الثقافات والحضارات

يقول الله سبحانه في سورة الحجرات:

(يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا
ان أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير) ١٦

ان التعارف الذي تدعو إليه الآية الكريمة يقتضي السعي المتبادل لاكتشاف
ما عند الآخر من ميزات وخصائص يستفيد منها ، وذلك يستلزم ابتداء التسليم بأن
الآخر له ما يعطي ويقدم للبشرية . ويجري الحوار وفق نقاط الالقاء والاتفاق ، إذ
يحدزنا القرآن الكريم من الحوار غير المجدى ، يقول الله سبحانه وتعالى في سورة
العنكبوت:

(ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا
بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهموا واحد ونحن له مسلمون) ٤٦

ويحوي القرآن الكريم كمية كبيرة من الآيات الموجهة للمسيحيين أو التي
تحدث عنهم وعن تاريخ وقصص ديانتهم . مما يعكس اهتمام الإسلام بال المسيحية
وبحماورتها بل و يجعلها عند الإسلام جانباً من الدعوة الإسلامية كلها . فقد خصص
القرآن سورة باسم مريم وذكرها بالاسم مرات عديدة ونفس الوقت فلم يذكر اسم
أم الرسول محمد عليه السلام .

مفکرونه عالميون جـ٢

هناك عولة في داخل الجدل الدائر حول طرق وأساليب التحدث الفكري
والسياسي للمجتمعات المسلمة ، وهو الجدل الذي انتهى إلى تقديم "عالم مسلم" ،
يتكون من "مركز" عربي و "فروع" في آسيا الوسطى أو في إفريقيا او جنوب شرق
آسيا . أيضاً انتشرت اللغة الإنجليزية كلغة "العمل" بالنسبة للمفكرين المسلمين
الجدد ، على الأقل هي اللغة التي يستخدمونها في مناقشة أفكارهم .
هم يتخدون من "الغرب" موقعاً لهم: ففي الغرب وحده يمكن لكل واحد منهم أن
يتخذ موقعه ليتحدث عن ضرورة إعادة هيكلة للفكر المسلم . لكن عدداً كبيراً

منهم كان مجبراً على اللجوء للغرب، لفترة مؤقتة أو دائمة، في لحظة ما من مشوارهم، هرباً من الضغوط التي تتم ممارستها عليهم في مجتمعاتهم الأصلية. وأسس هؤلاء المفكرون المركز الدولي لدراسة الإسلام في العالم الحديث، ومركز الدراسات الإسلامية في جامعة "يونجستاون"، والمعهد الدولي للفكر الإسلامي الذي يقع مقره في "هنريتون" بالولايات المتحدة الأمريكية.. كذلك جمعية علماء الاجتماع المسلمين التي تقع أيضاً في هنريتون، ومركز دراسة الإسلام والديمقراطية الذي يقع في العاصمة واشنطن، ومركز العلاقات الأمريكية الإسلامية.

إساءات متكررة للإسلام

قال اللواء ويليام بوبيكين وهو يتحدث في اجتماع الكنائس: "إن المسلمين يعبدون الله مزيفاً". وهذه تصريحات خطيرة تسيء للمسلمين ولدينهم. وتتسم بالعدوانية والوقاحة والطائفية. ويدلّ هذا التصريح أيضاً على وضاعة قائله وعلى جهله وسوء تصرفه. فلم يعد يغرننا اسم شهير أو وظيفة بوبيكين هذا أو هويته الأمريكية فقوله يدل على سخف وحمقى لا تصدر عن رجال عاقلين.

وفي الرابع من آب ٢٠٠٧ صرّح عضو متطرف في الكونغرس الأمريكي بأن الولايات المتحدة إذا ما هوجمت بأسلحة نووية من قبل متطرفين إسلاميين فإنها ستدمّر الأماكن المقدسة لدى المسلمين. وهذا تصريح وقح وتنصف بالحق والكراهية.

وعندما نسمع مثل هذه الاتهامات علينا أن نحاسب أنفسنا على سبب انتلاقها من الآخر وذلك قبل أن نحاسب الآخر ونفهمه. فقبل عقد من الزمن لم تكن مثل هذه الاتهامات والانتقادات توجه إلى المسلمين ولدينهم، حين لم يكن المسلمون يعلّون عن برامج معاداتهم للغرب.

وعكست تلك التصريحات وما تلاها صورة العدائية المتبادلة بين الفريقين. فقد ركزت حكومة بوش اهتمامها على كسب قلوب وعقول المسلمين الأميركيين. وبنفس الوقت بدأت حملة مراقبة ومداهمة واعتقال لكثير من المسلمين الأبرياء في الولايات المتحدة، وحملة عدائية واسعة على مسلمي العالم كله. ومنذ بداية تلك الأحداث بدأت حياة المسلمين الأميركيين تتعرّض. وأصبحوا يعيشون في غربة مقيمة وفي خوف وقلق دائمين.

ثم بدأ المسلمون ينظّمون كيانهم وأرسلوا طلبات لإقامة قاعات للصلوة في المدارس العامة تخصص لأبنائهم خلال فترات الاستراحة. وحول هذا الطلب يمكن طرح السؤال، هل توفر مثل هذه القاعات المخصصة للصلوة في كافة مدارس الدول العربية الإسلامية؟ ثم لنفترض بأننا قمنا بنقل هؤلاء الأميركيين المسلمين إلى إحدى الدول العربية فهل سيطّالبون سلطات حكومتها باقامة تلك القاعات المخصصة للصلوة في المدارس؟ وهل سيقاوضونها إن لم تخضع لمطالبهم؟ بالطبع فإن ذلك لن يحصل على الإطلاق، لأنهم في بلدانهم الإسلامية سيتخلون بعض الشيء عن مشاعر التمييز والطائفية الدينية. وهذا يعني أنهم يمارسونها هناك بفضل الغربة وعدم التمازج مع الآخر.

لقد اتهم الإسلام في الغرب بأنه دين يحمل العنف في منهجه، وبأنه يقهر المرأة، ويسلبها حريتها. وتم تحويله مسؤولية كافة المشاكل التي تعاني منها الدول الإسلامية. وأمام تلك الأخطار الجديدة يفترض أن يقوم كل مسلم بالتعريف بالإسلام وباعطاء الصورة الصحيحة عنه. والأهم من ذلك كله أن يكون هو مثالاً صحيحاً ونموذجاً إسلامياً حقيقياً. فلا تصدر منه تصريحات انفعالية تتسم بالعرقية أو الطائفية.

لكن مقابل ذلك رأينا المسلمين في الغرب كله يكرّسون التمييز والانعزal عن المجتمعات التي هم جزء منها. ويفصلون أنفسهم طوعاً عن الآخرين وينكمش التكتل الإسلامي في كل منطقة ومدينة غربية. وداخل هذا التكتل ومما لا شك فيه

أنهم سيزدادون عزلة وغرية. وسيزداد تبادل الكراهية بينهم وبين مواطنיהם المتعدد الائتماء.

إن كافية الإساءات الصادرة من الغرب تعبّر عن مرضه الاجتماعي وعن فلقه المرضي من الإسلام وعن عجزه على رؤية الواقع على حقيقتها، فهو لا يقدر إلا أن يراها مشوهه. وهذه الإساءات هي من ناحية أخرى تحرش طائفي غربي مقابل صمت عن التحرش الطائفي بالغرب من جهة المسلمين فيصبح المسلمون أكثر وعيًا وحكمة وتعلّماً من الغربيين. يجب ألا ننظر إلى الغرب على أنه أكثر وعيًا وحكمة منا فالغرب يسقط في متاهات ننجو نحن منها بفضل ثقافتنا التي تفوق ثقافته.

تحلّي فلسفـي للمسلمـين نظرـية نهـاية التـاريخ

في كتابه الجديد الذي يحمل اسم (اذبح اقتل دمر) الذي صدر في العام ٢٠٠٧ يعادي فرانسيس فوكو بما صراحة المسلمين ويدعو للقضاء عليهم. ويعتبر أن المشكلة العالمية القائمة اليوم هي في مواجهة المسلمين. وأنهم وحدهم العقبة في العولمة الأمريكية الكبيرة. وفي كتابه السابق الذي صدر منذ خمس سنوات تقريباً يعرض الأمريكي فوكو بما نظرية جديدة ورؤية عالمية جديدة تسود فيها الهيمنة الأمريكية ويواجه فيها المسلمين باعتبارهم الأعداء الوحيدين.

تحدث نظرية نهاية التاريخ عن انتصار الليبرالية الرأسمالية على الاشتراكية واعتبرها الأميركيون الأيديولوجية التي يتوقف معها جدل الإنسان والتاريخ. وإن هذه النظرية تعيد صياغة نظريات صهيونية أو ذات مفاهيم يهودية تعود للقرن الـ ١٩ وما قبله، عبر عنها هيغل وماركس ونيتشيه وغيرهم وتتحدث عن أن مسار التاريخ هو مسار خطبي متضاد. وقد جاءت نظرية نهاية التاريخ الجديدة التي أطلقها الباحث الأميركي من أصل ياباني (فوكواما) كصيغة جديدة للفلسفة الصهيونية التي اعتقدت بأن المحرقة النازية هي نهاية التاريخ، وبأن تاريخ ما قبل المحرقة قد توقف عندها. وعموماً فأطروحات "نظرية النهاية" هي ظاهرة من ظواهر العالم الغربي

المتأثر بالصهيونية. وتكتسى ثوباً وجمالية عصرية، وثبت أنها غير علمية على الإطلاق. وأنها تحيز لرأوية تاريخ الجنس البشري من المنظور الصهيوني الذي تم منحه صفة الغربي وتتجاهل المساهمات الحضارية الأخرى، وهي وسيلة دفاعية للنسخة الحداثية الخاصة بالحضارة الغربية ضد التحديات التي تواجهها والتي يعتبرها الغرب بشكل تهديداً لسلامة وأمن الجنس البشري. ومن السمات الصهيونية لنظرية النهاية أنها تحاول نفي الدين وإعلان نهايته بينما الواقع البشري يشير إلى عكس ذلك، فالعامل الديني يتضاعف عند المسلمين والمسيحيين واليهود، في العقود الأخيرة. وبات من الواضح أنه كلما حاولت الصهيونية ترويج أفكار ونظريات تسعى لتحييد الفكر الديني الإسلامي والمسيحي فإنها في نفس الوقت تقوم بتعزيز الانتقام الديني اليهودي. ونظرية نهاية التاريخ هذه تسعى لتسطيح الفكر الديني عند المسلمين والمسيحيين انطلاقاً من عقائد دينية يهودية، أي اعتماداً على تعميق العقيدة اليهودية وسعياً لبث عقائدها وسيطرة نفوذها كبديل (السمح الله) عن الديانتين السماويتين.

ونتج عن النظريات الصهيونية محاولات تجديد للمسيحية بطريقة تخدم الصهيونية، إذ نكتشف بسهولة أن دعوات تجديد المسيحية في الولايات المتحدة تعنى ترجيح المسيحية الصهيونية على كافة الكنائس المسيحية الأخرى. وتحت ذريعة العلمانية الحديثة يجري استقطاب المسيحية العربية. ويحمل تجديد المسيحية مبادئ القلب على الفصل الثنائي بين الإله والطبيعة والعقل والوحى والأخلاق والنظم الاجتماعية. وحدث تقارب بين منظري العلمانية والمرجعيات الدينية بحيث يدعم العلمانيون المناشط الدينية ويتبنى رجال الدين "لاهوتاً" أكثر مرونة، وهذا اللاهوت المرن، ليس سوى محاولة لتسطيح المسيحية الدينية، لتفسح المجال لسيطرة الصهيونية اليهودية. وهناك توجه جارف لبناء ما يسمى "لاهوت ما بعد الحداثة" الذي لا يعادي العقل أو العلم أو المذاهب الأخرى الدينية نظرياً، بل يعزل دورها ونفوذها في حقيقته. وإنّ لاهوت ما بعد الحداثة ليس سوى نسخة أخيرة عن "لاهوت ما بعد أشوويتز" الذي ابتدعته الصهيونية اليهودية فيما سبق. وتجري في السنوات الأخيرة محاولات

لنقل هذا المركز المزعوم وهذه الفلسفة العنصرية من الولايات المتحدة إلى أوروبا عن طريق الضغط على الاتحاد الأوروبي. ثم وفي ٢٠٠٧ أصدر فوكويا كتابه الجديد بعنوان اذبح افتاك^١. وفيه يحتم المواجهة النهاية بين الغرب والمسلمين ويدعو للتحضير لتلك المواجهة التي يتوجب فيها (حسب عنصريته) إهلاك المسلمين تماماً.

تطرف الإعلام الغربي

الحديث عن الإعلام الغربي وتقييمه لا بد أن يشمل بعض أنواع الإعلام المسمى بالعربي والذي قامت إدارات الغرب بتأسيسه وبمنحه صفة العروبة واستمرت بتوجيهه. ويمكن أن نكتشف المؤسسة الإعلامية التابعة للغرب بعد تقييم نتاجها لمدة طويلة، وبعد تقييم نتائج ثقافتها، والفكر الذي استطاعت أن تثثه متابيعها. ويجب الانتباه إلى الفضائيات الخاصة الكثيرة الناطقة بالعربية والمتنوعة البرامج فإن القسم الأكبر منها موجه ومدعوم من الصهيونية والسياسة الأمريكية. فقد أعلن بوش الصغير بوضوح منذ الهجوم على مركز التجارة العالمي عزمه على الاهتمام بتوجيهه الإعلام الأمريكي (المفسد) للعقل العربي.

بي بي سي العربية إذاعة الطائفية

منذ تأسيسها تؤدي إذاعة بي بي سي العربية دوراً إعلامياً مفيدةً للمواطن العربي، ويرغم تعدد الإذاعات وانتشار الفضائيات فلا يمكن الاستغناء عنها نظراً لتنوع برامجها ولشخصيتها بالتحليلات الإخبارية وبيانها فرص كبيرة للمستمعين العرب بالنقاشات المفتوحة والمفيدة.

لكن ومنذ دخول الجيش الأمريكي والبريطاني إلى العراق توضح انحياز الإذاعة البريطانية لسياسة الأمريكيين والبريطانيين.

ومع هذا الانحياز الشديد الواضح، لوحظ تخصص الإذاعة البريطانية بنقاشات التطرف الإسلامي مع الانحياز الواضح فيها لخلق نعرات طائفية وعرقية، وافتعال

خلافات داخل كل مذهب إسلامي. كما لوحظ فيها توجيهه الأنظار إلى آراء وانتقادات متعددة حول أصحاب المذاهب الإسلامية الضعيفة الانتشار كاليزيدية والبهائية والأحمدية والصابئة.

وتقوم BBC بالبحث عن أخبار وأحداث صغيرة تحمل سمة الطائفية لم ينتبه إليها أحد أحياناً، وتقوم بتعظيمها وتسخيرها لتعزيز الخلافات والاقتتالات بين المسلمين. فتعد برامج طويلة عن هذه الأحداث الصغيرة التي لم تعرها الوكالات الأخرى أهمية، وتجري حوارات تستفز بها المتحاورين والمستمعين. (ومن تلك الأخبار مثلاً قولها: تقدم مواطن يزيدي بشكوى إلى الحكومة العراقية...).

ومن خلال التتبع الطويل المستمر لنتائجها أمكننا تحديد هذه النقاط:

مع بداية الغزو الغربي للعراق صاحت الـ BBC دوره برامجية جديدة تخدم موقف الغزاة بوضوح، فأصبحت الإذاعة بنتائجها إذاعة حرب عسكرية.

اتخذت الإذاعة قواعد جديدة صارمة نلاحظها في برامج الحوارات الكثيرة والطويلة، ومنها : منع المحاور من ذكر آية قرآنية أو حديث نبوي كشاهد على رأيه. وفي هذه الحال يلجم المذيع دوماً إلى إسكات المحاور أو تحبيده عن ذكر النص القرآني أو إخراجه من الحوار نهائياً. ومن ناحية أخرى نلاحظ أن المذيع يحاول إسكات المحاور الذي يدافع عن مبدأ وحدة إسلامية ، وإسلام واحد ، ووحدة إسکات المحاور حضاري بين الإسلام والمسيحية أو بين الإسلام والغرب. وبينما الوقت يقوم المذيع بتشجيع المحاور الذي يتحدث عن وجود طائفية ومذهبية وعن اتساع الخلاف بين الشرق والغرب، وعن انتقاد لأي نوع من البنى الإسلامية والعربية. وهذا المحاور المنتقد سيعطى وقتاً طويلاً في الحوار. كما لوحظ أن المذيع يحاول الإيقاع بالمحاور وسحب بعض العبارات والموافق منه تلك التي لا يريد هو قوله. لكن أسلوب المذيع وضغوطاته تفرض على المحاور أن يتأنّى ما لا يريد قوله، اذ يقول المذيع كثيراً للمحاور: "... أنت تضع اللوم اذا على الدين" فما هو الحل برأيك .. " او يقول المذيع للمحاور : ". أنت ترى أن المشكلة في الإسلام نفسه اذا.." ومن طريقة الرد والجواب يتبيّن لنا أن المذيع أراد

إيقاعه في ورطة. فالمذيع خبير في فنون قيادة الحوار وإيقاع المهاور. وما إذاعة BBC إلا نموذج من الإعلام المضاد والكثيف الذي يوجه ضد المسلمين في العالم كله.

راديو سوا إذاعة القيامة

من أهم الأعمال الإعلامية التي ابتدعتها عبقرية جورج بوش الفذة لمحاربة العرب والمسلمين، كانت فضائية الحرّة وراديو سوا. ومن شدة عبقرية بوش أنه أوقف إذاعة أمريكية قديمة كانت تسمى صوت أمريكا، وكانت تحوي برامج حضارية ومفيدة، وكانت قادرة على جذب المستمعين ومنحهم فكراً وثقافة وأخباراً وفوائد عديدة. وبحلول راديو سوا محل صوت أمريكا نفهم أن جورج بوش لا يريد أن يمنع المستمع العربي أية معلومة مفيدة. بل يريد أن يضع مستمعين جددًا في فوهة بركان دائم. وهذا ما يفعله راديو سوا. إنه إذاعة موجهة لأشخاص غير موجودين على الإطلاق في الوطن العربي كله. إنه إذاعة معركة تدور رحاما طوال ٢٤ ساعة، وتلك المعركة الإعلاميةلامبر لها عند أحد من المستمعين العرب. إنه إذاعة تدمير وإحباط وفوضى دائمة وضجيج وهلوسة، والمستمع العربي ظلّ دوماً أكبر من تلك المحاولات التضليلية السخيفة. إنه إذاعة تدمير لكافّة القيم العربية والإسلامية والوطنية، وإنّه الإذاعة الوحيدة التي لم تلق أذناً واحدة صاغية من المحبيط إلى الخليج. هذا هو المشروع الإعلامي الذي اعتبروه قبلة العصر، والذي تحدث عنه جورج بوش عدة مرات، والذي جاء نتيجة لدراسات وأبحاث ومحطّطات سياسية وإعلامية أمريكية. وتبين من ذلك المشروع أن واضعيه الحكماء لا يعرفون شيئاً عن شعوبنا. ونعتقد بأنّ هذا الإعلام الوطني سيختفي بعد رحيل جورج بوش.

الاتجاه السلبي في العلاقة مع الغرب

ان ما يحدث بين الإسلام والغرب في السنوات الأخيرة يمكن تسميته بأدلة متبادلة للعلاقات سلباً. وهذه الأدلة مستمرة بين الطرفين وهي تتضاعف كل يوم،

ويتم تغذيتها باستمرار وبكثافة بحيث لا يظهر أي تأثير يذكر لمحاولات البعض القليل برقة التمزقات ومحاولات التقرير بين الجانبين. وإن الجهود والمحاولات التوفيقية بين الجانبين تتطرق من الجانب الغربي بقدر ما تطرق من جانب المسلمين، وهذا يعكس الرغبة الغربية الحقيقية في التوفيق بين المسلمين والغرب كله. ورغم تبادل هذه المحاولات التوفيقية الضعيفة فإن موقف العدائية والاتهامات، وهو السائد، يكبر ويتزايد وتم تغذيته في أوساط الطرفين.

وماهذه إلا ثقافة تسميم متبادلة تسم بالإنكار والتشكيك. إذ يقوم كل جانب بنكران الآخر تماماً وبالتشكيك به. وفي الوقت الذي يتهم المسلمون الغرب بأنه يمتلك معايير ازدواجية ويعامل بها مع العرب والمسلمين فإن المسلمين أنفسهم يمتلكون تلك المعايير ويعاملون بها مع الغرب. حتى أصبحت هذه المعايير مشتركة عند الفريقين ومتبادلة. فالمسلمون عموماً يسكنون عن إدانة أعمال العنف التي تستهدف الغرب، (ونقصد بها تفجيرات لندن ومدريد) ورغم صدور بعض التصريحات عن المؤسسات الرسمية من هنا وهناك فإن الرأي السائد في الشارع الإسلامي وهو الأكثر أهمية وهو الذي يدل على الحقيقة السائدة، وهو السند المعتبر عن فكر الأمة الإسلامية هذا الرأي يسكت عن تلك الاعتداءات ويزورها ضمناً على أنها إحدى مستلزمات معركة الإسلام مع الغرب.

فنون تحرّك الوجهة الثقافية الدينية

صورة للمسيح تتماهى مع صورة لأسامي بن لادن

عرضت في إحدى صالات سيدني الفنية لوحات جديدة من نوعها وأحدثت ضجة كبيرة وغضباً في الأوساط المسيحية. ولم يعلق عليها المسلمون هناك. وقد أشارت مسابقة للفن الديني انتقادات بسبب بعض الأعمال الفنية التي تضمنتها وأظهرت صورة للمسيح تتماهى مع صورة لأسامي بن لادن. ويعكس هذا الفن الجديد مفهوم الغربيين تجاه أسامي بن لادن وتتجاه المسلمين عموماً. ونحن كمسلمين وانطلاقاً من حبنا الكبير وتعظيمنا للسيد المسيح فإننا لانتقبل مثل هذه الرسوم التي تشبه المسيح

برجل عادي من بيننا. فاليسوع مكانة عليا وسط الأنبياء وهذه المكانة تجعله أسمى من هذه التشبيهات. وما لاشك فيه أن كافة مشايخ المسلمين يؤيدون هذا الرأي.

تمثال للعذراء يرتدي البرقع الأفغاني

كما كان في نفس المعرض السابق وبين الأعمال التي أثارت استهجان البعض تمثال للسيدة العذراء يرتدي البرقع الأفغاني.

وفي هذه الأعمال الفنية تقارب ديني ما. وتفاعل بين الإسلام والمسيحية. هذا التفاعل كان حاضراً في أذهان الفنانين الذين ابتدعوا تلك الأعمال. ويدرك أن كافة الأعمال الفنية التي تصوّر العذراء تجعلها ترتدي حجاباً يغطي رأسها. وغالباً ما يكون هذا الحجاب أبيض اللون. ويعتقد فنانو مؤرخو الغرب بأن هذا الحجاب هو من أصل سوري. ويطلقون عليه اسم (فولارد سيريان) ولما كانت كافة الصور تلبس السيدة العذراء فولارا - حجاباً إسلامياً حسب مفهومنا - فليس جديداً كل الجدة أن تلبسها صورة حديثة برقباً أفغانياً أزرق اللون. ولأنَّ العالم المسيحي اعتاد أن يصوّر العذراء برسوم وتماثيل متعددة فنحن نذكر بأن إسلامنا الذي يمنع العذراء مكانة سامية بين نساء البشرية يمنعنا من تشبيهها بأي صورة متخيلة يبتدعها فنان.

اتهام هيفاء وهبي بالإساءة للمسيحية

اتهمت هيفا في لبنان بالإساءة إلى الكنيسة والمسيحيين، بسبب ظهور صليب ضخم على الحاجط، في خلفية مشهد استعراضي راقص نفذته مع مجموعة فتيات في فيديو كليب وغضب المطران جورج رحمة من الموضوع، وأشار رحمة إلى أن الاتصالات الهاتفية انهالت عليه، منتقدة العمل "الذي يمسّ مباشرة مشاعر المسيحيين". لكنه يستدرك ويقول إن الكنيسة لا تملك سلطة إلا على أبنائها، ولا تستطيع فرض أي حكم على هيفا، لكونها مسلمة كما يقول. واعتبر رحمة أن مسؤولية المؤسسة الدينية تكمن في منع كل ما يمسّ القيم الروحية والأعراف والتقاليد، مذكراً بحادثة سابقة، حين تدخلت الكنيسة منذ 8 سنوات، ومنعت

فرقة موسيقية غربية من إحياء حفلة غنائية في لبنان، بسبب كلمات أغانيها المهينة لل المسيح والديانة المسيحية. ويدل الاحتجاج الكنسي اللبناني على أمرتين مهمتين: فالكنيسة اللبنانية العربية محافظة على قيمها الدينية وهي تميّز بهذا عن كنائس الغرب التي تسمح بأعمال كثيرة تسيء للمسيحية وللمسيح نفسه أحياناً. فالكنيسة اللبنانية ملتزمة بالقيم الدينية وهي بذلك توازي المدارس الإسلامية الملتزمة بأحكام الدين. ثم إن المنطق الديني الإسلامي يحتج على أعمال تسيء للمسيحية ويحتاج على التعرى والخلاعة داخل كنيسة يقوم المؤمنون بالعبادة فيها. وإن الاحتجاج على ماصورته هيما لا يرتبط بكونها مسلمة شيعية فهي بأدائها الفني تتصرف وفق الثقافة العامة الدارجة في لبنان والوطن العربي وهذه الثقافة هي مزيج وبنفس الوقت فهي نتاج ثقافي اجتماعي عام هو بنفس الوقت موجود عند المسيحيين وال المسلمين. وهذا المزيج الثقافي هو المسؤول عن تصرف هيما، وهو من ناحية أخرى دليل على الوحدة الثقافية بين المسلمين والمسيحيين العرب. فقبل أن أطلع على هذا الخبر كنت لا أستطيع أن أقرر بأن هيما مسلمة أم مسيحية ذلك لأن الثقافة العربية واحدة.

الغرب وتحدي الأصولية الإسلامية

لقد وقع الغرب في متاهة وورطة بصدامه مع الأصولية الإسلامية. ولن يستطع أن ينقد نفسه من تلك الورطة. خاصة وأن تلك الأصولية أصبحت من أصل غربي وأوروبي ومسيحي. ولن يقدر الغرب على مواجهة الأصولية الإسلامية كما هو واضح. فقد ثبت أن الدول الإسلامية هي الأقدر على مواجهة هذه الأصولية. وثمة عدة أسباب لذلك. فلبنان الذي يوصف بالضعف السياسي والبنيوي والأمني استطاع أن يقضي على معلم كبير للأصولية في مخيم نهر البارد. بينما الغرب يبدو اليوم متورطاً في معركته مع الأصوليين الإسلاميين ولن يقدر على وضع حد لهذه الظاهرة بل إنها تتزايد وتتمو باستمرار في الغرب كله وتصبح كل يوم أكثر خطراً على الغرب كله. ذلك لأن الغرب ليس مسلماً بشكل عام وهنا يكمن السبب في عجزه المستمر.

يفسر الغرب الأصولية الإسلامية انطلاقاً من أطروحتات متباعدة وهو ما يؤدي إلى خلاصات سياسية متعارضة. ومما لا شك فيه أنَّ الغرب متورٌ ومرتاب في شأن مواجهة الأصولية الإسلامية. فهو يقوم بأعمال تجريبية كثيرة ويخطيء في الكثير منها. وخيارات الغرب في هذا محدودة، لأنَّه أضعف من مواجهة تلك الأصولية رغم صغر حجمها.

وتحبط تصريحات الغرب وتساقض كثيراً مما يدل على عجزه عن المواجهة. وسيظلُّ الغرب يتغبط في مشاريع المواجهة لأنَّ حسابات الأرقام والحاوسوية التي يعتمد عليها في مواجهاته لا يمكن أن تفيده في فهم ومواجهة التطرف الإسلامي. فقد وقع الغرب فعلاً في ورطة مواجهة الأصولية ولن يخرج من هذه الورطة أبداً إلا بواسطة الحوار الحقيقي والمتوازن معها.

أطروحة الصدام الحتمي بين الحضارات

من الأطروحتات الأكثر شيوعاً اليوم تلك التي تشير إلى الصدام الحتمي بين الشرق المسلم والغرب المركب العقائدي. والتي تفسر الأصولية كرد فعل على الإمبريالية الغربية وترتبطها بحركات أخرى منتسبة إلى العالم الثالث. وعلى العكس تدافع عن أطروحة "صراعات التحدي" التي لا ترى الأزمة الحالية صراعاً بين الغرب والإسلام بمقدار ما هي نتيجة لصراعات داخلية تتبع من مسار التحدي في العالم الإسلامي.

فكرة أن العلاقات بين الغرب والإسلام لا تسير على ما يرام فكرة راسخة لدى مواطني العالمين كما يظهر ذلك استبيان مركز أبحاث (Pew) فغالبية من تم استجوابهم في البلدان الغربية كما في البلدان الإسلامية اعتبروا أنها سيئة. على سبيل المثال كان ذلك رأي ٦١٪ من الأسبان، لكن ما يلفت الانتباه هو أنه من بين كل العينات المستجوبة في ١٢ بلداً ظهر مسلمو إسبانيا الأكثر تفاؤلاً فقد اعتبر أكثر من نصفهم أنها علاقات جيدة. أبرز ما يأخذه المسلمون على الغربيين، حسب نفس المركز، هو كونهم أنانيين وعنيفين ومنحطين أخلاقياً، وفي المقابل يرى الغربيون في المسلمين أشخاصاً انفعاليين وعنيفين.

أما عن سوء الفهم المتبادل على أساس دينية صرفة فيظهر استبيان أجراء نفس المركز عام ٢٠٠٥ أن ٦٣٪ من الأتراك و٥٨٪ من المغاربة و٥٧٪ من الإندونيسيين صرحوا بأن لديهم صورة سلبية عن المسيحيين والغالبية في كل البلدان الإسلامية لديها صورة سلبية عن اليهود. رأي الغربيين عن المسلمين ليس بهذا السوء لكن ٥١٪ من الولنديين و٤١٪ من الألمان و٣٤٪ من الأسبان يصرحون حسب الاستبيان المشار إليه بأن لديهم صورة سيئة عن المسلمين وتنخفض هذه النسبة بشكل معتبر في المملكة المتحدة والولايات المتحدة.

وبالتأكيد فإن وضع القيم والتصورات السائدة في البلدان الإسلامية والغربية في مواجهة يعتبر تبسيطًا إذ لا شك أن هناك فيما مشتركة، وفي بعض المجالات هناك اختلاف كبير بين البلدان الغربية نفسها كما يبدو ذلك الاختلاف أكبر بين العديد من البلدان الإسلامية. الديمقراطية مثلًا تمثل قيمة متقاسمة وبالرغم من أن بلدانا إسلامية قليلة تنعم بها فإن أغلب المواطنين فيها يقاسمون الغربيين التوجه. وبحسب استبيان فإن نسبة من يؤيدون الديمقراطية تتراوح ما بين ٩٨٪ و٩٥٪ في العالم الإسلامي كما في العالم الغربي. على المستوى الديني الفروق كبيرة، وإذا كان المسلمون يتميزون بتدينهم فإن ما يستحق الملاحظة هو الفرق بين الأوروبيين والأمريكيين، ففي الرد على سؤال (ما أهمية الله في حياتك) في استبيان وضع الرقم ١٠ كحد أعلى والرقم ١ كحد أدنى جاءت النتيجة في أكثر من نصف البلدان الإسلامية فوق الـ ٩، لكن نفس الأمر حصل في المكسيك وشيلي. الأرجنتين والولايات المتحدة جاءت فوق الـ ٨ بينما جاءت أسبانيا تحت الـ ٦ وهبطت في كل من بريطانيا وفرنسا والسويد تحت الـ ٢.٥. ولإثبات الفرق بين الدول الإسلامية نفسها فلا شيء أفضل من إلقاء نظرة على معدل الأبناء لكل سيدة: في أفغانستان واليمن أكثر من ٦ وفي فلسطين أكثر من ٥.٥ أكثر من ٤ أطفال لكل سيدة في العراق وباكستان وال السعودية، لكن أيضًا طفلان فقط لكل سيدة في إيران وتونس. ويصل المعدل إلى فوق الاثنين بقليل في إندونيسيا والجزائر والمغرب. وللمقارنة نذكر أن نفس المعدل في الولايات المتحدة هو ٢ وفي فرنسا ١.٩ وفي ألمانيا

وإيطاليا وأسبانيا ١٣ وإن إلى حد بعيد تتقاطع قيم الحياة الخاصة فالأمريكيون والفرنسيون والإيرانيون يتقاسمون إلى حد ما نفس العقلية.

لكن وبالرغم من كل الدلائل التي تؤكد الاختلاف الداخلي في كلا العالمين فإنه لا بد من الاعتراف بأن سوء التفاهم الحالي بين الغرب والإسلام يمثل مشكلة خطيرة لأن العلاقة بين هذين الطرفين مفصلية بالنسبة لمستقبلنا. من خلال النظرة الأوروبية تحديداً لدى العلاقة مع الإسلام أهمية أساسية وذلك على الأقل لأربعة أسباب: قابلية التوتر في العالم الإسلامي، والعوز الأوروبي في مجال الطاقة وموجات الهجرة والذي أدى من بينها جميعاً إلى أن تتحول قضية العلاقة بين الغرب والإسلام إلى قضية بمنتهى الأهمية هو تدويل الإرهاب الجهادي الذي ترجم في عمليات لا تميز أحداً تستهدف المدنيين الغربيين. هذا العامل يطفئ على العوامل الثلاثة الأخرى المشار إليها فاسباق نحو الإرهاب جعل الصراع الفلسطيني الإسرائيلي أكثر دمودية وكذا الأزمة اللبنانية والجزائرية، وفي هذه الأيام يحصل الشيء نفسه في العراق،.

وإن مشاركة مسلمين أوروبيين في عمليات ارتكبت في أوروبا وانطلقت منها يعتبر العنصر الأكثر إثارة للقلق في العلاقة مع الجاليات المسلمة في أوروبا. الإرهاب الذي يدعي أنه استجابة لنداء إلهي بالدفاع عن الإسلام يشكل المظهر الأكثر عنفاً لحركة أوسع تسمى عادة بطرق مختلفة: الإسلامية، الأصولية الإسلامية، والإسلام المتشدد، هدفها هو إخضاع المجتمعات المسلمة لحرفية النصوص الأولى للإسلام، وهذا الاتجاه للعودة إلى الأصول يصاحب رفضاً صارماً لغالبية القيم الأساسية للحداثة التي يقدمها الإسلاميون الأصوليون على أنها بدع قادمة من الغرب لا تتواءم مع الإسلام.

ولمعرفة حجم التهديد على الغرب الذي يشكله الإسلام الأصولي وتحديداً الإرهاب الجهادي لا بد من تحديد الجذور التي تشرح الظاهرة بشكل أفضل. وإذا بسطنا الأمر قليلاً فيمكن القول إنه تم اقتراح ثلاث أطروحات وهي صدام الحضارات، وردة فعل العالم الثالث، وصراعات التحديث.

إنَّ الطرح الغربي المنحاز يفسِّر الإرهاب الجهادي كتواصل، بأساليب جديدة، للتمدد الإسلامي الذي بدأ في زمن محمد [صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ]. ويعتبر أنَّ القاعدة تستأنف ضدَّ الغرب الصراع الذي خاضه الأمويون والمرابطون والموحدون والعثمانيون. ويزعم هذا الطرح أنَّ أيديولوجياً بنادن تجد لنفسها جذوراً في القرآن نفسه الذي يحوي نداء لقتال غير المؤمنين. ومن يتبناون هذه النظرية يعتبرون أنَّ كلَّ المسلمين لديهم نفس الهدف كما يرون في مسلمي أوروبا طابوراً خامساً كامناً. وعليه فيعتبر الغرب نفسه في صدام مع الإسلام كالصراع الذي خاضه الغرب ضدَّ المُعسِّك السوفياتي.

لا شك أنَّ المسلمين المتشددين وحتى الإرهابيين الجهاديين يؤسِّسون فكرهم على نصوص إسلامية مقدسة والنداءات الواردة فيها للجهاد ضدَّ غير المؤمنين. من جانب آخر فإنَّ التعاطف لدى قطاعات واسعة من المسلمين مع الأصولية الإسلامية وحتى مع "الإرهاب" الموجه ضدَّ الغرب يفسِّر جزئياً بالشعور بالظلم تجاه الغرب وهو شعور ليس آتياً من فراغ.

رؤيه أخرى للأزمة

هذا طرح آخر للمشكلة يعكس اتجاهًا شائعاً بين قطاعات مهمة من المثقفين الغربيين مؤدِّاه تحويل الغرب كلَّ شرور العالم. وعلى هذا الرأي فالإسلاموية حسب هذا الطرح ليست ظاهرة دينية ولا هي تواصلاً للمد الإسلامي بأساليب جديدة بل إنَّها رد فعل على الإمبريالية الغربية. فالخطيئة الأولى كانت الاستعمار الأوروبي وتفاقمت المشكلة بإنشاء دولة إسرائيل الغربية وتبعتها التدخلات الغربية في العالم الإسلامي وبالدعم الغربي سواء لإسرائيل أو لأنظمة عربية. وفي الجملة تمثل الإسلاموية، فضلاً عن خطابها الديني، مظهراً جديداً للحرب ضدَّ الإمبريالية، وهي في النهاية رد على ظلم النظام الدولي الذي أقامه الغرب. ومع كون هذا الطرح يتقاطع مع النسبة الثقافية فهو يقدم دوماً مصحوباً بنقد للادعاء بأنَّ القيم الكونية التي يدافع عنها الغرب هي أرقى من القيم الإسلامية.

إن المقاربة المؤسسة على صدام الحضارات ستتحول مجرد الصعوبات في العلاقات البنية إلى مواجهة لا يمكن حلها. وعلى أرض الواقع لا يوجد صدام كوني فالازمات التي يعاني منها العالم الإسلامي ليست في أغليها نتيجة صدام بين الإسلام والغرب بمقدار ما هي أزماتأهلية داخل المجتمعات الإسلامية. الصراع في العراق على سبيل المثال، وإن بدأ بسبب القرار غير الخاطئ الذي اتخذه بوش وحلفاؤه بالتدخل في العراق، فإنه في جوهره صراع طائفي بين الشيعة والسنّة، وتكتفي نظرة على ضحايا التفجيرات لفهمه. كذلك فإن الأقليات المسلمة في أوروبا لا تشكل طابوراً خامساً معادياً وإن كانت تظهر فيها نزعات فردية إلى التشدد. لكن الأهم هو أنه لمحاربة الإرهاب الجهادي فليس من الحكمة إعطاءه الحجة ليثبت أن الإسلام والغرب غير قابلين للاتفاق. بل على العكس سيكون التعاون الأمني مع الحكومات الإسلامية ذا جدوى كبيرة.

التعاون الأمني مع الحكومات الإسلامية يؤدي دون شك إلى الصدامي الذي لا ينفي اتباعه لن يتبنون نظرية "رد فعل العالم الثالث" المعضلة أنه بالموافقة على هذا الطرح فلن يكون تقريراً بإمكان الحكومات الغربية عمل أي شيء: تعزيز العلاقات التجارية مع العالم الإسلامي سيعتبر تشجيعاً لعملية ينظر إليها بسلبية، والتدخل في مهمات سلام في بؤر النزاعات كأفغانستان مثلاً سيعتبر نمطاً من الإمبريالية، ودعم الحكومات الإسلامية القائمة سيعتبر تواطئاً معها، وانتقاد الأصولية الإسلامية سيكون إظهاراً للعنصرية والمركزية الغربية. ومن هنا فهذا الطرح ينتمي إلى عالم النقد الثقافي أكثر مما ينتمي إلى العمل الحكومي، غير أنه بمجرد أن يحظى بحضور إعلامي وثقافي قد يمكنه نزع الشرعية عن السياسات المتبعة.

أسباب تطرف الشباب

كثيرة هي الأسباب التي قدمها الدارسون لتفصير تصاعد أوج الأصولية وليس من السهل تقييم الأهمية النسبية لكل منها. فمن العوامل المهمة دون شك الشعور بالهزيمة وأشواق الماضي المشرف والمعاناة من بعض نتائج التحديث، ورد فعل الهوية

ضد النفوذ الغربي، وال الحاجة إلى آفاق للأجيال الشابة، واستخدام التقنيات المعلومانية. وفي حالة مسلمي أوروبا: الشعور بالتهميش في المجتمع الذي يعيشون فيه. لدى العالم الإسلامي والعالم العربي بشكل خاص، باستثناء الثروة البترولية، القليل من الأسباب للشعور بالرضا عن إنجازاته في العقود الأخيرة. فمستوى حياة الشعوب مترد ومن ثم فوتها مجموعة صغيرة من البلدان الإسلامية الغنية بالبترول هي التي توفرت على معدلات نمو مرتفعة. ورغم ثراء منابع تلك الدول فإننا نجد فقراء معدمين في مجتمعاتها. كيف لنا أن نقبل بأن الدولة التي تصدر أكبر منتوج من النفط عالمياً هي نفسها نجد في مجتمعاتها آلاف الشحاذين المنتشرين في الطرقات والأزقة.^٥

يتمتع العالم الإسلامي بموارد لها أهميتها على الصعيد الدولي بينما يغيب له أي حضور مهم في مجالات العلم والتقنيات والثقافة والرياضة. ويتعزز الشعور بالهزيمة، وخاصة في العالم العربي، بسبب التوسع الذي تمارسه إسرائيل ضد الشعب الفلسطيني، وهي الدولة الصغيرة المكونة من أقلية دينية طالما عاشت متفرقة بين المجتمعات العربية. كل هذا يخلق شعوراً متقارساً بالخيبة وخاصة لدى أمة تشعر بأنها تملك زمام الحقيقة الدينية الكونية وتتذكر ماضياً مليئاً بالأمجاد.

الهوية الإسلامية رد فعل على الخطر الغربي

يرى الكثير من المسلمين في الغرب تهديداً مزدوجاً. في قوته الاقتصادية والعسكرية وخاصة في حالة الولايات المتحدة ومن جانب آخر في نفوذه الثقافي الذي ينظر إليه كمصدر للانحلال الأخلاقي، الذي يخشى المسلمون أن يمسّ أبناءهم. وإن ٦٠٪ من الأردنيين والمصريين والإندونيسيين والأتراك والمسلمين البريطانيين يرون في الغربيين - حسب استبيان مركز (PEW) أناساً منحطين أخلاقياً.

لكن هذه النسبة تنخفض إلى ٢٠٪ في حالة المسلمين الأسبان والفرنسيين والألمان^(٧). ومقابل ما يراه المسلمون الغربيون من أخطار غربية على ثقافتهم ودينهم ومجتمعاتهم يطفو على السطح تمسكهم بالدين وقيمه.

بل ويذهب البعض أكثر من ذلك فيتمسكون بال מורوث الثقافي الدخيل على الإسلام. وأخرون يصبحون متطرفين أو حركيين. وينطبق رد الفعل هذا على المسلمين في العالم كله.

انعدام الآفاق للأجيال الشابة

تزداد جاذبية الأصولية وحتى الإرهاب الجهادي بسبب انعدام آفاق تستوعب الأجيال الجديدة التي تلاقي مصاعب جمة في الحصول على فرص عمل تاسب تطلعاتها، وهذا الأمر هو نتيجة الركود الاقتصادي إضافة إلى التحولات السكانية وهي أمور حصلت في البلدان الإسلامية وفي العالم الثالث عاماً بشكل أسوأ مما حصل قديماً في الغرب.

لقد انخفضت نسبة الوفيات بسرعة وبالرغم من أن نسب الخصوبة بدأت في الانخفاض فإن الوضع الحالي هو الزيادة الكبيرة في نسبة الشباب، وبعبارة أخرى فإن من يدخلون سنوياً إلى سوق العمل هم أكثر بكثير قياساً إلى قدرة النظام الاقتصادي على توفير فرص شغل لهم.

هذا الأمر يتفق مع ما أبرزته دراسة أجريت على مستوى العالم من أن الزيادة في نسبة الشباب تعتبر مؤشراً ذا علاقة إحصائية قوية جداً بظهور النزاعات المسلحة.

懋رات التحريث الإسلامي

لابد من الرجوع إلى الطرح القائل بأن الأصولية الإسلامية والإرهاب الجهادي ينبعان من احتقانات داخل المجتمعات المسلمة لكن يمكن فهمها في إطار المسار الكوني للحداثة. ففي القرون الثلاثة الماضية عرفت البشرية تغيراً جذرياً في البنى

التي تحكم حياتها سيؤدي بها بالضرورة إلى أقلمة نظمها القيمية والقواعد التي تملئها عقلياتها التقليدية، وهذه الأزمة يمكنها في نفس الوقت تسهيل صعود أيديولوجيات شمولية تتبنى استعادة القيم التقليدية أو فرض قيم أخرى عن طريق اللجوء إلى العنف والسلطان. ففي إسبانيا، مثلت "الفرانكوبية" محاولة لفرض قيم إسبانيا الإمبراطورية وقيم الكاثوليكية المتزمتة على مجتمع متعدد، وفي أوروبا في القرن العشرين قادت المحاولات المثالية لإقامة عالم جديد على قطعية مع التقاليد الإنسانية للغرب إلى الانحرافات السтаلينية والنازية. ولم يكن طريق التحديث لا في أوروبا ولا في آسيا الشرقية سلماً ولا معبداً بل صاحبته طيلة القرن العشرين أزمات على درجة عالية من العنف. ومن هذا المنظور التاريخي لن يكون مفاجئاً أنه في الكثير أيضاً من البلاد الإسلامية تعبّر مسيرة التحديث التي بدأت في القرن العشرين مصحوبة بانتشار للأزمات وازدهار للأيديولوجيات المتطرفة. ومن المؤكد أن الأصولية الإسلامية - وعلى خلاف النازية والستالينية والماوية - تأسس على مبادئ دينية تقليدية ومثلها الأعلى ليس في المستقبل بل في ماضٍ مثالى، لكن يجدر التذكير بأنه في إسبانيا كانت الحروب الدينية التي أدمت كل القارة خلال القرنين ١٦ - ١٧ تحضيراً لأوج العلمنة التي بدأت في القرن الثامن عشر، ومثلت تجربة "خينريبا د كالبيينو" خصوصاً تجربة حكم لا هوتي وهي من حيث مراقبتها للحياة الخاصة للمواطنين لا تبتعد تماماً عما تسعى إليه الأصولية الإسلامية.

الصراعات والحروب

تساهم الصراعات والحروب بين الشرق والغرب في تعميق الخلاف بين الطرفين. حكومات وشعوبياً، ومن جديد أصبحت هذه الصراعات علامات استفهام كبيرة تدعى شعوب الشرق والغرب للتفكير بالأسباب والبحث عن الحلول. وأصبحت هذه الصراعات والتي هي عدوانية غريبة للمسلمين. أصبحت علامة استفهام كبيرة للغربي اكتشاف من خلالها زيف أنظمة حكوماته ونفاقها وأكاذيبها. وبالتالي أصبحت عاملأً إيجابياً في أسلمة أوروبا ومناصرة الغربيين للقضايا الإسلامية.

الحل السلمي للصراعات يعتبر بالتأكيد عاملاً مهماً للتقدم وهو أيضاً أساسياً لتخفيض شعور المسلمين العدائي تجاه الغرب. ومن الصعب طبعاً التفاؤل على المدى القريب، إذ تبقى المخاوف قائمة من أن يتواصل الصراع الفلسطيني الإسرائيلي ومن أن يتأخر الوصول إلى تفاهم ينهي حالة الحرب الأهلية في العراق، ومن أن يؤدي البرنامج النووي الإيراني إلى ضغوطات خطيرة.

وكل هذا قد يفرض على القوى الغربية الاستبدادية اتخاذ قرارات صعبة وغير مضمونة النتائج وقد يوقع المنطقة في أتون حرب ضروس مدمرة.

إنه ليس أمام العرب والمسلمين سوى التفاوض مع الشعوب الغربية واستمالتهم والتعاون معهم وضمّ أصواتهم إلى صوت الحق وعزل قرارهم عن قرار النظام الحاكم المستبد في الغرب. ونقصد بالشعوب الغربية هنا قطاعات الجماهير والمجتمعات المدنية والدينية والهيئات الأخرى ورجال الثقافة والفكر والصحافة وغيرهم.

النظام العالمي القائم

تعاقبت على مدار القرون الخمسة الفائتة مجموعة من الدول الكبرى في الهيمنة على العالم. مثل (الدولة العثمانية)، ثم إسبانيا والبرتغال، وبعد الحرب العالمية الثانية استقرت الـهيمنة على العالم للاتحاد السوفيتي، والولايات المتحدة.

ومنذ عام ١٩٩١ بدأت الولايات المتحدة تمدد سيطرتها على العالم وتعمل على إقامة نظام عالمي جديد.

وبدأت الولايات المتحدة ودول الاتحاد الأوروبي بالبحث عن طاقة جديدة تكون البديل عن البترول الإسلامي في حال قام المسلمون بقطعه عن الغرب. بل إن الدول القوية قد تقوم بتدميره حين لا تعود بحاجة له وتحرم دول النفط من الاستفادة منه أو تسخير عوائده ضد الغرب.

عرف المفكر الاستراتيجي الأميركي جوزيف ناي "القوة" بأنها: "القدرة على التأثير في الأهداف المطلوبة، وتغيير سلوك الآخرين عند الضرورة بالقوة أو بالثقافة أو بالضغوط الاقتصادية".

وترتبط القوة بالموارد، فتكون المحصلة التطبيقية لفهم القوة ومصادرها بالنسبة للدولة هي امتلاك عناصر معينة امتلاكاً متفوقاً أو مؤثراً، مثل السكان، والإقليم الجغرافي، والموارد الاقتصادية الطبيعية والتجارية، السياسي. وتضاف إليها الصناعات.

والعدد الكبير للسكان يشكل مورداً كبيراً للدولة يعطيها زخماً اقتصادياً وصناعياً، واقتصاداً قوياً. ولعل أهم سبب في انهيار الاتحاد السوفيتي كان في ضعف انتاجه واقتصاده. فالاقتصاد هو القوة الرئيسية لبناء الدول والأمم. فبرغم قوة الولايات المتحدة وهيمنتها غير المسبوقة على العالم، فإن قوى شعوبية أخرى تهدد هذه الهيمنة، فكثير من الدول بدأت تلتقي إلى تقوية اقتصادها كالصين وروسيا والصين والاتحاد الأوروبي. الأمر الذي يمكن هذه القوى في النهاية من تهديد الهيمنة الأمريكية الحالية على العالم.

وقد بدأ الاتحاد الأوروبي يفرض نفسه كقوة مؤثرة اقتصادياً وسكانياً وعسكرياً. وبات على وشك منافسة الولايات المتحدة وتحييدها. وفي معركة الهيمنة هذه يدرك الغرب امتلاك العرب المسلمين لكافية عناصر القوة التي تمكّنهم في أي وقت من التوحد ويسقط السيطرة على العالم. كما أن الإدارة الأمريكية والدول الغربية عموماً تخطط وتبني استراتيجية ومشاريعها على اعتبار أنَّ العالم الإسلامي كتلة جغرافية وحضارية واحدة. فللهذا على أعمال القاعدة اتخذت الدول الغربية إجراءات تستهدف كافة الشعوب الإسلامية من الشرق إلى الغرب، بل وأضافت عليهم المسلمين الأوروبيين. وبهذا كانت توحّد بين المسلمين جميعاً. ومن هنا فالاجدى بال المسلمين أنفسهم أن يشعروا بهذه الوحدة ويعاملوا على أساس وجودها.

فرغم أن العالم الإسلامي متشرذم وتسود بين دوله الخلافات أحياناً ويضاف إلى ذلك التناقضات بين الحركات الإسلامية والحكومات، ورغم تبعية بعض

الحكومات الإسلامية للسياسة الأمريكية فإن أمريكا والغرب قلقون من الإسلام كله وليس من الحركات الإسلامية فحسب، وهم لا يفرقون بينهم، وتعتمد سياسات الغرب على هذه الرؤية التي يوحدون من خلالها المسلمين كافة. ومن هنا كان تهديد باكستان، وغزو العراق، وتهديد إيران وسوريا، رغم أن هؤلاء جميعاً لا يمثلون تنظيم القاعدة بشكل من الأشكال. بل يختلف أغلبهم معه، وتقوم الحكومات الإسلامية بقمعه.

النهضة الإسلامية ممكنة

النهضة الإسلامية لاتعني كما يتصور البعض عداء الإسلاميين للحكومات أو السلطات. ولا تعني أيضاً التحزب ضمن حركات إسلامية والعمل بداخلها ووفق أنظمتها، والنهضة لاتعني معاداة الغرب ولا تعني محاربته. فتلك هي موروثات خاطئة عن فهم النهضة الإسلامية. ومن الطبيعي أن تكون نهضة فكرية وثقافية وتطویرية داخل المجتمع الإسلامي، وأن يكون هدفها بناء المجتمع الإسلامي وتطوير علاقاته مع الآخر. وأن تسعى هذه النهضة للتعریف الصحیح بالإسلام والدعوة لاعتاق هذا الدين السماوي الحنیف.

يتعین على المسلمين الانتباه إلى تحقيق مشروع نهضوي إسلامي حقيقي، والذي يمكن تحقيقه بالفعل، ويطلب ذلك الاستعلاء الكبير عن كل أنواع الفكر والفعل الذي يعيق هذه النهضة. وإذا كان لدى المسلمين مشروع أكثر إلحااحاً وضرورة لإنجازه فإنه هذا المشروع النهضوي. وبإمكان مسلم أن يساهم بمفرده في هذا المشروع، حين يتلزم بمقومات النهضة ويقوم بالدعوة إلى الإسلام والتعریف به، وحين يكون نموذجاً وصورة إيجابية تعبر عن دينه. والنهضة الإسلامية ليس من الضرورة ربطها بالحركات الإسلامية. إذ من الملاحظ أن أغلب الحركات الإسلامية تشغله بما هو غير نهضوي، وتحيد عن طريق النهضة الذي هو أهم جانب مفيد للإسلام والمسلمين. والنهضة توکید للقيم المثالیة التي تعد أفقاً يتحرك تاريخ الوعي والفعل البشريين نحوهما. إنها توکید لإنسانية الكائن الإنساني وكرامته،

بوصفه كائناً واعياً وحرأً وأخلاقياً، والنهوض حركة وعي بالذات، وتوكيد على القيم المميزة للكائن الإنساني، ككائن واع وحر وأخلاقي ولابد من إدراك الشخصية الحضارية ومقوماتها، والعمل على تعميق الإحساس بالهوية، والاحتراس من الوقوع في محاذير الانفلاق والانكماش. وإنه لا نهضة للعالم الإسلامي خارج شرط وعيه بذاته، أي خارج مقوماته الحضارية الذاتية. وإنه ليس بإمكاننا أن نخطو الخطوة الأولى بهذه النهضة مادمنا مشرذمين طائفياً وعرقياً وفكرياً.

أهمية الوحدة الثقافية

تتجه الأمم والشعوب في مختلف القارات نحو التقارب والتضامن والاتحاد، انطلاقاً من الضروريات الحياتية العديدة لهذه الأمم، فالولايات المتحدة هي اتحاد بين كيانات وشعوب تمتلك فيما بينها كافة أنواع الفروقات والخلافات التي عرفتها البشرية، وهناك ياباني قام الأميركيون منذ نصف قرن بإلقاء القنبلة النووية في بلاده، ورغم ذلك فقد نسي الماضي القريب وانضم إلى الأسرة الأمريكية الكبيرة. بينما نحن نعتمد باتهامنا للمسلم الآخر على نص غير مؤكّد وغير موثوق كتبه البغدادي في مخطوط (الفرق بين الفرق) أو عثرنا عليه في كتاب الملل والنحل.

ويشمل الاتحاد الأوروبي شعوباً كانت تقاتل منذ نصف قرن تقريباً، وقد قتل في الحرbin العالميتين أكثر من خمسين مليوناً من الأوروبيين، أي أن الأوروبي الذي سعى للوحدة الأوروبية ربما شهد هو الحرب والقتل وربما فقد أحد أفراد أسرته. ورغم ذلك غفر لتلك المظالم والجرائم ونسى الماضي القريب وسعى للاتحاد مع الجميع.

وحدة المسلمين رغم تعدد مذاهبهم

هذه الأمة التي اختارها الله لتكون خير أمة أخرجت للناس يجب أن تكون أمة واحدة لقوله سبحانه في سورة "المؤمنون":
(إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبdenون ٥٢).

ووجوب وحدة هذه الأمة يرجع إلى أن إلها واحد وأصلها واحد ونبيها وقد تأسست هذه الأمة على مبدأ الوحدة مع التسليم بوجود التعددية فيها. وأول تمثل للتعددية في الإسلام كان في تعدد الأعراق والألوان واللغات والعادات والثقافات، ولم تمثل تلك التعددية أي مشكلة في وحدة الأمة آنذاك. بل كانت رادفاً لعناصر الوحدة الإسلامية وهذا يعني أنها ممكناً أن تكون اليوم رادفاً للوحدة الإسلامية المنشودة. فالاليوم لاحاجة لتوحيد المذاهب الإسلامية كما قد يتصور البعض. لأن توحيد المذاهب لن يتم بهذه السهولة. ومن الجائز أن التاريخ الإسلامي القادم كله لن يشهده على الإطلاق.

بل إن الحاجة تدعو لتحقيق الوحدة في هذه الأمة. مع الإبقاء على تعدديتها. وذلك يقتضي تضافر أفكار وجهود المخلصين من أبنائها من علماء وسياسيين وتربويين ومثقفين وإعلاميين وأفراد عاديين. يقول الله سبحانه في سورة الحجرات:
"يا أيها الناس إننا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا.
إن أكرمكم عند الله أتقاكم". ١٣.

ويقول عز وجل في سورة النور مؤكداً أن هذا الاختلاف آية من آياته في الكون:
(ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ٢٢)
وفال عز وجل في سورة هود:

(ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين ١١٨)
ويقول الله سبحانه مؤكداً تأكيداً صريحاً لالبس فيه على وحدة الأمة الإسلامية:
(إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبdenون)

وقال سبحانه في سورة آل عمران:

(واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) ١٠٢

وفي هذه الآية أمر إلهي صريح على إقامة الوحدة الإسلامية. فالوحدة الإسلامية يعمّ خيرها على المسلمين جميعاً وعلى الشعوب الأخرى. وهي التي تمكّن المسلمين من الصمود في وجه المخططات الغربية التي تضعف المسلمين وتحتل جزءاً من بلدانهم وتقتل أبناءهم. والوحدة الإسلامية هي التي تمكّن المسلمين الغربيين من الصمود أمام العدائية التي تستهدفهم. والوحدة الإسلامية التي هي آتية لامحالة، ستكون سندًا في تمكين مسلمي الغرب من بسط سيطرتهم على جزء من أوروبا في العقود القادمة.

الفصل الثامن

**تركيا البوابة الثانية
للإسلام الأوروبي**

عادت تركيا إلى الفضاء الإسلامي

بعد غيابها طوال قرن من الزمن عن الفضاء الإسلامي، عادت تركيا إليه بقوة وبعزم ثورية. فقد حاز الإسلاميون الأتراك على رئاسة الحكومة والجمهورية، وباتوا قادرين على تسييس تركيا بما يتناسب مع المصلحة الإسلامية، والتي هي مصلحة العرب والمسلمين عموماً. وعلى الفور بدأ الغرب يختلف المشكلات والمجابهة مع الأتراك الجدد، ووجدت تركيا الجديدة نفسها تحاز بقوة لجبهة الدفاع عن الحقوق العربية والإسلامية وتحالف مع سوريا وإيران ومن في فلكهم. وتركيا بصفتها الأوروبيّة وبنفوذها الواسع داخل أوروبا يمكن اعتبارها أحد الأبواب الرئيسة في المشروع القائم بحد ذاته وهو مشروع أسلمة أوروبا.

الحركات الإسلامية العلمانية

الحركات الإسلامية التركية عموماً قامت كردة فعل على النظام القائم الذي حاول خلق شعب معاصر وتقدمي بناء على اعتبارات علمانية لا على أساس هوية إسلامية، وقد استطاعت أن تصمد رغم الصعوبات الكبيرة التي واجهتها، بل وتسلمت رئاسة الحكومة بقوة ومن المتوقع أن تتسلم رئاسة الجمهورية التركية. ورغم هويتها الإسلامية فقد أعلن رئيس الوزراء التركي مراراً أن حركته الإسلامية علمانية وماضية في علمانية تركيا.

مراحل تطور الحركات الإسلامية في تركيا

عرفت مرحلة حكم أتاتورك ١٩٢٠ - ١٩٣٨ وما تلاها حتى ١٩٥٠ بروز مجموعة من الأحزاب، وبمواجهة الحركات الإسلامية والتيارات القومية. وعرفت الفترة الممتدة ما بين سنتي ١٩٥٠ و ١٩٦٠ العودة بالأذان إلى اللغة العربية وإعادة الاعتبار للتعليم الديني، وخلال مرحلة ١٩٦٥ - ١٩٨٠ ظهر حزب النظام الوطني (نجم الدين أربكان) وهو خليط من الإسلاميين المؤثرين بحركة الإخوان وجماعة النور

وجماعة النقشبندية. أما مرحلة ١٩٨٣-١٩٩٣ التي عرفت بفترة توركت أوزال الذهبية، فقد شهدت تأسيس حزب الوطن الأم الذي حصل على أغلبية مقاعد البرلمان وأسهم بشكل كبير في إعادة الاعتبار إلى التعليم الديني. وخلال هذه الفترة تبيّن الحركة لأهمية الاقتصاد وتحولت إلى قوة اقتصادية، حيث ظهرت شركات مهمة تابعة للإسلاميين، مما منحهم طابع الاستقرار. وقد استفاد حزب العدالة والتنمية (الذي لا يصنف في تركيا كحزب إسلامي) من المراحل التي مرت بها الحركة الإسلامية تاريخياً ومن أخطاء حكومة حزب الرفاه ومن الأجواء الديمقراطية المتاحة في تركيا، مما سمح له بالنمو والتطور. راكم إسلاميو تركيا حصيلة مهمة على مستوى المشاركة في المؤسسات السياسية، وتطوّي هذه التجارب على أهمية كبيرة، وذلك بالنظر إلى اشتغال الحركات الإسلامية التركية في ظروف وشروط صعبة يفرضها النظام العلماني داخلياً والحيط الإقليمي (أوروبا) الذي يتطرّف من كل حركة إسلامية. وإن اليمش المتاح للأحزاب السياسية في مجال صناعة القرار السياسي داخل الدولة ضعيف جداً؛ وذلك بالمقارنة مع مؤسسات سياسية ودستورية أخرى.

ولم يسبق للحركة التي حصلت على نسبة مهمة من مقاعد البرلمان في انتخابات سنة ١٩٩٧ أن ادعت بأنها حزب سياسي ولم تطالب فقط بقيام دولة إسلامية، كما أنها تبني هوية إسلامية محافظة. وعلى امتداد أكثر من ثلاثين سنة على ظهور هذه الحركة، وعلى الرغم من انتقاداتها المتواصلة للنظام التركي، إلا أنها لم تستعمل أي شكل من أشكال العنف في مواجهته من أجل الوصول إلى السلطة، كما أنها لم ترفض النظام العلماني ولم تقترح دستوراً جديداً للبلاد.

ومن خلال رصد تطور مسارها التاريخي، يتبيّن أنها تعتمد على الخطاب والمظاهر أكثر منها على العمل، فخطابها السياسي الداخلي يوحى برغبتها في إعادة بناء الدولة على أساس الفكر الوطني، غير أن الواقع يبرز بأنها يوتوبية وغير علمية، كما لم تبد حماساً تجاه فعاليات المجتمع المدني، ولم تلتقت لأهمية وسائل

الإعلام.. وعلى مستوى آخر، لم تتمكن الحركة من تحليل الأوضاع المجتمعية سياسياً ودستورياً، وكذلك بالنسبة للقضايا الخارجية الحيوية، ولم تدرك أهمية إعادة النظر في مرجعياتها وتتجدد فكرها، فهي ظلت في منأى عن الانفتاح على مختلف الدراسات التي تجسد الفكر الإسلامي المعاصر.

وعلى مستوى تدبير الشؤون الداخلية للحركة، يلاحظ غياب الشورى والممارسة الديموقراطية، أما نظرتها للمرأة فيغلب عليها طابع الاستعلاء، بحيث لا تتح لها إمكانية تقلد منصب في الحزب أو الحكم.

وبخصوص الموقف من القضية الفلسطينية، فيبدو أن هناك نوعاً من التناقض والاضطراب، مما تحمله شعاراتها بصدق دعم القضية الفلسطينية؛ يقابلها في نفس الوقت تأييد للسياسة الأمريكية بخصوص مشروع الشرق الأوسط الكبير.. والإقبال على نسج علاقات في مختلف المجالات والميادين مع الكيان الصهيوني. ولعلها ومن المرجح أنها في ذلك تمارس لعبة سياسية خادعة للنظام العلماني التركي.

ونظراً لوجود حالات من التوتر في علاقتها مع السلطة التي مارست ضغوطاً كبرى في مواجهتها، فإن الحركة لا تزال في موضع الشك والارتياح من حيث ولائها للنظام والمؤسسات. لقد كانت تجربة الحركة بزعامة أريكان ناجحة على المستوى الاقتصادي وفي مجال محاربة الرشوة مقارنة مع فترة أردوغان. ومع تجربة حزب السعادة تبين أن هناك مجموعة من الانحرافات على المستوى الاقتصادي والاجتماعي والديني، بالشكل الذي أسهم في تراجع الحركة، وفي المقابل حققت هذه الأخيرة نجاحاً كبيراً على مستوى تسيير الجماعات المحلية. أما فيما يخص علاقة هذه الحركات بالنظام العلماني، فلم يكن للثورة الكمالية عداء نحو الدين بقدر ما كان عداوها ينصب على ربط الدين بالسياسة، وأكثر من ذلك، فقد كان لهذا النظام الفضل الكبير في تهيئة الأجواء الديموقراطية التي تسمح لهذه الحركات بالعمل شريطة عدم تهديد بناء نظام الدولة. وفي المقابل، لم تدع هذه الحركات إلى تطبيق الشريعة الإسلامية واكتفت بالدعوة إلى أسلمة المجتمع.

أما مشاركة هذه الحركات في المؤسسات السياسية فلم تتخذ الطابع المباشر دائمًا، بل كانت هناك أحزاب تتفاوض مع الطرق والحركات لدعمها، الأمر الذي سمح بوجود أفراد من هذه الحركات منذ سنوات الخمسينيات من القرن المنصرم بالبرلمان، هذا بالإضافة إلى ترشيحأعضاء بصفة مستقلة. إن مجمل هذه الخصوصيات تطوي على أهمية كبرى، لأنها تساعد على فهم تركيبة المسلمين في تركيا.

الرؤية العربية للحركات الإسلامية التركية

في حين يتوجب على العرب والمسلمين الاستفادة الكبيرة من التجربة الإسلامية التركية، وتصويب العمل الإسلامي بكل أنواعه، وتطوير الفكر الإسلامي بعد التعمق الكبير في التجربة التركية العظيمة. رأينا الثقافة العربية تتجه على الفور نحو ماتراه أخطاء ونواقص في العمل الإسلامي التركي. فلحظة فوز المسلمين بالانتخابات التركية انطلق في الإعلام العربي مصطلح العثمانيون الجدد. وعرضت الجزيرة برنامجاً يحمل هذا العنوان. ورأى بعض العرب أن الإسلاميين الأتراك يحملون الحلم العثماني بتوسيع نفوذ تركيا نحو البلدان العربية وغيرها. ونفس الاتهام وجهه العرب لإيران الإسلامية منذ انتصار الثورة، ثم ما زال يطلق هنا وهناك كلما تطور التصنيع النووي الإيراني، الذي اعتبره العرب موجهاً ضد الدول والشعوب العربية والإسلامية. بل ونسمع في كل حين عن صفقات ضخمة من الأسلحة تشتريها دول البيترول العربية لمواجهة اعتداءات إيرانية لا وجود لها.

الإسلام والحداثة السياسية في التجربة التركية

إن حزب(العدالة والتنمية) يشكل نموذجاً يستحق التأمل في العالمين العربي والإسلامي. فهذا النموذج يقدم مثالاً حياً حول إمكانية الجمع بين الإسلام والحداثة، ويرد على كل من يرفض أو ينكر هذه الإمكانية وبقدرتها على تدبير

الشؤون الداخلية أو الخارجية. إن نقطة الضعف في تجربة هذا الحزب كانت هي المؤسسة العسكرية، فكيف تفسر صعود نجم هذا الحزب رغم الإكراهات التي كانت تفرضها هذه المؤسسة؟

إن أسباب هذا الصعود متعددة وتنوع بين عوامل مباشرة وأخرى غير مباشرة: فقد وصل الشعب التركي إلى مرحلة كشف فيها "ضلال" النخبة العلمانية، وتزامن صعود حزب العدالة والتنمية مع تامي توحش العولمة وانخراط الشعب التركي في البحث عن ثقافته وهويته التي يشكل الإسلام جزءاً منها، وبخاصة وأن العلمنة التركية ومنذ سنة ١٩٢٣ لم تأت في سياق جدل داخلي ولكنها عبارة عن "فشرة" أصبت بالمجتمع التركي بعدما مورس العنف لفرضها. ومن جانبه استطاع حزب العدالة والتنمية أن يوظف مختلف التحولات السياسية والاجتماعية في تصوراته وبرامجه، فهناك انتقاد ذاتي داخل الحركة، ونزوح عن الكارزمية والزعamas، والإيمان بالعمل الجماعي، مع الاهتمام بالشؤون الاقتصادية والاجتماعية والابتعاد عن المحاكمات(كتلك المرتبطة بمشكل الحجاب..) والتأكيد على عدم تهديد النظام العلماني والقبول بإمكانية الانضمام للاتحاد الأوروبي.

العلمانية المؤمنة بمصطلح جديـد

العلمانية المؤمنة بمصطلح جديد دخل القاموس اللغوي الإسلامي، وقد تأخر دخوله واعتماده بسبب الخوف من الحديث عن إمكانية وجود الإيمان والعلمانية في وقت واحد وبترافق حقيقي. رغم أن الإسلام علمي وعلمي ولا يتافق مع العقل العلمي بشيء. فاليسوعية التي ارتكبت جريمة إعدام غاليلية أخطأت بينما الإسلام لم يرتكب مثل تلك الأخطاء طوال مسيرته.

داخل هذه التحولات عبر حزب (العدالة والتنمية) الذي لا يدعو إلى تبني دستور إسلامي؛ على أن هويته علمانية مؤمنة، تتمحور بالأساس حول احترام حرية كل شخص. إن أهم الدروس التي يمكن استخلاصها من هذه التجربة في الفضاء التركي تتلخص في كون النظام الديمقراطي الإسلامي هو القادر وحده على إحداث

التغيير، فيما يظل الاعتقاد بامتلاك الحقيقة أمراً سلبياً وعائداً ضد كل حراك ديموقратي. ولعل هذه التجربة الناجحة تقدم للعرب درساً قوامه: ضرورة توفير فضاء ديموقратي كفيل بخلق مناخ سياسي يتبع تافساً سلմياً بين مختلف الفاعلين بتوجهاتهم المتباعدة. بالإضافة إلى حقيقة الازدواجية في خطاب الحركات الإسلامية (أي الظاهر منها والخفى)، والتكتيك والاستراتيجية في خطاباتها وممارساتها، وإشكالية الوضوح النظري والفكري لديها من قضايا مهمة: الديموقратية، المواطنة، المشاركة، المحيط الدولي، الاقتصاد.

ضرورة تبيئة هذه الحركات وتهيئتها للدخول في غمار تجربة ديموقратية كباقي الفاعلين، مع الإشارة إلى ضرورة تخلي بعضها عن أسلوب التكفير والإلقاء والإقصاء في مواجهة مخالفتها في الرأي، واعتماد تجديد الفكر الإسلامي، وبخاصة وأن الفقه الإسلامي هو جد ضعيف مقارنة مع حجم المشاركة السياسية، وكذلك الانفتاح على كتابات بعض الإصلاحيين التاريخيين. عموماً، يمكن القول أنه وعلى الرغم من وجود نوع من الإيمان والإقرار بالأسس الديمقراطية من قبل بعض القوى الإسلامية، يظل استيعاب تحديات المحيط الدولي وبلورة تصور واضح ومحدد حول الإسلام، أحد أكبر المشاكل التي تواجه هذه الحركات.

الفصل التاسع

الإسلام والعلمانية

الإسلام والعلمانية

إن ما يعرف بالعلمانية العربية ليست في حقيقتها سوى أنواع حديثة من العمل الفكري الهدف لبناء المجتمعات العربية الإسلامية. ومهما يكن الإيمان الداخلي في قلب صدام حسين فإنه في الظاهر كان يغير الأسلامة جانباً كبيراً. فقام برسم عبارة (الله أكبر) على العلم العراقي، وكان يطلق أسماء إسلامية على المعارك التي يخوضها العراقيون. ثم وبعد دخول جنود الغرب إلى الأراضي العراقية أصبح البعثيون العراقيون السابقون كياناً مقاتلاً يطلق على نفسه اسم الجماعة الإسلامية، ويرفع شعارات إسلامية.

والحقيقة فإن الأخطاء والهفوات التي يقع فيها الإسلاميون، نكتشف أنَّ العلمانيين العرب ينتبهون إليها ويمتلكون وعيًّا ونضجاً يجعلانهم لا يقعون فيها. فمن عيوب الإسلاميين أنهم يناقشون قضايا عظيمة بواسطة وسائل شديدة البساطة والسذاجة. ومثالنا الشارح لهذا الرأي هو حدث في السويد: إذ كان من ضمن مشاريع التقريب والتفاهم بين المسلمين والمسيحيين في إحدى المدن أن نظمت الكنيسة المسيحية بالاتفاق مع أئمة المساجد أسبوع حوار وتقريب يتضمن لقاءات وندوات وزيارات و مباراة رياضية، وقبل أن تبدأ المباراة بكرة القدم انسحب فريق المسلمين واحتاج على مشاركة راهبات مسيحيات في تلك المباراة، وتحدث أحد أئمة المشايخ عن سبب توقف مشروع التقريب كله وقال: قد تحدث في المباراة ملامسة بين اللاعبين وتتسبب في تأجيج مشاعر لاعبينا، ويقصد بتلك العبارة خشيته من أن يشار اللاعبون من ملامسة النساء أثناء اللعب. وفي تلك الحادثة أثبت أولئك المسلمون تخلفهم وعدم قدرتهم على إجراء المحاورة الحضارية الناضجة.

إن الأحزاب العلمانية العربية هي أكثر تطوراً ونضجاً من الجماعات الإسلامية، وأقدر منها على العمل والحركة وال الحوار.

فالأنحراف الشيوعية العربية التي كثرت في العقود الماضية لا يمكن أن نفصلها عن الجسد الإسلامي، فأغلب أعضائها كانوا من المسلمين وقسم منهم متدينون أو مؤمنون، وإن شعارات كافة هذه الأحزاب ظلت على الدوام تسعى للتطوير والتقديم

ومناهضة الاستعمار والقوى المعتدية وتعمل على إقامة نوع من الوحدة، وعلى التحرر وبث الديمقراطية. وإن كافة هذه المبادئ والأهداف تحصر في بناء وتطوير المجتمع العربي والذي هو إسلامي بالطبع.

الجماعات الفلسطينية التي كانت توصف بالعلمانية (فتح والشعبية والديمقراطية) لم تتجاوز يوماً متطلبات النهج السياسي الإسلامي. بل كان خطابها يتفق مع الإسلام وكان خطاب ياسر عرفات إسلامياً متشددأً.

وفي تركيا كان الإسلاميةيون أكثر وعياً من نظرائهم العرب، فقد سار حزب الرفاه بمنطق الوعي الحضاري والعلمي. واضطرّ لتغيير اسم الحزب ثلاث مرات. وإلى تغيير زعيم الحزب عدة مرات أيضاً وسارت القافلة الإسلامية بتطور وأمان، وهذا ما كان يسعى إليه زعماء الحزب الإسلامي هناك. فلم يكن الهدف شخصياً بل كان الهدف تطوير الأمة الإسلامية، ونتيجة لفكرهم السليم فإن المؤيدون لهم في تركيا اليوم يعادلون نسبة ٧٠ % من الأتراك.

العلمانية الغربية

تعلن العلمانية البريطانية عن نفسها بأنها متصالحة مع الدين وحافظة لكافة الحريات التي يتطلبها أصحاب كل دين. وفي فرنسا تنصّ كافة القوانين والمواثيق الدولية التي وقعت عليها فرنسا على حرية الاعتقاد والفكر وحرية إظهار الدين عن طريق العبادة والتعليم والممارسة.

يتوهם الكثير من المسلمين من كلمة العلمانية، ويربطونها بالمعنى الإلحادي أو التجرد من القيم، وما ذلك إلا وهم ورؤيه ضعيفة لها. فالعلمانية الأوروبية تضمن استقلالية الدين عن الدولة وتمنحه فرصة الحركة بحرية وتضمن له بقوانينها حماية واستقلالية. ويتجه على المسلم الغربي ألا يفصل نفسه عن العلمانية، بل يرتبط ويوثق علاقته بها من خلال مؤسساتها العديدة. والعلمانية بصفتها الحالية في دول الغرب تعدّ فرصة سانحة لل المسلمين لنشر ديانتهم في أوساط الغرب المتعددة الأديان.

وكما نشهد في السنوات الأخيرة فإن بعض القوانين والمبادئ الغربية يتم تغييرها أو تعديلها للحيلولة دون انتشار الإسلام، وقد جاء ذلك نتيجة لعدم تصالح المسلمين مع العلمانية الغربية. وعمل الغرب على تضييق الخناق على النشاط الإسلامي ولمنع بروزه كحلٍ فكري وفلسفى، وقد تصل بنا تلك الحال إلى مرحلة يمنع فيها أي نشاط فكري إسلامي منعاً تاماً، كما هي الحال في الصين مثلاً. ومن هنا تبرز ضرورة المصالحة مع الغرب ومع علمانيته، والتوقف عن مواجهتها ولا ينحصر ذلك الدور بالحركات الإسلامية فحسب بل بالأفراد المسلمين عموماً.

لم يعرف الإسلام طوال مسيرةه التاريخية أية مصادمة مع العلمانية، مثلاً تصادمت المسيحية مع العلماء في العصور الوسطى. بل إن الإسلام أنتج العلوم والعلماء وأغنی نظريات الفكر والفلسفة والاجتماع وغيرها. والعلمانية الغربية التي تحكم وفقها الأنظمة ليست سوى القوانين المسيرة للمجتمعات والضابطة لحقوق الأفراد.

وبالنظر الدقيق وبالمحاكمة العقلية نكتشف أن كثيراً من القضايا التي تطرحها العلمانية الغربية هي لصالح المسلمين أنفسهم، فقوانين منع الحجاب في بعض المدارس الأوروبية إنما هو يحمي المسلمين أنفسهم من أخطار قد يواجهونها مثل عدائية وعنصرية الآخر فقد جاءت قوانين حظر الحجاب ضمن مباديء عامة يتم بموجبها حظر الرموز الدينية التي تسبب العنصرية والطائفية والإثنية، والتي تقسم المجتمع العام إلى فئات، ففي فرنسا وضمن هذا القانون يمنع في المدارس ارتداء الرموز الدينية الكثيرة ومنها الصليب والقبعة اليهودية ورموز أخرى بودية ووثنية.

فهذا القانون يتعامل مع المسيحية بنفس طريقة تعامله مع الإسلامية. وفي هذا عدل قانوني. ويدرك أن الخطوط الجوية الفرنسية تحظر على موظفيها حمل الرموز الدينية أيضاً. فقد وافق جميع الفرنسيين على تلك القوانين ووقف المسلمون وحدهم معارضين لها، ومنشغلين بها، حتى أن الرئيس الليبي تدخل في قضية طالبي فرنسيتين، وفي كل يوم ما زال المسلمون ينشغلون بمعالجة هذا الموضوع الثانوي. والحرية في المنظور الإسلامي هي تعبير عن نضج روحي يمكنني في داخل الإنسان. ويتحكم في أنايته. وهي ترتبط بموضوع الوعي بالذات ومعرفة النفس. وهي

م الموضوعات تزيد من قوة الإيمان. وتتبدى الحرية عند المسلمين كلما ازداد إدراكهم للإسلام نفسه وكلما تعمقت معرفتهم بدينهم. فتتصبح هذه المعرفة ضرورة لتحقيق أمن المسلم وحرি�ته. وهذه المعرفة ممكنة لكافه مسلمي العالم، وممكنة أيضاً داخل الدول الغربية العلمانية، ومن هنا فالحرية لا تتطلب من المسلمين مطلقاً أن يقفوا في مواجهة الأنظمة العلمانية بحجة تحقيق الحرية الذاتية. لأن المواجهة ستقلل من حرريتهم المتاحة والمتوفرة.

تحالف اليسار الغربي مع الجهات الإسلامية

تعزّز في السنوات الأخيرة عقد التحالفات ما بين الإسلاميين واليسار الغربي، استناداً على رفضهما المشترك للرأسمالية والإمبريالية الغربية. وليس هذه التحالفات إلا وهمية ومبنية على المصالح المشتركة. وهي بنفس الوقت ما كانت تحدث لولا قناعة أتباع الفريقين بالتقارب الأيديولوجي والفكري في بعض نقاطه بين ثقافتيهما.

وقد جرى الحديث منذ قرون عن الحوارات بين العلمانية والإسلاموية. وإن الاعتداءات التي قامت بها جماعات إسلاموية ضد جنود أمريكيين وحلفائهم في جميع أنحاء العالم عادت على الجماعات الإسلامية بالمزيد من تعاطف الجماهير العلمانية. ووجدت كذلك قبولاً لدى ناقدين من معسكرات إيديولوجية مختلفة لا تزال مصرة على رفض السمات السلطوية الموسومة بطابع الشرطة العالمية لهذه الجيوش. لكن مما يلفت النظر أيضاً أن هناك تقارباً في أماكن كثيرة ما بين قوى إسلاموية ومجموعات سياسية يسارية عديدة، وتعكس هذه التقاربات مرونة خاصة عند المتطرفين لم نكن لنتوقعها.

جبهة جديّدة ضد الإمبريالية

يبدو أن المجموعات السياسية اليسارية تعتقد بأن القاعدة والإخوان المسلمين وحزب الله وحماس يشكلون كلهم جبهة جديدة معادية للإمبريالية، قامت الآن

لتكميل المشروع التاريخي لليساريين الغربيين. فعلى الرغم من أنَّ هذه الحركة المركبة من خلال أفراد تعانى في نظر الأوساط اليسارية والاتجاهات الثقافية من "وعي خطأ"، إلا أنها تعتبرها مع ذلك جديرة بالدعم نظراً لدورها في محاربة الأمبريالية الأمريكية. وفجأة أصبح الكثير من أعضاء المجموعات اليسارية الانقسامية الذين كانوا يتظاهرون ضدَّ الحرب على العراق أصبحوا اليوم حلفاء لهذه المنظمات الإسلامية.

الإسلام والاشراكية

حتَّى وإن لم يكن السوفيت يعتبرون الإسلام طيلة عقود من الزمن تقدُّمياً في جوهره، فقد كانوا ينظرون إليه على أنه قابل لتأويل اشتراكي. وإنَّ بعض الكتب التعليمية، التي كانت تستخدم في جامعات ومدارس عالية في اليمن وغيرها. وذكر فيها أنَّ القرامطة مارسوا اشتراكية في جمع المحاصيل والعوائد الحكومية وأنَّ توزيعها كان يتم بالتساوي على الأفراد المسلمين آنذاك. وهذا الطرح الفكري هو تماس حقيقي بين الإسلام والاشراكية. فكانت هذه الكتب تعرض الإسلام كشكل قديم من أشكال الاشتراكية. وقد حدث تماس مشابه ما بين التراث الإسلامي واشتراكية الدولة الحديثة في الجمهوريات المسلمة الست التي كانت موجودة في الاتحاد السوفييتي.

صراع الإسلام مع الشيوعية

الأحوال تغيرت تماماً، كما يبدو، في النصف الثاني من القرن الـ٢٠. إذ أصبحت الجماعات الإسلامية تشكَّل جبهة صريحة مشتركة ضدَّ الشيوعية والاشراكية والليبرالية وكذلك ضدَّ تصوراتهم للقيم، وأخيراً وليس آخرًا ضدَّ حقوق المرأة.

وفي فترة تأسيس جماعة الإخوان المسلمين ١٩٢٨ تمّ تصنيف الاشتراكية بكلّ أشكالها كرؤوس الكثيرة لأفعى الهيدرا الغربية-العلمانية.

فقد قام في الحرب الأهلية الإسبانية فرانشيسكو فرانكو باستخدام عشرة آلاف من الجنود المرتزقة المغاربة، من أجل محاربة الجمهورية الإسبانية، وكانت حجتها أن الشيوعية هي عدو مشترك للكاثوليكية وللإسلام.

وعلى تلك الحال استمرّت الأوضاع حتى عام ١٩٤٥. حيث نشب بين الحركات الشيوعية والإسلاماوية في مصر بعض المعارك الدموية التي استمرّت حتى ثورة ١٩٥٢. لقد أدت كراهية السعودية لمصر بزعامة جمال عبد الناصر وللنفوذ السوفياتي في الشرق الأدنى إلى دفع القيادة السعودية في ذلك الزمان إلى تقديم الدعم لمنظمة المؤتمر الإسلامي كحلف معاً للاشراكية.

وفي التسعينيات توج هذا الاتجاه العام بحملة دعائية هدفها إسكات الأصوات اليسارية والليبرالية المستقلة. فقد تمّ في عام ١٩٩٢ اغتيال الكاتب والسياسي فرج فودة.

وهي عام ١٩٩٤ تعرض الكاتب المصري نجيب محفوظ لحادث اعتداء بسكنين - وكان الدافع من وراء ذلك الحادث هو على ما يبدو موقف نجيب محفوظ المنفتح والمتسامح من الدين الذي نجده في مجموعته الروائية "الثلاثية". أما الكاتب والفيلسوف نصر حامد أبو زيد الذي أقدم بجرأة على تطبيق الأساليب التاريخية والفلسفية لتحليل النصوص على القرآن ونصوص أخرى من الحديث المأثور، فقد تلقى العديد من التهديدات بالقتل إلى أن انتقل في آخر المطاف إلى المهجر في عام ١٩٩٥.

وتمت في العام ١٩٦٥ في إندونيسيا إبادة اليسار بشكل لا سابق له، تقريباً من دون ملاحظة أو على الأقل من دون أن يسجل ذلك في سجل التاريخ الخاص بالحركة الإسلامية. ولا بد الآن من إتمام هذه النبذة التاريخية المحزنة من خلال تسليط الضوء على أحداث الساعة التي تقع في بلدان أو أجزاء من دول يتزايد فيها انتشار نفوذ الإسلاميين. من الممكن من دون شك أن يطلق اسم الرجعية على المواقف التي

يَخْذُلُهَا إِلَسْلَامِيُونَ فِي يَوْمَنَا هَذَا مِنْ حَقُوقِ الْمَرْأَةِ وَحَقِّ التَّعْبِيرِ الْحَرَّ عَنِ الرَّأْيِ
وَالْحَقُوقِ الْخَاصَّةِ بِأَقْلَيَّاتِ أُخْرَى.

وَتَمَثَّلُ الصِّدَّامُ الرَّئِيْسِيُّ مَعَ الشِّيَوْعِيَّةِ فِي الْحَرْبِ الْجَهَادِيَّةِ الَّتِي أَطْلَقَ إِلَسْلَامِيُونَ
عَلَيْهَا اسْمَ حَرْبِ تَحْرِيرِ أَفْغَانِسْتَانَ مِنْ الْهِيمَنَةِ الْرُّوسِيَّةِ الْاشْتَراكِيَّةِ. وَاسْتَقْطَبَ
الْمَجَاهِدُونَ آنَذَكَ عَشْرَاتِ الْآلَافِ مِنَ الْمَجَاهِدِينَ إِلَسْلَامِيِّينَ الَّذِينَ أَتَوْا مِنْ بَقَاعِ
الْعَالَمِ الْمُخْتَلِفِ. وَقَامَتْ بِدُعْمِ تَلْكَ الْحَرْبِ رَسمِيًّا الْإِدَارَةُ الْأَمْرِيْكِيَّةُ وَبَعْضُ الدُّولِ
الْإِسْلَامِيَّةِ، وَبِالْفَعْلِ فَقَدْ أَنْهَكَ الْجَهَادِيُّونَ الْقَوَافِلَ الْرُّوسِيَّةَ وَأَجْبَرُوهُمْ عَلَىِ الْانْسَحَابِ
مِنْ أَفْغَانِسْتَانَ. وَكَانَتْ تَلْكَ أَوَّلُ خَطْوَةٍ خَلْفِيَّةٍ يَتَرَاجَعُ فِيهَا السُّوفِيَّيْتُ وَمَعْسُكِرِهِمُ
الْاشْتَراكِيَّ.

الاطروحات النهضوية

الجدلُ الْحَضَارِيُّ مَعَ الْغَرْبِ أُوجِدَ فِي وَاقْعُنَا الثَّقَافِيِّ تِيَارَاتٍ مَقْلَدَةٍ لَهُ، وَمَتَمَذَّهَبَةٍ
بِبعضِ مَذاهِبِهِ الْفَلَسْفِيَّةِ وَالْسِّيَاسِيَّةِ، كَمَا أَنَّ التِيَارَ إِلَاسْلَامِيَّ القَائِمُ عَلَىِ فَكْرَةِ
الْتَّأصِيلِ وَالْعُودَةِ إِلَىِ الْذَّاتِ الثَّقَافِيَّةِ، لَمْ يَنْتَجْ قِرَاءَةً وَاحِدَةً لِتَرَاثِهِ الْفَكَرِيِّ بَلْ أَنْتَجَ
قِرَاءَاتٍ تَخَلَّفُ فِي اِنتِقاءِ الْمَقْومَاتِ التَّرَاثِيَّةِ الْكَفِيلَةِ بِتَحْقِيقِ النَّهْضَةِ.

وَرَغْمَ تَعْدَدِ الإِجَابَاتِ وَتَوْتُورِ الاطروحاتِ النَّهْضُويَّةِ فَإِنَّ الْوَضْعَ الْعَرَبِيِّ الْيَوْمَ مَا زَالَ
سَوَاءً مِنَ النَّاحِيَةِ الثَّقَافِيَّةِ أَوْ مِنَ النَّاحِيَةِ الْمُجَتمِعِيَّةِ—مُخْتَلَّاً مَأْزُومَأً، وَمِنْ ثُمَّ مَا زَالَ
سُؤَالُ النَّهْضَةِ يَعْبُرُ عَنِ مَطْلَبٍ لَا عنِ وَاقِعَيْةِ.

هَلْ يَرْجِعُ الْفَشْلُ إِلَىِ خَلْلٍ فِيِ الإِجَابَاتِ؟ أَمْ أَنَّ سُؤَالَ النَّهْضَةِ لَا يَتَطَلَّبُ أَجْوَبَةً
نَظَرِيَّةً فَقْطًا، بَلْ أَيْضًا أَفْعَالًا مَنْظُورَةً وَمَمَارِسَةً تَغْيِيرِيَّةً وَاقِعِيَّةً؟

وَهُنَا نَكْرُرُ ذَلِكَ السُّؤَالَ الَّذِي مَا زَالَ يَطْرَحُ مِنْذِ مَطْلَعِ الْعَشَرِيَّنَ، وَهُوَ:
”لَمَذَا تَأْخُرُ الْمُسْلِمُونَ وَلَمَذَا تَقْدِمُهُمْ؟“، فَقَدْ بَدَأَتِ النَّهْضَةُ الْأُورُوپِيَّةُ فِيِ الْقَرْنِ الْرَّابِعِ
عَشَرَ، كَمْشُروِّعِ إِصْلَاحٍ فَكَرِيِّ وَانْقلَابٍ تَحْدِيثِيِّ، وَسُمِّيَّ ذَلِكَ الْعَهْدَ بِاسْمِ النَّهْضَةِ.

والنهضة يجب أن تشمل الاصلاح في المجتمعات الإسلامية فلابيمكن استخدام مصطلح النهضة بدون العمل ببرامج إصلاح، إذ لابد للمؤسسة الدينية من قبول العمل بهذا الإصلاح.

إن الاختلال يكمن في المقاربة المذهبية الجاهزة لسؤال النهوض، إذ تزع التيارات الفكرية السائدة في واقعنا الثقافي إلى اتخاذ مرجعياتها المذهبية الجاهزة أفقاً وسقفاً لطلب النهوض.

فالتيار الليبرالي مثلاً يرى أن النهضة لا تتحقق إلا بتطبيق الليبرالية، والتيار اليساري الاشتراكي يرى أن لا نهضة إلا بالاشتراكية، والتيار الفكري الإسلامي في نموذجه السلفي مثلاً يرى أن لا نهضة إلا بإعادة إنتاج نفس مواصفات الاجتماع الإسلامي الذي تجسد في لحظة تاريخية ماضية (اللحظتين النبوية والراشدية).

إن النهوض في عالمنا العربي الإسلامي لن يتحقق خارج إطار ذاتيتنا الثقافية الإسلامية هذه. ولا يرر تقليد لحظة من لحظاتنا الماضية وإعادة إنتاجها، كما تزع إلى ذلك بعض توجهات الفكر السلفي عندما تدعوا إلى استنساخ، ليس أفكار ومبادئ العصر الإسلامي الأول، بل استنساخ حتى ديكور الحياة وشكلها في اللباس وطرائق المعاش وحتى كلمات الحوار نفسها.

إن اتباع النبي (صلى الله عليه وسلم) والاسترشاد بهدي القرآن الكريم لا يكون إلا باتباع المبادئ والمحددات الفكرية العامة، وليس باستنساخ صورة الحياة حتى في شكلها المادي، كما يرى هذا التيار السلفي الذي وسع من مفهوم البدعة المذمومة ليشمل كل مستحدث ومستجد. ولابد من التذكير بأن السلفية كانت قد حرمت على الملك السعودي استخدام التلفراف والهاتف وغيرها من التقنيات التي اعتبرتها آنذاك شيطانية تحالف الإسلام وهذا يدل على استمرار السلفية بالتخلف عن الحاضر الذي تعيشه، إذ هي ستتفق في المستقبل على تحليل ماتحرمه اليوم.

كما أن النهوض لن يتحقق باستنساخ نموذج ثقافي ومجتمعي غربي، لأن ذلك يخالف محددات هويتنا، ويفترض بنفس الوقت الاستفادة من النموذج الغربي وتسخير منجزاته لتحقيق النهضة الإسلامية.

إن التفكير في النهضة من مدخل مذهبي جاهز يعتبر عائقاً أمام حركة النهوض، وليس حافزاً لها. بل إن الخلل الأكبر في فهم ماهية النهضة يكمن في هذه النظرة المذهبية التي سقطت في فخها كل مشاريع النهوض، إسلامية كانت أو متغيرة، فأنتجت روئي وثوقية ت Kelvin فعل النهضة ولا تحفذه. فالنهضة تم حسب الحاجات لاحسب أطرا ثقافية جاهزة، فالدولة المحتلة تمثل نهضتها بمكافحة الاحتلال، والدولة الفقيرة تمثل نهضتها بتحسين الاقتصاد، فالنهضة ليس مشروعًا جاهزاً نعتقد بل هو مشروع جديد يقوم بتوسيعه وفق الضرورات. وبينما الوقت فلن تتحقق نهضة العالم الإسلامي الحقيقة ما زال فيه أزمات شديدة تمنع النهضة الرئيسية فيه ومن تلك الأزمات انتشار الفقر والبطالة والاحتلال الغربي في بعض مناطقه. والحقيقة فإن الغرب ظل على الدوام متبعاً إلى هذه الحقيقة، وبموجبها يقوم بأعمال كثيرة تعيق هذه النهضة الإسلامية. وباتظار زوال تلك الأزمات الكبيرة وعملاً على التخلص منها تتصدر واجبات المسلمين اليوم القيام بالنهضة الثقافية والفكرية والعلمية، والتي ترتبط بنهضة فكرية إسلامية حقيقة. كما أن النهضة من حيث التقييم المعياري تدل على حالة ارتقاء بالمجتمع الإنساني. ومن ثم نرى أن فعل الارتقاء هذا يستلزم تعميق القيم المميزة للإنسان، ولن تتحقق النهضة بدون المعرفة، إذ هي محدد من محددات الإنسانية، وكلما انخفضت المعرفة انخفضت درجة ارتقاء الكائن البشري نحو إنسانيته. ولن تتحقق النهضة بوجود الاحتلال أو استبداد موضوعه الفرد. ولما كان الإنسان كائناً أخلاقياً تأتي قيمة الفعل الإنساني، بوصفه فعلاً مسؤولاً أخلاقياً، وقابلًا للمعايرة والحكم عليه قيمياً. فالمحدد الأخلاقي يميز الفعل والوجود الإنساني عن الفعل الحيواني الخاضع لنطق الضرورة الطبيعية. وأخيراً نرى أن لا نهضة إلا بتعميق هذا البعد الأخلاقي عند الأفراد المسلمين. والالتزام بتأكيد الإسلام على الأخلاق الفردية والعمل بقول الرسول الكريم: "إنما بعثت لأتمم فيكم مكارم الأخلاق".

الفصل العاشر

المسيحية لنا

الحوار الإسلامي المسيحي

ابتدأ الإسلام حواره مع المسيحية منذ بداية الرسالة المحمدية، فقد أمر محمد عليه السلام نفراً من أتباعه بأن يلجأوا إلى راهب مسيحي هو النجاشي، حاكم الحبشة آنذاك. وبالفعل فقد التجأ إليه نفر من المسلمين وقرروا له سورة مريم وعرفوه برسالة الإسلام. فأعجب بالدين الجديد، وقال لهم مقولته الشهيرة: "والله ليس بين ديننا ودينكم من اختلاف سوى هذا الخيط الرفيع" والحقيقة فإنَّ اقتناع الرسول بعدلة النجاشي وإيمانه يعكس أداءً محمدياً حقيقياً للحوار الإسلامي مع المسيحية.

المسيحية العربية

في حفلات تلفزيونية تعرضها فضائية ال بي سي اللبناني نشاهد مرحًا ورقصًا وثقافة وعادات اجتماعية متورة تعكس ثقافة وعادات المجتمع المسيحي العربي في أقصى درجات التور والتغريب والعصرنة التي استطاع العرب أن يصلوا إليها. وهي تعكس حالة مجتمع المسيحيين اللبنانيين وهؤلاء بالضبط هم الأكثر تغريباً بين المسيحيين العرب. وفي هذه الحفلات نلمس بوضوح أن أداء التغريب هو ضرب من التمثيل والتقليد ، وهو محاولة لبس ثوب غربي وعادات وثقافة غربية عند هؤلاء المواطنين المسيحيين. ونراهم يؤدون أدوارهم بتناقل وتصنيع. ويتبين فيهم أنهم لم ولن يكونوا غربيين.

ونحن هنا لا ننتقد مواطنينا المسيحيين بل نستدل من خلال أدائهم الاجتماعي العام على أنهم يتصفون بالشخصية العربية والشرقية والإسلامية التي تتصف بها نحن المسلمين. وفي هذه الحفلات نفسها لا نستطيع أن نميز بين الحاضرين من منهم مسلم ومن هو المسيحي، لأن الثقافة واحدة عند العرب جميعاً.

في الحرب الأخيرة ٢٠٠٦ قصفت الطائرات الإسرائيلية مناطق مسيحية، وفي كل الحروب العربية الإسرائيلية كان المواطنون المسيحيون يشاركون كأخوانهم

السنة ويدهّب منهم شهداء وجرحى. وكانوا يدافعون عن هذه البلاد التي يطلق عليها العالم كلّه تسمية البلاد الإسلامية. وفي العام ٢٠٠١ وأثر تدمير برجي التجارة العالمي سجلت اعتداءات على كنائس شرقية أقامها لبنيانيون مسيحيون، واتهموا بأنهم مسلمون..!! وطوال العصور يساهم المسيحيون العرب باستمرار وبجدية في تطوير هذه البلدان التي ينتهي إليها. وإن مقوله الرسول الكريم "إنما بعثت لأتمم فيكم مكارم الأخلاق" تطبق على المسيحيين العرب بمقدار تطبيقها على غيرهم.

المسيحيون العرب مسلموٌ

المسيحيون العرب مسلمون بمقاييس كثيرة. فهم عاشوا وتواجدوا وتنفسوا في بيئه إسلامية. وإن نتاجاتهم وأهدافهم ونشاطاتهم كلها تخدم المجتمع العربي الذي هو مسلم عموماً وتدافع عنه وتحافظ عليه وعلى هويته. فهم مقاتلون في الجيوش العربية التي هي تدافع عن بلد إسلامي. وهم الذين اخطلوا بأفراد المجتمع المسلم وتزاوجوا وتواجدوا أبناء مسلمين ومسيحيين. والمسيحية العربية كعقيدة وعبادة وأخلاق تأثرت بالإسلام عبر السنين وتفاعلـت مع عقائدهـ. فحافظـت على عقائد وشرائع دينية ثابتة، و يأتي ثباتـها من ثباتـ الإسلام نفسه ومن مجارـاتها للإسلام وللمسلمـينـ. فـلم نـرـ مسيـحـيةـ عـربـيةـ صـهـيـونـيةـ وـلـمـ نـرـ مـسيـحـيةـ عـلـمـانـوـيةـ بلـ نـرـ باـسـتـمـارـ مـسيـحـيةـ ثـابـتـةـ حـفـاظـةـ تـتـميـزـ عنـ كـافـةـ المـدـارـسـ الـمـسـيـحـيـةـ الغـرـبـيـةـ التـيـ اـنـشـقـتـ عـنـهاـ. كـماـ حـفـاظـتـ الـكـنـيـسـةـ الـعـرـبـيـةـ وـحـافـظـ رـجـالـ الدـينـ الـمـسـيـحـيـونـ الـعـربـ عـلـىـ قـيمـ الـمـسـيـحـيـةـ بـقـوـةـ وـعـنـادـ طـوـالـ الـقـرـونـ الـمـاضـيـةـ وـهـذـهـ الـمـحـافـظـةـ وـالـأـصـالـةـ تـأـتـيـ مـنـ مـلاـصـقـهـمـ لـلـإـسـلـامـ.

كـماـ شـهـدـ التـارـيخـ اـنـقـالـاتـ كـثـيرـةـ بـيـنـ الـمـسـيـحـيـةـ وـالـإـسـلـامـ، وـهـذـهـ الـانـقـالـاتـ خـلـطـتـ بـيـنـ الـعـقـائـدـ الـدـينـيـةـ عـنـدـ بـعـضـ الـمـسـلـمـينـ وـالـمـسـيـحـيـينـ. فـرأـيـناـ أـخـوـةـ فيـ أـسـرـةـ وـاحـدـةـ بـيـنـهـمـ إـسـلـامـ وـمـسـيـحـيـونـ. وـرأـيـناـ مـذاـهـبـ إـسـلـامـيـةـ تـحـمـلـ عـقـائـدـ مـسـيـحـيـةـ. وـمـنـ هـذـهـ الـمـقـايـيسـ نـرـ بـأـنـ الـمـسـيـحـيـةـ الـعـرـبـيـةـ وـالـتـرـكـيـةـ جـزـءـ مـنـ الـكـيـانـ الـإـسـلـامـيـ الـعـامـ. إنـ الـخـصـائـصـ وـالـدـوـافـعـ التـيـ مـيـزـتـ الـمـسـيـحـيـةـ الـعـرـبـيـةـ عـنـ الـمـسـيـحـيـةـ الـغـرـبـيـةـ هـيـ بلاـ شـكـ تـلـكـ الـعـوـامـلـ نـفـسـهـاـ التـيـ كـسـبـتـهاـ الـمـسـيـحـيـةـ مـنـ هـوـيـتـهاـ الـعـرـبـيـةـ وـمـنـ الـإـسـلـامـ.

خطوات التحاور والتقارب بيد الديانتين

في العام ٢٠٠١ قام البابا يوحنا بولوس الثاني بالحجيج إلى الأماكن التي مررت بها المسيحية، فزار الجامع الأموي بدمشق، وفي هذه الزيارة أصبح الجامع الأموي مكان عبادة مشتركةً للمسيحيين والمسلمين، حيث أدى البابا وتلامذته الصلوات المسيحية، وأدى المسلمون الصلاة الإسلامية. واستمع البابا إلى تلاوات من آيات القرآن الكريم، حيث قرأت سورة مريم. ولربما كانت تلك أول صلوات مشتركة يحضرها ويقيمها مسلمون ويسريحيون على هذا المستوى العالمي. والحقيقة أن كل ذلك الحدث كان كبيراً وله وقع عالمي كبير. ويعبر عن سعي الطرفين الإسلامي والمسيحي للحوار والتفاهم والتعاون. وقد حضر تلك الصلوات الرئيس السوري بشار الأسد، وكان له فضل كبير في تحقيق ذلك اللقاء، إذ ليس من السهل أن يجرؤ حاكم دولة إسلامية أخرى على جمع مسلمين ويسريحيين في مسجد كبير وعلى إقامة صلوات مشتركة وأداء تسابيح وترانيم دينية إسلامية ويسريحية. وقام رئيس سوريا بشار الأسد بدعوة البابا لزيارة ضريح صلاح الدين، لكن البابا رفض زيارة الضريح. ورغم الإيجابيات الكبيرة التي عبرت عنها تلك الزيارة البابوية للجامع الأموي ، فإن بعض المنتقدين من المسلمين نظروا إلى الجانب السلبي فيها وهو رفض البابا لزيارة ضريح صلاح الدين. فقد اعتبر الدكتور محمد عمارة ذلك بأنه رفض البابا من الاعتذار لل المسلمين عن الحروب الصليبية كلها وعن البدء في مرحلة تفاهم جديد بين المسلمين واليسريحيين. أي أن هؤلاء المنتقدين ومن بينهم محمد عمارة كانوا يريدون أن يتخلّى البابا عن كلّ هويته بلحظة واحدة وأن يمنع المسلمين مالهم يستطيع الغرب منحهم إياه طوال قرون طويلة. وأن يتحقق التفاهم الإسلامي المسيحي الكامل في تلك اللحظة، لقد كانت تلك الزيارة خطوة كبيرة في طريق التفاهم والتصالح لكنها لم تكن مشروعأً تصالحياً كاملاً.

وبتاريخ ١٤/١٢/٢٠٠١ دعا البابا يوحنا بولوس الثاني مسيحيي العالم لصيام اليوم الأخير من شهر رمضان الإسلامي، بهدف التعبير عن التحالف مع المسلمين. وكانت تلك الدعوة خطوة إيجابية في طريق المصالحة الإسلامية المسيحية.

وفي لبنان وقف جبران تويني، (وللدلالة فقط فهو المسيحي الماروني) وقف في حشد كبير من المسلمين والمسيحيين وقال عدة مرات: (نقسم بالله العظيم المسلمين ومسيحيين بأن نبقى موحدين...) وكان ذلك القول سياسياً وقسماً حقيقياً وعهداً أمام الجميع وأمام العالم كله.

وفي مدينة القدس المحتلة، وبتاريخ ٢ آذار ٢٠٠٧ أعلن عن قيام الجبهة الإسلامية المسيحية لحماية الأماكن المقدسة. وجاء ذلك ردًا على أعمال الحفريات الصهيونية تحت جدار المسجد الأقصى وكانت المبادرة من مطران القدس الشريف، ولم نسمع عن مبادرات أخرى مهمة قام بها مسلمون في العالم كله لحماية الأماكن المقدسة في الأراضي المحتلة.

المسيحيون العراقيون

مرة أخرى يثبت المسيحيون العرب أنهم مواطنون متساوون متعاونون مع المجتمع العربي بكافة انتماماته ، وأنهم واعون لخطر الفتنة الطائفية ويعيدون عنها كلَّ البعد، ففي العراق ورغم كلِّ مطاحن الطائفية التي حلّت به، اتّخذ المسيحيون موقف المسالم والمحب للعراق وأهله ، والساعي للسلام الدائم فيه. ورغم أن جنود الاحتلال هم مسيحيون ويمثلون المسيحية الغربية القوية عسكرياً. فلم يتحالف المسيحيون العراقيون معها.

وإنهم على الدوام يوافقون على كلِّ الحلول التي تؤدي إلى السلام الاجتماعي والوطني. ومن هنا يتوجّب علينا أن نثبّت هذه الصفات التي يتعلّق بها المسيحيون العرب. فهم أبناء هذه البلاد ويسعون على الدوام لسلامها وأمنها.

في الأيام الأولى لدخول القوات الأمريكية أرض العراق، تحدّث إحدى المواطنات المسيحيات مع إذاعة مونت كارلو وشكّت من اعتداءات إسلامية على حرية المسيحيين. وقالت : أجبرونا على لبس الحجاب عند خروجنا من البيت.

فسألها المذيع قائلاً: وأنتم ما هو موقفكم ؟ هل ستتوافقون على لبسه ؟

أجابته السيدة: ليس في ارتدائه مشكلة لنا فنحن نوافق على ارتدائه، لكننا نخشى من آية اعتداءات طائفية.

ونتيجة لعنف الحرب وانتشار الطائفية فقد غادر العراق حوالي ٥٠٪ من مسيحييه كما تفيد احصائيات أيار ٢٠٠٧ . وإن استمرار هذه الهجرة يعني جعل العراق خالياً من المسيحية (لسمح الله)، ويعني انقراض الديانة المسيحية في العراق.

منظمات يهودية تحارب المسيحية بـ**نحو المسلمين**

إثر تزايد اعتقاد المسيحيين الغربيين للديانة الإسلامية، تقوم منظمات صهيونية بالدرجة الأولى بمنع اتساع هذه الظاهرة. وبينما الوقت فهي تقوم بنشر إشاعات كاذبة في الغرب تدعى فيها بمعاناة المسيحيين العرب من الاضطهاد في مجتمعاتهم. ففي كانون الثاني ١٩٩٦ انضم هوروفيتز إلى نيناشيا اليهودية المتعصبة رئيسة برنامج حقوق الإنسان في منظمة "بيت الحرية" ومؤلفة كتاب "عرس الأسد" الذي زعمت فيه أن مصر والسودان وإيران وال سعودية وباكستان هي الدول الأكثر اضطهاداً للمسيحيين، واعتبرت أن الإسلام مثله مثل الشيوعية في اضطهاد المسيحيين. ونظم هوروفيتز ونيناشيا مؤتمراً عقد في واشنطن تحت عنوان "اثر الأسلام على العلاقات الدولية وحقوق الإنسان" شارك فيه ستيف أرسون التلفزيوني الأميركي المتعصب، صاحب الفيلم التسجيلي الشهير المعادي للإسلام "الجهاد في أميركا". وعبر المؤتمر عن الخشية من تزايد دخول المسيحيين في الإسلام، وطالب بوضع برامج للقضاء على هذه الظاهرة.

وفي يناير/كانون الثاني ١٩٩٧ نظم هوروفيتز وبيت الحرية مؤتمراً آخر تحت عنوان "اليوم العالمي للتضامن مع الكنيسة المضطهدة" حضره مئتاً وأربعين ألف كنيسة في الولايات المتحدة تضامناً مع المسيحيين في الدول الإسلامية.

واثهم المؤتمر كلاماً من الكنائس الأمريكية والإدارة الأمريكية بالقصیر في إنقاذ المسيحيين العرب، ودعا إلى إنقاذ مسيحيي الشرق من "براثن الإسلام".

المسيحية لنا

قال البابا يوحنا بولس الثاني في حديثه عن التعددية الدينية والمذهبية في لبنان: ” هذه التعددية الطائفية في لبنان هي رسالة إنسانية للبنانيين.. ”

المسيحية لنا نحن المسلمين وال المسيحيين العرب، وهي ديانة سماوية انطلقت من أرضنا العربية التي يعتبرها المسلمون وال المسيحيون أرضاً مقدسة، ومن هنا انتشرت إلى بلدان العالم كله. وعندما تعددت مدارسها ومذاهبها في الغرب بقيت المسيحية العربية محافظة على أصالتها وأصالحة عقيدتها.

تطوير الحوار الإسلامي المسيحي

انه لمن الضروري أن يسعى المسلمون لدفع الحوار الإسلامي المسيحي نحو الأمام وتطويره ودعمه والقيام بخطوات كبيرة وجريئة، كتطوير العلاقات الاجتماعية والتزواج، ومشاركة كبيرة ورسمية في الاحتفالات الدينية عند المسلمين وال المسيحيين. فمن الممكن أن تقوم وفود إسلامية رسمية بحضور المناسبات الدينية المسيحية وبالمثل تقوم وفود مسيحية رسمية بحضور مناسبات دينية إسلامية. وندعو الأفراد مسيحيين و المسلمين بأن يقوموا بالتواصل والحووار فيما بينهم، وأن يكونوا هم الأداة المنفذة لهذا الحوار في ظل غياب الحوار أو تعطيله على مستوى رجال الدين. يزور الجامع الأموي بدمشق سياح و مواطنون عديدون ومثل ذلك ندعو المسيحيين السوريين لزيارته، لا ليصبحوا مسلمين بالطبع بل ليغرسوا عن مشاعر الحوار الديني ولزيارتهم من التلامح الاجتماعي في البلاد. ويفسح الوقت ليتعرفوا على الأجزاء الإسلامية التي يعيشها أخوانهم المسلمين.

العقيدة المسيحية

العقيدة المسيحية هي الرسالة التي أنزلت على عيسى بن مریم مكملة لرسالة موسى عليهما السلام، ومتتمة لما جاء في التوراة من تعاليم، موجهة إلى بني إسرائيل، وداعية إلى التوحيد والفضيلة والتسامح، ولكنها جابهت مقاومة واضطهاداً شديدين، فابتعدت كثيراً عن أصولها الأولى لامتزاجها بمعتقدات وفلسفات عديدة: وقد مرّت النصرانية بعدة مراحل وأطوار تاريخية مختلفة.

المسيحية دين سماوي

المسيحية دين سماوي حمل رسالته السيد المسيح عيسى بن مریم الذي ولد وتوفي في فلسطين عن عمر يناهز الثلاثين، وتتابع رسالته وتلامذته نشر رسالته في فلسطين أولاً ثم في سوريا وفي العالم، ولقد تحمل المسيحيون اضطهاد الرومان الوثنيين عندما حاول بطرس الرسول وبولس نشر المسيحية في روما فأحرق نيرون الإمبراطور الروماني المجنون روما وقضى على المسيحيين. ولكن المسيحية استمرت تمارس من بعض المؤمنين بها بالخفاء وفي دياميس تحت الأرض، وكثيراً ما عطف عليهم بعض الأباطرة وبخاصة الإمبراطور السوري "كارا كالا"، وهكذا تزايد عددهم وظهرت كنائسهم في عصر "ديوقلسيا" حتى جاء قسطنطين فأعلن المسيحية دين الدولة في القسطنطينية ثم أعلنت كذلك في روما بعد أربعين سنة.

لقد اتبّع قسم كبير من السوريين العقيدة المسيحية، وتشهد الآثار في المدن المنوية في سلسلة جبال بيلوس على ازدهار الدين المسيحي وذلك من خلال الأديرة والكنائس التي أنشئت خلال الحقبة من القرن الرابع إلى القرن السابع، كما تتجلى في مدينة الرصافة سرجيو بوليس وفي قلعة سمعان العمودي، وفي كنائس حوران ودمشق وحمص وأديرة وكنائس القلمون والبادية. ومع ذلك فإن سكان سورية حافظوا على لغتهم السورية السريانية وهي آرامية الجنوز. وكانت إنطاكيّة عاصمة المنطقة الشماليّة كما كانت أقامياً عاصمة المنطقة الجنوبيّة.

المسيحيّة المُرحلة الأولى

وهي العقيدة المُنرَّلة من عند الله التي جاء بها عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام، ويعتقد المسلمون بأنها ديانة الإسلام التي أنزلها الله على آدم وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليه السلام وهذا الاعتقاد الإسلامي لا ينقص من (الاعتقاد المسيحي) شيئاً بل يزيده بعدها وشموليّة، ويجعل المسيحيّة جزءاً من المشروع الإلهي الكبير المخصص للبشرية.

تيودورا

وفي عصر "جوستينيان" ٥٢٧-٥٦٥م انتشر مذهب اليعاقبة مذهب الراهب يعقوب البرادعي وكانت تيودورا السورية المولودة في منبع زعيمة هذا المذهب الذي انتشر بين السوريين والفساسنة على عكس المذهب الأرثوذكسي وهو مذهب القسطنطينية.

ومنذ عام ٣٩٢م كانت سوريا جغرافياً تدخل في نطاق الإمبراطورية البيزنطية، ولكن تعدد المذاهب المسيحية فيها أدى إلى كثير من المنازعات. ومن جهة أخرى فإن الحروب التي كانت تجري بين بيزنطة والساسانيين، كانت سوريا أحياناً مسرحاً لها، وكان الفساسنة يشاركون بيزنطة بعد أن كانوا حلفاء روما بينما كان المنادرة في الحيرة يشاركون الفرس. مما دفع جوستينيان إلى عقد الصلح مع الفرس سنة ٥٣٢م.

بداية الانشقاق المسيحي

فيما بين عام ٥١ - ٥٥٥م عقد أول مجمع يجمع بين الحواريين تحت رئاسة يعقوب ابن يوسف النجار، وفيه تقرر: استثناء غير اليهود من الالتزام بشريعة التوراة على أنها خطوة أولى يلزم بعدها بشريعة التوراة. كما تقرر فيه تحريم الزنا، وأكل المنخقة، والدم، وما ذبح للأوثان، بينما أبيح في الخمر ولحم الخنزير والربا.

وعاد بولس بصحبة برنابا إلى أنطاكية مرة أخرى، وبعد صحبة غير قصيرة انفصل وحدث بينهما مشادة عظيمة نتيجة لإعلان بولس نسخ أحكام التوراة وقوله إنها:

”كانت لعنة تخلصنا منها إلى الأبد“ وإن المسيح جاء ليبدل عهداً قدِّيماً بعهد جديد.

وحدثت خلافات حول فكرة اتصال الإله بالأرض عن طريق الكلمة، أو ابن الإله، أو الروح القدس، وحول عقيدة الصليب والفاء، وقيامه المسيح وصعوده إلى السماء؛ ليجلس على يمين الرب . وهكذا كرر بولس نفس الأمر مع بطرس الذي هاجمه وانفصل عنه مما أثار الناس ضده، لذا كتب بولس رسالة إلى أهل ملاطية ضمنها عقيدته ومبادئه، ومن ثم واصل جولاته بصحبة تلاميذه إلى أوروبا وأسيا الصغرى ليلقى حتفه في روما في عهد نيرون سنة 65م. وقد استمرت المقاومة الشديدة لأفكار بولس عبر القرون الثلاثة الأولى: ففي القرن الثاني الميلادي تصدى هيولتس، وأبيبي فايتس، وأوريجين لها، وأنكروا أن بولس كان رسولاً، وظهر بولس الشمشاطي في القرن الثالث، وتبعه فرقته البولوسية.

المسيحية الديبرية

في خلال هذه المرحلة ظهرت الرهبنة في النصرانية في مصر أولاً على يد القديس بولس الطبي 241 - 256م والقديس أنطوان المعاصر له، إلا أن الديبرية - حركة بناء الأديرة - نشأت أيضاً في صعيد مصر عام 215 - 220م على يد القديس باخوم، ومنها انتشرت في الشام وأسيا الصغرى. وفي نفس الوقت دخلت غرب أوروبا على يد القديس كاسليان 370 - 425م ومارتن التوري 316 - 387م، كما ظهر مجموعة من الآباء المؤثرين بمدرسة الإسكندرية الفلسفية (الأفلاطونية الحديثة) وبالفلسفة الغنوصية، مثل كليمينت الإسكندرى 150 - 215م أو리جانوس 185 - 240م وغيرهما.

ثبات المسيحية العربية وتلاشيه مسيحية الغرب

من الملاحظ أنه عبر تاريخ المسيحية الطويل ظلت المسيحية العربية محافظة على عقائدها مثبتة لها، ولم تسمح بإحداث أي خرق لها طوال تلك القرون الطويلة. وكما ظلت المسيحية العربية تمنع كافة الخروقات بقوة. وهذا الثبات له صلة أكيدة بجوار المسيحية العربية للإسلام وأهله الذين حافظوا على ثبات الإسلام. وهذا أحد جوانب التأثير المسيحي بالإسلام. ونعتقد بحتمية استمرار هذا الثبات عند المسيحية العربية وعما سيؤدي بالمستقبل إلى مواجهتها الحتمية مع المسيحية الغربية تلك التي شهدت الكثير من التحولات والانشقاقات.

انفصال الكنيسة القبطية من هبّا

لم يعترف أسقف روما ليو الأول بقرارات مجمع أفسس الثاني ٤٤٩م وسعى الإمبراطور مركيانوس لعقد مجمع آخر للنظر في قرارات ذلك المجمع، فوافق على عقد المجمع في القسطنطينية، ثم في كلدونية ٤٥١م لمناقشة مقالة بابا الإسكندرية ديسقوروس: من أن للمسيح طبيعتين في طبيعة واحدة (المذهب الطبيعي - المونوهيفية)، ليقرر لعن ديسقوروس وكل من شايته ونفيه، وتمرير أن للمسيح طبيعتين منفصلتين. فكان ذلك دافعاً أن لا تعرف الكنيسة المصرية بهذا المجمع ولا بالذى يليه من المجامع. ومنذ ذلك التاريخ انفصلت في كنيسة مستقلة تحت اسم الكنيسة المرقسية - الكنيسة الأرثوذكسية - أو القبطية تحت رئاسة بطريرك الإسكندرية، وانفصلت معها كنيسة الحبشة وغيرها، ليبدأ الانفصال المذهبي عن الكنيسة الغربية.

الكنيسة الأرثوذك司ية المصرية

يعتقد أصحابها أن مؤسساها هو مارقس الرسول عام 45 م. وظهرت بواحد الانفصال المذهبي للكنيسة المصرية، منذ أن جعل الإمبراطور ثيودوسيوس كنيسة القسطنطينية هي الكنيسة الرسمية للإمبراطورية الشرقية عام 381 م وأن كنيسة الإسكندرية تليها في المرتبة، مما دفع بطريرك الإسكندرية كيرلس عام 412 م إلى تولي زعامة الشعب ضد الإمبراطور وعماله في مصر. ثم زادت هوة الخلاف بين الكنسيتين على إثر إعلان نسطور - أسقف القسطنطينية - مقالته التي تصدى لها كيرلس بطريرك الإسكندرية في مجمع أفسس عام 421 م الذي استطاع استصدار حكماً ضد نسطور باللعن والطرد.

بعث فلافيانوس بطريرك القسطنطينية مقالة نسطور مرة أخرى فتصدى لها ديسقورس بطريرك الإسكندرية في مجمع أفسس عام 449 م والذي لم يعترض به أسقف روما، فقد لذلك مجمع كلدونية عام 451 م ليقرر لعن ديسقورس ونفيه، بل وتعيين بطريرك ملکاني خلفاً له، الأمر الذي دفع الكنيسة المصرية لإعلان عصيانها وعدم اعترافها بمجمع كلدونية عام 451 م ولا بقراراته، مما سبب عودة الاضطهاد مرة أخرى لحمل الكنيسة المصرية على اتباع عقيدة كنيسة القسطنطينية والتي توافقها عليها الكنيسة الغربية.

هكذا عاشت الكنيسة المصرية سلسلة من المنازعات حول تعيين الأسقف، إلى أن تم الاتفاق عام 482 م على أن يختار المصريون أسقفهم دون تدخل من الإمبراطور، فكان هذا التاريخ يمثل بداية الانفصال الحقيقي عن كنيسة القسطنطينية.

الأقباط رحباً بالإسلام

ما أن ظهرت بشائر الفتح الإسلامي منطلقة من الجزيرة العربية حتى رحبت بها الكنيسة المصرية، للتخلص من ظلم واضطهاد إخوانهم مسيحيي الإمبراطورية البيزنطية.

وما إن وطئت طلائع الفتح الإسلامي أرض مصر بقيادة عمرو بن العاص رضي الله عنه، حتى أعيد بنيامين بطريرك الكنيسة المصرية إلى كرسيه، واجتمع به عمرو بن العاص ووافقه على ما أبداه من مقترنات لحفظ كيان الكنيسة، كما وافقه على تشييد ما دعت إليه الحاجة من الكنائس وتجديد إصلاح البعض الآخر.

تأثر الكثير من النصارى المصريين بعذالة الإسلام، وسامحة مبادئه، حيث ترك لهم حق الاعتقاد وحرية ممارسة العبادة والشعائر الخاصة بهم، كما سمح لهم بالمشاركة في بعض وظائف الدولة الإسلامية، مما فتح قلوبهم لقبول الحق، والدخول في دين الإسلام أفواجاً، وبذلك صارت اللغة العربية لغتهم ولغة البلاد، وأصبح منهم العلماء والقادة فيما بعد.

وفي سنة ١٢١٩ م قامت الحملة الصليبية الخامسة بقيادة لويس التاسع وحاولت إخضاع الكنيسة المصرية الأرثوذكسية لمذهب الكنيسة الغربية الكاثوليكية. وقد تمكنت في بادئ الأمر من احتلال مدينة دمياط وفرض بطريرك كاثوليكي من الآباء الفرنسيسكان عليها، ليتمثل أول وجود كاثوليكي في مصر، فما أن هب المسلمون لصد العدوان حتى انهزمت الحملة وأسر قائلها. وفي سنة ١٧٦٩ م أعادت الكنيسة الغربية الكَرَّة، ولكن هذه المرة عن طريق المفاوضات والمصالحة، وعرض انضمام الكنيسة المصرية إليها، ليقابلها بطريرك الكنيسة المصرية يوانس الثامن عشر بالرفض التام.

بدأت بوادر حركة إصلاح وتطوير الكنيسة المصرية في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، وبخاصة في عهد البطريرك كيرلس الرابع ١٨٥٤ - ١٨٦٢ م. التي زاد نشاطها واستطاعت تأسيس مراكز للدعوة إلى مذهبهم في صعيد مصر بوجه خاص. وكانت استجابة بعض الأرثوذكس لهم دافعاً للقيام بهذه الإصلاحات وافتتاح مدارس للبنين والبنات، وإنشاء المدرسة البطريركية، بالإضافة إلى إدخال أول مطبعة إلى مصر.

ثم تصدى البطريرك ديمتريوس الثاني ١٨٦٢ - ١٨٧٤ م للتبيشير الكاثوليكي والبروتستانتي في مصر، بإصدار قرارات الحرمان ضد المرسلين الأمريكيين ومن يتصل بهم من الأقباط.

وازدادت حملة الكنيسة المصرية ضراوة ضد إرساليات الكنائس الغربية في مصر في عهد البطريرك كيرلس الخامس ١٨٧٤ - ١٩٢٧ م حيث أغلق مدارسهم، وأصدر قرارات تعتبر هذه الكنائس وإرساليتها وتابعها ومن ينضم إليها من الأقباط مهرطقين، ولم يفلح تدخل القنصل الأمريكي وللم تاير والمنتصرون هوم في إقناع البطريرك من أن نشاطهم غير موجه ضد الأرثوذكس.

يُعد حبيب جرجس ١٩٥١-١٨٦٧ م من أبرز رواد الإصلاح والتطوير في الكنيسة المصرية، حيث أنشأ مدارس الأحد والمدرسة الإكليلية، ودعم وساهم في العديد من الأنشطة الاجتماعية والثقافية، ظهرت المجالات والجرائد الدينية المسيحية، كما أنشأ العديد من المدارس والمكتبات ودور النشر التي تهتم بنشر التعاليم المسيحية بين المسلمين. وزادت تباعاً لذلك عدد المؤسسات الاجتماعية المختلفة التي تخدم الأرثوذكس، كل هذا بغية التصدي لإرساليات التبشيرية الغربية. وما لاشك فيه أن تلك الأنشطة الثقافية والفكرية كانت قد ساهمت في تحريك الفكر الإسلامي نفسه، وفي تطوير الطباعة ودور النشر في مصر كلها.

وفي عهد الخديوي إسماعيل دخل عدد كبير من الأرثوذكس القضاء والمجالس النيابية وكلف الأقباط بالخدمة العسكرية، وازدهرت المسيحية القبطية آنذاك وبرز فيها أشخاص عديدون ومنذ ذلك العهد دخلت القبطية مرحلة جديدة في تاريخها.

تطور الكنيسة القبطية في عهد كيريلوس

خطا البطريرك كيريلوس السادس ١٩٥٩ - ١٩٦٩ م خطوات جديدة نحو تطوير الكنيسة؛ حيث أنشأ العديد من الأسقفيات، منها أسقفيات الخدمات

ومهمتها العلاقات الخارجية والاتصال بالكنائس الأخرى، سواء كانت الكنائس الغربية ومؤسساتها أو بالكنائس القبطية خارج مصر، وأسقفية للخدمات والشئون المالية وإصدار طبعات جديدة للكتاب المقدس، ووضع دائرة معارف قبطية، كما أنشأ أسقفية للتربية الكنسية مهمتها الإشراف على كليات اللاهوت ومدارس الأحد وجميع شؤون التعليم والتربية الكنسية. واستغلاً للثقل الدولي للكنيسة بعد انضمامها إلى مجلس الكنائس العالمي، ومجلس الكنائس العالمية العاملة في أفريقيا، وتعاونها مع مجلس كنائس أمريكا زاد الضغط على الحكومة لإلغاء النظام الهيومانوي وأنشئت العديد من الكنائس.

وفي عام ١٩٧١م تولى البابا شنودة الثالث رئاسة الكنيسة المصرية وأسمه نظير جيد، فقد تخرج من كلية الآداب جامعة القاهرة، والتحق بالقوات المسلحة كضابط احتياط، ثم عمل صحفياً وكاتباً وشاعراً، وتسمى باسم شنودة الثالث. وفي عهده زاد التوجه السياسي للكنيسة المصرية وتقديم مفهوم جديد للنصرانية على أنها دين ودولة، مستخدماً في ذلك سياسة الانتشار الدولي، والتقرب مع الكنائس الغربية ومؤسساتها لدعم السياسات الداخلية للكنيسة وتحقيق أغراضها، كما أعلن عن تنظيمات جديدة للكنيسة، ودعا إلى تطوير الكلية الأكاديمية وإعادة الكنيسة إلى مكانها العالمية، فزاد اهتمامه بإنشاء الكنائس في الخارج وعين لها الأساقفة، وتحت رئاسة وإشراف البابا شنودة تعددت الاجتماعات ذات الصبغة الدينية والسياسية، التي تطالب بإعطاء الكنيسة الأرثوذكسية في مصر دوراً فاعلاً في السياسة، وأن يكون لها نصيبيها من المناصب الوزارية والموافقة على إنشاء جامعة للأقباط على غرار جامعة الأزهر. وزادت في عهده أيضاً وبشكل ملحوظ النشرات والكتب، وحملات التحصیر، مما أشعل المواجهات بين المسلمين والنصارى فيما عرف بأحداث الفتنة الطائفية (الزاوية الحمراء ومناطق مختلفة من صعيد مصر) الأمر الذي دعا الرئيس السادات إلى عزله ونفيه في دير وادي النطرون، وقد أفرج عنه وعاد إلى كرسيه في عهد الرئيس مبارك.

التصوف الإسلامي عند الأقباط

في العصور الوسطى كان التصوف هو الأقرب إلى طبيعة الدين المصري، لذا انتشر فيها وساد منذ القرن الخامس الهجري . فقد احتوى التصوف كل العقائد المصرية القديمة وصاغها في أشكال تحمل رموزاً إسلامية. واشترك المصريون جمِيعاً من أقباط ومسلمين في تأدية نفس الطقوس وفي نفس المناسبات، كالموالد والقبور المقدسة والاعتقاد في الأولياء والقديسين، وقد فصلنا الحديث في ذلك في كتابنا "شخصية مصر بعد الفتح الإسلامي" (٢) وفي هذا الإطار كان التسامح مع الآخر، و"التسليم بحالته وطريقته" هو دستور التعامل في مصر، بينما كان "تغيير المنكر" بالقوة هو الدستور الآخر خارج مصر، حيث كان تغيير المنكر يتحول إلى ثورات عارمة فيما بين إيران والشام. والخلاصة: أن مصر كانت متفردة في العصور الوسطى بتدينها السمح وصبرها على جور الحكام، والغريب أن يدخل العالم إلى العصر الحديث ويختفي التعلق الديني وتنتهي الحروب الدينية وتتحسر مفاهيم العصور الوسطى ولكنها تعود إلى مصر في القرن العشرين الميلادي وهي تحمل معها نفس الملامح التي كانت رائحة خارج مصر في القرون الوسطى.

وإن استمرار التصوف الإسلامي عند الأقباط حتى يومنا هذا له دليل على الوحدة الثقافية عند المصريين، وعلى تفاعل وتأثير الأقباط بالإسلام.

أمريكا تحاول تسييس الأقباط

في مطلع أيلول ٢٠٠٧ صدر في الولايات المتحدة تقرير جاء فيه أن الأقباط يعانون من تمييز عنصري وطائفي في مصر. ورداً على ذلك التقرير التقى البابا شنودة في الثامن عشر من الشهر مع وزيرة الخارجية المصرية وأخبرها بأنه لا يوافق على التدخل الأمريكي في شؤون الأقباط. وأنه ينتقد التقرير الأمريكي ويعتبره لايتواافق مع الواقع المصري. وهذه المرة أيضاً يعبر الأقباط عن انتمائهم الصحيح للمجتمع العربي المصري.

الخلاف الحكومي المصري مع الأقباط ونتائجها

بالعودة إلى العقود الماضية نلاحظ استمرار الخلاف الحكومي المصري مع الأقباط. فقد اصطدم معهم عبد الناصر. وتلاه في الصدام أنور السادات الذي اعتقل البابا شنودة وتلاه أيضاً حسني مبارك الذي زج الكثير منهم في السجون.

هذا الصدام الحكومي مع الأقباط انعكس على المجتمع المصري ككل. وبرر للمصريون حمل المشاعر الطائفية تجاه الأقباط. وهو الصدام الذي صنع هذه المشاعر والتي اختلطت بالمواجهات وأعمال القتل والحرق وغير ذلك. في حين نرى أن الدول العربية التي تحمي مسيحييها تقلّ فيها أو تبعد المشاعر الطائفية.

ومما تقدم تصبح الحكومات المصرية المتعاقبة هي المسئولة في الأحداث الطائفية في مصر.

المسيحيون الكلدان

الكلدان من الأقوام السامية الذين يتحدثون باللغة الآرامية يعيشون في شمال العراق وجنوب شرق تركيا وشمال غرب إيران. عاش الكلدان منذ القدم بالقرب من عاصمة الأشوريين، نينوى التي تقع في العراق وتسمى بالوقت الحاضر بمدينة الموصل.

الاسم "كلدي"، ظهر في وثائق التاريخ حوالي ٩٠٠ قبل الميلاد. في البداية نجد الكلدان كقبائل آرامية في بابل. وفي عام ٦٢٥ قبل الميلاد فتحوا بابل وأسسوا إمبراطورية بابلية كلدانية عظيمة استمرت لغاية عام ٥٣٩ قبل الميلاد حيث سقطت على يد كورش الفارسي. يذكرون في سفر أیوب (١:١٧) من العهد القديم. في عام ٦٢٧ قبل الميلاد أصبح نابو وبالأسار، بمساعدة القبائل الكلدانية، ملكاً على بابل عندما أصبح نبوخذنصر الكلداني (٥٦٢-٤٦٠) ملكاً على بابل ووصلت بلاد ما بين النهرين إلى ذروة العظماء والمجد وأصبحت العاصمة بابل حسب الكتاب المقدس "بهاء الملك وزينة فخر الكلدانين" (إشعيا ١٩:١٣)، "بابل كأس ذهب بيد الرب تسکر

كل الأرض. من خمرها شربت الشعوب من أجل ذلك جنت الشعوب" (أرميا ٥١:٧). وكانوا من أوائل من اعتقو المسيحية حيث كانوا حتى سنة ١٥٥٢ جزءاً من الكنيسة الشرقية الآشورية إلى أن انفصلوا وقاموا بتأسيس الكنيسة الكاثوليكية الكلدانية. يقدر نفوس الكلدان بحوالي ٢.٥ مليون نسمة في مختلف بقاع العالم حيث يعيش حوالي ١٠٠٠٠ في الولايات المتحدة الأمريكية وخاصة في مدينة ديترويت في ولاية ميشيغان. وفي العراق يحکىاليوم عن الخوف من احتفاء الكلدان بالكامل بسبب حروب الإبادة والتصفية والتهجير التي يتعرضون لها.

المسيحية المارونية

المارونية، طائفة من طوائف النصارى الكاثوليك الشرقيين، قالوا إن للمسيح طبيعتين ومشيئة واحدة، ينتسبون إلى القديس مارون ويعرفون باسم الموارنة متخذين من لبنان مركزاً لهم.

وتنتسب هذه الطائفة إلى القديس مارون الذي عزل نفسه في الجبال والوديان مما جذب الناس إليه مشكّلين طائفة عرفت باسمه، وكانت حياته في أواخر القرن الرابع الميلادي فيما كان موته حوالي سنة ٤١٠ م بين أنطاكية وقورس.

وقد خلاف شديد بين أتباع مارون وبين كنيسة الروم الأرثوذكس مما اضطرهم إلى الرحيل عن أنطاكية إلى قلعة المصيق قرب أقاميا على نهر العاصي مشيدين هناك ديراً يحمل اسم القديس مارون. وقع كذلك خلاف آخر في المكان الجديد بينهم وبين اليعاقبة الأرثوذكس من أصحاب الطبيعة الواحدة عام ٥١٧ م مما أسفر عن تهديم ديرهم فضلاً عن مقتل ٣٥٠ راهباً من رهبائهم.

وخلال فترة الرحيل نالهم عطف الإمبراطور مرقيانوس الذي وسّع لهم الدير عام ٤٥٢ م. وعطف الإمبراطور يوستينيان الكبير ٥٦٥-٥٢٧ م الذي أعاد بناء ديرهم بعد تهديم اليعاقبة له. وكذلك عطف الإمبراطور هرقل الذي زارهم سنة ٦٢٨ م بعد انتصاره على الفرس.

احتكم الموارنة واليعاقبة عام ٦٥٩ م إلى معاوية بن أبي سفيان لإنهاء الخلاف بينهم، لكن الخصومة استمرت، إذ حدثت حروب انتقامية بين الطرفين مما أسفر عن هجرة الموارنة إلى شمالي لبنان وهو المكان الذي أصبح موطنًا لهم فيما بعد. ظهر في موطنهم الجديد بلبنان القديس يوحنا مارون الذي يعتبر صاحب المارونية الحديثة.

ولد يوحنا مارون في سروم قرب أنطاكية، وتلقى دراسته في القدسية وعيّن أسقفاً على البترون على الساحل الشمالي من لبنان.

يعتقد الموارنة بأن في المسيح طبيعتين ولكن له مشيئة واحدة لالتقاء الطبيعتين في أقوام واحد ولم تقبل الكنائس النصرانية الأخرى هذا الرأي، فدعوا إلى مجمع القدسية الثالث الذي عقد سنة ٦٨٠ م وقد حضره ٢٨٦ أسقفاً وقرروا فيه رفض هذه العقيدة وحرمان أصحابها ولعنهم وطردهم وتکفیر كل من يذهب مذهبهم. وتصدى يوحنا مارون بجيش من الموارنة لجيش قاده يوسفيان الثاني الذي أراد هدم معابدهم واستئصالهم إلا أن الموارنة هزموه في أميون مما أظهر أمرهم كأمة جبلية أصلية ذات شخصية مستقلة. ثم تحايلت كنيسة روما بعد ذلك عليهم في سبيل تقربهم منها حيث قام البطريرك الماروني أرميا العمسيتي بزيارة لروما حوالي سنة ١١١٣ وعند عودته أدخل بعض التعديلات في خدمة القدس وطقوس العبادة وسيامة الكهنة. ولقد زاد التقارب بينهما حتى بلغ في عام ١١٨٢ م إعلان طاعتهم للكنيسة البابوية، أما في عام ١٢٣٦ م فقد بلغ التقارب حد الاتحاد الكامل معها فأصبحت الكنيسة المارونية بذلك من الكنائس الأثيرة لدى باباوات روما. وكان لويس التاسع أول صديق فرنسي لهم، إذ تقدم إليه عندما نزل إلى البر في عكا وقد مؤلف من خمسة عشر ألف ماروني ومعهم المؤن والهدايا، وقد سلمهم بهذه المناسبة رسالة مؤرخة في ٢١/٥/١٢٥٠ م فيها تصريح بأن فرنسا تعهد بحمايتهم فقد جاء فيها: "ونحن مقتعمون بأن هذه الأمة التي تعرف باسم القديس مارون هي جزء من الأمة الفرنسية". ومن هنا نشأت واستمرت العلاقة التاريخية الحميمة مع الفرنسيين. واستمر هذا التعااطف من الغرب مع الموارنة في الأجيال التالية وذلك عندما أرسل

نابليون الثالث فرقة فرنسية لتهيئة الجبل عام ١٨٦٠ م وكذلك بعد الحرب العالمية الأولى عندما صار لبنان تحت الانتداب الفرنسي. ومن مشاهير المارونيّين العرب: تيوفيل (تيوفيلوس) بن توما من شمال سوريا، ماروني، كان يعمل منجماً في قصر الخليفة العباسي المهدي ٧٨٥-٧٧٥ م كما قام بترجمة إلإيادة هوميروس. والمؤرخ اسطفانوس الدويهي المشهور، الذي توفي سنة ١٧٠٤ م. والبطريرك جرجس عميرة، الذي ألف أول غراماتيقي سرياني واضعاً قواعده باللاتينية تسهيلاً على المستشرقين دراسة هذه اللغة. ويوسف حبيش ويوسوس مسعد ويوحنا الحاج والبطريرك إلياس الحويك. ومن الأساقفة المطران جرمانوس فرحان ويوسف سمعان السمعاني ويوحنا حبيب ويوسف الدبس. ومن بيوتاتهم المعروفة آل خازن ودحداح وحبيش والسعدي وكرام والظاهر والبستانى والشدياق والنقاوش والباز. ومن زعاماتهم المعاصرة: آل جميل، وشمعون، وفرنجية، واده، وغيرهم، ويدرك أن المطربة العربية الكبيرة فيروز مارونية أصيلة غنت لكة ولقدس ولدمشق ولبيروت. وقد اتسمت كل عطاءاتها بتعزيز التلاحم بين المسيحية والعروبة والإسلام.

ومن تنظيماتهم السياسية الحزبية العسكرية حالياً: حزب الكتائب وحزب الأحرار. وهم بشكل عام يحافظون على أصالتهم وعروبتهم وعلى العلاقة الحميمية الطبيعية التي تربطهم بال المسلمين كافة. ومنذ عام ١٩٤٢ م حتى اليوم استقر الأمر بأن يكون رئيس الجمهورية اللبناني من الطائفة المارونية وذلك بموجب الميثاق الوطني الذي تم فيه الاتفاق شفوياً بين المسلمين والنصارى حول توزيع المناصب الرئيسية للدولة اللبنانية على مختلف الطوائف الدينية فيها.

المحتارات المارونية

أهم نقطة تميزهم عن بقية الطوائف النصرانية هو معتقدهم بأن للمسيح طبيعتين وله مشيئة واحدة وذلك لأنقاء الطبيعتين في أقوام واحد. وعقيدة المشيئة الواحدة التي قال بها بطريرك الإمبراطور هرقل أيضاً ٦٢٨ م ليوقق بين عقيدة أصحاب الطبيعة الواحدة الذين يشكلون الأكثريّة من رعایاهم النصارى في سوريا

وبين أصحاب العقيدة الأرثوذكسيّة للكنيسة البيزنطية، ويعتقدون أن خدمة القدس عندهم مأخوذة عن تلك الخدمة التي ينسبونها إلى القديس يعقوب، كما يعتقدون أن هذه الخدمة إنما هي أقدم خدمة في الكنيسة المسيحية إذ إن أصولها ترجع إلى العشاء الرياني الأخير.

وما تزال الكنيسة المارونية تحتفظ باللغة السريانية في القدس إلى يومنا هذا وتعبر بذلك عن أصالتها المسيحية الشرقية.

منذ القرن الخامس عشر الميلادي أصبح دير قُوبين شمالي لبنان فوق طرابلس المبني في صخر من صخور وادي قاديشا (أي القدس) مقرًا للبطيريكية المارونية، كما أصبحت بكركي المبنية فوق جونية المقر الشتوي حتى يومنا هذا، إذ لا يزال سيد بكركي يلقب ببطريرك أنطاكية وسائر الشرق؛ ذلك لأنه مستقل عن سائر البطاركة الشرقيين،

إعاظة تكوين الكنيسة

بعدما خرج المسلمون من الأندلس مندحرین خاسرين. التفتت الكنيسة الأوروبيّة إلى ترميم وإعادة بناء الذات والهوية. خاصة وكان اتباع العقيدة الإسلامية قد انتشر في أوساط المجتمع الإسباني وغيره. وإن المفاهيم الإسلامية قد تغفلت في داخل الكنيسة وضمن العقائد المسيحية نفسها. وظهرت في أوروبا بوادر النهضة العلمية والفكريّة المتأثرة بحضارة المسلمين في الأندلس. ففي عهدهم تمت ترجمة العلوم الإسلامية واليونانية إلى اللاتينية، وبرز عدد من العلماء الذين بينوا بطلان آراء الكنيسة العلمية وبخاصة في الجغرافيا والفلك، فتصدت لهم الكنيسة استناداً على ما ورد في الإصلاح الخامس من إنجيل يوحنا:

"إن كان أحد لا يثبت في يطرح خارجاً كالغصن فيجف، ويجمعونه ويطرحوه في النار فيحترق".

وتحت ذريعة اعادة تكوين الكنيسة وتنقية الفكر المسيحي من الفكر الجديد الذي يهدده، أبادت الكنيسة مئات الآلاف من السكان الذين يعتقدون الإسلام، واضطرب قسم كبير منهم إلى اعتناق المسيحية ليحافظ على حياته.

واستخدمت ضد العلماء رقابة على الكتب والمطبوعات لئلا يذيعوا آراءً مخالفة للعقيدة الكاثوليكية، واتسع تشكيل محاكم التفتيش ضدهم، وقد حكمت تلك المحاكم في الفترة من ١٤٨١-١٤٩٩ على تسعين ألفاً وثلاثة وعشرين شخصاً بأحكام مختلفة، كما أصدرت قرارات تحريم قراءة كتب جاليليو وجیوردا نویرنزو، وكوبيرنيکوس، ونيوتون لقوله بقانون الجاذبية الأرضية، وأمرت الكنيسة بحرق كتبهم وابادة فكرهم. وقد أحرق بالفعل المكارديناں إکیمنیس في غرناطة ثمانية آلاف كتاب مخطوط مخالفتها آراء الكنيسة. وكان القسم الأكبر منها إسلامياً.

وفي النصف الثاني من القرن السابع عشر، ازداد غضب الناس والعلماء والفلسفه من سوء سلوك رجال الكنيسة، ومن الرقابة التي فرضوها على المطبوعات، وتوسّعُهم في استخدام محاكم التفتيش، ومبالفتهم في القسوة والتعذيب ضد المخالفين والعلماء، مما أثار الفلسفه من أمثال ديكارت وفولتير، الذين وجهوا سهام النقد إلى الكنيسة وآرائها، ودعوا إلى إعلاء العقل مقابل النصوص الرئيسية، بفرض أن العقل يستطيع إدراك الحقائق العلمية، والخير والشر. وقد تأثر كلّ من روسو وفولتير بالفكر الإسلامي، فكانت نتاجات جان جاك روسو كلها تدعو إلى تطوير الفكر المسيحي، ومنح حريات متعددة للمواطنين: وكانت أول عبارة في كتابه الشهير (العقد الاجتماعي) تقول: ولد الإنسان حرّاً فلماذا نستعبده. وكتب فولتير (رسائل فلسفية) وفيه انتقادات عنيفة للكنيسة المتعصبة ورسم أفكار وصور نبيلة للمجتمع والسلطة والعقيدة، وكانت كل هذه الصور تتفق مع الإسلام ومفاهيمه. كما وكتب رواية (كانديد المتفائل) ويداً أن معظم أبطال الرواية مسلمون، وأسماؤهم إسلامية، وأغلب أماكن الحديث هي بلدان إسلامية، وأهم ما في الرواية أن كافة الدروس التي استخلصها فولتير في الإيمان والاعتقاد والحب والسعادة وإصلاح السلطة، كلها كانت تتفق مع العقيدة الإسلامية بل وكانت

متأثرة بها بوضوح. ومن أواخر أعمال فولتير مسرحية بعنوان (محمد) وقد صور فيها شخصيات الصف الأول من عهد الإسلام بما فيهم شخصية الرسول محمد وشخصية عمر وفاطمة إضافة إلى شخصيات أعداء الإسلام الجاهليين. وقد عرضت مسرحيته لمدة ثلاثة أيام ومنتظر بعدها من العرض. إذ وجهت إليه اتهامات بترويج الفكر الإسلامي وبهاجمة الكنيسة، وعندما توفي الفيلسوف الكبير فولتير رفضت الكنيسة دفنه في مقابر العظاماء، بحجج اتهامه بالاسلامة. ونحن اليوم لانملك دليلاً قاطعاً على أن الرجل قد أعلن إسلامه، وبنفس الوقت نمتلك أدلة كثيرة على أنه اعتنق أفكاراً ومبادئ وعقائد إسلامية كثيرة، بل وقد سعى لترويجه وإصلاح المجتمع من خلالها. لكن المعارضة الكنسية ومعارضة السلطة لأولئك المفكرين لم تحل دون وصول نتاجاتهم إلى أذهان المجتمعات الغربية. بل إن الكنيسة نفسها تأثرت فيما بعد بذلك النتاج الفكري المتأثر بالإسلام. وهذا يعني أن الكنيسة قد اعتنت عقائد إسلامية تمت اضافتها إلى العقائد المسيحية على أنها شروح وإيضاحات للعقيدة المسيحية وفي القرن الخامس عشر والسادس عشر بعد سقوط الأندلس ذبحوا وأحرقوا ما يزيد على ٣١ ألفاً من المسلمين (حسب بعض التقديرات) ولم يتركوا مسلماً على قيد الحياة. وبعد استقلال اليونان عن الدولة العثمانية أباد النصارى شعب موريا المسلم عن آخره، بل ودمروا المساجد، ويدرك التاريخ ما فعله الأسقف مكاريوس بمسلمي قبرص، والمعصب جوليوس نيريري بمسلمي زنجبار. إن النصرانية التي يتبعها الفاتيكان اليوم هي النصرانية السياسية التي يتحكم بها حكام الغرب وسياسيوه. وهنا تظهر لنا أهمية المسيحية العربية بالنسبة لنا وضرورة الحفاظ على هويتها وكيانها، وأهمية الحفاظ عليها داخل المجتمع الإسلامي العام. لتكون داعماً لنا في مواجهة الاعتداءات السياسية الغربية.

رئيس الكنيسة الأنجلיקانية يناصر الإسلام

يعتبر الدكتور روان ويليامز رئيس أساقفة كانتريري، أرفع منصب في الكنيسة الأنجلיקانية في العالم. والتي ينتمي إليها سبعون مليوناً منتشرين في أنحاء العالم. ويعرف عنه أنه يناصر المسلمين في حالات كثيرة، ويهتم بالحوار معهم. فقد انتقد الفزو الأمريكي للعراق، وانتقد مراراً عديدة إقامة معتقل غوانتانامو، وانتقد حظر الحكومة الفرنسية للحجاب الإسلامي في المدارس العامة. وأسنده ذلك إلى سياسة الخوف من تصاعد أعمال العنف المتطرفة الإسلامية. وقال: "إن مشروع القانون الفرنسي يوضح أن هناك حالة من العصبية تجاه من يحاولون إظهار التزامهم الديني علينا".

كما انتقد ويليامز في خطبته من يقومون بأعمال إرهابية باسم الدين، قائلاً إن التهديد بالقيام بأعمال إرهابية باسم الدين يزيد من عدم التسامح بين الأديان حتى لو انتقده القادة الدينيون على اختلاف مستوياتهم".

الأشورية

تمتاز الطائفة الأشورية بعراقة التاريخ لتمسكها بالتعاليم المسيحية الأصلية. يتهمون بالنصرورية ودفعوا عن ذلك أثماناً كبيرة. وقعوا فريسة مشاريع دولية.

الفكر الأشوري

للتعرف على الفكر المسيحي الأشوري ننقل نصاً لقسيس آشوري تتضح فيه خصوصيتهم وخلافاتهم مع المسيحية الغربية، واعتزازهم بالتمسك بديانتهم المسيحية.

البيانة الازمة لكنيسة المشرق

من المؤثرات السياسية الخارجية نرى أن كنيسة المشرق الآشورية خضعت وتأثرت تأثراً كبيراً ومباشراً بسياسة الدول الأخرى وعجزت عن مقاومتها وبالتالي تعرضت لتأثير سياسيات الدول التي خضعت إليها، ابتداءً من الدول الفارسية ثم البيزنطية والإسلامية فالعثمانية والأوروبية بما فيها بريطانيا وفرنسا. وطبقاً لهذه السياسات، التي فرضت بالحديد والنار على رؤساء الكنيسة ورعايتها أو استغلت ظروفهم المأساوية لفرضها عليهم، تحددت طبيعة علاقتها مع الكنائس الأخرى التي خضعت هي الأخرى إلى سياسات الدول، وخاصة الدول التي كانت في عداء وحروب مستمرة كالإمبراطوريتين الفارسية والرومانية ثم البيزنطية كما كان في السابق، والأمبراطورية العثمانية والدول الغربية كما كان في القرون القليلة الماضية، فانعكسـت هذه الصراعات، بكل ما تحمله من طابع سياسي وفكري وحضاري، في طبيعة علاقات كنيسة المشرق الآشورية مع الكنائس الأخرى، فأصابها الكثير من الجفاء والقطيعة والعزلة ، خاصة بعد منتصف القرن الميلادي الرابع فكانت تلك الفترة البداية الأولى في بناء السدود بين كنستـا والكنائس الغربية الأخرى والتي استمرت قروناً طويلة وحتى إلى وقت قريب من عصرنا.

وبقدر تعلق الأمر بمبادئ الوفاق والوئام من الناحية الروحية في طبيعة علاقة كنستـا مع الكنيسة الغربية الكاثوليكية ومدى تأثيرـها بالسياسات المكاففـالية منذ القرن السادس عشر الميلادي، وهو القرن الذي بدأت الدول الغربية وكنائسها الاهتمام بالعالم الشرقي الأوسطـي وبمسيحيـيه وكنائـسه، ومدى قدرة هذه السياسـات في تحويل هذه الطبيعة الروحـية للعلاقة بينهما إلى نوع من الجفـاء والخصـام نلاحظ بأنه مرة أخرى انعكسـ تأثيرـات مملـكة الأرض المتمـثلـة في الأطـماع الاستـعمـارية للدولـتينـ البريطانيـةـ والـفرـنسـيةـ وـحتـىـ الروـسـيةـ وـصـرـاعـهـماـ عـلـىـ مـمـتـلكـاتـ الرـجـلـ المـريـضـ، أيـ الدـولـةـ العـثمـانـيـةـ، عـلـىـ طـبـيـعـةـ الـعـلـاقـةـ بـيـنـ كـنـيـسـةـ المـشـرقـ الآـشـورـيـةـ وـالـكـنـيـسـةـ الغـرـبـيـةـ الكـاثـولـيـكـيـةـ، وـبـالـأـخـصـ الـكـلـدـانـيـةـ مـنـهـاـ، وـطـفـتـ عـلـىـ المـبـادـئـ

الروحية الصميمية في الوفاق والوئام التي تجمعهم ككنيسة واحدة ذات طقس ولفة وشعب واحد . وتجلت مكيافيالية هذه السياسات وبكل وضوح في ادعاء هذه الدول في حماية الأقليات المسيحية ومساعدتهم للتخلص والتحرر من ظلم واستبداد الأتراك في القرن الماضي كأسلوب لتنفيذ مآربهم السياسية عن طريق استغلال الدين . فهكذا استطاعت الدولة الفرنسية ، سواء عن طريق مبشرها أو قناصلها أو مفكريها ، أن تزرع في نفوس وعقول أبناء الطائفة الكلدانية الكاثوليكية مفاهيم تقوم على اعتبار أبناء كنيسة المشرق الآشورية مجرد نساطرة وكفرة ولحدن وغيرها من الشائم التي زادت من الشقاق والخصام بين الكنسيتين . وعلى الجانب الآخر ، وأقصد كنيسة المشرق الآشورية ، كان تأثير السياسة المكيافيالية الإنكليزية أكثر قوة وعمقاً وذلك لسبعين : أولهما كون بريطانيا هي الدولة الأكثر نفوذاً ومصلحة في المنطقة وخاصة في العراق . وثانيهما عدم وجود لبريطانيا طائفة قوية في الدولة العثمانية ثم في العراق من اتباع الكنيسة الإنكليكانية للاعتماد عليها في تنفيذ سياستها فوجدت في استقلالية كنيسة المشرق الآشورية وفي عدم وجود من يستجيب لاستفاتها وهي غارقة في المذابح والفواجع والتشرد ، فرصة ذهبية لاستغلانها من دون أي وازع أخلاقي وديني وانساني لتحقيق مآربها الاستعمارية . فنجحت فعلاً في تحقيق الكثير من أهدافها ومنها الهدف المتعلق بموضوعنا في زرعها لبعض المفاهيم السيئة في نفوس وعقول أبناء كنيستنا عن أخوتنا أبناء الطائفة الكلدانية وفي اعتبارهم مجرد (قليبايه) ، والذي يعني باللغة الآشورية السريانية بـ " المتحول من مذهب إلى مذهب آخر " أي الذين باعوا أنفسهم للغرب مقابل بعض الفرنكـات ... وهكذا غيرها من الشائم التي تناقلها الطرفين حتى أيامنا هذه ولا يزال يتناقلها البعض الغارقون في النزعات الطائفية والنائمون في ظلام الماضي الأليم . ألقى هذا الموضوع في المؤتمر الثاني للجبهة الثقافية السريانية المنعقدة في بيروت في ١٩٩٨/٥/١ .

جهاز الحوار مع المسيحية

إن خير جهاد يقوم به الفرد المسلم في هذا العصر هو التحاور والتعايش والتحالف مع الآخر. المسلم الذي ينتمي لمذهب آخر والمسيحي العربي والغربي ونقصد بالتحالف هنا إقامة علاقة صداقة متينة وتحاور وتفاهم ومن خلالها سيتعرف الآخر على الشخصية الإسلامية والأخلاق الإسلامية ويعرف على مواقف المسلمين من الأحداث العامة والمظالم التي يتعرضون لها. وعندئذ لن يكون كلّ منهما قاتلاً للصديق ولقومه في معارك طائفية أو حروب أخرى، بل سيصبح مدافعاً عن القضية الإسلامية العامة. وسوف يتظاهر الغربي في وطنه مطالباً بنصرتنا وإخراج جنود بلاده من العراق وأفغانستان كما يحصل في لندن وواشنطن. وقد يصبح هذا المحاور المقدم ذات نفوذ وسلطة في بلاده فيمنع الاعتداء على المسلمين. ويمكن للمتطرف نفسه أن يعمل في هذا الاتجاه الجهادي العظيم، والذي هو أكثر صعوبة من جهاد القتل والتدمير. ففي دول الغرب لا تستطيع الحكومات اليوم أن تطرد الإسلام والمسلمين من أراضيها، لأن الإسلام أصبح جزءاً منها، وأن المسلمين أصبحوا مواطنها الأصليين. وتلك الحالة لم تحدث عبثاً بل كانت نتيجة لجهاد سلمي إسلامي حقيقي قام به مسلمون جبارون قبلنا. ويعزى هذا الجهاد المدني القردي سيكون للمسلمين نفوذ كبير في بلدان الغرب. ولن يحصل المجاهد المسلم على نتائج فورية وسريعة وهذا مؤشر على صعوبة هذا النوع من الجهاد. وعلى تطلبه للمقدرة العالمية عند المجاهد نفسه ولن تتحقق تلك المقدرة إلا بقوة الإيمان بالإسلام، وهنا يكتشف صدق إيمان الفرد من زيفه وقوته إيمانه من ضعفها. فال قادر على الصبر والتحمل والعناد زمناً طويلاً في جهاده سيكون إيمانه أقوى من المسلم الذي يريد أن ينهي جهاده كله بعمل واحد يموت فيه ويقتل الآخر.

المساجة العقائدية المشتركة

تشكيك المسلمين بنوايا المسيحية وعدم قدرة المسيحيين على الاعتراف بنبأة محمد: هاتان المشكلتان وقفتا أمام تقدم الحوار على الدوام. في الحقيقة نحن ندعو إلى أن يسكت كل طرف أمام الخطوط الحمراء التي تفصله عن الطرف الآخر.

ولابد أن يتعرف المسلم أولاً بصدق الإنسان المسيحي في الحوار، عندئذ يمكن أن يتعامل معه تعامل الند للند ولا ينبغي في هذه الحالة أن يطلب من المسيحي ابتداءً أن يعترف بقرآن، وإنما يحاول أن يدخل معه لمعرفة المساحات العقائدية المشتركة.

ليس من الضوري للمسلم أن يتحاور مع المسيحي بهدف أسلمة المسيحي وتركه لديانته. بل الأهم من ذلك في هذه الفترة إنشاء قنوات تواصل وحوار وتفاهم مع المسيحية الغربية. وبالنسبة للمسيحيين العرب فلا ضرورة لدعوتهم إلى الإسلام بسبب قلة عددهم، فبقاءهم في الفضاء المسيحي ضرورة ملحة للمسلمين وبرهان أكد على التعددية والتتنوع والتعايش المشترك.

يجب أن لا ينافي الحوار مع المسيحية في قمّم اللاهوت. النقص الذي كان من قبل هو حصر الحوار في إطار اللاهوت، في المجال العقائدي. وإن ثمة مجالاً آخر واسعاً، هو المجال العملي والمجال الحضاري.

ويمكن الخوض في مواضيع دينية عامة كأن يتحاور المسيحي والمسلم حول قضية العلاقة بين العدالة والإسلام، أيهما نقدم إذا جرى نزاع بين الأمرين، أو العلاقة بين العدالة الاجتماعية والإنتاج، أيهما نقدم إذا تعارض نمو الإنتاج مع العدالة الاجتماعية؟ فهل تنفي الإنتاج، أو نوقف نموه لتحقيق العدالة. هذه مسألة إنسانية. وفي مسألة حقوق الإنسان، ومسألة دور العائلة في البناء الاجتماعي، وفي بعض المسائل المهمة كالإجهاض.

فالمسيحية أشدّ تصلباً في منع الإجهاض حتى من فقهاء المسلمين. هم يرفضون أي تصور للإجهاض، بينما عندنا بعض الحالات الخاصة في الجواز قبل تعلق الروح في النطفة وحالات تضرر الأم تضرراً شديداً.

وهناك مجالات الدفاع عن القيم الإنسانية والأخلاق الإنسانية. هذه مجالات مشتركة . لماذا نترك المجالات التي يمكن أن نتفق فيها وندخل مجالات عقيمة. لا يمكن أن نسد باب الحوار العقائدي، بل من الممكن أن نمشي مع الحوار العقائدي إلى حيث يمكن أن يصل.

وهناك باب آخر يمكن أن نتعاون فيه هو باب الحوار العملي وال الحوار الحضاري. إذا أمكن أن نتحاور حضارياً فكيف لا يمكن أن نتحاور دينياً وأصولنا المشتركة الدينية أقرب من أصول الاشتراك الحضاري.

ولأن تركيز المسلمين على هذه الأصول المشتركة التي تجمع بين الديانتين أمر يقوّي الحوار ويدفعه كثيراً نحو اكتساب النتائج المرضية للطرفين.

السينتولوجيا أخطر انحدار للكنيسة الخالية

العلمولوجيا أو السينتولوجيا كنيسة أوروبية جديدة نشأت في ألمانيا وامتدت إلى أوروبا وأمريكا. وأشعلت جدلاً واسعاً في العالم كله. وصفها الأطباء والعلماء بأنها عالم كاذب. ووصفها السياسيون ورجال الدين المسيحيون على أنها مؤسسة تجارية متهورة. كما تصنفها بعض الحكومات تحت المؤسسات أو التيارات المناهضة للدستور. تعرف على كنيسة السينتولوجيا لنكتشف المفارقة الكبيرة والانحدار الديني والفكري الذي وصل إليه بعض مسيحيي الغرب: يقولون إن الجانب الديني في السينتولوجيا قد أقحم فيها لكي تلقي تجاوياً من ذوي العقول البسيطة ولكي تظهر في مظاهر تيار حامل لقيم إنسانية. وأن الفكر السينتولوجي هو امتداد للتيار الذي يرى أن علم الاجتماع والنفس يخضع أو يجب أن يخضع لنفس مقاييس العلوم الهندسية. وهنا تنشأ تعارضات مع بعض تشريعات الدول الديمقراطية التي ترى أن هذا التيار وال فكرة تسلب الفرد حريته وتجعل إمكانية قيام نظام دكتاتوري أكثر احتمالاً. ولذلك الأسباب تعتبر العلمولوجيا طائفنة دينية سرية وغير قانونية. تمثل هذه الفلسفة رسمياً عن طريق الكنيسة العلمولوجية Church of

Scientology، التي تصف نفسها بأنها منظمة غير نفعية تسعى لإصلاح وإعادة تأهيل الروح الإنسانية ، وهي تطرح نفسها كبديل عن مدرسة التحليل النفسي.

مؤسس الديانة الكنسية الجديدة هو رون هوبارد ، قام بتأسيسها إثر نقاش مع صديق له على حافة حمام سباحة في الخمسينات حول أقصر الطرق للحصول على مليون دولار. هوبارد قال إنه يمكنه بناء ثروة شخصية قدرها مليون دولار عن طريق إنشاء دين جديد خاص به. النقاش تطور إلى رهان. ثم ما لبث هوبارد أن أنشأ الدين الجديد. وهذه الكنسية تشجع أتباعها على قطع كل صلاتهم بأهلهم غير المعتقدين للديانة الجديدة. وتورطت في عدة قضايا في الولايات المتحدة وأوروبا لابتزاز أعضائها للحصول على أموالهم. تتلخص فكرتهم أو هدفهم في مكانتة الإنسان والعلاقات الإنسانية على جميع المستويات بدءاً بالفرد ونهاية عند الدول ذلك لأن الخصائص الإنسانية متغير غير قابل للحساب أو التنبؤ به في المعاملات يؤدي إلى أخطاء فادحة عند اتخاذ القرارات إلى حد اتخاذ قرارت غير منطقية (لكن أخلاقية في بعض الأحيان) فوجب إذن تخلص الإنسان من هذه الخصائص الإنسانية التي يرون أنها موطن ضعفه والرقي به (حسب الساينتولوجيا) إلى درجة إتقان عمل الماكينات.

وتوجد العديد من القواعد والتمارين ضمن الحركة هدفها محو الإرادة الشخصية وتطويع الفرد في خدمة المؤسسة (الساينتولوجيا) أو النظام عاماً كضرب من ضروب الهندسة الاجتماعية كواجب الطاعة العميماء من فوقك في هرم المؤسسة و عدم حق النقد و عدة تمارين تتعلق بمكانتة الحياة اليومية كتمارين على المشي والضحك والصرخ إلخ. وهدفها التخلص من التلقائية والمشاعر. وإن تحريف الكنسية في كل مرة إلى اتجاه يروق لأمزجة هؤلاء الدجالين يدل على أن الغرب شديد البعد عن استيعاب سماوية الديانة المسيحية ، وهذا مايزيد من اتساع الهوة بين المسيحية العربية والمسيحية الغربية ، ويمنح دوراً عالمياً مهمّاً للمسيحيين العرب في إعادة نشر المسيحية الصحيحة. أشاء زيارته لألمانيا قام رئيس وزراء الصهاينة (إيهود أولمرت) بزيارة لمركز السينتولوجيا الرئيسي في برلين برفقة رئيسة وزراء ألمانيا ، مما يدل على الدعم الصهيوني الكبير لكنيسة السينتولوجيا.

تاريخ تهويد المسيحية

مارتن لوثر

ولد مارتن لوثر في مقاطعة ساكس الألمانية سنة ١٤٨٢ وحصل على الدكتوراه في اللاهوت. وزار في العام ١٥١٠ روما ، وكانت الكنيسة آنذاك تبيع صكوك غفران الذنوب وصكوك التوبة، وينحون صكوك الغفران التي تعتق وتسمح بالمرور إلى الجنة! فتأثر بخلف الكنيسة وقرر إصلاحها وتقويض سلطة البابا.

فقام بتعليق احتجاج صارخ على باب كنيسة مدينة فيتبرج في ٢١ تشرين الأول ١٥١٧ تضمن ٩٥ نقطة طالب فيه بإلغاء النظام البابوي لأنه يمنع قدسيّة كبيرة للبشر قد يسيرون استعمالها تماماً كما كان شائعاً في الكنيسة الكاثوليكية آنذاك. كما رفض لوثر أن يبقى القسيس بلا زواج مدى الحياة، فأقدم هو على الزواج من الراهبة كاترينا فون بورا.

وكانت من بين مطالب لوثر أيضاً المساواة بين الإكليلوس "رجال اللاهوت المسيحي" والسيحيين العاديين. غير أن ما سيؤثر على مستقبل الكنيسة الكاثوليكية بشكل عام كان دعوة مارتن لوثر إلى جعل الكتاب المقدس اليهودي المصدر الوحيد للإيمان، ودعا إلى إلغاء الوساطة بين المؤمنين والرب بمعنى إقامة علاقة مباشرة بين العبد والمبود دون المرور عبر البابا أو أي شخص آخر ويدرك أن بعض دعواته تتفق مع العقيدة الإسلامية.

ضم اليهود إلى المجتمع المسيحي

وكان أخطر ما حملته مطالب لوثر دعوته للعودة إلى كتاب التوراة العبرانية القديمة وإعادة قراءته بطريقة جديدة بالإضافة إلى اعتماد الطقوس العبرية في الصلاة عوضاً عن الطقوس الكاثوليكية. وأرسل رسالة إلى البابا ليو العاشر في روما سنة ١٥٢٠ اتهمه فيها باستعمال الكنيسة الكاثوليكية لتحقيق مصالح

شخصية له وللحاشية التي تحيط به، مؤكداً أنه لن يتخلّى عن نضاله لتفويض تلك الكنيسة مادام حياً.

فجاء رد فعل الكنيسة الكاثوليكية قاسياً حيث اعتبرت لوثر من الخارجين عن الكنيسة وطردته من الديانة المسيحية واتهنته بالهرطقة، وهي تهمة كانت عقوبتها آنذاك الحرق على الملا. فلجاً لوثر بعد ذلك إلى العمل السري وعمل على استمالة بعض اليهود الذين كان لهم نفوذ كبير في المجتمع عن طريق التأكيد على أن مذهبه الجديد يعيد الاعتبار لليهود الذين كانوا يعانون من ازدراء الكنيسة الكاثوليكية. وأصدر كتابه "يسى ولد يهودياً" سنة ١٥٢٢ وقال فيه إن اليهود هم أبناء الله وإن المسيحيين هم الغرباء الذين عليهم أن يرضوا بأن يكونوا كالكلاب التي تأكل ما يسقط من فتات من مائدة الأسياد. وكانت هذه الفترة تعد الولادة الحقيقة والفعلية للمسيحية اليهودية.

نشأة المسيحية اليهودية

وتقوم المسيحية اليهودية على تفضيل الطقوس العبرية في العبادة على الطقوس الكاثوليكية بالإضافة إلى دراسة اللغة العبرية على أساس أنها كلام الله. ووصلت محاولة استمالة لوثر لليهود من أجل الدخول في مذهبه حدّاً قال فيه يوماً أمام عدد من اليهود الذين كانوا ينافقونه:

"إن البابوات والقسيسين وعلماء الدين ذوي القلوب الفطرة، تعاملوا مع اليهود بطريقة جعلت كل من يأمل أن يكون مسيحيًا مخلصاً يتحول إلى يهودي متطرف وأنا لو كنت يهودياً ورأيت كل هؤلاء الحمقى يقودون ويعلمون المسيحية فسأختار على البدية أن أكون خنزيراً بدلاً من أن أكون مسيحياً".

وإن رغبة مارتن لوثر الجامحة في إعادة الاعتبار لليهود و"تمسيحهم" كانت تعود لإيمانه العميق بضرورة وجودهم في هذا العالم تمهدًا لعودة المسيح.

واعتبرت دعواته تلك انقلاباً على موقف الكنيسة الكاثوليكية التي كانت تنظر لليهود على أنهم حملة لدم المسيح عيسى بعدما صلبوه. حيث دأبت الكنيسة الكاثوليكية على تحويل اليهود المسؤولة الكاملة عن مقتل المسيح. وكان بعض المسيحيين في أوروبا يحتفلون بمقتل المسيح عن طريق إحياء طقوس عملية الصليب، بل وكان سكان مدينة تولوز الفرنسية يحرصون على إحضار يهودي إلى الكنيسة أثناء الاحتفال ليتم صفعه من قبل أحد النبلاء بشكل علني لإحياء لطقوس الضرب الذي تعرض له المسيح من قبل اليهود.

كما أن هناك نصاً في إنجيل متى يحمل اليهود مسؤولية مباشرة عن مقتل المسيح ويدرك بالتفصيل كيف غسل بيلاطس الحاكم الروماني للقدس آنذاك يديه بالماء معلناً براءته من دم المسيح الذي كان اليهود على وشك صلبه قبل أن يصبح فيه اليهود قاتلين "ل يكن دمه علينا وعلى أولادنا". وهذه العبارة الأخيرة تطبع الاعتقاد المسيحي الكاثوليكي بشكل مرير ظهر جلياً في الشعبيّة الكبيرة التي نالها فيلم "آلام المسيح" للمخرج المسيحي ميل غبسون الذي حصد مئات الملايين من الدولارات عدا حالات الإغماء الكثيرة التي شهدتها قاعات السينما التي عرضت الفيلم في الولايات المتحدة لرجال ونساء مسيحيين لم يستطعوا تحمل التفاصيل المليئة بالألم التي حفل بها الفيلم.

وفي أواخر حياته عدل لوثر رأيه عن استهانة اليهود وكتب كتاب "اليهود وأكاذيبهم" أعرب فيه عن خيبة أمله من اليهود وأقر بالفشل في استقطابهم لعقيدته الجديدة. كما أقر في شبهه استسلام تلقفه اليهود قبل غيرهم بأن دخول اليهود في الدين المسيحي لن يتم إلا عبر عودتهم لأرض فلسطين وعودة المسيح الذي سيسجدون له ويعلنون دخولهم في الدين المسيحي حتى يعم السلام العالم. وكانت دعوة لوثر تلك أول اشارة إلى عقيدة عودة اليهود إلى أرض فلسطين. وتلك الإشارة التي وظفتها الصهيونية سياسياً وجعلتها مشروعًا حقيقياً تمثل في تهجير اليهود من أوروبا إلى فلسطين ثم إقامة دولة إسرائيل على حساب أصحاب الأرض الفعليين وهم العرب الفلسطينيون.

البروتستانتية والصهيونية المسيحية

الصهيونية المسيحية هي الدعم المسيحي للفكرة الصهيونية، وهي حركة مسيحية قومية تقول عن نفسها إنها تعمل من أجل عودة الشعب اليهودي إلى فلسطين وسيادة اليهود على الأرض المقدسة. ويعتبر الصهيونيون المسيحيون أنفسهم مدافعين عن الشعب اليهودي خاصة دولة إسرائيل، ويتضمن هذا الدعم معارضة وفضح كل من ينتقد أو يعادي الدولة العبرية.

تقوم فلسفة الصهيونية المسيحية على نظرية الـ هلاك الحتمي لليهود. وهناك الكثير من الدراسات اللاهوتية في هذا المجال خلاصتها أن هلاك يهود الأرض قدر محظوظ وضرورة للخلاص من "إرث الدم" الذي حمله اليهود على أكتافهم بعدما صلبوا المسيح وهم سيتحولون إلى المسيحية بعد عودته ولن يبقى شيء اسمه اليهودية.

ومارتن لوثر عمل على تهويid المسيحية عندما أصر على اعتماد التوراة العبرانية بدلاً من كتاب "العهد الجديد". وقد قام عدد من رجال الدين البروتستانت مثل القس الإنكليزي جون نلسون داري بي إعادة قراءة العقائد المسيحية المتعلقة باليهود، ومنهم مكانة متميزة حتى أصبحت الكنيسة البروتستانتية هي حاملة لواء الصهيونية المسيحية أينما حلّت.

وقد حصل انشقاق داخل الكنيسة البروتستانتية نفسها بسبب اليهود. فبينما أعرّب بعض البروتستانت الإنجليز عن اعتقادهم بأن اليهود سيعتّدون المسيحية قبل أن تقوم دولتهم في فلسطين، ذهب بعض البروتستانت الأميركيين إلى أن اليهود لن يدخلوا في المسيحية حتى لو قامت إسرائيل وأن عودة المسيح هي الشرط النهائي لخلاصهم وتوبتهم ودخولهم في الدين الذي جاء فيهم أصلاً. وقد تزعم القس نلسون داريبي هذا الفريق وينظر إليه على أنه الأب الروحي للمسيحية الصهيونية قبل أن يعمل العشرات من القساوسة على نشر نظريته تلك. ونشر وليم بلاكستون الذي كان من أشد المتحمسين الأميركيين لأطروحة داريبي كتاب "المسيح آت" سنة 1887 وترجم الكتاب إلى عشرات اللغات وركز فيه على حق اليهود التوراتي في فلسطين. وبلاكستون كان وراء جمع ٤١٢ توقيعاً من شخصيات مرمومة مسيحية وبهودية

طالبت بمنع فلسطين لليهود وتم تسليم عريضة التوقيعات للرئيس الأميركي آنذاك بنجامين هاريسون. أما القس سايروس سكوفيلد فيعتبر من أكثر المسيحيين الصهيونيين تشدداً وقام بوضع إنجيل سماه "إنجيل سكوفيلد المرجعي" نشره سنة ١٩١٧ وينظر إليهاليوم على أنه الحجر الأساس في فكر المسيحية الأصولية المعاصرة.

صهيونية المسيحية الغربية

كان لليهود المهاجرين من أسبانيا إلى أوروبا وبخاصة فرنسا وهولندا أثراً هم البالغ في تسرب الأفكار اليهودية إلى النصرانية من خلال حركة الإصلاح، وبخاصة الاعتقاد بأن اليهود شعب الله المختار، وأنهم الأمة المفضلة، وكذلك أحقيتهم في ميراث الأرض المباركة. وفي عام ١٥٢٣ م أصدر مارتنيوثر كتاب عيسى ولد يهودياً متأثراً فيه بالأفكار الصهيونية. وفي عام ١٥٤٤ م انتبه مارتنيوثر إلى الخطر اليهودي وأصدر كتاباً ينتقد فيه التدخل اليهودي في الكنيسة والمسيحية ويحذر من أكاذيبهم. وكانت هزيمة القوات الكاثوليكية وقيام جمهورية هولندا على أساس المبادئ البروتستانتية الكالفينية عام ١٦٠٩ م بمثابة انطلاق للحركة الصهيونية المسيحية في أوروبا، مما ساعد على ظهور جمعيات وكنائس وأحزاب سياسية عملت جميراً على مساعدة اليهود في إقامة وطن قومي لهم في فلسطين. ومن أبرز هذه الحركات: الحركة البيوريانية التطهيرية التي تأسست على المبادئ الكالفينية بزعامة السياسي البريطاني أوليفر كرومويل ١٦٤٩-١٦٥٩ م وفي عام ١٨٠٧ م أنشئت في إنجلترا جمعية لندن لتعزيز اليهودية بين النصارى.

وقد أطلق أنطوني إشلي أحد كبار زعمائها شعار: "وطن بلا شعب لشعب بلا وطن" وانتقلت الصهيونية المسيحية إلى أمريكا من خلال الهجرات المبكرة لأنصارها نتيجة للاضطهاد الكاثوليكي، وقد استطاعت تأسيس عدة كنائس هناك من أشهرها الكنيسة المورمونية. ويعتبر سايروس سكوفيلد ١٨٤٢ م الأب اللاهوتي للصهيونية المسيحية في أمريكا. وفي العصر الحديث تعتبر الطائفة التدبرية التي يبلغ عدد أتباعها ٤٠ مليون نسمة تقريباً والمعروفة باسم الأنجلو ساكسون،

البروتستانت البيض من أكثر الطوائف مغالاة في تأييد الصهيونية، وفي التأثير على السياسة الأمريكية في العصر الحاضر. ومن أشهر رجالها اللاهوتيين: بيل جراهام، وجيري فولويل، جيمي سويجار特. ومن أبرز رجالها السياسيين الرئيس الأمريكي رونالد ريغان والرئيس جورج بوش.

ومن داخل الكنيسة الإنجيلية في أمريكا وقف لهم بالمرصاد المجلس الوطني للكنائس المسيحية،

ومن داخل المسيحية الصهيونية اشتهر أخيراً القس جون هاجي وصعد نجمه بسرعة كبيرة، بفضل أفكاره التدميرية المستيرية التي أعلنها، فقد أصدر في كانون الثاني ٢٠٠٦ كتاباً خطيراً جديداً بعنوان: العد التنازلي لأورشليم: تحذير العالم.. الفرصة الأخيرة للسلام"، وبسرعة مذهلة أصبح في ثلاثة أشهر فقط، أكثر الكتب تداولاً وبيعاً في الأسواق الكبرى بالولايات المتحدة الأمريكية. ويرى الكتاب أن حكام إيران متزمتون يسعون إلى محو إسرائيل من الخريطة بإلقاء قنبلة نووية على القدس. وبعد اجتياح إسرائيل على يد المسلمين والروس، ستقوم حرب ثانية للسيطرة على إسرائيل، وستشتعل بين الولايات المتحدة من جهة، والصين والاتحاد الأوروبي من جهة ثانية.

وفي هذه اللحظة سيظهر المسيح الدجال في شخص رئيس الاتحاد الأوروبي. وفي النهاية ستضع الحرب النووية الرهيبة حدّاً للنزال، وستدور المعركة الحاسمة في ميجيدو (هارمجدون). وسيصبح بإمكان المسيح المجل أن ينزل إلى الأرض ليجزي الذين آمنوا به وانتظروا رجوعه. ومن حسن حظه أن الجيش الإسرائيلي وال Bentagoun يمكنهما ترجيح الكفة لصالحه بتدخل وقائي، بما فيه استعمال قنابل نووية جديدة وتكnickية. ولهذا يجب خوض الحرب من الآن دون انتظار.

المسيحيون المتحدون من أجل إسرائيل

منذ العام ٢٠٠٥ عقدت الصهيونية العالمية مع البتاغون اتفاقاً على تأسيس حركة "المسيحيون المتحدون من أجل إسرائيل". وتهدف هذه الحركة إلى تبئنة الرأي العام الأميركي لمساندة إسرائيل والأميركيين في حربهما ضد العرب والمسلمين. بل وجعل تلك الحرب مقدسة وواجباً دينياً مسيحياً.

وهذا يزيد في تأجيج النار في اليمين الديني الأميركي، الذي كان من ضمن مشروعه محاولته مسابقة الإسلام واحتكار المسيحية والدفاع عن "الحرية الدينية"، وتصيب رؤساء موالي له في كل قارات الكرة الأرضية. وكسب السندي الشعبي العام للولايات المتحدة الأمريكية في الحرب ضد لبنان، ثم سوريا وإيران، فقد أسس البتاغون الأميركي والجيش الإسرائيلي بنية للتأثير والتكون، منذ نهاية سنة ٢٠٠٥، لتبئنة خمسين مليوناً من الإنجيليين الأميركيين. وتركز المحور العام لهذه العملية على إدماج زعماء الإنجيليين في مؤسسة إيديولوجية وحيدة: "المسيحيون المتحدون من أجل إسرائيل". ولا ترمي هذه المنظمة الجديدة إلى أن تكون بديلاً للمنظمة الشهيرة "إيباك" العاملة كجماعة ضغط سياسية (لوبى) في الأوساط الحاكمة، لكن مهمتها هي ترويج العقيدة الصهيونية في الكنائس الإنجيلية وخارجها حتى يصير دعم العمليات العسكرية العدوانية الإسرائيلية في نظر أغلبية الأميركيين بمثابة الواجب الديني المسيحي. وبهذه الطرق القدرة تقوم الصهيونية بتحويل الإنجيلية المسيحية إلى حركة صهيونية تحمل عقائد يهودية وتدافع عن اليهودية الصهيونية. وإن هذا لا استخفاف بالديانة المسيحية نفسها وتسخيرها في خدمة اليهودية. ومن هنا تبرز أهمية المسيحية العربية وصمودها في وجه تلك الأخطار وبقائها شاهداً عالياً على أفك الصهيونية.

الإبادة عقيدة رجينة عند اليهود

الإبادة عقيدة يهودية توراتية تمثل بإبادة القريان وحرقه حرقاً تماماً لتقديمه للرب كأضحية يهودية. وقد قام اليهود بتعظيم هذه العقيدة والاستفادة منها كمبدأ ومنهج صهيوني لإبادة الشعوب الأخرى. لقد انطلقت فكرة الإبادة كشعار تهديد وفعل من قبل اليهود أنفسهم مع بداية الحرب العالمية الثانية. وظللت تلك الفكرة تتفاعل وتتموّل في الذهن اليهودي حتى أصبحت نتاجاً فكرياً وفلسفياً تم نشره في الأوساط الغربية.

ولم تكن الإبادة بدعة نازية كما يعتقد البعض. بل كانت أداء غريباً عاماً تورط فيه اليهود أنفسهم ونظروا له من قبل أن تقع الحرب العالمية. وهو مارأيناه في فكر الحلفاء ومن خلفهم المنظمات الصهيونية الضاغطة. ولم تحدث آية أعمال إبادة لليهود في ألمانيا، بل أبى حوالى خمسين مليون من الأوروبيين في تلك الحرب. وقد ابتدع اليهود تلك الأكذوبة لأنها تتفق مع عقيدتهم، ولأنهم يعتقدون بأن يوم الميعاد اليهودي الذي يأذن به رب شعبه اليهودي بالعودة إلى أرض الميعاد، ذلك اليوم يتطلب تقديم أضاحي يهودية. فكذب اليهود على رب وزعموا بأنهم قدّموا أضاحي من شعبه المختار وأحرقت الأضاحي في الأفران طبقاً لرغبة رب اليهود. (راجع كتاب الملووكوست المحرّم)

تصنيف الأساطير الصهيونية

منذ نشوء الحركة الصهيونية وهي تعتمد على الفكر الأسطوري وتحاول بثه في المجتمعات العالمية. فالزعم بضرورة عودة اليهود إلى أرض فلسطين كان يقوم على مبدأ أسطوري يقول بأن عودة اليهود ومن ثم إبادتهم بالكامل سيمهّد الطريق لعودة ظهور المسيح. ورغم زعم الغرب بإيمانه بالعلمانية المطلقة فقد تجاوب مع الأساطير الصهيونية آنذاك. ومنذ قيام دولة إسرائيل وهي تقوم بنشر الفكر الأسطوري في المجتمع الغربي. ونلاحظ ذلك على كافة المستويات.

تسميم العقل الغربي بحقيقة الإبادة

إن الإبادة كعقيدة ومفهوم وواقع ديني وعقيدي كانت ماثلة في الذهن اليهودي منذ بداية القرن التاسع عشر على الأقل.

وإن نشر عقيدة الإبادة كمبدأ كان هم الصهيونية. الأمر الذي اعتقدوا بأنه قادر على انتشالهم من حوثتهم. ومن المقام الركامي الذي ظلوا فيه طوال أربعة آلاف سنة.

وعندما ظهر هتلر ساهم اليهود في توليد النزعة العرقية الألمانية، وتلك النزعة جعلته يخطط لتطهير العالم من الفساد، فكانت الحرب الجحيم.

فقد ظهرت في أوروبا نزعة إبادية عامة على أيدي مفكرين وفلسفه يهود. وكانت تلك النزعة تحمل عقائد تدميرية إبادية تتفق مع تصور اليهود للكون والمجتمعات وتختلف مع التصور المسيحي المتسامح. وقد ساهمت الظروف العامة في نشر تلك الأفكار والتصورات وشيوعها في الغرب كله.

فلسفة الإبادة خطوة بخطوة المجتمع الغربي

الإبادة كمبدأ وفكر فلوفي وممارسة واقعية ليست جديدة على الغرب. بل إنها قديمة فيه. فقد مارس الغرب الإبادة في زمن الرومان واليونان، وفي العصور الوسطى، وفي الحربين العالميتين، واليوم هو يمارسها في العراق وأفغانستان وفلسطين.

ومما لا شك فيه هو أن أول فكر إبادي عرفه التاريخ المنقول هو فكر العقائد اليهودية الذي يتمثل بإبادة الأضحية، وإبادة الآخر. ففي التوراة المتوفرة اليوم نصوص كثيرة تأمر بالإبادة وتروي قصص إبادة عنصرية بشعة.

تدل الأحداث الكثيرة والخطوات التي ينتهجها الغرب اليوم على وجود رغبة كبيرة وسعي للإبادة الفعلية. فالتسليح الكبير في المنطقة والذي يغذيه الغرب والولايات المتحدة بالدرجة الأولى ينمّ عن وجود مخطط إبادي شامل عند هؤلاء

المعدين. كما نسمع كثيراً عن أعمال جنود أمريكيين يمارسون الإبادة في العراق، فمن أين تولدت هذه الأعمال القذرة؟ انتهج الغرب فلسفة وفكراً عاماً أبعد المواطن عن مسيحيته الديانة السمحاء، وجعله يمر القتل والتدمر والإبادة. واستخدم الغرب تلك النزعة في حروبه العدوانية وفي احتلاله لأراضي الشعوب الأخرى بدءاً من غزوه للعالم الجديد وإبادته للهنود الحمر مواطنيه الأصليين،

لقد بدأت هذه الرؤية بمرحلة إنسانية وضعت الإنسان في مركز الكون وتبتنت منظومات أخلاقية مطلقة، تتبع من الإيمان بالإنسان باعتباره كائناً مختلفاً عن الطبيعة/المادة، وأنه ساقط عليها، ولله معيارته ومرجعيته وغائيته الإنسانية المستقلة عنها. وإن هذه الفلسفة المرحلية تتفق مع المفاهيم اليهودية لعقيدتهم. ولذلك فقد تبنتها الصهيونية ظاهرياً.

ثم تطورت هذه الرؤية الإنسانية المادية من خلال منطق النسق المادي الذي يساوي بين الإنسان والطبيعة ومن خلال تصاعد معدلات الحولية والعلمنة وانفصال كثير من مجالات النشاط الإنساني (الاقتصاد - السياسة - الفلسفة - العلم) عن المعيارية والمرجعية والفائية الإنسانية إلى أن فقد الإنسان مركزيته ومطلقيته وأسبقيته على الطبيعة/المادة وتحول إلى جزء لا يتجرأ منها وأصبح هو الآخر مادة، منفصلة عن المرجعية والفائية والمعيارية الإنسانية وأصبحت هذه علمانية شاملة.

وفي هذا الإطار ظهرت الأخلاق النفعية المادية التي تُعفي الإنسان من المسئولية الأخلاقية.

ومن ثم تحرر الإنسان الغربي من أية مفاهيم متباوزة مثل مفهوم الإنسانية جماعي أو صالح الإنسانية، كما تحرر من القيم المطلقة مثل المساواة والعدل، وجعل من نفسه المركز والمطلق المنفصل تماماً عن كل القيم والفائقيات الإنسانية العامة، وأصبح هو نفسه تجسيداً لقانون الطبيعة ولحركة المادة وتحول إلى مرجعية ذاته، وقانون ذاته، ومعيارية ذاته، وفائية ذاته، ومن ثم أصبح من حقه أن يحول العالم كله وجميع شعوب الأرض لخدمة صالحه كما عرفه هو وبذا تحولت الإنسانية الغربية إلى إمبريالية وأداتية ثم إلى عنصرية، وثم جاء تقسيم البشر إلى نوعين وهما

الإنسان المسيطر والمهيمن والآخر المسيطر عليه. ويطلق الدكتور عبد الوهاب المسيري عليهم أسمى السوبرمان والسبرمان.

- الإنسان المسيطر والمستبد والإمبريالي الذي يحق له أن يتحكم في كل البشر والطبيعة، وهو ما أطلق عليه المفكر المصري عبد الوهاب المسيري تسمية السوبرمان.
- الإنسان الذي فرض عليه أن يبقى دون البشر وهو أداتي ومن المفروض أن يذعن لإرادة السوبرمان ولقوانين الطبيعة والمادة. وهو ما أطلق عليه المسيري تسمية السبرمان.

وهذا ما يلخص نظرية النفعية الداروينية وهي المنظومة التي تذهب إلى أنه من يمتلك القوة له الحق في أن يوظف الآخرين لخدمة مصالحه، فكان يُشار إلى البشر باعتبارهم مادة بشرية يمكن توظيفها، أما من لا يمكن توظيفه فكان يُشار إليه باعتباره «مادة بشرية فائضة غير نافعة» وتعد هذه المصطلحات (وغيرها) في كتابات مفكري العنصرية الغربية مثل الصهيوني ماكس نوردو وفي الأدبيات الصهيونية (كتاب هيرتزل دولة اليهود).

وقد استمد كل من ماكس نوردو وهيرتزيل فلسفة الانتقائية والإبادة من العقيدة اليهودية نفسها بل إنهما لم ينتما إلى شروحًا حديثة للنصوص التوراتية وفلسفة حديثة مبنية على الأسس العقائدية اليهودية. فكان نتاجهما في الحقيقة نوعاً من الرؤية اليهودية الحديثة للمجتمع والكون.

وكان يتوجب على الغرب المسيحي ألا ينجرّ وراء تلك الفلسفة الإبادية لأنها لم تكون تتماشى مع عقيدته المسيحية الإنسانية. وبالمقارنة مع ما أنتجه ابن رشد من فلسفة شارحة للإسلام ومتواقة مع الإسلام والمسيحية مستفيداً من نتاج الفكر اليوناني الغزير، ونكتشف البون الواسع بين هذين النتاجين. فقد ساهم ابن رشد في تطوير الفلسفة والمجتمع المسيحي وساهم في تعظيم الإنسان ونشر قيم الإنسانية جموعاً. ثم وجاء اليهود ليهدموا بعض مابناه فيلسوف الإسلام تحت شعارات فلسفية حديثة..

ونلاحظ أن كل المصطلحات الفلسفية اليهودية كانت تضمير البُعدين الإمبريالي والأداتي، الدارويني والبراجماتي، وجعلت الإنسان مادة تُوظَّف.

وان كُلًاً من الذات الإمبريالية والموضوع الأداتي يدوران في إطار الرؤية المادية الواحدية. فالسوبرمان والسبرمان ينتهيان إلى عالم وثني حلولي كموني وما هذا العالم إلا يهودي توراتي. إذ لم يكن على الإطلاق من نتاج المسيحية المفعمة بالإنسانية ولا من نتاج الإسلام الذي هو موضوعه الإنسان.

إن الفكر الإبادي اليهودي والعنصرية تجاه الأغيار وعقيدة وجوب إبادة الأغيار كلها مصطلحات دينية يهودية تم تطويرها بعد عصر النهضة الأوروبي وجعلها مدارس فكرية وفلسفية ومذاهب وحقائق اجتماعية وبالحقيقة للتاريخ نقول قام اليهود بتسميم العقل الأوروبي وتحميله مبادئ الإبادة وتقسيم البشر إلى السوبرمان والسبرمان.

وبمقارنة بسيطة بين المصطلحات الغربية الطارئة على الإنسانية وبين ما يعادلها في نصوص العهد القديم نكتشف خلفية وعمق اللعبة الصهيونية:

سوبرمان: يعني في المفهوم الغربي الحديث الإنسان الذي يستحق العيش والذي يحق له تدمير ممتلكات الغير وإبادة الغير واكتساب عمل وممتلكات وحقوق الغير لنفسه. وحسب العقيدة اليهودية فإن اليهودي وحده يستحق أن يعيش وتبيح له نصوص العهد القديم والشريعة التي يؤمن بها أن يقوم بإبادة الغير وتدمير أملاكه ومحاصيله واغتنام أرضه وممتلكاته بل وإبادته وحرقه. ويعتبر الغير عند اليهود مادة غيربشرية ويجب التخلص منها وإبادتها. وإن كل العقيدة اليهودية تقوم على أساس أن اليهودي هو الذي اختاره رب من بين البشر، أي أنه السوبرمان.

سبرمان: وأصبح معناها في المصطلح الغربي الإنسان الوضع الذي لافع منه ويجب إبادته أو اكتساب جهده. وإن صورة هذا التعريف نفسه نجدها في العقيدة والنصوص اليهودية، فكثير من تلك النصوص تعتبر غير اليهودي غير إنسان وتتحمله مع البهائم وتحرّض اليهود على إبادته وتنظيف الأرض منه. وإن اليهود قد صدروا هذا المعنى منذ عصر النهضة واستطاعوا تسميم العقل الغربي به، وتضليله بشعارات

فلسفية وبمدارس فكرية. حتى أصبح حقيقة إبادية في الحربين العالميتين وفي أفريقيا وفي القارة الجديدة. إذ اعتمد العقل الغربي على هذه المبادئ أثناء قيامه بأعمال الإبادة. بل وكانت خاتمة كل تلك الأحداث أداء اليهود أنفسهم بأنهم تعرضوا للإبادة وبنفس الوقت قيامهم هم حين أصبح لهم كيان بأعمال إبادة مهولة ضد الشعب الفلسطيني وغيره من العرب والمسلمين. وقد ظل هذا المفهوم للنفس البشرية وهو السائد عند الغرب حتى يومنا هذا، ونلاحظ ذلك في أعمال القتل العشوائي الذي يمارسه جنود الغرب في أفغانستان والعراق وفلسطين.

ورغم تواري المصطلحات التي تُعبّر عن المفهوم بشكل متبلور فما زال العمل بهذا المبدأ قائماً حتى يومنا هذا. ففي العراق قذف المدنيون بقنابل تحوي يورانيوماً مخصباً وفي لبنان أعلن خبراء بريطانيون أنهم اكتشفوا اليورانيوم المخصب في مخلفات القنابل التي رمتها إسرائيل على المدنيين اللبنانيين. كما أن الصهاينة مارسوا فيه أعمال إبادة واضحة لاختلاف على وصفها بالإبادية، ومن ذلك مذبحة صبرا وشاتيلا، وإبادة المثلث المتصفين داخل مركز الأمم المتحدة. وما هذه إلا أعمال إبادة حقيقة. وفي الحرب اللبنانية الأخيرة رمت إسرائيل ملايين الألغام الصغيرة في جنوب لبنان. ثم استمرت في رمي بالونات غازية خانقة قتلت عدة أشخاص. وداخل فلسطين المحتلة احتاج السجناء الفلسطينيون على جعلهم حقل تجارب مخبرية. حيث أجبروا على تناول أدوية مجهرولة بغية معرفة نتائج تأثيرها على البشر. وأعلن عن ذلك في أواخر العام ٢٠٠٦.

ولكن حينما يُهيمن هذا المعيار يتم تأسيس الفردوس الأرضي، ولن ينتظر الفرد الغربي فردوس الله. وهذا ما يخالف الإسلام وعقائده، وتعلّن نهاية التاريخ والإنسان. وبالطبع كان المتطرفون اليهود أول من أعلن بوضوح كبير عن هذه الرؤية الخطيرة، فقد اعتبر بعض اليهود أن حدث المحرقة كان نهاية التاريخ اليهودي ونهاية وجود الرب نفسه الذي لم يعد هناك مبرر لوجوده حسب فلسفتهم. ورأى بعض فلاسفتهم أن الرب قد أحرق مع شعبه اليهودي داخل المحرقة النازية ولم يعد موجوداً.

وقد بَرَّرَتْ هذه العقائد الجديدة للإنسان المتسم بها أن يرتكب المجازر والمذابح وأن يرتكب كل المحرمات ومن هنا كان انتشار ظاهرة الإباحية الجنسية عند اليهود في بداية الأمر ثم انتقلت إلى مسيحيي الغرب. فقد أطلقها العقل المتطرف اليهودي وسمم بها العقل المسيحي الغربي. وضمن هذا الإطار ظهرت في الغرب أيديولوجيات علمانية شاملة (مثل الماركسية أو الاشتراكية العلمية والفاشية والنازية) وكلها ذات رؤية خلاصية تدور حول مطلق علماني مادي شامل، وتتعلق من الإيمان بالعلم والتكنولوجيا والتنظيم. لكن تزايد معدلات العلمنة الشاملة، وضع الغرب أمام معضلة جديدة فلم يُعُدْ من الممكن تصنيف البشر على أساس ديني. وبينما ذلك الوقت لم يكن ثمة مفر من تصنيفهم على أساس مادي موضوعي طبيعي. وتلك المعضلة كانت تهدد اليهودية بالدرجة الأولى وتؤدي إلى اضمحلالها في المجتمع المادي العلماني. ومن هنا انطلقت الحلول اليهودية الصرفة. وطُرحت الأساس البيولوجي العرقي أساساً وحيداً وأكيداً لتصنيف أبناء المجتمع. وكان هذا الطرح يتاسب مع اليهودية التي تعتبر العرقية واحدة من أهم أركانها. وهنا لا بد لنا من ذكر ما حصل في شمال العراق، فقد دعم المحتل الأمريكي قيام كيان كردي مستقل على أساس عرقي في شمال العراق. وتم منحه كافة الصالحيات التي تجعل منه دولة مستقلة مادياً وعسكرياً وأقليمياً. بل تجرا الأكراد على بيع البترول من مناطقهم وبعض أثمانه ، ثم بدؤا بطرد العرب من الموصل. وما كان لهذا أن يحصل إلا بعدما فرض الأميركيون والصهاينة مباديء العنصرية والعدائية والطائفية في المنطقة.

ومع تصاعد معدلات العلمنة في الغرب ظهرت كذلك فكرة الشعب العضوي الذي تريده بأرضه وثقافته رابطة عضوية حتمية لا تفصيم عرها. وقد جاء هذا المبدأ متفقاً أيضاً مع الصهيونية، التي سعت بواسطته لاحتلال أرض فلسطين. وتم قبوله في الغرب رغم أنه يخالف العلمانية الحديثة كلها، لأنه هو الذي سيبرر للصهاينة امتلاك أرض فلسطين باعتبارها الرابط العضوي لهم. وعندما تم إفراج المواطن الغربي من الديانة المسيحية فإنه لن يظل بدون عقيدة بل هو يسعى لاعتقاف

عقيدة دينية تملأ فيه الفراغ الفطري الإنساني. ومن هنا كان اتجاه الغربي نحو الإسلام. فيصبح الأذى الذي صنعته الصهيونية في الفكر المسيحي الغربي سبباً لانتشار الإسلام كفكرة يصلح كل التشوّهات التي أحدثتها الصهيونية. واليوم تنشر الصهيونية عقيدة مشوهة أخرى وهي المسيحية الصهيونية، ويكثر أتباعها في الولايات المتحدة على وجه الخصوص. وينفس الوقت فإنها ستكون عاملاً جديداً وسرياً إضافياً في البحث عن العقيدة الصحيحة، وعندها سيكون الإسلام هو الدين البديل الذي سيختاره أولئك التائرون والضاللون.

نشر المبدأ الإبادوي

لم يعرف تاريخ شعوب العالم كلها فكراً ومبدأ ابادياً مثلاً عرفه اليهود. فهم وحدهم الذين اختصوا بالاعتقاد بالإبادة والتحدث بها، فلأنهم كشعب وعرق يحملون هذا المبدأ وهم كيهود يثبتونه في نصوصهم التوراتية. ولأنهم يحرقون الأضحية ويقومون بإبادتها وتحويتها إلى رماد، ويعتقدون بأنَّ ربُّ أمرهم بذلك فهم يسحبون مبدأ الإبادة على الفير ليصبح ممكناً تحقيقه على البشر جميعاً. هذا إضافة إلى أنَّهم يعتقدون بأنَّ ربُّ أمرهم بإبادة شعوب كثيرة في نصوص العهد القديم. فهم يمارسون طرق إبادة مستمرة على الشعوب الكثيرة دون رادع أخلاقي أو حضاري. ففي جنوب لبنان قامت قوات إسرائيلية عدة مرات بتدمير مراكز وأليات فلسطين المحتلة قاتلت إسرائيليين عدة مرات مراسلين وغربيين رغم حيادهم الواضح. كما إنَّ نشر الفكر الصهيوني وفلسفة الإبادة على حساب المسيحية ما هو إلا مشروع لإبادة المسيحية نفسها.

وكانت صورة الإبادة تتجلّى باستمرار في كافة النتاجات اليهودية اليومية. ومنهم انتقلت إلى المجتمع السياسي الغربي، وكان ذلك بفضل الاحتكاك الكبير بين يهود أوروبا وأبناء الغرب المسيحيين. كما وساهم المفكرون وال فلاسفة اليهود في نشر مصطلحات ومفاهيم الإبادة في الذهن الغربي المسيحي. وفي القرون الأخيرة

شرب الفرب هذه المبادئ، وتبناها واعتمد عليها كمبر في تنفيذ أعمال إبادة جرامية عديدة رغم أنها تخالف عقidente المسيحية السمحاء. وتخالف قيمه الحضارية التي ينادي بها. ويسبب ذلك المفكري الصهيوني أصبح الغربي يمارس الإبادة تلقائياً وبدون أي رادع أخلاقي أو ديني أو حضاري، ومن هنا نفسر جرائم الإبادة الحقيقة التي يقوم بها جنود أمريكيون في العراق وأفغانستان. ففي هذا اليوم بالذات ٢٠٠٧ آذار أعلن عن محاكمة جندي أمريكي لقتله عشرة مواطنين سجناء عراقيين دون سبب. وعندما أصبحت الإبادة ممارسة يومية في العراق كان لابد من انتقال عدواها إلى العراقيين أنفسهم، فأصبح الجندي العراقي الذي يحضر أعمال الإبادة على يد الأمريكيين أصبح يقوم بها وأيضاً بدون رادع ديني أو وطني، لأن الأمريكي ببر للعربي القتل بدون وجود للرادرع ثم انتقلت تلك الحمى إلى الميليشيات والأفراد وإلى الجماعات التي تحمل أيديولوجيات دينية إسلامية، فرغم أن الإسلام يحرم عليهم اغتيال المسجد بكل من فيه وما فيه، رأيناهم يجدون مبررات للإبادة، وهذا السياق الذي بدأ في الذهن الصهيوني والذي امتد ليصل في النهاية إلى الجماعات الإسلامية، يعكس الخطر الصهيوني على البشرية كلها. ويوجب علينا أن نحذر منه باستمرار.

ويستد الاستعمار الاستيطاني الغربي أيضاً إلى الإبادة، فهذا ما فعله سكان أمريكا الشمالية البيض بالسكان الأصليين، وهي عملية استمرت حتى أواخر القرن التاسع عشر ، فقد استخدم المستوطنون الجدد كافة طرق الإبادة البشعة في القارة الجديدة. كما أبادوا عشرات الملايين في قارة أفريقيا. كما ومارس اليهود أنفسهم عمليات إبادة كثيرة في الأراضي الفلسطينية التي اغتصبوها وفي لبنان .

ومن سمات مفهوم الإبادة الحديثة الذي أنتجته اليهودية، أنها ارتبطت بأيديولوجيات فكرية وسياسية منهجية، وأرادت تحديد الواقع كله (الإنسان والطبيعة) وتحويله إلى مادة استعمالية ليست لها قداسة خاصة، وذلك حتى يمكن التحكم (الإمبريالي) فيه وإخضاعه للتجريب بلا تمييز بين الإنسان والحيوان، وهذه المفاهيم تبيح تحويل كل شيء ضمن ذلك الإنسان، إلى وسيلة. ومن ثم فهناك فارق

ضخم بين الإبادة (الحادية) وبين المذابح وأعمال الجنود في المجتمعات التقليدية القديمة. وعن الإبادة العنصرية تحدث الباحث اليهودي الإسرائيلي إيلان بايبة عدة مرات عن أعمال التصفية العنصرية والإبادة المعمدة والمنظمة التي تمارسها الصهيونية في فلسطين وتسعى بواسطتها لتصفية العرب الفلسطينيين.

نشر الأسطورة في الثقافة الإسلامية

انتشرت في السنوات الأخيرة في المجتمع العربي عقائد وأفكار تحمل ظاهراً صفة الإسلامية، لكنها في حقيقتها لا تمت إلى الإسلام بصلة، وإنما هي أساطير من صنع الصهيونية العالمية، وإن هذه الأساطير إلا نوع من الأسلحة الموجهة ضدنا. ويفضل من ينشر هذه الأساطير من مواطنينا ويدافع عنها بأنه بذلك يقوم بالدفاع عن الصهيونية نفسها.

وكلنا يذكر كيف قام الفزاعة الأمريكية وأعوانهم باقتحام متحف بغداد ويتدمير قسم من آثاره التي هي هوية العراق التاريخية، وقاموا بسرقة كنوزه بهدف تجريد العراق من ثقافته التاريخية ومن هويته العريقة. وما ذلك الفعل إلا جزء من المشروع الصهيون أمريكي الذي يسعى لنجرיד العراق من ثقافته وعلمانيته وفكره. وإحلال ثقافة الأسطورة الخرافية محلها.

مسرحية تكشف جرائم الغرب ضد المسلمين

تعرض في مسارح الغرب مسرحية بعنوان (ماركس في سوها) لمؤلفها "هوارد زين" وهي تكشف سر استخدام الأمريكيين للأسطورة الصهيونية، في حرفهم ضد العراق والبلاد الإسلامية. وتشير في الوقت نفسه إلى التحالف الأمريكي الصهيوني التام في الإعداد لمعركة مقدسة صهيونياً، ولا تخدم إلا الصهيونية وحدها.

الفصل الحادي عشر

ضرورة تجديد الفكر الإسلامي

لكرة تجديد الفكر الإسلامي

إننا اليوم في وضع شديد الدقة والمسؤولية، والواجبات التي تنتظرنا جسيمة، فالعالم كله ينتظر في كل لحظة ما سيفعله المسلمون. والعالم يخاطبنا اليوم بطرق شتى وبأفواه وبأساليب كثيرة للغاية. فلا وقت للتأني ولا وقت للانتظار، فالعالم كله والغرب بشكل خاص يحاكمنا ويريد أجوبة ومواقف. فلم تعد المواقف التقليدية تكفي: كالمظاهرات التي تحتاج على الرسوم أو على تصريحات البابا. وأصبح لابد من مواقف فكرية وحوارية وثقافية تشمل كافة المجالات التي تتصورها. فعندما يخاطبونا بالرسوم المضحكة يتوجب علينا أن نخاطبهم بنفس الطريقة وبرسم مضحك تكون بمستوى أفضل وفي صحفة غربية أكثر انتشاراً وبلغة أكثر عمقاً وبفنية أكثر براءة. وعندما يخاطبونا بواسطة السينما أو المسرح لابد من الرد عليهم بواسطة السينما أو المسرح الغربيين، وفي ذلك لابد من امتلاك القدرة على الإبداع والصناعة الفنية والفكرية والمسرحية. وإذا كانا لامتنا المنفذ الذي هو مسرح وسينما وصحيفة توجب علينا أن نشتري تلك الوسائل التي هي مشاريع تجارية. مسؤوليتنا كبيرة للغاية ونحن مازلنا نائمين وكأننا نقول "لبيت رب يحميه". ولدخول تلك المجالات كافة لابد لنا بداية من أن نطور أنفسنا. فكيف ندافع عن الإسلام ونحن لانفهم الإسلام نفسه؟ وكيف ندافع عن الإسلام وفيينا من يخلط بين التراث والعادات من جهة والإسلام من جهة أخرى. ثم كيف نخوض هذا التحاور العالمي الذي انفتح علينا فجأة ونحن ليس فينا من نعتمد جمیعاً بأنه الناطق باسم الإسلام. ثم كيف لنا أن نخاطب الآخر الذي هو ليس مسلماً ونسعي لتعريفه بالإسلام فيما كثير مما مازالوا يكفرون مسلمين مؤمنين وأنقياء. ومن بيننا انتحاريون يريدون دخول الجنة في أداء عمل انتحاري يقتلن به مسلمون يؤدون الصلوات والعبادة في مساجد إسلامية.

لقد انفتح أمامنا باب الحوار المشاكس على مصراعيه. وليس أمام أحدنا ثانية واحدة لترتيب أوراقه، فقد تأخر المسلمون كثيراً عن اللحاق بهذا الركب، وأصبح من الحماقة اتكال كل مسلم على الآخر وترك مسؤولية المهمة لآخرين. فالدفاع

عن الإسلام مسؤولية جميع المسلمين. والحوار المفيد والمثمر مسؤولية الجميع. ولن تكون محاورين فاعلين لابد لنا من فهم إسلامنا بعيداً عن الموروث والعادات والخرافات.

نتفق جمِيعاً على الثوابت في الإسلام وندعو لكسر الجمود الفكري المتشدد الذي يعيق تطورنا. هذا الجمود الذي يتجلّى في مظاهر كثيرة نذكر بعضها:

- يمنعنا من التحاور المفتوح مع الآخر.
- يعيق تطورنا الفكري وبالتالي يعيق فينا أي تطور تسعى إليه الأمم والشعوب.
- يعيق فهمنا لذاتنا ولديتنا وفهمنا للأخر.
- يعيق فهم الآخر لنا.
- يجعلنا نحافظ على ثوابت ونقيمهما كإيقونات فكرية لا يمكن تجاوزها.

القرآن عربي والإسلام بكل اللغات

لقد أثبت الإسلاميون الأتراك بأنهم أقدر وأجدر من نظرائهم العرب على صناعة وقيادة نهج فكري إسلامي معاصر. ومثلهم تميّز كل عرق من المسلمين غير العرب بمميزات دون غيرهم من المسلمين جمِيعاً.

يحمل العرب نزعة العروبة في الإسلام نفسه، ويعتقد العربي المسلم بأنه هو المحافظ على الإسلام وأنه عقل الإسلام ومركز الإسلام ونواة نشر الإسلام ، ومركز الدفاع عن الإسلام. وأتصور أنه عندما يلتقي عربي وصيني مسلمان يكون العربي معتقداً بأنه سيعلم الصيني اركان إسلامه وأنه سيوضح له الكثير من المعارف الإسلامية التي تقصّه. وعندما يلتقي عربي بباكستاني مسلم يكون شعور العربي أيضاً بأنه هو العارف والعالم بالدين والناشر والداعي للإسلام والمحافظ على دين الله. وسيقوم بنصح هذا الباكستاني. لكن الحقيقة ليست كذلك دوماً. ففي باكستان تنتشر المدارس الإسلامية بشكل كبير للغاية لدرجة لاتتصورها نحن. وإن نظريات في فهم الإسلام وتطوير مجتمعاته جاءتنا من باكستان، وإن أجمل أبيات الشعر الإسلامي سمعناها من الباكستاني محمد إقبال. وعندما كان فلاسفه

الإسلام الباكستانيون يبحثون في تطوير المجتمعات الإسلامية وتسويتها كأن قسم كبير من المسلمين العرب في درجة ثقافية لا تمكنهم من فهم تلك النصوص الفلسفية الحديثة. وعندما يتعرض الإسلام إلى انتقادات أو اعتداءات نجد الباكستانيين والإيرانيين والأندونسيين والأفغان والهنود يتظاهرون ويستنكرون الحدث أحياناً قبل أن يشعر العرب المسلمين به.

وعندما يتملكنا الذهول والإعجاب بالمسلمين الباكستانيين يتوجب علينا أن نتذكر أن فيهم مذهبآ سنّياً ومذهبآ شيعياً ومذهبآ إسماعيلياً، وفي هذه اللحظة يتوجب علينا أن نستمر في إعجابنا بهؤلاء جميعاً وبنتاجاتهم الإسلامية وحرصهم على الإسلام وبعظامه هذه الشعوب.

إن الذي نبهنا إلى شر (سلمان رشدي) هو الإمام الخميني رحمة الله الذي لم يكن عربياً.

إن انتقامنا للسان العربي الذي نزل فيه القرآن الكريم يجعلنا قادرين على قراءة القرآن بيسر وسهولة وهذا كل شيء نمتلكه بانتمائنا العربي، فهذا الانتماء لا يجعلنا بالطبع مميزين عند الله ولا يجعلنا أرفع درجة ، ولا يكسبنا الجنة قبل غيرنا من شعوب الأرض. بل إن أعمالنا الصالحة هي التي تؤهلنا للدخول إلى الجنة.

إن عدد المسلمين العرب لا يزيد عن ١٠ % من عدد مسلمي العالم ، وبهذا نصبح نحن العرب الأقلية بالنسبة للمسلمين غير العرب.

لنفرض أن لك صديقاً أوروبياً وأنك بفضل عقيدتك استطعت أن تقنعه بالإسلام، فكم ستكون سعادتك كبيرة عندما يشهر إسلامه ويشكرك على تعريضه بالإسلام !!

إننا حينما نكسب مسلماً واحداً تعمَّ علينا البهجة والثقة ويزداد إيماننا. فكيف يقوم البعض برفض الاعتراف بشعوب مسلمة لاتنتمي إلى مذهبها !! وكيف يجرؤ أحد المسلمين بأن يخرجهم من الإسلام كله !! إن إطلاق صفات (الفرس والصفويين) على الإيرانيين ، ورغم اتسامها بالطائفية، فهي تحمل في طياتها مشاعر التفوق العربي ، وعقدة أحقيبة العرب في الإسلام وفي فهمه. لكن الرسول محمدأ

عليه السلام ورغم أنه كان عربياً فهو لم يكن رسولاً لنا وحدنا. بل كان رسول الإسلام للبشرية كلها. والقرآن الكريم ليس مخصصاً للعرب دون غيرهم بل هو قانون للبشرية جموعاً. فالآيات القرآنية الكثيرة التي تخاطب الناس في قوله عز وجل: "يأيها الناس" هذه الآيات موجهة لبني البشر.

تحييد الموروث الإسلامي من الموروث الثقافي

لقد دخل على الفكر الإسلامي موروث كبير دخيل على ثقافة شعوبنا، ومع مرور الزمن امتزج هذا الموروث بالفكر الإسلامي الأصيل، ونتج عن هذا المزج فكر جديد يعتقد غالبية الجمهور الإسلامي بأنه فكر إسلامي رغم براءة الإسلام منه. وهذا الموروث الكبير ظاهر واضح عند المسلمين، وتتجزء عنه مساوئ كثيرة تضر بالإسلام والمسلمين. فالموروث الدخيل على الإسلام يشكل ضرراً وخطراً على الإسلام والمسلمين، ولعلَّ الجهاد في تحييد هذا الموروث، عمل كبير وضرورة ملحة، فإن تعقيم الإسلام من تلك الشوائب الفكرية يعيد إليه النقاء والصفاء والصورة الصحيحة التي يريدها الله لهذا الدين. وإن فلتة الإسلام من تلك الشوائب هي أهم خطوة في أي عمل إسلامي. لقد مرت المسيحية بمراحل تاريخية عديدة وكانت في تلك المراحل تتعرض لتغييرات وانقلابات فكرية وعقيدية، وكانت لينة مطواة أمام ظروف التغيير الخطيرة، حتى غدت في النهاية مسيحية أخرى. لكننا نحن المسلمين حريصون على سلامة الإسلام من كل تغيير أو تحريف، ومن هنا يتأتى واجبنا في الجهاد الكبير الذي يقتضي فلتة الإسلام من الشوائب الدخيلة عليه.

اختلاط الموروث القديم بالمحرفة الإسلامية

عبر التاريخ الطويل اكتسبت الشعوب الإسلامية الكثير من العادات والمعارف والسلوكيات. واحتللت تلك عند بعض المسلمين بالمعرفة الإسلامية، فزادت كمية المحرمات، وكمية المحظورات. واحتللت الحرام بالمعيب وبما يعتبر عادة سيئة، فمنذ

عقود قليلة كانت القهوة محّرمة عند بعض المسلمين ذلك لأنها عيب، ثم زال عنها العيب والتحريم مع مرور السنين وتطور الوعي العام.

واجب العمل الإسلامي الفردي

لأسباب عديدة تبرز اليوم ضرورة العمل الإسلامي الفردي بعيد عن الارتباطات والشبهات والمغامرات والبعد عن التطرف والطائفية. ونقصد بالعمل الإسلامي الفردي هذا تركيز الفرد على ثقافته الإسلامية وتوجيهها توجهاً سليماً وتحقيق الإصلاح الذاتي، وإبعاد شبح التطرف والطائفية عن النفس وعن المجتمع. وسيتحقق عمل الفرد بمفرده نتائج مذهلة في المستقبل ، حين لا يجد دعاء التطرف آذاناً تصفي إلىهم، ولاشك أن في بغداد التي عانت من الطائفية أفراداً التزموا بالاستقلالية ولم ينتموا إلى جماعات وحركات. وظلّوا يقومون بجهود فردية ويحولون دون استفحال الصراع الطائفي، وأنهم هم وحدهم وبجهودهم الفردية يقومون بإيقاد الأمة الإسلامية من خطر كبير.

الإسلام لا يساوي المسلمين

بالنظر إلى الحجم الكبير للثقافة الموروثة، وانطلاقاً من الأخطاء التي يرتكبها بعض من المسلمين، وابتعادهم عن الإسلام نستطيع القول بأن الإسلام لا يساوي المسلمين، أي أننا لا يمكن أن نعتبر أن المسلمين المعاصرين يشكلون صورة حقيقة عن الإسلام، وبذلك تظلّ صورة الإسلام في الإسلام نفسه. وهذا المصطلح نفسه يمكن تطبيقه على المسيحية فنقول المسيحية لا تساوي المسيحيين. وبواسطة هذا التطبيق نكثر من أهمية ابتعاد الغرب عن المسيحية. وبالتالي نطالب بدعوته للإيمان المسيحي أو لاعتناق الإسلام.

السلفية من الحركة الوهابية إلى الرؤية العالمية

كانت السلفية في مسئتها حركة إصلاحية تسعى لتصحيح فهم الدين والالتزام به، وهي أقرب إلى مدرسة دينية وليس جماعة أو تنظيماً، ولكنها بدأت في مراحل لاحقة تأخذ طابعاً تجمعياً وإن لم يكن تنظيمياً، وتحرص أيضاً على تقديم نموذج في التدين والسلوك والفهم والتطبيق، لكنها مررت بمراحل عديدة حيث تبدلت وتعدّلت قراءاتها الدينية. وبعد اكتشاف النفط وزيادة أسعاره والتطور الاقتصادي والعام الذي حدث في الخليج، زادت أهمية السعودية والدول الخليجية وتأثيرها في العالم. وصاحب النشاط الدولي والإقليمي لهذه الدول نشاط إسلامي يستخدم المؤسسات والمراكز الثقافية والإسلامية والمدارس والمساجد والمنظمات. وبهذه الطريقة امتد الفكر السلفي من الجزيرة العربية إلى معظم أنحاء العالم وبخاصة الدول العربية والإسلامية. وظهرت في السعودية حالة إسلامية متامية منذ أوائل السبعينات، وكانت حالة تتمي إلى مدارس وتيارات عده، إخوانية وسلفية.

ولكن هذا المد الإسلامي رافقته حالة من التشدد والتعصب الذي وجد له أتباعاً ومؤيدين في السبعينات وفي أواخر العام ١٩٧٩ احتلت جماعة متشدد و المسلحة بقيادة جهيمان العتيبي المسجد الحرام في مكة المكرمة، ودخلت في مواجهة مسلحة مع القوات المسلحة السعودية. وانتهت بالقضاء التام عليها وبنكفيتها. وظهرت أيضاً حالات أخرى من التعصب والمواجهة غير المسلحة مع المجتمع والدولة، فقد حرم بعضهم الصور بكل أشكالها حتى ما كان منها على جوازات السفر والبطاقات والأوراق النقدية، وقاموا بإحراق محلات الفيديو.

وشهد عقد الثمانينات تحولاً كبيراً ومهماً في مسار السلفية وهو المقاومة الإسلامية للحكم الشيوعي في أفغانستان والقوات السوفياتية التي دخلت أفغانستان.

وتدفقت التبرعات وأفواج المتطوعين إلى أفغانستان، و تكونت في باكستان وفي أفغانستان جماعات إسلامية مسلحة متشدد امتدت من هناك إلى أوروبا والولايات المتحدة وأفريقيا وسائر أنحاء العالم.

وفي السعودية تشكلت مجموعات إسلامية كثيرة معارضة تتبع إلى مدرسة الإخوان المسلمين أو حزب التحرير، وخرج بعضهم إلى بريطانيا لممارسة دور إعلامي وسياسي معارض للسياسات والمواقف السعودية، مثل الفقيه والمسعري.

وتشكلت مجموعات إسلامية سلفية جهادية تتسلل بالعنف، ونفذت عمليات عسكرية ضد المصالح الغربية منذ منتصف السبعينات.

السلفية المحتلة

يمتد التيار السلفي المعتمد ليشمل أفراداً وتجمعات وتيارات مختلفة، ولكن يجمع بينها العمل الإصلاحي والاعتدال النسبي. وقد استفاد هذا التيار في السنوات الأخيرة من توجه الحكومة السعودية للحوار وإتاحة المجال للنشاط الإصلاحي، وإن نسبة أتباع السلفية المعتمدة تزيد كثيراً عن السلفية المتطرفة.

السلفيون الجدد

ثم انقسمت السلفية وتعددت في أساليب عملها الفكرية والسياسية والتنظيمية، فقد نشأت جماعات تمزج بين الإخوان والسلفية، وأخرى تعيد تجميع السلفية التقليدية، وبدأت تشارك في العملية السياسية المتأخرة كما في الكويت، أو تشارك فيها على نحو غير معلن، وامتدت السلفية أيضاً إلى حركات وجماعات إسلامية متشددة ومتطرفة هي في الأصل انبثقت من الإخوان المسلمين أو قامت بموازاتهم تسعى برأيها لاستدراك ما فاتهم أو ما قصروا في تفزيذه، وهي إجمالاً قائمة على أساس التعامل مع أنظمة الحكم في دول العرب والمسلمين، وهم ما يمكن تسميتهم بـ”السلفيون الجدد”， ومن هذا التلاحم نشأ شيء جديد ومختلف تماماً عن الجماعتين ولذلك فإن تعبير السلفية لم يعد دقيقاً ولا محدداً ولا يصلح لوصف كثير من الحركات والجماعات والأفكار المنتبة إلى السلفية، وهو في غالبه وتأريخه يصلح لوصف السلفية التقليدية التي عرفها العالم الإسلامي لفترة طويلة،

وإلى حد ما السلفية الإصلاحية التي تنتهي إليها أجيال من العمل المؤسسي والمنظم والممتد إلى السياسة ممارسة وفهمًا.

الستراتيجية العالمية للإسلاميين

بتحليل خطابات وأعمال الحركات الإسلامية عموماً يمكننا قراءة هذه الاستراتيجية في منهاجهم، والتي تظهر كمشروع نظري وعملي، إذ يرى الإسلاميون عموماً أن الإسلام هو القادر على أن يطرح بديلاً للحداثة الغربية، التي أثبتت فشلها. وأن صمود الإسلام أمام محاولات القضاء عليه يشير إلى قوته وتماسك هذه الرؤية. فقد صمد الإسلام والمسلمون في يوغسلافيا في حقبين من الزمن، وانتصروا في المعركة الأولى مع السوفيت. كما صمدوا في البوسنة والهرسك، وصمدوا في فلسطين ستين عاماً. وفي أفغانستان حقبين من الزمن. فطردوا السوفيت منها واليوم يقاومون الاحتلال الغربي. كما أن ثورات الشعوب العديدة ضد الاستعمار الغربي القديم، اتصفت كلها بالاسلامة وأثبتت الجسد الإسلامي أنه لايمكن أن يهضم عند أي عدوan يستهدفه. وهذه التجارب تزيد من عزيمة المسلمين الجدد ومن قدرتهم على تصدير مشروعاتهم. وأن خلفية المواجهة بين المسلمين والعالم الغربي راجعة إلى تطور حقيقي داخل المركز الإسلامي، وهذا التطور يسعى لبناء مركز حضاري مستقل عن الغرب، وغيرتابع له. ومن هنا كان حرص العراق السابق وإيران الحالية لامتلاك تقنية نووية. وتجلى هذا التطور بظهور حركات الإحياء الإسلامي وتأمييوعي متزايد لدى الجماهير الإسلامية بضرورة العودة إلى الإسلام. وهذا ما يبرر ظهور الالتزام والوعي الإسلامي في الغرب كله وفي تركيا والبلدان الإسلامية الأخرى. وليس الغرب بفائق عن هذا المد الإسلامي الجديد، بل إنه يلمس حضوره الواضح، ويقوم بأعمال تهدف لإجهاضه. ولمنع قيام بديل حضاري إسلامي. ومن هنا كانت المواجهة التي نشهدها اليوم بين المسلمين والغرب كله.

إشكالية المذهب الواحد داخل الجماعات الإسلامية

بدأ العمل الإسلامي الحديث بمبادرات ومشروعات وأفكار ودعوات للنهضة والإصلاح والوعي الإسلامي و للتحرر والاستقلال ومقاومة الاحتلال العثماني، ثم الغربي. وقام بها مصلحون ومفكرون مثل محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية، وجمال الدين الأفغاني في مصر والدولة العثمانية، ومحمد عبده ورشيد رضا في مصر، وعبد الرحمن الكواكبي في الشام، ومحمد بلالحسن بلحجوي وعلال الفاسي في المغرب، وعبد الحميد بن باديس ومالك بن نبي في الجزائر، وسعيد النورسي في تركيا، والطاهر الفضل بن عاشور في تونس، والمهدية في السودان والسنوسية في ليبيا والمریدون بقيادة الإمام شامل في القفقاس، والدھلويہ في الهند وحركة دان فودیو في نیجیریا.

كانت الحركات والمشروعات والمبادرات والدعوات قائمة في بدايتها على إصلاح الخلافة والدولة العثمانية. ثم شغلت بمقاومة الاحتلال والاستعمار والعمل على التحرر والاستقلال، وانشغل بعضها بالنهضة والتقدم واستيعاب تجربة الغرب وتطوره كما في حالة رفاعة الطهطاوي.

ويعتبر جمال الدين الأفغاني مؤسس الحركة الإسلامية المعاصرة تلك المدرسة التي تالت من بعده واستمرت حتى يومنا هذا ، فقد تبعه تلميذه الشيخ محمد عبده. وقد أثر الأفغاني في جيل كامل من المسلمين، وكان له نفوذ وتأثير في البلدان الإسلامية التي طاف بها (أفغانستان وإيران والهند وفرنسا ومصر والعراق وتركيا). وبالنظر للبلدان التي زارها محمد عبده ، وللحجولة التي قام بها عموماً، وبزيارته لفرنسا، نكتشف سعة أفقه وعالمية فكره، واكتشافه لضرورة التبادل الحضاري وإيقاظ الأمة، وبالطبع كان يدعو للحوار المذهبي، وكان مشروعه يهدف إلى نهضة المسلمين جميعاً. وامتد تأثيره إلى رشيد رضا الذي كان مجلته "النار" صدى وتأثير في كل أنحاء العالم الإسلامي، وكان حسن البناء على صلة قوية برشيد رضا. ويمكن تلخيص المسار المتالي لقيادة الحركة الفكرية الإسلامية على هذا الترتيب:

المرحلة الأولى: جمال الدين الأفغاني - محمد عبده - رشيد رضا. وهؤلاء دعوا للصحوة الإسلامية عموماً وعاليماً، وإصلاح الفرد والمجتمع عموماً، ولم يعملوا للإسلام السنّي فحسب.

المرحلة الثانية: وفيها ظهر حسن البنا - سيد قطب - عمر عبد الرحمن: في هذه الفترة تأسست جماعة الإخوان ككيان، وكان لها نظام داخلي، وانتشرت عند أهل السنة لأن منهاج التثقيف الديني الذي اعتمدته الحركة كان منهاج السنّية الشائعة والمتوارث في المجتمع السنّي، أي أنه كان مشوباً بالصوفية. وقد استمرت الجماعة على هذا المنهاج حتى يومنا هذا. ويلاحظ أنه في هذه الفترة الزمنية قامت دولة إسرائيل وكان للحروب العربية الإسرائيلي تأثير على مسيرة الجماعة الإسلامية عموماً. فأصبحت أكثر تشددًا واتخذت مواقف سياسية متشددة من الحكومات العربية، واصطدمت عدة مرات مع بعض تلك الحكومات، فمنعت في سوريا. ومنذ ثلاثة عقود وحتى يومنا هذا لا تلتئم باحترام الشارع السوري، بل إنها تواجه بالاستكبار الشديد.

المرحلة الثالثة: وهي مرحلة أيمان الظواهري الذي انشق عن جماعة الإخوان المسلمين، وضمّ جماعته ومنهاجه الجديد إلى حركة القاعدة، وجاءت هذه الظاهرة في زمن يُؤسس فيه المجتمع العربي من عقم الصراع مع الصهيونية، وظهرت فيه الولايات المتحدة ك العدو المعلن وجديد للعرب والمسلمين. وهنا لابد من الربط بين هذه العوامل التالية:

- إن التشدد داخل الجماعة الإسلامية ظل يزداد باستمرار. حتى بلغ أقصى مرحلة له في القاعدة. ومن مظاهر التشدد عند القاعدة: السلفية في المنهج، ومعاداة المسيحية والشيعة المسلمين، ومعاداة الأنظمة العربية كلها،
- ارتبط التشدد الجديد بزيادة الأزمة والضغوط العالمية، فالصراع مع إسرائيل بلغ درجة العقم، ودخلت الولايات المتحدة كعدو جديد، وقد ازدادت الهوة والتلاقي بين الجماعة الإسلامية والحكومات العربية نفسها، وبلغت حالة العقم في كثير من البلدان.

- إن تشدد نهج القاعدة بالشكل الذي نراها عليه يدل على سأم الحركات الإسلامية من طريقة العمل السابقة ومن النهج السابق لها والذي طال عمره وبلغ قرناً كاملاً.

يبدو الطابع الإصلاحي لجماعة الإخوان المسلمين التي أسسها حسن البنا عام ١٩٢٨ قوياً وواضحاً، ثم شهدت فيما بعد تحولات كبيرة أشبه بالاختطاف. فقد نصت أهداف الجماعة كما في قانونها الأساسي الذي أقر عام ١٩٤٨ على أن "الإخوان المسلمون" هيئة إسلامية جامعة تعمل لتحقيق الأغراض التي جاء بها الإسلام وما يتصل بهذه الأغراض: شرح دعوة القرآن الكريم، وعرضها وفق روح العصر، وجمع القلوب والآنفوس على المبادئ القرآنية، وتقرير وجهات النظر بين الفرق الإسلامية المختلفة، وتنمية الثروة القومية وحمايتها وتحريرها، والعمل على رفع مستوى المعيشة، وتحقيق العدالة الاجتماعية، والتأمين الاجتماعي لكل مواطن، والمساهمة في الخدمة الشعبية، ومكافحة الجهل والفقر والمرض والرذيلة، وتشجيع أعمال البر والخير، وقيام الدولة الصالحة، ومناصرة التعاون العالمي، والمشاركة في بناء السلام والحضارة الإنسانية، وتحرير وادي النيل والبلاد العربية والوطن الإسلامي من كل سلطان أجنبي. ويعتمد الإخوان المسلمون في تحقيق هذه الأغراض وسائل الدعوة والتربية، والتوجيه والعمل بإنشاء مؤسسات اقتصادية واجتماعية وعلمية وصحية وخيرية.

لم يكن الجميع قد تتبأ من قبل بأن نشهد يوماً صراعات طائفية داخل المجتمعات الإسلامية. إلا فكانت تلك الحركات ستقوم بتحضير البلسم الشافي الذي يحتاجه المجتمع الإسلامي اليوم. فبعدما داهمنا خطر الطائفية بات من واجبنا جميعاً أن نبحث عن كل الوصفات التي توحد مجتمعاتنا الإسلامية. ومما لا شك فيه وبسبب الأحداث الطائفية الأخيرة. فإن المنظومات الإسلامية كلها ستنتهي في السنوات القليلة القادمة فكراً إسلامياً أكثر انفتاحاً على المسلمين الآخرين بل وعلى المسيحيين أيضاً.

ونلاحظ في المخطط التالي نقاط التحول في اتجاه الحركات الإسلامية: فقبل قيام الكيان الصهيوني في العام ١٩٤٨ كانت جماعة الإخوان أشبه بتظاهرة شعبية إصلاحية، ولم يكن لها أعداء وخصوم. وبين المخطط تسلسل الحركات الإسلامية بشكل عام وصفاتها في كل مرحلة والعوامل التي تأثرت بها.

أهمية العلوم الحديثة

نشير هنا إلى أهمية العلوم الحديثة وضرورة تحصيلها إلى جانب العلوم الإسلامية أو الفقهية ومتناها علوم التربية وعلوم الآداب والنصوص وتحليل النصوص، وعلوم السانيات وتفرعاتها وتعامل السانيات مع النصوص. وعلوم التحقيق والسرد التاريخي، وعلوم الاجتماع وكل ما يتفرع عنها، وعلوم السياسة وعلوم النفس والتحليل النفسي. إضافة لعلوم الفلسفة والطب والهندسة وغيرها.

وهذه العلوم يجري توظيفها في أغلب بلدان العالم ، وصحيح أن في مجتمعاتنا العربية متخصصين بكل هذه العلوم، لكن هؤلاء جميعاً يسخرون نتاجهم بعيداً عن المؤسسة الإسلامية، مما يسمح لأفراد تلك المؤسسة أو الحركة الإسلامية وهم الذين يجهلون هذه العلوم، بأن يقحموا أنفسهم فيها، فيصبح الشيخ عالم طب وعالم كونيات ومحلاً للظواهر الكونية ولعلوم الفضاء، ومحللاً للمدارس الفلسفية كلها (إذ يستكراها ويكتفرونها في أغلب الأحيان). وعندما تحصل المؤسسة الدينية الإسلامية على فقيه في أمور الإسلام ومحظى بعلم الاجتماع مثلاً سيقوم هذا باعداد برامج تربوية وتعلمية تتوافق مع الإسلام كدين ومع علوم التربية الحديثة والمتقدمة. وبغياب هذا الفقيه المتخصص بعلم حديث يقوم الإسلاميون بتربية الأجيال وفق أنماط مختلفة لا تتناسب مع تطور العصر ولامع أنماط التربية المعاصرة فتأتي النتيجة بأفراد مختلفين أو متطرفين. فالمؤسسة الدينية مثابة بكل نشاطاتها سواء وكلها المجتمع ورضي عن أسلوبها أم لا ، ففي كثير من البلدان العربية تقوم جماعة الإخوان المسلمين بمهمة التربية، وفي البلدان العربية والأوروبية ظهرت مدارس إسلامية تتشتّت

الفرد وفق مناهج متخصصة بأمور الدين الإسلامي. وقد تفيد تلك التربية عند بعض الأفراد ومن المحتمل أيضاً أن تضر بمستقبلهم وتقودهم إلى التطرف والطائفية.

إنه من غير الممكن أن نطالب متحدثاً إسلامياً واحداً بأن يعطينا موافق الإسلام من كل مشكلة أو قضية تظهر وتواجه المسلمين. وأن نجعله عالماً متخصصاً بكل أمور الكون، فمشكلة الرسوم الكاريكاتورية التي جاءت من الدانمارك كان يتوجب مناقشتها أيضاً من قبل فناني وختصاصيين بفنون الرسم وفنون الصحافة والنقد الفني، فإن للرسم دلالات كثيرة وتعطي مفاهيم وأبعاداً كبيرة له. إذ يستطيع الناقد الفني تحديد عناصر وأفكار ومعانٍ للرسم نفسه لم نجرؤ نحن جميعاً على التفكير أو الخوض بها.

الحاجة لتوظيف العلوم الحديثة

هنا تبرز ضرورة تخصص كل شخص يحمل سمة الشيخ أو عالم الدين، أو المتحدث بالدين بنوع من العلوم. وضرورة أن يحمل هذا الشيخ صفة علمية إضافية ليتكلم ويحكم من خلالها ، فنقول عن المشايخ بعديّه: هذا شيخ طبيب، وهذا شيخ أديب، وهذا شيخ قاضٍ... الخ.

ولعل أفراد المجتمع الإسلامي هم أنفسهم الذين يتحملون اليوم مسؤولية تطوير اختصاص عالم الدين. فعندما نقصد شيئاً يجهل علوم الطب ونحمله وظيفة ومسؤولية الطبابة والعلاج ونأخذ بحكمته. تكون نحن المشجعين لاستمرار ظاهرة الشيخ غير المتخصص. وعندما نسمح لشيخ أن ينتقد ويشتتم ويلعن كل المفكرين وال فلاسفة والمدارس الفكرية الغربية، ويتهمهم بالكفر والإلحاد ومعاداة الإسلام. تكون عندئذ قد ساهمنا في تحميل الشيخ علماً هو في حقيقته يجهله. ويدرك أن كثيراً من خطباء المساجد ما زالوا يلعنون كل المدارس الفكرية والفلسفية الغربية، ويتهمونها بالكفر والإلحاد وبمعاداة الإسلام، وباليهودية والصهيونية. وبالمقابل فإن ابن رشد الأندلسي قام بترجمة أرسسطو إلى العربية واستفاد من فلسفته، بل وابتدع

فلسفة إسلامية جديدة لا يمكن تفافيها. ويدرك أيضاً بأن المدارس الدينية الشيعية تدرس أهم الفلسفات الغربية وتستفيد منها.

عندما تؤسس مدارس دينية إسلامية تختص كل واحدة بإنقاذ نوع من العلوم الحديثة. وتحتخص في الوقت نفسه بتعريف هذه العلوم وفهمها وفق الشريعة الإسلامية، في ذلك الوقت سنحل الكثير من المشكلات التي تعترض المسلمين بطريقة علمية وحضارية.

ففي مصر تظاهر آلاف المسلمين احتجاجاً على رواية أدبية !!. في مثل هذه الأزمة كان يتوجب أن تقوم المدرسة الإسلامية المتخصصة بالأداب بالنظر في الرواية وبنيتها، وهي وحدها ستكون القادرة على إعطاء الجمهور الرأي النهائي في منعها أو الإبقاء عليها. لكننا حين نفتقر لتلك المدارس المتخصصة نلجأ إلى أحكام المشايخ الذين يجهلون الأدب وفنون الرواية، وقد تظلم الرواية أو يظلم الشارع الذي استدركها.

صحيح أتنا في بلدان ذات أنظمة حكم متعددة ومتنوعة، منها العلماني ، لكن المسلمين كأفراد ومشايخ وعلماء دين ومتطرفين إسلاميين، هؤلاء جميعاً لهم تأثير وضغوط على بعض الحكومات العلمانية. ففي الشارع المصري يفرض الأفراد إيقاف توزيع هذه الرواية أو تلك ، وسيكون لهم ما يريدون، سواء أكانوا مخطئين أم مصيبين. وهنا تظهر حاجتنا للمدارس الدينية المتخصصة بالعلوم المتنوعة.

إن مشايخ لا يعرفون شيئاً عن الرحم في جسم المرأة مثلاً ذهبوا في تشريع وتحليل وتحريم أحكام أطفال الأنابيب والتلقيح الاصطناعي وتعويض الأعضاء البشرية وغير ذلك !! ولم تنته القضية هنا بل سيأخذ الأفراد المسلمون بأحكامهم. وقد يموت أفراد في أمراضهم بسبب أخذهم بآراء المشايخ الخاطئة !!.

توظيف الآداب

نتحدث هنا عن ضرورة توظيف الآداب عند المسلمين كمثال يمكن تعتمده على كافة العلوم الحديثة. ففي أحد مواقع الانترنت التقيت بهذا النص الذي يتحدث عن المدارس الأدبية بمنطق التطرف الإسلامي:

”الحداثة هي مذهب فكري أدبي علماني، بني على أفكار وعقائد غربية خالصة مثل الماركسية والوجودية والصهيونية والداروينية.

وتهدف الحداثة إلى إلغاء مصادر الدين ، وما صدر عنها من عقيدة وشريعة وتحطيم كل القيم الدينية والأخلاقية والإنسانية بحجج أنها قديمة وموروثة لتبني الحياة على الإباحية والفوضى والغموض، وعدم المنطق، والغرائز الحيوانية، وذلك باسم الحرية ، . والحداثة خلاصة مذاهب خطيرة ملحدة، ظهرت في أوروبا كالمستقبلية والوجودية والسريرالية وهي من هذه الناحية شر لأنها إملاءات اللاوعي في غيبة الوعي والعقل وهي صياغة المضمون وعيشه في شكلها الفني وتمثل نزعة الشر والفساد في عداء مستمر للماضي والقديم، وهي إفراز طبيعي لعزل الدين عن الدولة في المجتمع الأوروبي ولظهور الشك والقلق في حياة الناس مما جعل للمخدرات والجنس تأثيرهما الكبير.

• ومن أبرز رموز مذهب الحداثة من الفريبيين:

- شارل بودلير وهو أديب فرنسي أيضاً نادى بالفوضى الجنسية والفكرية والأخلاقية، ووصفها بالسادية.

ومن رموز مذهب الحداثة في البلاد العربية:

- يوسف الخال - الشاعر النصراني.. وقد مات منتحرًا أشلاء الحرب الأهلية اللبنانية.

ادونيس نصيري سوري، وبعد المروج الأول لمذهب الحداثة والحقيقة أن كل ما كتبه هذا المتطرف عن مدرسة الحداثة خطأ وافتراء ويعبر عن جهله بالأداب وعن تطرفه في سلوكه العام. وهذا التطرف ليس سوى حالة

مرضية إذا أصيب بها الفرد يصبح عاجزاً عن تقبل كل جديد وبنفس الوقت رافضاً لكافة أصناف الصيغ الجديدة. والحديث عن مدرسة الحداثة في فرنسا يصعب قراءته وفق منطلقات إسلامية متطرفة، حتى إذا قرر البعض أن يقرأها بمنطلق ديني إسلامي فيتوجب عليه أن يفهم السياق التاريخي لتلك المدارس الأدبية بل أن يكون متخصصاً بالأداب الأوروبية.

إن ما يدل على استعمال الحالة المرضية في الرفض والعدائية عند واضع هذا النص هو بحثه عن كافة الكلمات والمفردات المدينة والمستكرة والتي تهم وتسيء، فقد استخدم مصطلحات إدانة شديدة اللهجة: (الادمان- الغرائز - تحطيم القيم - الإباحية - الفوضى الجنسية) وأثناء حديثه عن مدرسة أدبية وعن أتباعها خرج عن الموضوع مرغماً لأنه اعتاد على النقد وفق التطرف واستخدم كلمة نصراني لوصف يوسف الخال واستخدم كلمة نصيري لوصف أدونيس، واستخدم مصطلح فساد الإعلام لانتقاد الحكومات.

وفي وصفه للشاعر الفرنسي شارل بودلير اتهمه بالفوضى الجنسية والفكريه والأخلاقية، علماً بأن بودلير كان متديناً مسيحياً ومؤمناً وقد اتخذ التصوف الديني عن الإسلام فكانت عقيدته تجمع بين تعاليم إسلامية ومسيحية في وقت واحد. وكتب قصائد تحوي مناجاة لله، ولا تختلف صورة المناجاة عنده عن صور مناجاة محمد إقبال. بل إنه ابتدع نظرية في المناجاة والمحاورة ورسم مخططاً تعبيرياً في قصائده لتلك المناجاة، إذ تحوي المحاورة عنده: حواراً عمودياً وهو حوار يسير في خط واحد صاعد على الدوام، ويتمثل الحوار الصاعد في مناجاة الشاعر لله.

وحواراً أفقياً ويكون متبدلاً ويسير باتجاهين اثنين. وهو الحوار العادي بين البشر.

وقد أبدع بودلير القصيدة النصية والقصيدة الحرة تلك التي قلدتها الشعراء العرب، فأنتج نزار قباني قصائد حرة تحمل بعداً ثقافياً عظيماً وكانت مفيدة للعرب وال المسلمين. كما ويخطيء واضع النص بوصف بودلير والحداثة بالفوضى والتدمير وتحطيم القيم الإنسانية، لأن قصائد بودلير هي غاية في الإنسانية

والشفافية والحب الكبير، والتعلق بالحبيبة. ولا يمنعنا الإسلام عن مثل هذا الحب، لأن عكس الحب هو الكره. وليس الكره من الإسلام.

وفيما يخص الأدب، فالإسلام كعقيدة ودين وظاهرة عالمية وتاريخ مليء بالأحداث هو بحاجة لاستثمار فنون الأدب والقصة والرواية. وهذا الاستثمار يتطلب من الأدباء أن يكونوا ملئين بعلوم الآداب بما فيها دراسة كافة المدارس الأدبية وخصائصها. وبذلك نصبح بحاجة لنتاج تلك المدارس وبحاجة لتوظيف إبداعات أولئك العظماء الذين رسموا مذاهبها. إذ لانستطيع أن نكتب كافة الآداب الإسلامية أناشيد وقصائد وتاريخ وسيناريو بطريقة نصوص (ألف ليلة وليلة)، بل إن طبيعة العصر وطبيعة المتلقى الذي هو نحن توجب علينا أن نكتب بطريقة مدرسة الحداثة، وهي نفسها التي يحدزنا منها ذلك المتطرف وغيره.

كما ونلت انتباه المتخصصين بعلوم اللسانيات إلى توظيف هذه العلوم ونتائجها في دراسة النصوص القرآنية الكريمة. مما يشمر عن إنتاج مفاهيم ومعان جديدة لتلك النصوص، وقد أجريت بعض الدراسات اللغوية على نصوص قرآنية كريمة وتوصلت إلى نتائج مذهلة تزيد في فهمنا للآيات وتأكد من ناحية أخرى على مصدرها الإلهي. وتوظيف الآداب يتمثل في هذا الكتاب الذي نضعه بين يديك ليكون فيه نصائح وفائدة للمسلمين جميعاً.

من الطائفية إلى الحضارة

نزل الإسلام للبشرية جموعاً، وتحاطب آيات القرآن الكريم كافة البشر، وكثير من الآيات تبدأ بعبارة (يا أيها الناس) وفي كافة العصور الإسلامية كانت الحاجة تتطلب مخاطبة المسلمين للبشرية جموعاً وتعاملهم معهم على أسس عالمية تترفع عن الانتماء المكاني الصغير أو المذهبي الضيق، أو العرقي. وفي هذا العصر تكبر الحاجة لخروج الخطاب الإسلامي من الخصوصيات الضيقة الصغيرة، ولجعله خطاباً عالمياً واسع الآفاق يدركه ويحتاج إليه كافة البشر. فإذا انقدنا المذهب

الإسماعيلي مثلاً فلن يحتاج لسماع خطابنا أي شخص صيني بوذى، بل إنه حين يصله خطابنا المذهبى ويدرك ما في طياته فذلك يبعده عن فهم الإسلام وعن فهم الحقيقة الإسلامية العظيمة. ومن هنا توجب أن تكون خطاباتنا الدينية عالمية وحضارية، ولن تكون كذلك إلا إذا استطعنا نحن أن نكون عالميين وحضاريين.

الانزلاق في أتون المذهبية والطائفية هي حالة أبعد مما يمكن عن الانتماء العالمي والحضاري. فالعالمية تمثل اتساعاً مكانياً وينعكس ذلك على الفرد نفسه فيتسع أفق فكره وإدراكه لمبادئه وبالتالي أعماله. بينما الطائفية هي ضيق وقوعة فكرية ومكانية وقد تصغر مساحة انتماها حتى تصبح أسرية وعائمة وقبلية. ويمكننا القول على سبيل المثال إن السيد محمد البرادعي ينتمي بوضوح إلى العالمية والحضارة العالمية، ويعمل وفق برنامج عالمي. ورغم أنه عربي ومسلم فهو لا يحصر انتماءه إلى مذهب ولا يحصر نطاق عمله وفق مذهبة. ولو أن البرادعي أقام اليوم في حي الفلوجة العراقي فإنه لن يستجيب لدعوات التطرف المذهبية والطائفية، ولن يساهم في دفع الأفراد إلى الاقتتال، لأن انتماءه عالمي وليس محلياً. وبالمقابل فإن الطائفي يحصر نشاطه وعمله وفق ما يميله عليه الكيان الطائفي الصغير الذي يقوده. وعندما يقيس هذا الفرد أعماله بما يتفق مع طائفته فإن العالم كله سينظر إليها بمنظور عالمي عام وسيحكم عليها وفق الاعتبارات الحضارية. أي أن العالمية لاتستغني عن أي فرد ولا تحيط أحداً من الأفراد. وهذا يدل على حتمية الانتماء الحضاري.

الإدارة الإسلامية

إن بعض حكومات الدول الإسلامية لاتعتبر الإسلام وأموره أهمية كبيرة وتعتمد بذلك على إدارة أمور نمط موحد من الظاهرة الإسلامية. وهي بنفس الوقت لم تتتبه حتى الآن إلى ضرورة إدارة كافة مجالات الظاهرة الإسلامية.

وبغياب دور الدولة لم ينتظرا الأفراد تدخلها ولم يبحثوا عن دورها، بل انهم يديرون أمور الإسلام والمسلمين كل فرد بطريقته وكل جماعة بطريقتها.

فالجماعات الإسلامية تقوم بأدوار عديدة، إذ تقوم جماعة الإخوان بدور المربى وهنا تأخذ دور الأسرة والمدرسة والمجتمع. وليس من المؤكد على أقل تقدير أن تربيتها سليمة ومحبولة للمجتمع العام كله. كما تقوم جماعات أخرى بتربية الفرد وفق أسس طائفية ، تلك التي تهدد الانتماء الإسلامي الموحد.

إن أحداث العراق وغيرها تبعها إلى ضرورة التيقظ إلى إدارة أمور المسلمين بشكل كامل ومنضبط، والانتباه إلى تربية المسلم باستمرار وإلى مناهج المربين وال التربية المنتشرة ،

وعند غياب مشروع إسلامي يدير أمور المسلمين العامة كالدعوة والتحديث والتحاور مع الحضارة وتأسيس قواعد التربية وقواعد المحاورة مع الآخر، عندئذ قام الغرب نفسه بتسليم هذه المهام وبإعداد مشاريع كبيرة ومتكاملة تحمل في العلن مفاهيم تنظيم وإصلاح وتقويم أمور المسلمين، لكنها في الخفاء قد تسعي إلى إيجاد إسلام جديد يتفق مع المشروع الغربي بالدرجة الأولى، إذ تتسرب المعلومات القائلة بأن ثلاثة آلاف شخص من الذكور والإثاث يجري تدريبهم وتعليمهم في بريطانيا، وذلك ضمن مشروع بريطاني لإصلاح الفكر الإسلامي كما أعلن.^١. ولن يكلف هؤلاء ، حسب المخطط البريطاني لتزعم المسلمين في بريطانيا وأوروبا فحسب بل سينتشرون في الدول الإسلامية العديدة. وضمن هذه المشاريع التافيسية الجديدة، تتخاص الكنائس الغربية مع الإسلام نفسه لمنع أسلمة أفواج كثيرة من المسيحيين في دول الغرب وفي أفريقيا السوداء وغيرها.

في تشرين أول ٢٠٠٧ أجمع ١٣٨ من علماء ومشاهير المسلمين على إرسال رسائل تسعى للحوار الإسلامي إلى خمس وعشرين شخصية مسيحية عالمية. وبهذه الخطوة وجدنا من يتكلم باسم الإسلام ويرفع الصوت عالياً ورأينا خطوة من رجال كانت ضرورية ومطلوبة. وبدأ المسلمون يحاورون بالعقل وبالفكر والكلمة، هذه هي الإدارة الإسلامية التي يطالبنا العالم الحديث المتطور بها. والتي لابد من وجودها. وهذه التي شهدناها هي نموذج مصغر عن الإدارة الإسلامية المطلوبة والتي لابد لها من أن تحوز على ثقة غالبية المسلمين.

سلطة النهاية وسلطة التكفير

يقوم المتطرفون بمحاكمة الآخر وفق قوانين ليست سوى عرقية عسكرية، في وقت يعتقدون بأنها قواعد إسلامية صارمة. ووفق قواعدهم يلجمون إلى تكبير الآخر ومحاكمته بالسرعة الكلية، والحكم عليه وتنفيذ الحكم. وبهذا التسلسل الإجرائي التعسفي السريع تتم أعمال الاغتيال والمجوم على المساجد والكنائس والجامعات في بغداد وال العراق كله. ويعتقد المتطرفون بأن أعمالهم مقدسة وجهادهم ضد الأبراء مقدس أيضاً. وهذا ما يفسر ظاهرة الأعمال الانتحارية. إذ يعتقد الانتحاري بأنه مجاهد في سبيل الله وسيدخل بعمله الجنة. لكن الإسلام لا يمنح سلطة لأحد من المسلمين سوى الدعوة إلى الخير والموعدة الحسنة، والتغافل من الشر، وإنه ليس مسلماً، مهما علا كعبه في الإسلام، على آخر مهما انحطت منزلته فيه، إلا حق النصيحة والإرشاد، والإيمان في الإسلام حالة واجبة على المسلم، وإيمان الفرد يكسبه منزلة حسنة لا قدرة على التسلط وتکفير الآخرين. وبالتالي لابد من صيانة الإيمان من التکفير العبشي للأخر. وفي ظل هذه الأحداث الخطيرة يتحمل كل مسلم مسؤولية تکفير المسلم الآخر، وقد بات من واجبنا جميعاً العمل الجاد والدؤوب لمحاربة ظاهرة التکفير واستئصالها. إذ يتوجب على الأفراد عدم الانسياق وراء الشائعات الصهيونية التي أريد منها تمزيق الأمة، والتي تحمل تأويلات تکفير عديدة. بل يستطيع الأفراد محاربة تلك الشائعات مهما كان مصدرها. فلو أن شيئاً أو خطيباً أو فقيهاً أو عالم دين قام بتکفير مذهب إسلامي آخر توجب على المسلمين انتقاده ومنعه من تكرار تلك الأخطاء الفادحة. إذ يتوجب على العلماء والفقهاء وذوو النفوذ العمل على جمع الأمة الإسلامية ومحاربة كافة دعاوى التکفير.

إن كتب التراث التي يتوارثها المسلمون ليست مقدسة عند أحد منا ولا عند أيٍ من المذاهب. فالنص المقدس هو القرآن الكريم، والنصل المقدس الثاني هو المؤكد والموثوق من أحاديث الرسول محمد عليه السلام. إذ لا يخفى على أحد أن الكثير من كتب التراث تحمل في طياتها نصوص تکفير للكثير من المذاهب الأخرى. وهذه النصوص شديدة التطرف ولا يمكن الأخذ بها على الإطلاق وذلك لأسباب كثيرة:

لقد وضعت تلك النصوص في عصور متخلفة ومشحونة أحياناً بالاقتتالات الطائفية، ولذلك فهي تعبّر عن انفعالات لاعن أحكام إسلامية كتبت في ظروف حرة.

وكان واضعوها لا يمتلكون أفقاً فكريأً ودينيأً واسعاً كالذى يمتلكه أبناء هذا العصر.

ففي النصوص التراثية يقوم كل مذهب بتکفير الآخر، بل يقوم كل فريق داخل المذهب نفسه بتکفير الفرق الأخرى في نفس المذهب أحياناً، وعلى هذا تعم قائمة الذين تم تکفيرهم ويصبح الكل (لاسم الله) كفاراً في شرائع ونصوص كثيرة. وليس هذا إلا بلاء للإسلام والمسلمين.

تلك النصوص ليست مقدسة ولذلك يمكن تجاوزها، بل عندما تصبح ضارة يتعنين على المسلمين محاربتها واستئصالها.

النص المقدس هو القرآن والحديث، ونصوص التفرقة والطائفية ليست سوى اجتهادات أشخاص من بني البشر. وهؤلاء مثلكم قد يخطئون وقد يصيبون.

الفصل الثاني عشر

**الحوار الإسلامي المسيحي
طريق ندو أسلمة أوروبا**

رأي المسيحيين بالقرآن الكريم

فيليب حتى يعتز بالقرآن

يقول الباحث فيليب حتى في كتاب "الإسلام منهج حياة" إن الأسلوب القرآني مختلف عن غيره، ثم إنه لا يقبل المقارنة بأسلوب آخر، ولا يمكن أن يقلد. وهذا في أساسه، هو إعجاز القرآن.. فمن جميع المعجزات كان القرآن المعجزة الكبرى." إن إعجاز القرآن لم يحل دون أن يكون أثره ظاهراً على الأدب العربي. إن القرآن هو الذي حفظ اللغة العربية وصانها من أن تتمزق لهجات".

اللوح المحفوظ

يدرك القرآن الكريم صراحة أن الكتب المنزلة واحدة، وأن أصلها محفوظ عند الله وهو واحد، وهذا الأصل يدعى حيناً (أم الكتاب) وحياناً آخر (اللوح المحفوظ) أو (الإمام المبين)"

"لم يقدر لأي سفر، قبل الطباعة، أيّاً كان نوعه وأهميته، أن يحظى بما حظي به القرآن من عناية واهتمام، وأن يتوفّر له ما توفر للقرآن من وسائل حفظه من الضياع والتعريف، وصانته عما يمكن أن يشوب الأسفار عادة من شوائب" (لقاء المسيحية والإسلام، ص ٢٣٧).

أشياً المسيحيين تعجبأً يعترفون بالقرآن

يقول السير توماس أرنولد في كتاب "الدعوة إلى الإسلام" ص ١٦٢) إننا نجد حتى من بين المسيحيين مثل ألفار Alvar الإسباني الذي عرف بتعصبه ضدّ الإسلام، يقرر أن القرآن قد صيغ في مثل هذا الأسلوب البليغ الجميل، حتى إن المسيحيين لم يسعهم إلا قراءته والإعجاب به"

ونحن نلمس دوماً اعتراف المسيحيين بحقيقة القرآن وحقيقة نزوله على سيدنا محمد عليه السلام. فرئيسة وزراء بريطانية السابقة تحدثت ذات مرة عن المسلمين وقالت أن الإسلام دين سماوي. ونسمع مثل هذا الاعتراف في كل يوم تقريباً. وهو

يحمل اعترافاً ضمنياً بحقيقة الدين الإسلامي وهذا يعني اعترافاً بأنَّ الإسلام دين سماوي أي دين حق، وبأنَّ القرآن منزَّل من عند الله سبحانه. واعترافاً بنبوة محمد. وإنَّ من يعتقد ضمناً بهذه المبادئ يكون بحسب العقيدة الإسلامية مؤمناً بالدين الإسلامي. ومن هنا فإنَّ مابين أولئك المسيحيين وبين الإسلام ليس سوى خيطٍ رفيع من الاختلاف، تماماً كما قال النجاشي ملك الحبشة للمسلمين.

مسيحيون يعترفون بصوابية القرآن

يقول المفكر اللبناني جورج حنا في (قصة الإنسان ص. ٧٩) "لابد من الإقرار بأنَّ القرآن، فضلاً عن كونه كتاب دين وتشريع، فهو أيضاً كتاب لغة عربية فصحى. وللغة القرآن الفضل الكبير في ازدهار اللغة، ولطالما يعود إليه أئمة اللغة، في بلاغة الكلمة وبيانها، سواء كان هؤلاء الأئمة مسلمين أم مسيحيين. وإذا كان المسلمون يعتبرون أنَّ صوابية لغة القرآن هي نتيجة محتملة لكون القرآن منزلاً ولا تتحمل التخطئة، فالمسيحيون يعترفون أيضاً بهذه الصوابية، بقطع النظر عن كونه منزلاً أو موضوعاً، ويرجعون إليه للاستشهاد بلفته الصحيحة، كلما استعصى عليهم أمر من أمور اللغة".

لإيسع النثري إلأى أفع يرضي بنقد القرآن للثالوث

إميل ديرمنجيم مستشرق فرنسي، ومن آثاره: (حياة محمد) ١٩٢٩، ويكتب فيه ص. ١٢١: "للمسيح في القرآن مقام عالٍ، فولادته لم تكن عادية كولادة بقية الناس، وهو رسول الله الذي خاطب الله جهراً عن مقاصده وحدث عن ذلك أول شخص كلامه، وهو كلمة الله الناطقة من غير اختصار على الوحي وحده.. والقرآن يقصد النصرانية الصحيحة حينما يقول: إن عيسى [عليه السلام] كلمة الله، أو روح الله، ألقاها إلى مريم وأنه من البشر.. وهو يذمّ مذهب القائلين بألوهية المسيح [عليه السلام] ومذهب تقديم الخبر إلى مريم عبادة ثم أكله وما إلى ذلك من مذاهب

الإلحاد النصرانية، لا النصرانية الصحيحة، ولا يسع النصراني إلا أن يرضى
بمهاجمة القرآن للثالوث المؤلف من الله وعيسى ومريم".

التعرّف على القرآن يقنع المسيحي بمحمد

يقول جان جاك روسو في العقد الاجتماعي: من الناس من يتعلم قليلاً من العربية ثم يقرأ القرآن ويضحك منه ولو أنه سمع محمداً يملئه على الناس بتلك اللغة الفصحى الرقيقة وصوته المشبع المقنع الذي يطرب الآذان ويؤثر في القلوب لخراً ساجداً على الأرض وناداه: أيها النبي رسول الله خذ بيدينا إلى مواقف الشرف والفحار أو موقع التهلكة والأخطار فتحن من أجلك نود الموت أو الانتصار."

القرآن كلام الله

يؤكد الباحث المسيحي اللبناني نصري سلحب قناعته بأن القرآن كلام الله حيث يقول في كتاب لقاء المسيحية والإسلام ص. ٢٤٢ "تلك اللغة التي أرادها الله فمة اللغات، كان القرآن قمتها، فهو قمة القمم، ذلك بأنه كلام الله..". ومن اللافت للنظر أن كثراً من المسيحيين يحملون هذا الإعتقاد.

القرآن الكريم يحاور أهل الكتاب

لقد حافظ أسلوب الحوار الإسلامي مع أهل الكتاب على مرّ التاريخ، حافظ على التعايش السلمي الذي تؤكده الآية الكريمة (تعالوا إلى كلمة سواء). وما شنّ المسلمون يوماً حرباً دينية ضدّ غيرهم من الأديان السماوية، لكنهم واجهوا دائماً حرباً دموية باسم الصليب ضدّهم استمرت قرونًا متمادية، ويعتقد بعض المسلمين بأنها لاتزال مستمرة حتى يومنا هذا.

غير أن الموقف الإسلامي العام لا يزال كما نصّ عليه القرآن: (تعالوا إلى كلمة سواء). والظاهرة الرائعة في هذا المجال أن شوكة الإسلام كلما قويت ازدادت قوة الدعوة إلى الحوار مع أهل الكتاب، مما يدلّ على أنه حوار ينطلق من موقف مبدئي لا من موقع ضعف. فالقرآن الكريم وضع لل المسلمين حداً لن يستطيعوا أن يتجاوزوه مهما علت شوكتهم. فإذا امتلكوا قوة وقدرات وأسلحة وقارارات سيظلون يدعون إلى كلمة سواء كما تفرض عليهم الآية الكريمة.

قبل فكر الآخر

نتحاور حتى يقدم كلّ واحد منّا فكره بوضوح للأخر، وأن يقبل الآخر فكر غيره بدون عصبية. لأنّ بعض الناس يحاولون أن يشوّهوا صورة المسيحية عند المسلمين، وصورة الإسلام عند المسيحيين. ونبأ من السلام الإنساني والعدل الإنساني بين يدي الله سبحانه وتعالى، الذي يوصينا بتحقيق السلام والعدل والأمن الإنسانية كلها.

من أين يبدأ الحوار؟

من أين نبدأ ببناء الجسور بين الإسلام والمسيحية؟

الانطلاق من مبدأ الإيمان بالله:

نبدأها من الإيمان بالله، فالله ربنا جميعاً، ومن الرّسل الذين أرسلهم الله بكلمته المقدّسة، لأنّهم حملوا ما يحبّ الله لنا أن نعيشه كإخوة في الإنسانية، بأن نعيش إنسانيتنا في إنسانية الإنسان الآخر في القيم الروحية والأخلاقية، وأن نلتقي بالإله الواحد، وأن لا يكون لنا آلية من الذين يتكلّرون على الإنسان ويعتبرون أنفسهم آلية للناس، ومن محبتنا لله، لأننا إذا أحببنا الله أحببنا الإنسان، وإذا التقينا على الله فلنختلف، لأنّ المشكلة التي يعيشها الناس هي أنّهم ابتعدوا عن الله وأصبحوا يعبدون المادة ولا يعبدون الله.

مبادئ الحوار

ثمة مبادئ عامة يلتزم بها المتحاورون ومنها نذكر:

الحوار بهدف الفائدة: لابد للمتحاورين من الاعتقاد بأنهم يسعون في حوارهم للاستفادة وليس للنقد أو الإساءة للأخر. وهذا يعني أن يكون ذهن المحاور منفتحاً على الآخر بغية الاستفادة من طرحة.

الموضوعية في الحوار: أي أن يدخل الإنسان الحوار دون مسبقات ذهنية. وأن يطرح المفاهيم السابقة التي يحملها على الآخر جانباً، ويؤكد القرآن على ذلك أيضاً. القرآن يعلم النبي العظيم كيفية الحوار مع المشركين يقول: (إنا وإياكم على هدى أو في ضلال مبين). وهذه هي الموضوعية في الحوار.

تشخيص المشكلة التي هي موضوع الحوار

من أصول الحوار المهمة "أن تحدد المشكلة التي يتحاور بها الطرفان وأن تحل نتائج هذا الحوار محل النزاع". أي تشخيص الموضوع الذي يتحاور حوله. قد نجد متحاورين أحدهما ينظر إلى القضية بمنظار، والآخر يتناولها من منظار آخر، فهما قد يكونان متفقين، وإن اختلفا في اللفظ.

الحوار العملي:

يكون الموضوع عملياً نعيشه ونلمسه ونعياني من آثاره. لا أن يكون عقلياً محضاً عقلياً لا أثر له. لأنه مضيعة للوقت ومفسدة ذهنية وترف ذهني.

كفاءة المتحاورين:

ومن أصول الحوار أن يتم بين شخصين متخصصين، لا أن يكون بين متخصص وبين آخر لا حضور علمياً له في الموضوع، والا انقلبت موازين التكافؤ.

الإحاطة بأبعاد الموضوع:

ومن أصول الحوار أيضاً أن ينظر المتحاوران إلى كل أبعاد الموضوع ، لأن يركزا على بعد دون الأبعاد الأخرى وينشغلوا به .

التدريج بالاتفاق على النقاط المشتركة:

ومن هذه الأصول العامة أن يتفق الطرفان على المبادئ التصورية والتصديقية المشتركة بينهما. وأقصد بذلك أن المتحاورين إذا لم يكن بينهما أصول يتضورانها معاً ويصدقان بها معاً، فإن حوارهما سيبقى عقيماً. لأن المراد من الحوار أن يرجع كل طرف مع الطرف الآخر إلى أصول يؤمنان بها معاً. إذا استطاع الطرف (أ) أن يوصل المسألة إلى نقطة يؤمن بها الطرف (ب) ويؤمنان بها معاً، فأن الطرف (ب) لا يكلم معه عندئذ. وإذا استطاع الطرف (أ) أن يثبت تناقض مايؤمن به (ب) مع تلك المبادئ المتفق عليها، فيُقضى الأمر الذي فيه يتحاوران.

الحرص على الا يكون الحوار عقيماً:

قبل الحوار يجب أن تشخص المبادئ التي يؤمن بها الطرفان. أما إذا لم يصل إلى مبادئ مشتركة فالحوار عقيم. فمن ينكر الأمور الوجدانية مثلاً لا تستطيع أن تحاوره وأنت تمتلكها، فقد تستطيع أن تتباهى إلى أنه يخالف وجده، لكنك لا تستطيع أن تدینه، لأنك لا تتفق معه حتى على الأمور الوجدانية.

نصرى سلحب مشروع تقرير

نصرى سلحب مسيحي من لبنان ، يتميز بنظرته الموضوعية وتحرره للحقيقة المجردة، وبنشاطه الدؤوب لتحقيق التعايش السلمي بين الإسلام والمسيحية في لبنان، إن على مستوى الفكر أو على مستوى الواقع. وعبر السينمات كتب العديد من الفصول وألقى العديد من المحاضرات في المناسبات الإسلامية والمسيحية على

السواء، متخيلاً التقارب بين الديانتين . من مؤلفاته: (لقاء المسيحية والإسلام) (١٩٧٠)، و(في خطاب محمد) (١٩٧٠). وهو يقول في الصفحة ٢٢ من كتابه الأول: .. إن محمداً كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب. فإذا بهذا. الأمي يهدى إلى الإنسانية أبلغ أثر مكتوب حلمت به الإنسانية منذ كانت الإنسانية، ذاك كان القرآن الكريم، الكتاب الذي أنزله الله على رسوله هدى للمتقين..).

الخط الروحي الذي يجمع بين الديانتين

الخط الروحي الذي يجمع بين الإسلام والمسيحية هو نفسه الخط الذي اكتشفه محمد رسول الله في تحاوره مع المسيحيين، وهو نفسه بالذات الذي رسمه ملك الحبشة النجاشي المسيحي الذي ما إن سمع تلاوة سورة مريم حتى قال للمسلمين الذين دخلوا بلاده: ”والله ليس بين ديننا ودينكم من اختلاف سوى هذا الخيط الرفيع“

الخط الروحي الذي يرتبط بالله تعالى من خلال السيد المسيح وأمه العذراء مريم هذا الخط الروحي يجمع بين المسلمين والمسيحيين، إنما نلتقي المسلمين ومسيحيين على هذا الخط الروحي، في الإيمان بالله الواحد، وفي اعتبار السيد المسيح يمثل روح الله وكلمته، ويمثل في عقيدة المسلمين أيضاً النبي الذي يبلغ رسالة الله تعالى إلى العالم، ونلتقي جميعاً في التقديس والتعظيم للسيدة مريم العذراء، باعتبارها أطهر امرأة هكذا يصفها الله سبحانه في القرآن الكريم وهكذا يعتبرها المسلمون، فنحن نعتقد أن السيدة مريم تمثل أعلى قيمة روحية في محبتها لله، وفي محبتها للإنسان، وفي عقيدة المسلمين أنها حملت بالسيد المسيح بقدرة الله من دون أية علاقة جنسية بأي إنسان آخر، فهي إنسانة العفة. والقرآن الكريم يتحدث عنها بأنها سيدة نساء العالمين، كما تحدث عن ابنها بأنه المبارك، أي الذي ينفع الناس، وأنه الشخص الذي يحب والدته ويرها ويخلص لها، وإن عقيدتي المسلمين والمسيحيين المتقاربيتين حول المسيح وأمه العذراء موضوع يجمع الأمتين ويقرب التوافق بينهما.

الحوار منهجه قرآنی

إنَّ القرآن الكريم يدعو المسلمين إلى أن يتبعوا مع الآخرين الأسلوب الذي يحول أعدائهم إلى أصدقاء، وهو يدعو اليهود والنصارى إلى كلمة سواء، أي إلى القضايا التي يلتقي المسلمون فيها معهم. وهذه القضايا هي: العقيدة، ووحدة الله، ووحدة الإنسان، والتي على أساسها لا يكون الإنسان رباً للإنسان بل أخي له.

ويتم الحوار الإسلامي المسيحي بوجود ثلاثة صفات عامة عند الطرفين:

- العقل المفتوح
- القلب المفتوح
- الحوار المفتوح.

وفي القرآن الكريم مساحة كبيرة للتعریف بال المسيحية وتاريخها وقصصها. وتعریف موسع برسول الإسلام النبي المسيحي عیسیٰ عليه السلام، وتعریف بأمه العذراء عليها السلام. فقد خصص القرآن سورة باسمها وبينفس الوقت لم يتحدث أبداً عن أم محمد عليه السلام. وقد ذكر اسم المسيح في القرآن الكريم حوالي ٢٤ مرة بينما لم يذكر اسم محمد أكثر من خمس مرات.

مشروعية هذا الحوار

الأية الكريمة: (قل يا أهل الكتاب تعالوا...) تعتبر أفضل موجة قرآنی للحوار. ورسول الله (صلی الله علیه وآلہ) حاور النصارى واليهود. سأله فاجابهم. وكذلك أئمة أهل البيت (عليهم السلام) كانوا منفتحين على كل مسألة وكل حوار، حتى ولو كان المحاور زنديقاً. الزنادقة كانوا يبشوون الشبهات ، والإمام الباقي والإمام الصادق والإمام الرضا يدخلون معهم في مناقشة جادة وحوار رصين. وهذا عمل

الصحابة والتابعون. وعندنا في تاريخ الخليفة عمر بن عبد العزيز صور كثيرة من دخوله في حوار مع النصارى مما أدى إلى دخولهم في دين الله أفواجاً. الإنسان الذي يملك جوهرة ثمينة لا يخاف عليها من نقد النقاد.

ما قوله المسلم للمسيحي

"إن الآية التي تبع سماحاً إذ تقول: {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِأَنْتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَتَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} العنكبوت ٤٦".

ذلك ما يقوله المسلمون للمسيحيين وما يؤمنون به لأنه كلام الله إليهم. إنها عبارات يجدر بها جميعاً، مسيحيين ومسلمين، أن نرددها كل يوم، فهي حجارة الأساس في بناء نريده أن يتعلّى حتى السماء، لأنّه البناء الذي فيه نلتقي والذي فيه نلقى الله: فحيث تكون المحبة يكون الله.

الخطوط الأولى في الحوار

يقوم حوار الأديان في المرحلة الأولى؛ بأن يطرح كل دين أفكاره لأتباع الدين الآخر، بحيث يصبح في استطاعة أتباع هذه الأديان أن يقفوا على القضايا المشتركة فيما بينهم، ويتم إدراج هذه القضايا المشتركة كأسس ثابتة متفق عليها، ومن ثم يتحاوروا في القضايا الأخرى المختلف فيها. لإيجاد سبل جديدة أخرى يتفقون عليها.

المبادئ المشتركة بين الإسلام والمسيحية

إن هناك مبادئ يؤمن بها الطرفان الإسلامي والمسيحي ولابد من استقصائها أولاً. وإذا اتضحت هذه المبادئ، يمكن أن يدخل الطرفان في حوار مثمر ومفيد. ومن هذه المبادئ:

الإيمان بالله تعالى، وبالله الواحد (هم يحاولون أن يجعلوا مسألة التثاب منسجمة مع فكرة الإله الواحد).

ونؤمن معهم أيضاً بوجود قيم إنسانية أخلاقية يدعوا إليها الدين. وهناك قيم اجتماعية تتفق معهم عليها ، مثل قيمة الخلية العائلية في البناء الاجتماعي المتكامل، ومثل قيمة الرحمة للقراء والمساكين والمعوزين. هذه أمور تتفق عليها ، وحينئذ يجب أن نتحاور في هذه الأطروحة في مثيلاتها، ثم نتطور في الحوار وندخل في مواضيع مهمة أخرى.

ومن الطبيعي جداً أن هناك مشتركات كبيرة جداً في الحياة. هذه المشتركات يجب أن تتحدد وتتضح في ذهن المتحاورين.

حوار الشعوب

يدعو الإسلام إلى حوار الشعوب بعضها مع بعض رغم تنوّع حضاراتها، فالحوار هو الذي يمكن أن تلتقي فيه الشعوب بعضها مع بعض، إذ يصبح في إمكان هذه الشعوب أن تفهم بعضها بعضاً من خلال الحوار، فيؤدي ذلك إلى أن تلتقي على القضايا المشتركة. وفي القرآن الكريم آيات عديدة تصف الشعوب الأخرى وتروي أخبارها وتدعو المسلم لتقهم شؤونها وال الحوار معها والاستفادة منها.

رغبة المسلمين في الحوار

نحن كمسلمين نرغب أن نكون أصدقاء لغرب وأصدقاء للمسيحيين، وأن يلتقي الإسلام والمسيحية على أساس السلام في العالم.

ويتعين على مسيحيي الغرب أن يفهموا المسلمين جيداً بعيداً عن الإعلام المعادي الذي يعمل على التفرقة بين الشعوب، ويتعين على المسلمين أيضاً أن يفهموا الغرب

كمسيحي جيداً بعيداً عن الإعلام المعادي، لأنَّ الإعلام يخلق مشاكل غير صحيحة عندما يكون كاذباً أو موجهاً.

المسيح عامل في بناء المحبة والسلام

يُنقل عن السيد المسيح قوله إنَّ الله محبة، ويقول الحدي النبوى : «الخلق عيال الله، وأحبّهم إلى الله أنفعهم لعياله» وقوله عليه السلام: "لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ" فإذا كُنَّا نحن نحبُّ الحرية لأنفسنا، فعلينا أن نحبّها لـكُل الشعوب، وإذا كُنَّا نكرهُ أن تُمْئَنَ حقوقنا، فإنّا نكرهُ ذلك لـكُل الشعوب.

علينا أن نلتقي على محبة الله، ومن خلال محبة الله نفتح على الإنجيل والقرآن، فنحن نعتبر أن الإنجيل كتاب الله المقدس، كما أنَّ القرآن كتاب الله المقدس، ونحن نتعلم من الإنجيل كما نتعلم من القرآن، لأنَّ الإنجيل والقرآن كلمة، علينا أن نتعلم من كلمات الله. نحن نؤمن بالسيد المسيح بأنه روح الله وكلمته، وهو الذي يحبه الله، كما يؤمن المسيحيون بذلك، وإذا كان هناك اختلاف في الجانب اللاهوتي الآخر، إلا أنّا لا نختلف على السيد المسيح باعتبار أنه المسيح الإنسان.

محمد رسول الله يحب المسيح

يحبَّ المسلمون المسيح عليه السلام حباً كبيراً، ويأتي ذلك من حبِّ رسول الله محمد عليه السلام للمسيح ابن مريم. وهذا ما دعاانا إليه القرآن الكريم وألزمنا به. فقد كان محمد رسول الله يحب المسيح ويعظمُه، وإنَّ المسيح، حسب عقيدتنا الإسلامية، بشرٌ بأنه سوف يأتي شخص يسمى (أحمد) يحمل رسالة الله في الكون، ولذا نحن لا نعتقد أن هناك مشكلة بين محمد(ص) وبين السيد المسيح(ع)، وبالتالي، فلا مشكلة بين الإسلام والمسيحية، وإنما هناك اختلاف في فهم بعض الأشياء التي يمكن أن تثيرُ الحوار حولها. والعقيدة الإسلامية تقول إنّا

"لَا نفرق بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْ رَسُولِهِ". ولذلك فالدين لا يفرق بين الرسل وبين المؤمنين بهم، ولكن العصبية المخازة هي التي تفرق.

تطبيق عملي للمحبة

المسيح يجمع المسلمين باليسوعيين

يرى بعض المسلمين أن الإسلام هو المنطلق الوحيد الذي يجمعهم بال المسيحية. وهم بناءً على ذلك ينطلقون في حوارهم مع المسيحية من الرؤية الإسلامية التي يعزلونها عن المسيحية كلها. لكن يتوجب علينا أيضاً كمسلمين أن ننطلق في فهمنا للمسيحية من المسيحية نفسها. ومن إيماناً باليسوع نفسه: والحقيقة فإنَّ السيد المسيح يجمعنا مسلمين ومسيحيين، ويتوجب على المسلمين والمسيحيين أن يطبقوا هذه المقوله عملياً، خصوصاً وأنَّ المسلمين يعتقدون بأنَّ الأنبياء جميعاً يدعون إلى السلام، وأنَّ طريقهم في الحياة كانت طريقة المحبة والتضحية. فاليسوع يعتبر رسول سلام إلينا نحن المسلمين أيضاً. وأنه كان في حينه مرحلة رسالية سماوية هي جزء من الرسالة الشاملة التي أنزلها الله سبحانه للبشرية كلها وأتمها بما أنزل على رسول الإسلام محمد عليه السلام.

نحن نلتقي بالسيد المسيح، لكن لا بدَّ من أن ندرس المسألة في دائرة أنَّ هناك اجتهادات في اللاهوت المسيحي بالنسبة إلى شخصية السيد المسيح (ع)، فالمسيحيون يعتبرون أنَّ الله تجسد في السيد المسيح (ع)، ونحن نعتقد أنَّ السيد المسيح هو روح الله ورسوله وكلماته ألقاها إلى مريم، وأنَّ ولادته كانت مظهراً لقدرة الله على الخلق، كقدرة الله على خلق آدم وحواء.

اختلاف في اللاهوت واتفاق في المحبة الإنسانية

على الرغم من أن المسلمين يختلفون في اللاهوت مع المسيحية، إلا أن المسلمين يعتقدون بأن المسيحية والإسلام يلتقيان في القيم الإنسانية الأخلاقية الروحية، فنحن جميعاً نعبد الله الواحد، ونحن جميعاً نعتقد أن الإنسان لا بد من أن يعيش مع الإنسان في وحدة إنسانية، وأن لا يكون الإنسان رباً مستعلياً على الإنسان الآخر، وأن السيد المسيح والنبي محمد يلتقيان في المحبة، فالنبي محمد(ص) يقول: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب أخيه ما يحب لنفسه»، فهو يربط الإيمان بالمحبة، والسيد المسيح أيضاً يؤكد المحبة. ولكن أساليب المحبة في العالم تختلف، فمحبتنا للإنسان الذي يريد أن يخطئه أو يقتل الإنسان الآخر، تفرض علينا أن نمنعه من ذلك لنعيده إلى إنسانيته من خلال احترامه للإنسان الآخر، والسيد المسيح أرادنا أن نتعاون، فتفجر طاقاتنا لخدمة الإنسان، وأن نتواصل، فلا يتعد الإنسان عن الإنسان، حتى لا يُساء لهم ببعضنا البعض الآخر، وأن نتكامل، فيعطي كل واحد منا للإنسان الآخر ما ينقصه، لتحرّك الطاقات كلها في خدمة الإنسانية. وبذلك يلتقي المسلم مع المسيحي بين يدي الله على أساس احترام إنسانية الإنسان في القيم الروحية والأخلاقية للإنسان.

أن تكون مسلماً، أو أن تكون مسيحياً، يعني أن تكون إنساناً، أن تلتقي بالإنسانية التي تفتح على الله وتتفتح على الإنسان. وإذا كان السيد المسيح(ع) في عهده قد استخدم أساليب معينة مع الرومان، فذلك يعود إلى الظروف التي عاشها الرومان آنذاك، وخصوصية نمط الحكم القائم وسمات ذلك المجتمع في تواعاته، وقد كانت طريقتهم في العذوان على المستضعفين تأخذ حدوداً معينة، أما المستكثرون اليوم، فإنهم يملكون القنابل الذرية وأسلحة الدمار الشامل، ويملكون مصادر ثروات الشعوب. ولذلك لا بد من أن تأخذ من روح السيد المسيح(ع) لتعرف كيف ننفعهم من ذلك بالوسائل التي تسقطهم أمام شعوبهم. وقد تكون بحاجة إلى عمليات جراحية للذين يريدون اضطهاد الإنسان ومتصادرته، فنحن نحبهم، ولأننا نحبهم نقاومهم، وبكلّ محبة، ننقذ الإنسان الطيب من الإنسان الشرير.

بدايات الحوار بين المسلمين والمسيحيين

قصة «سفر أشعيا» الذي اكتشف في الأردن كشف الدكتور محمد معروف الدوالبي مستشار الملك فيصل سابقاً في حوار مع مجلة العالم الإسلامي في العدد ١٢٢٩ كشف بدايات وخفايا الحوار الإسلامي المسيحي، وفيما يلي نص الحوار:
كان الدكتور محمد معروف الدوالبي، رئيس وفد المملكة العربية السعودية في لقاءات «الحوار بين الإسلام والمسيحية» التي عقدت في عاصمة «الفاتيكان» يكشف عن حقائق مذهلة عن تلك اللقاءات.

ويقول: بدأت قصة «الحوار الإسلامي - المسيحي»، عام ١٩٥٨، عندما اكتشف مخطوطات - في إحدى المغاور في جبال الأردن والتي كان يختفي بها المؤمنون قبل آلاف السنين، ومن هذه المخطوطات التي تم اكتشافها «سفر أشعيا» الصحيح بكامله، بينما المنشور في التوراة هو جزء منه.

وبعد دراسته، اجتمع الفاتيكان لمدة أربع سنوات - من ١٩٦١ إلى ١٩٦٥ - وأكد أن لهذا السفر تأثيراً جديداً على قواعد ومفاهيم المسيحية بالنسبة للإسلام. فأصدروا كتيباً دعوا فيه إلى الحوار ما بين المسيحية والإسلام. وفيه يشون على الإسلام كدين، ويأسفون لما سبق من خلاف بين الديانتين، ويطلبون نسيان الماضي، وأن يدخل المسيحي في حوار مع المسلم، لا ليُعلمه ويُظاهر بالعلو، وإنما ليتعلم كيف يُنقِّي عقيدته المسيحية من عقيدة التثليث.

وثيقة الفاتيكان الهامة:

بعد ذلك صدرت عن الفاتيكان وثيقة هامة، كانت بمثابة اعتراف رسمي مسيحي بالدين الإسلامي، ولأول مرة، جاء فيها: «إن كل من آمن بعد اليوم بالله خالق السموات والأرض، ورب إبراهيم وموسى، فهو ناج عند الله وداخل في سلامه، وفي مقدمتهم المسلمين».

الفاتيكان يدعى للحوار

بعد صدور هذه الوثيقة، وفي عام ١٩٦٥م، وجه «الفاتيكان» -عن طريق إذاعته- نداء بالتهنئة بالحج وقضاء مناسكه إلى الملك فيصل وإلى الحجاج، فرد فيصل بالإذاعة، محبياً هذه الروح الجديدة. ولم يلبث «الفاتيكان» أن سعى إلى الدخول في حوار، والناس بين مصدق ومكذب، حتى وصلت الدعوة إلينا للدخول في حوار معهم وزيارتهم، وذلك للتعاون «فيما يتعلق بحقوق الإنسان» وكذا أيضاً، في كل مكان مستفربين هذه الروح الجديدة. ولما دعاني الملك فيصل ليسألني رأيي في الدعوة التي وجهها «الفاتيكان» إلى علماء المملكة ليزوروه من «أجل حوار وتعاون لا يقصد منه البحث في أصول الدين، وإنما التعاون على ما يأمر به الدين بحقوق الإنسان». ألحت على قبول الدعوة فذهبت بالفعل إلى الفاتيكان وكان معني سفير المملكة في روما، واجتمعت بالكاردينال «بيمونولي»، وزير الدولة في حكومة الفاتيكان فيما يتعلق بالعلاقات ما بين الإسلام والمسيحية، فعرفت أن الدعوة صحيحة وطيبة وأنهم يريدون التعاون ونسopian الماضي.

وكانت إذاعة الفاتيكان تركز في نشراتها على الاجتماعات التي كنا نعقدها على أنني «مندوب» الملك فيصل، وعلى أننا اتفقنا على مبدأ الحوار.

السفير الإسرائيلي يسحب لوقف الحوار الإسلامي المسيحي

بعد ٤٨ ساعة من مغادرتي «الفاتيكان»، طلب السفير الإسرائيلي في روما مقابلة الكاردينال «بيمونولي» مع أنه لم يكن بين «إسرائيل» و«الفاتيكان» تمثيل دبلوماسي، وإنما كان طلبه الزيارة باسم «حكومة إسرائيل».

وقال الصهيوني حرفياً: «نطلب منكم وقف أي حوار بين «الفاتيكان» وبين «المملكة العربية السعودية»...». فرفض الكاردينال طلب السفير.

وفي اليوم التالي، عاد السفير وكرر الطلب. ورفض طلبه.

.. وهكذا على مدى خمسة أيام متالية..!!

أكثر من ذلك، فقد بعث «البابا بولس السادس»، برسالة إجلال واحترام للملك فيصل وراوياً له فيها ماذا جرى بين السفير الإسرائيلي في روما والكاردينال «بيمونولي» من إصرار على عدم تحقق لقاء الحوار بين الإسلام والمسيحية.

ثورة داخل الفاتيكان

يومها أعلنا بأننا قمنا بثورة داخل الفاتيكان لأنه ليس من التقاليد البابوية أن يبدأ «البابا» الكتابة لأي رئيس دولة فقد جرت العادة، منذ القديم أن يتولى «البابا» الإجابة عن رسائل رؤساء الدول، لا أن يكون هو البادئ بكتابته الرسائل. بينما في حالتنا حصل العكس.

بطء الحوار

و قبل أن يبدأ الحوار بين علماء المملكة وبين «الفاتيكان»، صدر عن مجمع الفاتيكان الثاني كتيب يقع في نحو (١٥٠) صفحة تحت عنوان «توجيهات للمسيحيين من أجل الحوار بينهم وبين المسلمين». فقد أمروا بنسopian الماضي، وذكروا بأن المسلمين ناجون عند الله، عملاً بما اخذه أعلى سلطة في «الفاتيكان». وفي هذه الأجواء بدأت اجتماعات الحوار الإسلامي المسيحي في الفاتيكان، ويقول الدكتور دوالبي: ثم ما لبث أن دعانا «مجلس الوحدة الأوروبية»- بناء على قرار مجمع الفاتيكان الثاني- في «نسترابورغ»، ولبينا الدعوة أيضاً التي وجهها إلينا «مجلس الكنائس العالمي» في جنيف، وأيضاً إلى وزارة العدل الفرنسية، ثم إلى «جمعية الصداقة السعودية - الفرنسية».

وكانت كل تلك اللقاءات تتم وفقاً لتلك الروح التي أعلنها «الفاتيكان»، والتي كان لها الدّوي والتأثير العظيمان. فقد كانت المرة الأولى في التاريخ التي يخرج فيها وفد من المملكة العربية السعودية، بناء على دعوة الغرب المسيحي، لقاء «البابا» و«مجلس الكنائس العالمي البروتستانتي» الذي يقابل «الكنيسة الكاثوليكية».

وقفه التنصير

يتتابع الدكتور دوالبي ويقول: بعد إنتهاء اللقاءات المتعددة التي حصلت بين علماء المملكة وبين كبار مسؤولي الفاتيكان، وفي يوم مغادرتنا عاصمة الفاتيكان وقف الكاردينال «بيمونولي» مخاطباً العلماء المسلمين بقوله: «لقد قررنا في هذا اليوم وقف التنصير الكاثوليكي في العالم الإسلامي ونحن نطلب منكم أن تعودوا إلينا بالبشرة، ذلك أن السيد المسيح عندما ودع نبأهم أنه ستأتي من بعده «بشرارة» - أينبي يخبرهم بالحقائق، وقد جاء في سفر أشعيا ما يلي:

«بعد المسيح يأتينبي عربي من بلاد «فاران» - بلاد إسماعيل - و«فاران» باللغة الآرامية هي بلاد الحجاز، وعلى اليهود أن يتبعوه، ولعامته أنه إن نجا من القتل فإنه النبي المنتظر، لأنه يفلت من السيف المسلط على رقبته، ويعود إليها بعد ذلك بعشرة آلاف قديس».

وهذه تطبق تماماً على الواقع، فقد جاء في القرآن الكريم حديث عن اليهود يحمل هذه النقاط:

«يعرفونه كما يعرفون أبناءهم».

فأعطى مكانه: «بلاد إسماعيل» - أي مكة المكرمة.

وأعطى صفتة: «يهرب من السيف المسلط على رقبته»، وذلك عندما هرب ليلة المؤامرة التي حيكت لقتله صلى الله عليه وسلم.

«ويعود بعشرة آلاف قديس»: وقد عاد صلى الله عليه وسلم إلى مكة المكرمة بعشرة آلاف مؤمن.

فهذه النصوص واضحة كالشمس في رابعة النهار، ولذلك نعتبر أن ما صدر عن «مجمع الفاتيكان الثاني» في عهد «البابا بولس السادس»، كان خطوة طيبة وجديدة.

مقتل البابا.. والكاردينال

لقد استمر الغرب في تحريم التطرق لذكر الإسلام أو فهمه أو التعاون معه أو محاورته. هذه حقيقة بدأت منذ أن قضي على النفوذ الإسلامي في الغرب. وب بواسطتها تم لجم أفواه الغربيين وإرعابهم ومنعهم من التطرق للإسلام. ومن جرائم الغرب الكثيرة هذه قتل بابا الفاتيكان الذي سعى للتقارب بين الديانتين والكاردينال بيمونيلي الذي كان الشخصية الثانية في الدولة البابوية.

لم يلبث البابا أن توفي في ظروف لا ندريها. كما توفي من بعده بقليل الكاردينال «بيمونولي» الذي كان صلة الوصل بيننا وبين الفاتيكان. وبوفاتهما، توقف الحوار بين الإسلام والمسيحية آنذاك.

ومما لا شك فيه أنه كان لليهود يد في القضاء على الحوار الإسلامي المسيحي آنذاك إذ يضيف الدكتور الدوالبي ويقول: عندما انفصلنا، تواعدنا على أن تكون الندوة الثانية في الرياض، وفي هذه الفترة قتل «البابا» وقتله بأيام «الكاردينال».

ثمار الحوار

مجال التعاون بين الإسلام والمسيحية في مكافحة العلمانية الملحدة. وفي مجال الدفاع عن حقوق الإنسان. في المؤتمرات المختلفة تعاون رجال الدين مسلمون ومسيحيون في هذه المجالات وأسفر التعاون عن نتائج طيبة. حدث ذلك في مؤتمر القاهرة وفي مؤتمر المرأة بيكون.

وهناك تعاون في المجال التربوي أيضاً. يخبرنا أحد المندوبين إلى المؤتمر ويقول: كان الأب ألكسي الثاني يطلب منا أن نتحدث عن تجاربنا في تربية الشباب وتربية السخنان، وذوي العقد النفسية، وكان يقول: عندكم تجارب جيدة في صد الهجوم الثقافي، ونحن ن تعرض لهجوم ثقافي إباحي يجب أن نتعاون في كيفية الوقوف بوجه هذا الطوفان الإباحي.

ومن ثمار هذا الحوار أن نظرة بعضنا إلى البعض الآخر قد تغيرت . فبدل أن ينظروا إلى علماء الدين في إيران بأنهم علماء متزمتون بعيدون عن الحياة. أصبحوا يعرفون أنهم حضاريون ولم موقف من التاريخ والحضارة وال العلاقات الدولية. وهناك مجال جيد للبحث في العلاقات الدولية. ماهي العلاقات الدولية الأنسب في نظر الأديان؟ من هنا فإن مجال الحوار واسع جداً ومثير جداً.

موقفات الحوار الحالية

نلاحظ جميعاً سهولة التحاور بين المسلمين وأشقائهم المسيحيين العرب، وسهولة توصلهم إلى نتائج مرضية ومثمرة في كل حوار. وبالمقابل نلاحظ تعسر الحوار مع المسيحية الغربية، وهذا العسر ناتج عن الثقافة الغربية الموروثة نفسها تلك التي تدبّ الرعب في قلب الأوروبي من مجرد ذكره للإسلام. فالغرب مريض من ثقافته الكاذبة ويمكن محاورته بصعوبة وتخليصه منها.

لا نستطيع أن نحكم على كل المسيحية بحكم واحد. ولا على كل رجال الدين المسيحيين بحكم واحد. وإذا أردت أن تضع يدك على النقطة التي أوقفت كل تجارب الحوار من الاستمرار ، فإنك ستصل إلى مشكلتين:

الأولى: موجودة عند المسلمين، وتمثل بالتشكيك في نوايا الآخرين ، نتيجة التاريخ الطويل والأحقاد الصليبية، والتأمرات، وارتباط بعض عناصر الكنائس المسيحية بالاستعمار. مما يخلق تشكيكاً في نوايا الحوار. ولهذا توجب علينا أن نفصل بين المسيحية من جهة ، وحكام الدول المسيحية الغربية من جهة أخرى.

الثانية: موجودة عند المسيحيين وهي عدم جرأتهم على الاعتراف الرسمي بنبوة محمد، وليس من الضروري للمسلم أن يطالب خلال الحوار بهذا الاعتراف المسيحي. فالحوار لأجل التفاهم والتعاون وليس لأجل أسلمة الم对话رين المسيحيين. والحوار لأجل التعريف بالإسلام وبعدئذ يختار المسيحي الذي أعجب بالإسلام أن يدخل فيه أم لا.

وهذه النقطة العقائدية تمنعهم من الدخول في مسألة الحوار، وتتمثل ببعض النصوص الإنجيلية التي لا تسمح لهم بالاعتراف بنبوة محمد (صلى الله عليه وآله)، هذه النصوص تقول لهم: إن المسيحية هي خاتمة الأديان، أو تندم من يدعو إلى النبوة بعد المسيح.

المسلم يعلن بنبوة المسيح وطهارة مريم وعظمته الإنجيل ، أما المسيحي فله مشاكل في الاعتراف بنبوة محمد كنبي من الأنبياء أو الاعتراف بالقرآن صراحة. أما من ناحية القناعة الشخصية الذاتية عند المسيح فالامر يختلف كثيراً، إذ يؤمن أغلب المسيحيين بنبوة محمد وبحقيقة القرآن وبحقيقة الإسلام كدين سماوي وخاتم الرسالات، وتدل تصريحات هؤلاء الكثيرة على افتئاعهم بهذه الحقائق. فكل من يقول بأن الإسلام دين سماوي هو يعترف ضمناً بأن الإسلام من عند الله ويعترف ضمناً بنبوة محمد ، وبالتالي يعترف بصوابية القرآن.

غريphony يحتزون بالإسلام

وول ديورانت

مؤلف أمريكي معاصر، يعد كتابه (قصة الحضارة) ذا الثلاثين مجلداً، واحداً من أشهر الكتب التي تؤرخ للحضارة البشرية عبر مساراتها المعقدة المتشابكة ، وأصدر جزءاً الأول عام ١٩٣٥ ،

ويكتب في الصفحة ٦٨ من الجزء ١٢ : " .. ظل القرآن أربعة عشر قرناً من الزمان محفوظاً في ذاكرة المسلمين يستثير خيالهم ، ويشكل أخلاقهم ، ويشحد قرائح مئات الملايين من الرجال . والقرآن يبعث في النفوس أسهل العقائد ، وأقلها غموضاً ، وأبعدها عن التقيد بالمراسيم والطقوس ، وأكثرها تحرراً من الوثنية والكهنوتية . وقد كان له أكبر الفضل في رفع مستوى المسلمين الأخلاقي والثقافي ، وهو الذي أقام فيهم قواعد النظام الاجتماعي والوحدة الاجتماعية ، وحرّضهم على اتباع القواعد الصحية ، وحرر عقولهم من كثير من الخرافات والأوهام ، ومن الظلم

والقسوة، وحسن أحوال الأرقاء، وبعث في نفوس الأذلاء الكرامة والعزّة، وأوجد بين المسلمين.. درجة من الاعتدال والبعد عن الشهوات لم يوجد لها نظير في أية بقعة من بقاع العالم يسكنها الرجل الأبيض.”

موريس بوكاي

طبيب وعالم فرنسي معروف. كان كتابه (القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم) من أشهر المؤلفات أصالة واستيعاباً وعمقاً. وفي الصفحة ١٥٠ منه يكتب:

”قمت بدراسة القرآن الكريم، وذلك دون أي حياد فكري مسبق وبموضوعية تامة باحثاً عن درجة اتفاق نص القرآن ومعطيات العلم الحديث. وكنت أعرف، قبل هذه الدراسة، وعن طريق الترجمات، أن القرآن يذكر أنواعاً كثيرة من الظاهرات الطبيعية. وبفضل الدراسة الواقعية للنص العربي استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها أن القرآن لا يحتوي على أية مقوله قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث وينفس الموضوعية قمت بنفس الفحص على العهد القديم والأنجيل. أما بالنسبة للعهد القديم فلم تكن هناك حاجة للذهاب إلى أبعد من الكتاب الأول، أي سفر التكوين، فقد وجدت مقولات لا يمكن التوفيق بينها وبين أكثر معطيات العلم رسوحاً في عصرنا. وبالنسبة للأنجيل.. فإننا نجد نصَّ إنجيل متى يناقض بشكل جلي إنجيل لوقا ، وأن هذا الأخير يقدم لنا صراحة أمراً لا يتفق مع المعرفة الحديثة الخاصة بقدم الإنسان على الأرض.”

”لقد أذهلتني دقة بعض التفاصيل الخاصة بالظاهرات العلمية وهي تفاصيل لا يمكن أن تدرك إلا في النص الأصلي. أذهلتني مطابقتها للمفاهيم التي نملكها اليوم عن نفس هذه الظاهرة والتي لم يكن ممكناً لأي إنسان في عصر محمد [صلى الله عليه وسلم] أن يكون عنها أدنى فكرة.”

عبد الله كويليام

مفکر إنگلیزی، ولد سنہ ۱۸۰۶، وأسلم سنہ ۱۸۸۷، وتلقب باسم: (الشيخ عبد الله كويليام). من آثاره: (العقيدة الإسلامية) و(أحسن الأجوية).

ـ من الوجه العلمي، بصرف النظر عن أنه كتاب موحى به، فالقرآن أبلغ كتاب في الشرق.. (وهو حاصل بالمنجزات السامية مليء بالاستعارات الباهرة) .. (العقيدة الإسلامية، ص ١١٩ - ١٢٠). "أحكام القرآن ليست مقتصرة على الفرائض الأدبية والدينية.. إنه القانون العام للعالم الإسلامي، وهو قانون شامل للقوانين المدنية والتجارية والحربيّة والقضائية والجنائية والجزائية. ثم هو قانون ديني يدار على محوره كل أمر من الأمور الدينية إلى أمور الحياة الدنيوية، ومن حفظ النفس إلى صحة الأبدان، ومن حقوق الرعية إلى حقوق كل فرد، ومن منفعة الإنسان الذاتية إلى منفعة الهيئة الاجتماعية، ومن الفضيلة إلى الخطيئة، ومن القصاص في هذه الدنيا إلى القصاص في الآخرة.. وعلى ذلك فالقرآن يختلف مادياً عن الكتب المسيحية المقدسة التي ليس فيها شيء من الأصول الدينية بل هي في الغالب مركبة من قصص وخرافات واحتباط عظيم في الأمور التعبدية. وهي غير معقولة وعديمة التأثير" (العقيدة الإسلامية ، ص ١٢٢ - ١٢٣).

ـ هذا القرآن الذي هو كتاب حكمة فمن أجال طرف اعتباره فيه وأمعن النظر في بدائع أساليبه وما فيها من الإعجاز رأه وقد مر عليه من الزمان ألف وثلاثمائة وعشرون سنة كأنه مقول في هذا العصر إذ هو مع سهولته بلغ ممتع ومع إيجازه مفيد للمرام بال تمام. وكما أنه كان يرى مطابقاً للكلام في كل زمان ولهجه، وكلما ترقّت وأسلوبها كذلك يرى موافقاً لأسلوب الكلام في كل زمان ولهجه، وصناعة الكتابة قدرت بلاغته وظهرت للقول مزاياه. وبالجملة فإن فصاحته وبلاوغته قد أعجزت مصاقع البلاء وحيرت فصحاء الأولين والآخرين. وإذا عطفنا النظر إلى ما فيه من الأحكام وما اشتمل عليه من الحكم الجليلة نجده جامعاً لجميع ما يحتاجه البشري في حياته وكماله وتهذيب أخلاقه.. وكذلك نراه ناهياً عما ثبت بالتجارب العديدة خسرانه وقبحه من الأفعال ومساوية الأخلاق.. وكم فيه ما عدا ذلك أيضاً ما يتعلق بسياسة المدن وعمارة الملك، وما يضمن للرعاية الأمن والدعة من الأحكام الجليلة التي ظهرت منافعها العظيمة بالفعل والتجربة فضلاً عن القول..

(العقيدة الإسلامية، ص ، ص ١٢٩ - ١٤٠).

روم لاندو

نحات وناقد فني إنكليزي، زار زعماء الدين في الشرق (١٩٣٧)، وحاضر في عدد من جامعات الولايات المتحدة (١٩٥٢-١٩٥٧)، من آثاره: (الله ومخامراتي)، (بحث عن الفد)، (سلم الرسل)، (دعوة إلى المغرب)، (سلطان المغرب)، (فرنسا والعرب)، (الفن العربي) وغيرها.

يبسبب من أن مهمة ترجمة القرآن بكمال طاقته الإيقاعية، إلى لغة أخرى، تتطلب عناية رجل يجمع الشاعرية إلى العلم، فإننا لم نعرف حتى وقت قريب ترجمة جيدة استطاعت أن تلقي شيئاً من روح الوحي المحمدي. الواقع أن كثيراً من المترجمين الأوائل لم يعجزوا عن الاحتفاظ بجمال الأصل فحسب، بل كانوا إلى ذلك مفعمين بالحقد على الإسلام إلى درجة جعلت ترجماتهم تتوء بالتعامل والغرض. ولكن حتى أفضل ترجمة ممكنة للقرآن في شكل مكتوب لا تستطيع أن تحفظ بإيقاع السور الموسيقي الآسر، على الوجه الذي يرتلها به المسلم. وليس يستطيع الغربي أن يدرك شيئاً من روعة كلمات القرآن وقوتها إلا عندما يسمع مقاطع منه مرتبة بلغته الأصلية" (الإسلام والعرب ، ص ٣٦ - ٣٧). .. كلف كاتب الوحي، زيد بن ثابت، جمع الآيات القرآنية في شكل كتاب وكان أبو بكر لرضي الله عنه قد أشرف على هذه المهمة. وفيما بعد، إثر جهد مستأنف بذلك بأمر من الخليفة عثمان [رضي الله عنه] اتخذ القرآن شكله التشريعي النهائي الذي وصل إلينا سليماً لم يطرأ عليه أي تحريف" (الإسلام والعرب ، ص ٢٩٦). .. إن بين آيات قصار سور ترابطًا باهراً له تأثيره الوجданى برغم أنه ليس ثمة أى ما وزن نظامي. وفي الحق إن سماع السور تتلى في الأصل العربى، كثيراً ما يخالف في نفس المرء تأثيراً بليغاً. لقد أريد بالقرآن.. أن يتلى في صوت جهير. ويعتبر على المرء أن يسمعه مرتاباً لكي يحكم عليه حكماً عادلاً ويقدره حق قدره.. وبوصفه كلمة الله الحقيقة، كان معجزاً لا سبيل إلى محاكاته، ولم يكن ثمة، بكل بساطة، أى ما شيء من مثله" (الإسلام والعرب ، ص ٢٩٦ - ٢٩٧).

جوستاف لوبيون

ولد عام ١٨٤١، وهو طبيب، ومؤرخ فرنسي، عني بالحضارات الشرقية. من آثاره: (حضارة العرب) (باريس ١٨٨٤)، (الحضارة المصرية)، (حضارة العرب في الأندلس).

.. إن أصول الأخلاق في القرآن عالية على ما جاء في كتب الديانات الأخرى جميعها، وإن أخلاق الأمم التي دانت له تحولت بتحول الأزمان والعروق مثل تحول الأمم الخاضعة لدين عيسى [عليه السلام]. إن أهم نتيجة يمكن استباطها هي تأثير القرآن العظيم في الأمم التي أذعن لأحكامه، فالديانات التي لها ما للإسلام من السلطان على النفوس قليلة جداً، وقد لا تجد ديناً اتفق له ما اتفق للإسلام من الأثر الدائم، والقرآن هو قطب الحياة في الشرق وهو ما نرى أثره في أدق شؤون الحياة" (حضارة العرب، ص ٤٢١ - ٤٣٢).

إليس ليختنستادتر

سيدة ألمانية، درست العلوم العربية والإسلامية في جامعة فرانكفورت، ثم في جامعة لندن، وأقامت زهاء ثلاثة سنين بين بلاد الشرقين الأدنى والأوسط، وعنيت عنابة خاصة بدعوات الاجتihad والتتجديد والمقابلة بين المذاهب. من مؤلفاتها (الإسلام والعصر الحديث).

.. إن المسلم العصري يعتقد أن كتابه المنزل يسمح له، بل يوجب عليه، أن يعالج مشكلات عصره بما يوافق الدين ولا يضيئ المصلحة أو يصد عن المعرفة كما انتهت إليها علوم زمانه.. وإن مزية القرآن - في عقيدة المسلم - أنه متمم للكتب السماوية ويوافقها في أصول الإيمان، ولكنه يختلف عنها في صفتـه العامة فلا يرتبط برسالة محدودة تمضي مع مضي عهدها ولا بأمة خاصة يلائمها ولا يلائم سواها. وكل ما يراد به الدوام، ينبغي أن يواافق كل جيل ويصلح لكل أوان" (الإسلام والعصر الحديث، عن العقاد: ما يقال عن الإسلام ، ص ١٩). من الضروري لإدراك عمل القرآن من حيث هو كتاب ديني وكتاب اجتماعي أن ندرك صدق المسلم حين يؤكد أن القرآن يمكن أن يظل أساساً لإدراك الحكم المعقولة التي تعالج

مشكلات المجتمع الحديث. فإن النبي [صلى الله عليه وسلم] يرى أن القرآن هو حلقة الاتصال بين الإله في كماله الإلهي وبين خليقته التي يتجلّى فيها بفريضه الربانية وأيتها الكبرى الإنسان. وإن واجب الإنسان أن يعمل بمشيئة الله للتيسير بين العالم الإلهي وبين عالم الخلق والشهادة، وخيراً ما يدرك به هذا المطلب أن تتولاه جماعة إنسانية تتحرى أعمق الأوامر الإلهية وألزماها وهي أوامر العدل للجميع والرحمة بالضعف والرفق والإحسان. وتلك هي الوسائل التي يضعها الله في يد الإنسان لتحقيق نجاته، فهو ثم مسؤول عن أعماله ومسؤول كذلك عن مصيره" (الإسلام والعصر الحديث، عن العقاد: ما يقال عن الإسلام ، ص ١٩).

فنان مونتانييه

فرنسي، اختص بدراسة القضايا الإسلامية والغربية، عن كتب، قضى سنوات عديدة في المغرب والشرق وانتهى الأمر به إلى إعلان إسلامه في صيف عام ١٩٧٧ . "إنني لا أشك لحظة في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم. وأعتقد أنه خاتم الأنبياء والمرسلين، وأنه بعث للناس كافة، وأن رسالته جاءت لختم الوحي الذي نزل في التوراة والإنجيل. وأحسن دليل على ذلك هو القرآن العجزة. فأنا أرفض خواطر بسكال العالم الأوروبي الحاقد على الإسلام والمسلمين إلا خاطرة واحدة وهي قوله: ليس القرآن من تأليف محمد [صلى الله عليه وسلم]، كما أن الإنجيل ليس من تأليف مئّى" (رجال ونساء أسلموا ، ٥ / ٤٥). .. إن مثل الفكر العربي الإسلامي المبعد عن التأثير القرآني كمثل رجل أفرغ من دمه" (رجال ونساء أسلموا ، ص ٥ / ٥٠ - ٥١).

عائشة بريجت هونتي

نشأت في أسرة إنكليزية مسيحية، وشففت بالفلسفة، ثم سافرت إلى كندا لإكمال دراستها، وهناك في الجامعة أتيحت لها أن تتعرف على الإسلام، وأن تنتهي إليه، وقد عملت مدرسة في مدرسة عليا في نيجيريا.

.. لن أستطيع مهما حاولت، أن أصف الأثر الذي تركه القرآن في قلبي، فلم أكُد أنتهي من قراءة السورة الثالثة من القرآن حتى وجدتني ساجدة لخالق هذا الكون، فكانت هذه أول صلاة لي في الإسلام..” (رجال ونساء أسلموا ، ص ١ / ٥٩ - ٦٠).

مونتيجومري وات

عميد قسم الدراسات العربية في جامعة أدنبرة سابقاً. من آثاره: (عوامل انتشار الإسلام)، (محمد في مكة)، (محمد في المدينة)، (الإسلام والجماعة الموحدة)، وهو دراسة فلسفية اجتماعية لردّ أصل الوحدة العربية إلى الإسلام (١٩٦١).

يعتبر القرآن فلائق العصر نتيجة أسباب دينية بالرغم من الأسباب الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية وأنه لا يمكن تقويمها إلا باستخدام الوسائل الدينية مثل كل شيء. وإنه من الجرأة الشك في حكمة القرآن نظراً لنجاح محمد [صلى الله عليه وسلم] في تبليغ الرسالة التي أمره الله بتبليفها..” (محمد في مكة ، ص ١٢٥). يجب علينا في رأيي، مهما كان موقفنا الديني، أن نعتبر رسالة القرآن ابتكاراً خلاقاً في الوضع المكي. ولا شك أنه كانت توجد مشاكل تتطلب الحل، وأزمات حاول البعض تخفيفها، ولكن كان يستحيل الانتقال من هذه المشاكل وتلك الأرمان إلى رسالة القرآن بواسطة التفكير المنطقي.. ولا شك أن رسالة القرآن تحل مشاكل اجتماعية وأخلاقية وفكرية، ولكن لا تحلها جميعاً دفعة واحدة وليس بصورة بدائية. ولربما قال مؤرخ دنوي أن محمداً وقع صدفة على أفكار كانت بمثابة المفتاح لحل المشاكل الأساسية في زمان ليس هذا ممكناً. ولا يمكن للمحاولات التجريبية ولا لل الفكر النافذ أن يفند لنا كما يجب رسالة القرآن” (محمد في مكة ، ص ١٢٥ - ١٣٦).

جان جاك روسو

من أشهر الفلسفه الفرنسيين في عهد النهضة، قرأ ترجمة القرآن الكريم وفلسفه ابن رشد الاندلسي وأعجب بالإسلام. وقد تأثر نتاجه الفكري بالعقائد الإسلامية. فجاءت أول عبارة في كتابه الشهير (العقد الاجتماعي) تقول: خلق

الإنسان حراً فلماذا نستعبده؟ وهذه المقوله متأثرة بمقولة عمر بن الخطاب الشهيره ”متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟“ ويقول روسو في العقد الاجتماعي الذي كان يعتبر منهج الثورة الفرنسية: (من الناس من يتعلم قليلاً من العربية ثم يقرأ القرآن ويضحك منه ولو أنه سمع محمدًا يملئه على الناس بتلك اللغة الفصحى الرقيقة وصوته المشبع المقنقع الذي يطرب الآذان ويؤثر في القلوب لخَر ساجداً على الأرض وناداه: أيها النبي رسول الله خذ بيدينا إلى مواقف الشرف والفحار أو مواقع التهلكة والأخطار فتحن من أجلك نود الموت أو الانتصار.“

هنري دي كاسترو

ضابط في الجيش الفرنسي، قضى في الشمال الأفريقي رحماً من الزمن. من آثاره: (مصادر غير منشورة عن تاريخ المغرب) (١٩٥٠) ورد في كتاب "الإسلام خواطر وسوانح ص ١٨" قوله:

” إن العقل يحار كيف يتأنى أن تصدر تلك الآيات عن رجل أمي وقد اعترف الشرق قاطبة بأنها آيات يعجز فكر بني الإنسان عن الإتيان بمثلها لفظاً ومعنى. آيات لما سمعها عتبة بن ربيعة حار في جمالها، وكفى رفيع عبارتها لإقناع عمر بن الخطاب فآمن برب قائلها، وفاضت ”عين نجاشي“ الحبشه بالدموع لما تلا عليه جعفر بن أبي طالب سورة زكريا وما جاء في ولادة يحيى وصاح القس إن هذا الكلام وكلام عيسى جاءا من مورد واحد. لكن نحن معشر الغربيين لا يسعنا أن نفقه معاني القرآن كما هي لمخالفته لأفكارنا ومخايرته لما رأيت عليه الأمم عندنا. غير أنه لا ينبغي أن يكون ذلك سبباً في معارضه تأثيره في عقول العرب). ثم كيف يعقل أن النبي أله هذا الكتاب باللغة الفصحى مع أنها في الأزمان الوسطى كاللغة اللاتينية ما كان يعقلها إلا القوم العالمون.. ولو لم يكن في القرآن غير بهاء معانيه وجمال مبنائه لكفى بذلك أن يستولي على الأفكار ويأخذ بمجامع القلوب..“

إيتيان دينيه

أشهر إسلامه وتسمى بناصر الدين (١٩٢٧)، وحج إلى بيت الله الحرام. ومن آثاره: (حياة العرب)، (حياة الصحراء)، (أشعة خاصة بنور الإسلام)، (الشرق في

نظر الغرب)، و(الحج إلى بيت الله الحرام). ويقول في كتابه أشعة خاصة بنور
الإسلام ص ١٠٦ :

"لقد حق القرآن معجزة لا تستطيع أعظم المجامع العلمية أن تقوم بها، ذلك أنه مكن للغة العربية في الأرض بحيث لو عاد أحد أصحاب رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إلينا اليوم لكان ميسوراً له أن يتفاهم تمام التفاهم مع المتعلمين من أهل اللغة العربية، بل لما وجد صعوبة تذكر للتغاطب مع الشعوب الناطقة بالضاد. وذلك عكس ما يجده مثلاً أحد معاصرى (رابيليه) من أهل القرن الخامس عشر الذي هو أقرب إلينا من عصر القرآن، من الصعوبة في مخاطبة العدد الأكبر من فرنسيي اليوم".

فرانز روزينتال

فرانز روزينتال من أساتذة جامعة بيل. وضع عدداً من الكتب أشهرها: (مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي)، و(علم التاريخ عند المسلمين). ويكتب فيه، الصفحة ٢١ : "من الدوافع العلمية لدراسة التاريخ توفر المادة التاريخية في القرآن مما دفع مفسريه إلى البحث عن معلومات تاريخية لتفسير ما جاء فيه. وقد أصبح الاهتمام بالمادة التاريخية، على مر الزمن، أحد فروع المعرفة التي تمت بالارتباط بالقرآن. وإذا كان الرسول قد سمع بعض الأخبار والمعلومات التاريخية، فإن هذا لا يبرر الافتراض بأنه قد قرأ المصادر التاريخية كالتوراة في ترجماتها العربية. لقد وردت في القرآن معلومات تاريخية تختلف بما يدعى اليهود وجوده في التوراة. وقد ذكر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن اليهود والنصارى حرفوا التوراة، وتمسك المسلمون بما جاء في القرآن. لقد أشار القرآن إلى كثير من الأحداث التي أحاطت بالرسول ، وكان لذلك أهمية في التاريخ الإسلامي لأن الأحداث التي أشارت إليها الآيات صارت لها أهمية تاريخية كبرى للمسلمين، واستثارت البحوث التاريخية.

جاك ريستلر

باحث فرنسي معاصر، وأستاذ بالمعهد الإسلامي بباريس. ويكتب في الحضارة العربية ص ٤٥ و ٣٠ : "... لما كانت روعة القرآن في أسلوبه فقد أنزل ليقرأ ويتلى

بصوت عال. ولا تستطيع أية ترجمة أن تعبّر عن فروقها الدقيقة المشبعة بالحساسية الشرقية. ويجب أن تقرأه في لغته التي كتب بها لتمكن من تذوق جماله وقوته وسمو صياغته. ويخلق نشره الموسيقي والمسجوع سحرًا مؤثراً في النفس حيث تزخر الأفكار قوة وتتوهج الصور نضارة. فلا يستطيع أحد أن ينكر أن سلطانه السحري وسموه الروحي يسهمان في إشعارنا بأنّ محمداً كان ملهمًا بجلال الله وعظمته "كان في القرآن فوق أنه كتاب ديني خلاصة جميع المعرفة.. وظلّ زمناً طويلاً أول كتاب يتخذ للقراءة إلى الوقت الذي شُكِّل فيه وحده كتاب المعرفة والتربية. ولا يزال حتى اليوم النص الذي تقوم عليه أسس التعليم في الجامعات الإسلامية. ولا تستطيع الترجمات أن تقل ثروته اللغوية (إذ يذيل جمال اللغة في الترجمات كأنها زهرة قطفت من جذورها) ولذلك يجب أن يقرأ القرآن في نصه الأصلي" إن القرآن يجد الحلول لجميع القضايا، ويربط ما بين القانون الديني والقانون الأخلاقي، ويسعى إلى خلق النظام، والوحدة الاجتماعية، وإلى تخفيف البؤس والقسوة والخرافات. إنه يسعى إلى الأخذ بيد المستضعفين، ويوصي بالبر، ويأمر بالرحمة.. وفي مادة التشريع وضع قواعد لأدق التفاصيل للتعاون اليومي، ونظم العقود والمواريث، وفي ميدان الأسرة حدد سلوك كل فرد تجاه معاملة الأطفال والأرقاء والحيوانات والصحة والملبس، إلخ.."

جورج سارقون

ولد في بلجيكا، وحصل على الدكتوراه في العلوم الطبيعية والرياضية (١٩١١)، ثم تحول عنها إلى الولايات المتحدة، وتجنّس بجنسيتها فعين محاضراً في تاريخ العلم بجامعة واشنطن (١٩١٦)، ثم في جامعة هارفارد، من آثاره: خلف أكثر من خمسمائة بحث، وخبير تصنيفه وأجمعها: (المدخل إلى تاريخ العلم).

وهو يقول: "إن لغة القرآن على اعتبار أنها اللغة التي اختارها الله جل وعلا للوحى كانت، بهذا التحديد، كاملة... وهكذا يساعد القرآن على رفع اللغة العربية إلى مقام المثل الأعلى في التعبير عن المقاصد،.. وجعل منها وسيلة دولية للتعبير عن أسمى مقتضيات الحياة".

بوزينا خاجان ستريزوسكا

باحثة بولونية معاصرة، درست الإسلام في الأزهر على يد أساتذة وmentors أخصائيين ذهاء خمس سنوات (1961-1965)، تمكنت خلالها من اللغة العربية كذلك، وكانت قد أنهت دراساتها العليا في كلية الحقوق، وفي معهد اللغات الشرقية في بولونيا. وهي تقول: "إن القرآن الكريم مع أنه أنزل على رجل عربي أمريكي نشأ في أمة أميّة، فقد جاء بقوانين لا يمكن أن يتعلمها الإنسان إلا في أرقي الجامعات. كما نجد في القرآن حقائق علمية لم يعرفها العالم إلا بعد قرون طويلة" (تاريخ الدولة الإسلامية وتشريعها ، ص ١٧).

وليم بيرشل بيكارد

مؤلف وكاتب مشهور. ومن بين مؤلفاته الأدبية بالإنكليزية (مغامرات القاسم) و(عالم جديد). أعلن إسلامه عام ١٩٢٢م. جاء في كتاب رجال ونساء أسلموا ص. ٨٦ ج ٢ ، قوله: "... ابعت نسخة من ترجمة سافاري (Savary) الفرنسية لمعاني القرآن وهي أغلى ما أملك. فلقيت من مطالعتها أعظم متعة وابتهجت بها كثيراً حتى غدت وكان شعاع الحقيقة الخالد قد أشرق علي بنوره المبارك".

سير: توماس أرنولد

من كبار المستشرقين البريطانيين. صاحب كتاب (تراث الإسلام). تعلم في كمبرidge وقضى عدة سنوات في الهند أستاداً للفلسفة. متعاطف مع الإسلام، ذاع صيته بكتابيه: (الدعوة إلى الإسلام) و(الخلافة).

وهو يقول في كتاب "الدعوة إلى الإسلام" (١٦٢ ص ١٦٢) إننا نجد حتى من بين المسيحيين مثل ألفار Alvar الإسباني الذي عرف بتعصبه على الإسلام، يقرر أن القرآن قد صيغ في مثل هذا الأسلوب البليغ الجميل، حتى إن المسيحيين لم يسعهم إلا قراءته والإعجاب به".

مارسيل بوازار

- مفكر فرنسي معاصر. يعتبر كتابه (إنسانية الإسلام)، الذي انبثق عن الاهتمام نفسه، علامة مضيئة في مجال الدراسات الغربية للإسلام، بما تميز به من موضوعية، وعمق، وحرص على اعتماد المراجع التي لا يأسرها التحيز.

يقول في كتابه (إنسانية الإسلام) "إن الأدوات التي يوفرها الترزيلا الفرآني قادرة ولا ريب على بناء مجتمع حديث لابد عند تعريف النص القديسي في الإسلام من ذكر عنصرين، الأول أنه كتاب منزل أزلية غير مخلوق، والثاني أنه (قرآن) أي كلام حي في قلب الجماعة.. وهو بين الله والإنسانية (ال وسيط) الذي يجعل أي تنظيم كهنوتي غير ذي جدوى، لأنه مرضى به مرجعاً أصلياً، وينبع إلهام أساسى.. وما زال حتى أيامنا هذه نموذجاً رفيعاً للأدب العربي تستعمل محاكاته. إنه لا يمثل النموذج المحتذى للعمل الأدبي الأمثل وحسب، بل يمثل كذلك مصدر الأدب العربي والإسلامي الذي أبدعه لأن الدين الذي أوحى به هو في أساس عدد كبير من المناهج الفكرية التي سوف يشتهر بها الكتاب .." إن القرآن لم يقدر فقط لإصلاح أخلاق عرب الجاهلية، إنه على العكس يحمل الشريعة الخالدة والكاملة والمطابقة للحقائق البشرية، وال حاجات الاجتماعية في كل الأزمنة.

ديبورا بوتر

ولدت عام ١٩٥٤ ، بمدينة ترافيرز الأمريكية، اعتنقت الإسلام عام ١٩٨٠ بعد افتتاح عميق بأنه ليس ثمة من دين غير الإسلام يمكن أن يستجيب لطالب الإنسان. جاء في كتاب رجال ونساء أسلموا قوله: ".. عندما أكملت القرآن الكريم غمرني شعور بأن هذا هو الحق الذي يشتمل على الإجابات الشافية حول مسائل الخلق وغيرها. وأنه يقدم لنا الأحداث بطريقة منطقية. وتجدها متراقبة مع بعضها في غيره من الكتب الدينية. أما القرآن فيتحدث عنها في نسق رائع وأسلوب قاطع لا يدع مجالاً للشك بأن هذه هي الحقيقة وأن هذا الكلام هو من عند الله لا محالة" "كيف استطاع محمد الرجل الأمي الذي نشأ في بيئه جاهلية أن يعرف معجزات

الكون التي وصفها القرآن الكريم، والتي لا يزال العلم الحديث حتى يومنا هذا يسعى لاكتشافها؟ لابد إذن أن يكون هذا الكلام هو كلام الله عز وجل.

ميير بروز

أستاذ الفقه الديني الإنجيلي في جامعة (بيل). وجامعة براون، والجامعة الأمريكية في بيروت، ومن مؤلفاته: "الأديان ١٩٤١" و"فلسطين قضيّتاً".

يقول في الثقافة الإسلامية ص ٥١: إنه ليس هناك شيء لا ديني في تزايد سيطرة الإنسان على القوى الطبيعية، (هناك آية في القرآن يمكن أن يستنتج منها أنه لعل من أهداف خلق المجموعة الشمسية لفت نظر الإنسان لكي يدرس علم الفلك ويستخدمه في حياته : {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيْنَينَ وَالْجُسَابَ} [يونس ٥].

وكثيراً ما يشير القرآن إلى إخضاع الطبيعة للإنسان باعتباره إحدى الآيات التي تبعث على الشكر والإيمان: {وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفَلَكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ، لِتَسْتَوُا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذَكَّرُوا بِنَعْمَةِ رَبِّكُمْ إِذَا أَسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كَنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ} [الزخرف ١٣].

بارتلمي هيلر

ويقول المستشرق بارتلمي هيلر: لما وعد الله رسوله بالحفظ بقوله "والله يعصمك من الناس" ، صرف النبي حراسه ، والمرء لا يكذب على نفسه ، فلو كان لهذا القرآن مصدر غير السماء لأبقى محمد على حراسته !.

ر. ل . بلاشير

ولد بالقرب من باريس، وتلقى دروسه الثانوية في الدار البيضاء، وتخرج من كلية الآداب بالجزائر وعين أستاداً محاضراً في السوريون، من آثاره: كتاب (تاريخ الأدب العربي) (باريس ١٩٥٢)، وترجمة جديدة للقرآن الكريم في ثلاثة أجزاء. يقول في كتابه (تاريخ الأدب العربي): "لا جرم في أنه إذا كان نعمة شيء تعجز الترجمة عن أدائه فإنما هو الإعجاز البصري واللغوي والجرس الإيقاعي في الآيات المنزلة في ذلك

العهد.. إن خصوم محمد [عليه الصلاة والسلام] قد أخطأوا عندما لم يشعروا أن يروا في هذا إلا أغاني سحرية وتعويذية، وبالرغم من أنها على علم - استقرارياً فقط - بتبيّنات الكهان، فمن الجائز لنا الاعتقاد مع ذلك بخطل هذا الحكم وتهافته، فإن الآيات التي أعاد الرسول [عليه الصلاة والسلام] ذكرها في هذه السور اندفاعاً وألقاً وجلاله تختلف وراءها بعيداً أقوال فصحاء البشر كما يمكن استحضارها من خلال النصوص الموضعة التي وصلتنا".

أنا ماريا شمبل

تقول المستشرقة الألمانية أنا ماريا شمبل ، في مقدمتها لكتاب (الإسلام كبديل) لمراد هوفمان : "القرآن هو كلمة الله ، موحاة بلسان عربي مبين ، وترجمته لن تتجاوز المستوى السطحي ، فمن ذا الذي يستطيع تصوير جمال كلمة الله بأي لغة".^{١٦}

إميل ديرمنجيم

مستشرق فرنسي، ومن آثاره: (حياة محمد) ١٩٢٩ وهو من أدق ما صنفه مستشرق عن النبي صلى الله عليه وسلم، ويكتب فيه ص. ١٣١ : "للمسيح في القرآن مقام عالي، فولادته لم تكن عادية كولادة بقية الناس، وهو رسول الله الذي خاطب الله جهراً عن مقاصده وحدث عن ذلك أول شخص كلامه، وهو كلمة الله الناطقة من غير اقتصار على الوحي وحده.. والقرآن يقصد النصرانية الصحيحة حينما يقول: إن عيسى [عليه السلام] كلمة الله، أو روح الله، ألقاها إلى مريم وأنه من البشر.. وهو يذمّ مذهب القائلين بـألوهية المسيح [عليه السلام] ومذهب تقديم الخبر إلى مريم عبادة ثم أكله وما إلى ذلك من مذاهب الإلحاد النصرانية، لا النصرانية الصحيحة، ولا يسع النصراني إلا أن يرضى بمحاجمة القرآن للثالوث المؤلف من الله وعيسى ومريم".

كات ستيفينز

المغني البريطاني المشهور. بيع من أسطواناته ما يقدر بالمليون في السبعينات وأوائل الثمانينات، اعتنق الإسلام وتسمى باسم يوسف إسلام عام ١٩٧٦ بعد أن تعرف على القرآن الكريم بواسطة شقيقه. يقضي الآن معظم وقته في المسجد ويلعب دوراً فعالاً في شؤون الجالية الإسلامية في لندن . يكتب عن الإسلام: "في تلك الفترة من حياتي بدا لي وكأنني فعلت كل شيء وحققت لنفسي النجاح والشهرة والمال والنساء.. كل شيء، ولكن كنت مثل القرد أقفز من شجرة إلى أخرى ولم أكن قانعاً أبداً. ولكن كانت قراءة القرآن بمثابة توكييد لكل شيء بداخلي كنت أراه حقاً، وكان الوضع مثل مواجهة شخصيتي الحقيقة".

أحمد نسيم سوسه

باحث ومهندس من العراق، كان يهودياً فاعتنق الإسلام متاثراً بالقرآن الكريم، ترك بعد وفاته الكثير من الدراسات في مختلف المجالات. ومن مؤلفاته الشهيرة: (مفصل العرب واليهود في التاريخ)، و(في طريقي إلى الإسلام) الذي تحدث فيه عن سيرة حياته. وكتب فيه :

"يرجع ملي إلى الإسلام.. حينما شرعت في مطالعة القرآن الكريم للمرة الأولى.. فولعت به ولعاً شديداً.. وكانت أطرب لتلاؤه آياته.."

" الواقع أن تحويله وتبديل مصاحف اليهود أثر أجمع عليه العلماء في عصرنا الحالي نتيجة الدرس والتقييم وقد جاء ذلك تأييداً علمياً للأقوال الربانية التي أوحيت قبل نيف وثلاثة عشر قرناً على لسان النبي العربي الكريم صلى الله عليه وسلم. أما الفرقان المجيد.. فقد حافظ المسلمون عليه بحرص شديد وأمانة صادقة فهو حقاً الكتاب المقدس الفريد الذي أجمع الكل على سلامته وطهارته من التلاعيب والتحويير، وما على القارئ إلا أن يطالع ما كتبه المستشرقون في هذا الباب.. الذين وصفوا كيفية جمعه وتدوينه، وهؤلاء أجانب غرباء كثيراً ما يصوّبون أسمهم الناقدة السامة نحو الإسلام. الواقع أن الدلائل التاريخية واضحة بأجلها وضوح مما لا يترك أي شك في أن الفرقان الكريم لم يطرأ عليه أي تحريف أو

تحوير وقد جاء كلام الله بكماله على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم دون أن يتغير فيه حرف واحد".

مايكيل هارت

الباحث الأمريكي مايكيل هارت أصدر في السبعينيات من القرن الماضي كتاب "المائة الأوائل" الذي ترجم إلى العربية وفيه اختار أعظم شخصية من المائة الأوائل الذين قدموا فوائد للبشرية كلها اختار لذلك شخصية محمد عليه السلام. وفيه يقول: "لا يوجد في تاريخ الرسالات كتاب بقى بحروفه كاملاً دون تحوير سوى القرآن". بين أيدينا كتاب فريد في أصالته وفي سلامته ، لم يُشكَّ في صحته كما أنزل ، وهذا الكتاب هو القرآن". ويقول مايكيل هارت في كتاب (المائة الأوائل) : "كان محمد الرجل الوحيد في التاريخ الذي نجح في مهمته إلى أقصى حد ، سواء على المستوى الديني أم على المستوى الزمني".

لويس سيديللو

مستشرق فرنسي عكف على نشر مؤلفات أبيه جان جاك سيديللو الذي توفي عام ١٨٢٢ قبل أن تتاح له فرصة إخراج كافة أعماله في تاريخ العلوم الإسلامية. صنف لويس كتاباً بعنوان (خلاصة تاريخ العرب). وفي كتابه (تاريخ العرب العام) يقول:

"لا تجد في القرآن آية إلا توحى بمحبة شديدة لله.. وفيه حث كبير على الفضيلة خلال تلك القواعد الخاصة بالسلوك الخلقي.. وفيه دعوة كبيرة إلى تبادل العواطف وحسن المقاصد والصفح عن الشتائم، وفيه مقت للعجب والغضب، وفيه إشارة إلى أن الذنب قد يكون بالفكر والنظر، وفيه حض على الإيفاء بالعهود حتى مع الكافرين، وتحريض على خفض الجناح والتواضع، وعلى استغفار الناس لمن يسيئون إليهم، لا لعنهم. ويكفي جمع تلك الأقوال الجامحة المملوءة حكمة ورشداً لإثبات صفاء قواعد الأخلاق في القرآن.. إنه أبصر كل شيء".

"مما يجدر ذكره أن يكون القرآن، بين مختلف اللغات التي يتكلم بها مختلف الشعوب الإسلامية في آسيا حتى الهند، وفي أفريقيا حتى السودان، كتاباً يفهمه الجميع، وأن يربط القرآن هذه الشعوب المتباينة الطبائع برابط اللغة والمشاعر..".

هنري سيروريا

مستشرق فرنسي. من آثاره: (موسى بن ميمون: ترجمته وأثاره وفلسفته) (١٩٢١)، و (الصوفية والمسيحية واليهودية)، و (فلسفة الفكر الإسلامي) الذي يكتب فيه:

".. القرآن من الله بأسلوب سام رفيع لا يدانيه أسلوب البشر، وهو في الوقت عينه، ثورة عقائدية، هذه الثورة العقائدية لا تعترف - لا بالبابا ولا أي مجمع لعلماء الكهنوت والقساؤة)، حيث لم يشعر الإسلام يوماً بالخشية والهلع من قيام مبدأ التحكيم العقلي الفلسفي. فإذا قارنا الإسلام باليهودية والمسيحية نجد بعض الخطوط المميزة والتي لا تبدو مطابقة تماماً خاصة مع المسيحية.. فالنظام المسيحي اليهودي يخالف الإسلام حيث لا يوجد فراغ بين الخالق والخلق البشري، هذا الفراغ لدى اليهود والمسيحيين مليء بالواسطة.. ولا شيء من هذا يتفق مع الإسلام. فمحمد صلى الله عليه وسلم مع كونه مبعوثاً ورسولاً من لدن الله لم يتظاهر بإنكار دعوات كل من موسى وعيسى، كل مجاهده انحصر في تقييتما على ما جاء في القرآن، الذي وضع في العام الأول مهاجمة مبدأ الثلاثية منها إلى أن عيسى ليس سوى رجل ابن مريم وليس بابن الله والقول بأن الله له ولد، هذا شرك كبير تشق له السماء وتتفتح له الأرض وتسحق له الجبال. أما روح القدس فما هو إلا بمثابة ملائكة مثل جبريل دوره هو أن ينقل إلى عيسى ومحمد الدعوة المقدسة، أما مريم فهي مريم العذراء وليس بأم الله.."

إيفلين كوبولد

نبيلة إنكليزية، اعتقلت الإسلام وزارت الحجاز، وحجت إلى بيت الله، وكتبت مذكراتها عن رحلتها تلك في كتاب لها بعنوان: (الحج إلى مكة) (لندن ١٩٣٤) والذي ترجم إلى العربية بعنوان: (البحث عن الله).

"وذكرت أيضًا ما جاء في القرآن عن خلق العالم وكيف أن الله سبحانه وتعالى قد خلق من كل نوع زوجين، وكيف أن العلم الحديث قد ذهب يؤيد هذه النظرية بعد بحوث مستطيلة ودراسات امتدت أجيالاً عديدة" (البحث عن الله، ص ٤٥).

"إن أثر القرآن في كل هذا التقدم [الحضاري الإسلامي] لا ينكر، فالقرآن هو الذي دفع العرب إلى فتح العالم، ومكّنهم من إنشاء إمبراطورية فاقت إمبراطورية الإسكندر الكبير، والإمبراطورية الرومانية سعة وقوة وعمرانًا وحضارة.." (البحث عن الله ، ص ٥١). الواقع أن جمل القرآن، وبديع أسلوبه أمر لا يستطيع له القلم وصفاً ولا تعرضاً، ومن المقرر أن تذهب الترجمة بجماليه وروعته وما ينعم به من موسيقى لفظية لست تجدها في غيره من الكتب. ولعل ما كتبه المستشرق جوهونسن بهذا الشأن يعبر كل التعبير عن رأي مثقفي الفرنجة وكبار مفكريهم قال: (إذا لم يكن شعراً، وهو أمر مشكوك به، ومن الصعب أن يقول المرء بأنه من الشعر أو غيره، فإنه في الواقع أعظم من الشعر، وهو إلى ذلك ليس تاريخاً ولا وصفاً، ثم هو ليس موعظة كموعظة الجبل ولا هو يشابه كتاب البوذيين في شيء قليل أو كثير، ولا خطباً فلسفية كمحاورات أفلاطون.

فون هامر

يقول المستشرق (فون هامر) في مقدمة ترجمته للقرآن : "القرآن ليس دستور الإسلام فحسب، وإنما هو ذروة البيان العربي ، وأسلوب القرآن المدهش يشهد على أن القرآن هو وحي من الله، وأن محمداً قد نشر سلطانه بإعجاز الخطاب، فالكلمة لم يكن من الممكن أن تكون ثمرة قريحة بشرية". "القرآن وحي من الله، لا يحده زمان، ومتضمن للحقيقة المركزة".

ليو تولستوي

ويقول الأديب الروسي (ليو تولستوي) والذي حرمه الكنيسة بسبب آرائه الحرة الجريئة : "أنا واحد من المبهوريين بالنبي محمد الذي اختاره الله الواحد لتكون آخر الرسالات على يديه، ولি�كون هو أيضاً آخر الأنبياء ... ويكفيه فخراً أنه هدى أمّة برمتها إلى نور الحق، وجعلها تجنب للسكينة والسلام ، وفتح لها.

يوشيهودي كوزان

ويقول البروفسور يوشيهودي كوزان - مدير مرصد طوكيو - نقاً عن كتاب (إنه الحق): "إن هذا القرآن يصف الكون من أعلى نقطة في الوجود ... إن الذي قال هذا القرآن يرى كل شيء في هذا الكون ، وكل شيء مكشوف أمامه".

ويحاول المفكر مارسيل بوازار أن يصل إلى سر التأثير العجيب للقرآن فيقول : "القرآن يخاطب الإنسان بكليته ... من منظور تستطيع نسبته إلى علم النفس التطبيقي".

قلت : إن الذي خلق النفس البشرية والخير بدروبها ومنعطفاتها وآفاقها ، هو الذي أنزل القرآن ليهديها السبيل. "أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ الْطَّلِيفُ الْخَيْرُ".

يوهان غوتة

غوتة الشاعر والروائي الألماني الشهير يقول:

"إن أسلوب القرآن محكم سام مثير للدهشة ... فالقرآن كتاب الكتب، واني أعتقد هذا كما يعتقد كل مسلم ... وأنا كلما قرأت القرآن شعرت أن روحي تهتز داخل جسمي ". ولما بلغ غوتة السبعين من عمره أعلن على الملأ أنه يعتزم أن يحتفل في خشوع بليلة القدر التي أنزل فيها القرآن على النبي محمد.. وفي يوم أبصر غوتة ريشة طاووس بين صفحات القرآن فهتف : "مرحباً بك في هذا المكان المقدس ، أعلى كنزي في الأرض" وفي ديوانه (الديوان الشرقي للشاعر الغربي) يقول غوتة :

هاجر إلى الشرق في طهره وصفائه

حيث الطهر والصدق والنقاء

ولتلتق كلمة الحق منزلة من الله بلسان أهل الأرض

القرآن ليس كلام البشر

فإذا أنكرنا كونه من الله

فمعنىه أننا اعتبرنا محمداً هو الإله! وفي ديوانه الرائع (الديوان الشرقي للشاعر الغربي) يخاطب شاعر الألمان غوته، أستاذة الروحي الشاعر حافظ شيرازى فيقول :

أي حافظ أنت!

إن أغانيك تتبعث السكون ...

ولأنني مهاجر إليك بآجناس البشرية المحطمة

لتحملنا في طريق الهجرة إلى المهاجر الأعظم

محمد بن عبد الله

ويقول غوته :

إننا أهل أوروبا بجميع مفاهيمنا

لم نصل بعد إلى ما وصل إليه محمد

وسوف لا يتقدم عليه أحد

لامارتين

يقول الشاعر الفرنسي الشهير (لامارتن) : "أعظم حدث في حياتي هو أنني درست حياة رسول الله محمد دراسة واعية ، وأدركت ما فيها من عظمة وخلود ، ومن ذا الذي يجرؤ على تشبهه رجل من رجال التاريخ بمحمد؟! ومن هو الرجل الذي ظهر أعظم منه ، عند النظر إلى جميع المقاييس التي تُقاس بها عظمة الإنسان؟! إن سلوكه عند النصر وطموحه الذي كان مكرساً لتبلغ الرسالة وصلواته الطويلة وحواره السماوي هذه كلها تدل على إيمان كامل مكّنه من إرساء أركان العقيدة . إن الرسول والخطيب والمحترم والفاتح ومصلح العقائد الأخرى الذي أسس عبادة غير قائمة على تقدیس الصور هو محمد ، لقد هدم الرسول المعتقدات التي تتخذ واسطة " بين الخالق والمخلوق "

جورج برناردشو

يقول الفيلسوف الإنجليزي جورج برناردشو : "لقد درست محمدًا باعتباره رجلاً مدهشاً ، فرأيته بعيداً عن مخاصة المسيح ، بل يجب أن يدعى منقذ الإنسانية ، وأوربة بدأت في العصر الراهن تفهم عقيدة التوحيد ، وربما ذهبت إلى أبعد من ذلك ، فتعترف بقدرة هذه العقيدة على حل مشكلاتها بطريقة تجلب السلام والسعادة ! فبهذه الروح يجب أن تفهموا نبوتي" إذا حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس ، فلنا إن محمداً رسول المسلمين أعظم عظام التاريخ ، فقد كبح جماح التعصب والخرافات ، وأقام فوق اليهودية وال المسيحية ودين بلاده القديم ديناً واضحًا قوياً ، استطاع أن يبقى إلى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم" لم يسجل التاريخ أن رجلاً واحداً ، سوى محمد ، كان صاحب رسالة وباقي أمة ، ومؤسس دولة ... هذه الثلاثة التي قام بها محمد ، كانت وحدة متلاحمة ، وكان الدين هو القوة التي توحدها على مدى التاريخ".

فولتير

ويقول الفيلسوف الفرنسي فولتير : "لقد قام الرسول بأعظم دور يمكن لإنسان أن يقوم به على الأرض ... إن أقل ما يقال عن محمد أنه قد جاء بكتاب وجاهد ، والإسلام لم يتغير فقط ، أما أنت ورجال دينكم فقد غيرتم دينكم عشرين مرة". ونتيجة لأبحاثي الطويلة حول فولتير أؤكد أنه اعتنق الإسلام في العقد الأخير من حياته.

هانز كونج

عالم اللاهوت السويسري المعاصر د. هانز كونج والذي يعتقد أن المسيح إنسان ورسول فحسب اختاره الله ، فيقول : "محمد نبي حقيقي بمعنى الكلمة ، ولا يمكننا بعد إنكار أن محمدًا هو المرشد القائد على طريق النجاة" ومما ميز حياة الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم أن حياته وسيرته وشمائله كلها قد حفظها لنا

التاريخ ، فليس ثمة غموض في أي ناحية من حياته وسيرته . وقد اعترف بهذه الحقيقة كبار المؤرخين الغربيين .

الكونت كاتياني

يقول الكونت كاتياني في كتابه (تاريخ الإسلام) : "أليس الرسول جديراً بأن تقدم للعالم سيرته حتى لا يطمسها الحاقدون عليه وعلى دعوته التي جاء بها لينشر في العالم الحب والسلام؟! وإن الوثائق الحقيقية التي بين أيدينا عن رسول الإسلام ندر أن نجد مثلها ، فتاریخ عیسیٰ وما ورد في شأنه في الإنجيل لا يشفی الغلیل ."

المستشرق هيل

ويقول المستشرق هيل في كتابه (حضارة العرب) : "لقد أخرج محمد للوجود أمة ، ومكّن لعبادة الله في الأرض ، ووضع أساس العدالة والمساواة الاجتماعية ، وأحل النظام والتتساق والطاعة والعزّة في أقوام كانت لا تعرف غير الفوضى ."

جان ليك

يقول المستشرق الإسباني جان ليك في كتابه (العرب) : "لا يمكن أن توصف حياة محمد بأحسن مما وصفها الله بقوله : ((ومَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)) كان محمد رحمة حقيقة ، وإنني أصلّي عليه بلهفة وشوق ."

كريستوفر دارسون

يقول المؤرخ كريستوفر دارسون في كتابه (قواعد الحركة في تاريخ العالم) : "إن الأوضاع العالمية تغيرت تغيراً مفاجئاً بفعل فرد واحد ظهر في التاريخ هو محمد ."

كليمان هوارت

ويقول الباحث الفرنسي كليمان هوارت : "لم يكن محمدنبياً عادياً ، بل استحق بحداره أن يكون خاتم الأنبياء ، لأنّه قابل كل الصعاب التي قابلت كل الأنبياء الذين سبقوه مضاعفة منبني قومه ...نبي ليس عادياً من يقسم أنه "لو

سرقت فاطمة ابنته لقطع يدها" ! ولو أن المسلمين اتخذوا رسولهم قدوة في نشر
الدعوة لأصبح العالم مسلماً .

بوشكين

ينشد الشاعر الروسي الشهير بوشكين في قصيدة رائعة يصف فيها الرسول
محمد عليه السلام ويقول:

شُقُّ الصدر

وَنُزِعَ مِنْهُ الْقَلْبُ الْخَافِقُ ...

غَسَلَتْهُ الْمَلَائِكَةُ ،

ثُمَّ أَثْبَتْ مَكَانَهُ !

قَمَ أَيْهَا النَّبِيُّ وَطَفَ الْعَالَمُ

وَأَشْعَلَ النُّورَ فِي قُلُوبِ النَّاسِ .

الفيلسوف الإنجليزي توماس كارليل

" لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد متحدث في هذا العصر أن يصفي إلى ما يقال من أن دين الإسلام كذب ، وأن محمداً خداعاً مزوراً . وإن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفية المخلجة ؛ فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثنى عشر قرناً نحو مائتي مليون من الناس ، أفكان أحديكم يظن أن هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائقه الحصر والإحصاء أكذوبة وخدعة ؟ أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبداً ، ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج ، ويصادفان منهم مثل هذا القبول ، فما الناس إلا بئنة مجانية ، فوا أسفنا (ما أسوأ هذا الزعم ، وما أضعف أهله ، وأحقهم بالرثاء والرحمة . وبعد ، فعلى من أراد أن يبلغ منزلة ما في علوم الكائنات ألا يصدق شيئاً أبته من أقوال أولئك السفهاء ؛ فإنها نتائج جيل كفر ، وعصر جحود وإلحاد ، وهي دليل على خبث القلوب ، وفساد الضمائر ، وموت الأرواح في حياة الأبدان . ولعل العالم لم ير قط رأياً أكفر من هذا وألام ، وهل

رأيتم قط عشر الإخوان ، أن رجلاً كاذباً يستطيع أن يوجد ديناً وينشره عليناً والله إن الرجل الكاذب لا يقدر أن يبني بيته من الطوب : فهو إذا لم يكن عليماً بخصائص الجير، والجص ، والتراب ، وما شاكل ذلك . فما ذلك الذي يبنيه بيته ، وإنما هو تل من الأنفاق ، وكثيب من أخلاط المواد . نعم ، وليس جديراً أن يبقى على دعائمه الثاني عشر قرناً يسكنه مائتا مليون من الأنفس ، ولكنه جدير أن تهار أركانه ، فينهدم؛ فكأنه لم يكن " وعلى ذلك ، فلسنا نعدُّ محمداً هذا قط رجلاً كاذباً متصنعاً ، يتذرع بالحيل والوسائل إلى بغائه ، ويطمح إلى درجة ملك أو سلطان ، أو إلى غير ذلك من الحقائق. وما الرسالة التي أدأها إلا حق صراح ، وما كلامته إلا قول صادق. كلا ، ما محمد بالكافر ، ولا المُلْفُق ، وهذه حقيقة تدفع كل باطل ، وتدحض حُجَّة القوم الكافرين . ثم لا تنسى شيئاً آخر ، وهو أنه لم يتلق دروساً على أستاذ أبداً ، وكانت صناعة الخط حدّيثه العهد إذ ذاك في بلاد العرب . وعجب وأيم الله أميّة العرب . ولم يقتبس محمد من نور أي إنسان آخر ، ولم يغترف من مناهل غيره ، ولم يكن إلا كجميع أشباهه من الأنبياء والعظماء ، أولئك الذين أشبعهم بالمصابيح الهدية في ظلمات الدهور . وقد رأيناه طول حياته راسخ المبدأ ، صادق العزم بعيداً ، كريماً بِرَا ، رؤوفاً ، تقيناً ، فاضلاً ، حراً ، رجلاً ، شديد الجد ، مخلصاً ، وهو مع ذلك سهل الجانب ، لِيْنَ الْعَرِيْكَةَ ، جم البشر والطلاق ، حميد العشرة ، حلو الإيّاس ، بل ربما مازح وداعب ، وكان . على العموم . تضيء وجهه ابتسامةً مشرقةً من فؤاد صادق؛ لأن من الناس من تكون ابتسامته كاذبة ككذب أعماله وأقواله ". كان عادلاً ، صادق النية ، كان ذكي اللب ، شهم الفؤاد ، كأنما بين جنبيه مصابيح .

مشاهير دخلوا في الإسلام

القس إبراهيم خليل

"إبراهيم خليل أحمد" قس مبشر مصري يحمل شهادات علياً في علم اللاهوت. أشهر إسلامه وهو يكتب عن الدين الحنيف:

"يرتبط هذا النبي (ص) بإعجاز أبد الدهر بما يخبرنا به المسيح (عليه السلام) في قوله عنه: (ويخبركم بأمور آتية)، هذا الإعجاز هو القرآن الكريم معجزة الرسول الباقي ما بقي الزمان. فالقرآن الكريم يسبق العلم الحديث في كل مناحيه: من طب، وفلك، وجغرافيا، وجيولوجيا، وقانون، واجتماع، وتاريخ.. ففي أيامنا هذه استطاع العلم أن يرى ما سبق إليه القرآن بالبيان والتعريف..."

وقال أيضاً: "إن الإسلام دين المنطق والعقل، لم يجعل وساطة بين الله والإنسان، ولم يترك مقدار الناس تحت رحمة نفر منهم يلوحون لهم بسلطان الكنيسة".

دوغلاس أشر

الدكتور دوغلاس أشر من جامايكا يعمل مديرًا للمعهد التربوي فيها، وبعدما تحول إلى الإسلام يقول:

"إن بحثي لنيل إجازة الدكتوراه كان عن التربية وبناء الأمة . ومن هنا عرفت ما تحتاج إليه الأمم لبنيتها الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، وكذلك البناء الروحي. واكتشفت أن أركان الإسلام الأساسية تقدم أساساً عظيماً وقاعدة قيمة لإعادة بناء الأمة اجتماعياً واقتصادياً وروحياً" ("رجال ونساء أسلموا" ج ٥/ ص ٥٦)، وقال أيضاً: "لو أحسين عرض الإسلام على الناس لأمكن به حل كافة المشكلات ولأمكن تلبية الحاجات الاجتماعية والروحية والسياسية للذين يعيشون في ظل الرأسمالية والشيوعية على السواء" ("رجال ونساء أسلموا" ج ٥/ ص ٥٧).

الدكتور علي سلمان بنوا طبيب فرنسي.

"تمسكت بالإسلام، بادئ ذي بدء، لأسباب وراء الطبيعة. ولكن أسباباً أخرى أيضاً دفعتني إلى ذلك. فعلى سبيل المثال، كنت أرفض ما يزعمه الرهبان لأنفسهم

بأنهم يملكون صلاحية الغفران للذنوب نيابة عن الله سبحانه وتعالى .. "رجال و نساء أسلموا" ج٦ / ص ٦).

ديبورا بوتر

ديبورا بوتر أمريكية تخرجت من فرع الصحافة بجامعة ميشيغان. تحولت إلى الإسلام وهي تتحدث واصفة إيمانها وتقول:

"عندما أكملت القرآن الكريم غمرني شعور بأن هذا هو الحق الذي يشتمل على الإجابات الشافية حول مسائل الخلق وغيرها . وأنه يقدم لنا الأحداث بطريقة منطقية نجدها متناظرة مع بعضها في غيره من الكتب الدينية . أما القرآن فيتحدث عنها في نسق رائع وأسلوب قاطع لا يدع مجالاً للشك بأن هذه هي الحقيقة وأن هذا الكلام هو من عند الله لا محالة" (رجال و نساء أسلموا" ج٨ / ص ١٠٠).

وتتحدث عن قناعة الغربيين بالإسلام وتحمية توصلهم إلى اعتقاده وتقول:

"إن الناس في أوروبا وأمريكا يُقبلون على اعتقاد الإسلام بأعداد كبيرة لأنهم متغطشون للراحة النفسية والاطمئنان الروحي بل إن عدداً من المستشرقيين والمبشرين النصارى الذين بدأوا حملتهم مصممين على القضاء على الإسلام وإظهار عيوبه المزعومة ، أصبحوا هم أنفسهم مسلمين ، وما ذلك إلا لأن الحق حجته دامغة لا سبيل إلى إنكارها" (رجال و نساء أسلموا" ج٨ / ص ١١٤).

كوفهي لال جابا

"كوفهي لال جابا" من لاهور رجل سياسة ومؤلف وصحفي.

"إن الإسلام هو أفضل دين للبشرية .. فالإسلام يتغلغل في حياة المسلم بكل تفاصيلها ، بل له الكلمة الفصل في كل نشاط يقوم به المسلم وليس هناك أي دين آخر غير الإسلام لديه الإمكانيات لحل كافة مشكلات الناس في العالم الحديث ، وهذا هو امتياز الإسلام وحده" .

هنري دي كاستري

كان ضابطاً في الجيش الفرنسي وبعدما أسلم تحدث عن الإسلام يقول:

إن العقل يختار كيف يتأنى أن تصدر تلك الآيات عن رجل أمي وقد اعترف الشرق قاطبة بأنها آيات يعجز فكر بني الإنسان عن الإتيان بمثلها لفظاً ومعنى".

(الإسلام خواطر وسوانح" ص ١٨).

وقال أيضاً : "قرأت التاريخ وكان رأيي بعد ذلك أن معاملة المسلمين للمسيحيين تدل على ترفع في المعاشرة عن الغلطة وعلى حسن مسامية ولهفة مجاملة وهو إحساس لم يشاهد في غير المسلمين آنذاك" (الإسلام خواطر وسوانح" ص ٤٤)، و

"إننا نعتقد أن استطلاع حال هذا الدين في العصر الحاضر لا يقيي أثراً لما زعموه من أنه إنما انتشر بحد الحسام . ولو كان دين محمد انتشر بالعنف والإجبار للزم أن يقف سيره بانقضائه فتوحات المسلمين مع أننا لا نزال نرى القرآن يبسط جناحه في جميع أرجاء المسكونة .." (الإسلام خواطر وسوانح" ص ٥٠-٤٨).

ناجيemoراموني

"إنني على يقين تام من أن الإسلام يعزز مبادئه وتعاليمه بالحجج المنطقية على النقيض من الأديان الأخرى . وهكذا فعل الرغم من الجهود الضخمة التي تبذلها الأديان المختلفة الأخرى فقد عجزت تماماً عن منافسة الإسلام ، ناهيك عن سبقه إلى قلوب الناس .. كما أن الملاحظ أن جميع الدعوات الأخرى في انحسار دائم أمام عظمة الإسلام" ("رجال ونساء أسلموا" ج ٩/ ص ٥٧).

بشير أحمد شاد

ولد عام ١٩٢٨ ، لأسرة مسيحية هندية . كان أبوه ماتيوس مبشرًا نصرانيًا ولذا حرص على تنشئة ابنه على ذات الطريق، وانتهى به الأمر بعد عشرين سنة من البحث والمعاناة إلى إعلان إسلامه عام ١٩٦٨ .

".. عندما آمنت بالتوحيد بدأت أبحث عن الحجج والبراهين التي تثبت أن القرآن هو كتاب الله تعالى وأنه آخر الكتب السماوية وخاتمها . وإنني أحمد الله إذ

مكنتي من حل هذه المسألة. فالقرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي يعترف بكلفة الكتب السماوية الأخرى، بينما نجد أنها جميعاً يرفض بعضها بعضاً.. وهذه في الحقيقة هي إحدى خصائص ومميزات القرآن الكريم، آخر الكتب السماوية وخاتمتها" (رجال ونساء أسلموا ، ص ٧ / ١٩ - ٢٠). إن القرآن الكريم هو الكتاب السماوي الوحيد الذي يحفظه عن ظهر قلب ألف مؤلفة من البشر في مختلف بقاع الأرض، بينما نجد أن الكتب المقدسة الأخرى محفوظة بالخط المطبوع فقط. ومن هنا لو حدث لسبب أو لآخر أن اختفت الكتب المطبوعة يظل القرآن هو كتاب الله الوحيد المحفوظ في الصدور. وهكذا يحق له أن يتبااهي بأنه ظل في مأمن من التحريف لم ينقص منه حرف واحد ولم يزد فيه حرف واحد منذ أن نزل به الوحي على رسول الله [صلى الله عليه وسلم]. فليست هناك أية تناقضات ولا أخطاء من أي نوع في القرآن الكريم.

لورا فيكسيا فاجيليري

باحثة إيطالية معاصرة انصرفت إلى التاريخ الإسلامي قديماً وحديثاً، وإلى فقه العربية وأدابها. من آثارها: (قواعد العربية) في جزئين (١٩٣٧ - ١٩٤١)، و(الإسلام) (١٩٤٦)، و(دفاع عن الإسلام) (١٩٥٢)، والعديد من الدراسات في المجالات الاستشرافية المعروفة.

"إن معجزة الإسلام العظيم هي القرآن الذي تقل إلينا الرواية الراسخة غير المنقطعة، من خلاله، أنباء تتصل بيقين مطلق. إنه كتاب لا سبيل إلى محاكاته. إن كلَّاً من تعبيراته شامل جامع، ومع ذلك فهو ذو حجم مناسب، ليس بالطويل أكثر مما ينبغي، وليس بالقصير أكثر مما ينبغي. أما أسلوبه فأصيل فريد. وليس ثمة أيمماً نمط لها هذا الأسلوب في الأدب العربي تحدُّر إلينا من العصور التي سبقته. والأثر الذي يحدثه في النفس البشرية إنما يتم من غير أيّما عوض عرضي أو اضطراري من خلال سموه السليمي. إن آياته كلها على مستوى واحد من البلاغة، حتى عندما تعالج موضوعات لابد أن تؤثر في نفسها وجرسها كموضوع الوصايا والنواهي وما إليها. إنه يكرر قصص الأنبياء [عليهم السلام] وأوصاف بدء العالم ونهايته، وصفات الله

وتقسيرها، ولكن يكررها على نحو مثير إلى درجة لا تضعف من أثرها. وهو ينتقل من موضوع إلى موضوع من غير أن يفقد قوته. إننا نقع هنا على العمق والعنوية معاً - وهما صفتان لا تجتمعان عادة حيث تجد كل صورة بلا غية تطبيقاً كاملاً فكيف يمكن أن يكون هذا الكتاب المعجز من عمل محمد [صلى الله عليه وسلم]، وهو العربي الأمي الذي لم ينظم طوال حياته غير بيتين أو ثلاثة أبيات لا ينمّ أي منها عن أدنى موهبة شعرية؟" (دفاع عن الإسلام ، ص ٥٦ - ٥٧).

إن هذا الكتاب، الذي يتلى كل يوم في طول العالم الإسلامي وعرضه، لا يoccus في نفس المؤمن أبداً حسناً بالملل. على العكس، إنه من طريق التلاوة المكررة يحب نفسه إلى المؤمنين أكثر فأكثر يوماً بعد يوم. إنه يoccus في نفس من يتلوه أو يصفى إليه حسناً عميقاً من المهابة والخشية. إن في إمكان المرأة أن يستظهروه في غير عسر، حتى إننا لنجد اليوم، على الرغم من انحسار موجة الإيمان، آلافاً من الناس القادرين على تردده عن ظهر قلب. وفي مصر وحدها عدد الحفاظ أكثر من عدد القادرين على تلاوة الأنجليل عن ظهر قلب في أوروبا كلها" (دفاع عن الإسلام ، ص ٥٩). إن انتشار الإسلام السريع لم يتم لا عن طريق القوة ولا بجهود المبشرين الموصولة. إن الذي أدى إلى ذلك الانتشار كون الكتاب الذي قدمه المسلمين للشعوب المغلوبة، مع تخييرها بين قبوله ورفضه، كتاب الله، كلمة الحق، أعظم معجزة كان في ميسور محمد [صلى الله عليه وسلم] أن يقدمها إلى المترددin في هذه الأرض" (دفاع عن الإسلام ، ص ٥٩).

لیویولد فایس

مفكر، وصحفي نمساوي، أشهر إسلامه، وتسمى بـ محمد أسد، وحكى في كتابه القيم (الطريق إلى مكة) تفاصيل رحلته إلى الإسلام. وقد أنشأ بمعاونة وليم بكتول، الذي أسلم هو الآخر، مجلة (الثقافة الإسلامية)، في حيدر آباد، الدكن (١٩٢٧) وكتب فيها دراسات وفي她 معظمها في تصحيح خطاء المستشرقين عن الإسلام. من آثاره: ترجم صحيح البخاري بتعليق وفهرس، وألف (أصول الفقه

الإسلامي)، و(الطريق إلى مكة)، و(منهاج الإسلام في الحكم)، و(الإسلام على مفترق الطرق).

"أصبحت إلسا (زوجتي)، شأنى أنا، أكثر تأثراً مع الوقت بذلك الالتسام الباطني بين تعاليم [القرآن] الأخلاقية وتوجيهاته العملية. إن الله بمقتضى القرآن، لم يطلب خضوعاً أعمى من جانب الإنسان بل خاطب عقله: إنه لا يقف بعيداً عن مصير الإنسان بل إنه (أقرب إليك من حبل الوريد) إنه لم يرسم أي خط فاصل بين الإيمان والسلوك الاجتماعي" (الطريق إلى مكة ، ص ٣١٨).

سيدني فيشر

أستاذ التاريخ في جامعة أوهايو الأمريكية، وصاحب الدراسات المتعددة في شؤون البلاد الشرقية، وله كتاب (الشرق الأوسط في العصر الإسلامي) والذي يناقش فيه العوامل الفعالة التي يرجع إليها تطور الشعوب والحوادث في هذه البلاد وأولها الإسلام.

"إن القرآن كلام الله يشد فؤاد المسلم، وتزداد روعته حين يتلى عليه بصوت مسموع، ولكنك لا تفهم هذه الروعة كما لم يفهمها زملاؤه الذين سبقوه إلى الاعتراف ببلاغة القرآن، واعتماداً على أثره البليغ في قلوب قرائه وسامعيه، ثم يقفون عند تقرير هذه البلاغة بشهادة السماع". (الشرق الأوسط في العصر الإسلامي، عن العقاد: ما يقال عن الإسلام، ص ٥٤). "إن القرآن كتاب تربية وتنقيف، وليس كل ما فيه كلاماً عن الفرائض والشعائر، وإن الفضائل التي يحث عليها المسلمين من أجمل الفضائل وأرجحها في موازين الأخلاق، وتتجلى هداية الكتاب في نواهيه كما تجلّى في أوامره". (الشرق الأوسط في العصر الإسلامي ، عن العقاد: ما يقال عن الإسلام، ص ٥٤).

هاملتون الكساندر روسكين جب

يعد السير هامتون إمام المستشرقين الإنكليز المعاصرين، أستاذ اللغة العربية في جامعة لندن سنة ١٩٢٠ ، وأستاذ في جامعة أكسفورد منذ سنة ١٩٣٧ ، وعضو

مؤسس في المجمع العلمي المصري، تفرغ للأدب العربي وحاضر بمدرسة المشرقيات بلندن. من آثاره: (دراسات في الآداب العصرية) (١٩٢٦)، (الفتوحات الإسلامية في آسيا الوسطى وعلاقتها ببلاد الصين)، (رحلات ابن بطوطة)، (اتجاهات الإسلام المعاصرة)، وهو أحد محرري دائرة المعارف الإسلامية. "إذا رأى أحد أن إلحاد القرآن على فعل الخير غير كثیر أثبتنا له بالحججة القاطعة خطأه وسفنا إليه ذلك التعريف الشامل للبر في تلك الآية العظيمة {لَيْسَ الْبَرُّ أَنْ تُؤْلِمُ وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبَرَّ مَنْ أَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبُّهِ ذُو الْقُرْبَىِ وَالْيَتَامَىِ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرَّقَابِ وَأَقامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الرَّكَعَةَ وَالْمُؤْمِنُونَ يَعْهُدُونَ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَجِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} [البقرة ١٧٧]. فالبر إذن تاج الإيمان الحق، حين يدرك المؤمن أخيراً أن الله شاهد أبداً، ويستجيب لشهادته في كل أفكاره وأعماله" (دراسات في حضارة الإسلام، ص ٢٥٤). "مهما يكن أمر استمداد الإسلام من الأديان التي سبقته فذلك لا يغير هذه الحقيقة أيضاً وهي: أن المواقف الدينية التي عبر عنها القرآن ونقلها إلى الناس تشتمل بناء دينياً جديداً متميزاً" (دراسات في حضارة الإسلام ، ص ٢٥٤).

جورج حنا

مسيحي من لبنان ، ينطلق في تفكيره من رؤية مادية طبيعية صرفة، كما هو واضح في كتابه المعروف (قصة الإنسان). يقول في (قصة الإنسان ص. ٧٩) "لابد من الإقرار بأن القرآن، فضلاً عن كونه كتاب دين وتشريع، فهو أيضاً كتاب لغة عربية فصحى. وللغة القرآن الفضل الكبير في ازدهار اللغة، ولطائفها يعود إليه أئمة اللغة، في بلاغة الكلمة وبيانها، سواء كان هؤلاء الأئمة مسلمين أم مسيحيين. وإذا كان المسلمون يعتبرون أن صوابية لغة القرآن هي نتيجة محتملة لكون القرآن منزلاً ولا تحتمل التخطئة، فالمسيحيون يعترفون أيضاً بهذه الصوابية، بقطع النظر عن كونه منزلاً أو موضوعاً، ويرجعون إليه للاستشهاد بلغته الصحيحة، كلما استعصى عليهم أمر من أمور اللغة".

إشكاليات في طريق الحوار الإسلامي المسيحي

الحوار الإسلامي-المسيحي شعار كبير نادى به الكثيرون وقلائل هم من سعوا إليه فعلاً وقد تكون الخطوة الأولى على هذا الطريق التوصل إلى تقبل الآخر في اختلافاته، بهدف معالجة هذا الحوار الذي تتفرع منه حوارات أخرى من كل الأشكال والالوان. ولعلنا نعيش حالياً "عصر الحوار"، فمن الحوار السياسي إلى الحوار الديني، مروراً بالحوار الاجتماعي، ويبقى المطلوب واحداً وهو التفاهم.

توظيف الدين

كل الأديان في جوهرها تدعو إلى السلام مع الله أو مع من تؤمن به ، ولكن استخدامات الدين من قبل البشر وتوظيفه لخدمة مصالح خاصة تحمل من الدين وسيلة للصراع والنزاع وبالتالي عدم الاستقرار. اذاً، المصالح الفردية الضيقة هي التي تستفيد من تدين الناس وتجعله وسيلة للتاحر والتآفuw غير الديمقراطي وغير الشريف بينهم.

أن تكشف إمكانات تعاور بين ما اتفق على توصيفه بالتعديدية ، أو الاختلاف، التمايز، وبالتالي بلوغ هدوء سلامي مبني على قاعدة احترام الكرامة الإنسانية، أم أمسى العالم محكوماً بإلغاء الخصوصيات؟ . على الأرجح، وفي قراءة مقتضبة لمجريات الأحداث، يبدو أن الإجابة على هذا التساؤل شائكة، إذ وتيرة التوترات، إلى تصاعد، والأصوليات إلى تمام، والمقاربات الاحتكارية للتمايزات إلى مزيد من الانفعالات غير البناءة . إلا أننا، ونحن أبناء الله الواحد إلى الله المحبة، وأبناء الرجاء مدعوون إلى استثمار في حقل الحوار الديني حوار الحياة، بما هو إغفاء لإنسانية الإنسان، وترسيخ ل Maherite المصانة كونه مخلوقاً عظيماً.

مواضيع يجب التوصل إليها

الإيمان بأن حياة الإنسان وكرامته هبة من الله وليس من أحد على أحد، التأكيد أن الواجبات أساس تقرير الحقوق ، إذ لا حقوق بدون واجبات ، فهما أمران متلازمان . الإهابة بالحكومات والدول الاعتناء بتكوين ثقافة الأجيال على أساس من الإيمان والتوازن بين الواجبات والحقوق ، من أجل إقامة التوازن الإيجابي بين المسؤوليات . احترام التعددية والخصوصية الدينية للشعوب وتحريم انتهاك حرمة المقدسات والمعابد والرموز الدينية .

إعادة الاستقرار إلى النظام العالمي.

الدفاع عن المكانة المقدسة للأنبياء والأديان السماوية.

حماية الأماكن التاريخية والتراثية.

الحفاظ على حرمة المقدسات.

ترسيخ علاقة المسلمين بالمسيحيين.

ترسيخ للعلاقات بين المسلمين والمسيحيين، التي تتحقق من خلال صفاء نظر كل من المسلم والمسيحي إلى الآخر ماهية نظرة الديانتين إلى الإنسان عامة، وإلى أتباع الديانات الأخرى والتعددية في الأديان والعلاقة بين السياسة والدين، نماذج للعيش المشترك بين الديانتين وشهادات شخصية.

مسلمون ومسيحيون في مواجهة التحديات

مؤتمر "مسلمون ومسيحيون في مواجهة التحديات" أدان الأعمال الوحشية والاعتداءات المشينة التي يقوم بها العدو الصهيوني ضد شعب فلسطين والتي تتنافى مع كل الشرائع السماوية والأعراف الدولية والضمائر الحية. وشدد على العمل المشترك الذي يجمع بين أبناء الديانتين في ترسیخ منظومة القيم لبناء إخاء إنساني شامل وتعزيز وحدة وطنية رائدة . والتمسك بالقيم والمبادئ الأخلاقية والتأكيد على حماية الأسرة وتفعيل دورها في بناء جيل واع ملتزم بتلك المبادئ التي نادت بها الأديان

السماوية...وكان الملتقى قد تناول عدداً من المحاور الهامة تشمل المسلمين والمسيحيين في مواجهة العدو المشترك والتطرف والفتنة الطائفية والتطهير العرقي والمسيخية المتضمنة .

الشهادة عن المسلمين والمسيحيين

في نطاق الحوار الإسلامي المسيحي أقيمت في الثانوية الإنجيلية اللبنانية في صور ندوة حول "الشهادة في المسيحية والإسلام" ، تحدث فيها مفتى صور وجبل عامل السيد علي الامين والمدير العام للجمعية القدس الدكتور عيسى دياب. كلمة السيد علي الامين الذي قال إن "تعاليم الأديان لا تختلف بعضها عن بعض ومحورها الإنسان. هي مدرسة تتكامل في تعاليمها وتلتقي في هذا المحور محور الإنسان والإنسانية جمعاء.

ويلدرز يشبه القرآن بكتاب كفاحي

لعله من الحكمة أن نطلع على ما يقولونه من افتراءات على الإسلام وال المسلمين. ولن يضرنا ذلك أبداً. إذ تأتي هذه الافتراءات من ضمن سياق ونهج قديم معاد وخائف من الإسلام. وهو عقدة من الإسلام وهو أيضاً محاولات يائسة لوقف انتشار الإسلام في أوروبا. وسوف نسمع افتراءات أكثر حدة من هذه في المستقبل القريب. فالغرب وضع نفسه اليوم في مكان المدافع عن كينونة زائفة وسيضطر للهجوم الكبير.

وفي هذا السياق الطائفي دعا عضو البرلمان الهولندي وزعيم حزب "الحرية" المتطرف جيرت ويلدرز إلى حظر القرآن في هولندا واصفاً إياه بأنه كتاب "فاشي" يحض من يؤمن به على القتل والاغتصاب.

وللحزب الحرية المعادي للمهاجرين تسعة مقاعد في البرلمان الهولندي الذي يضم ١٥٠ مقعداً.

وقال ويلدرز "أقول منذ عدة سنوات لا يوجد مسلمون معتدلون" مضيفاً إن القرآن يضم العديد من النصوص التي تدعى المسلمين إلى اضطهاد وقمع وقتل المسيحيين واليهود والمخالفين وغير المؤمنين وتدعى إلى ضرب واغتصاب النساء وإقامة الدولة الإسلامية بالقوة".

وقارن ويلدرز القرآن بكتاب "كافاهي" للزعيم النازي أدولف هتلر ودعا إلى حظره أسوة بكتاب هتلر المحظور في هولندا.

وأعلن ويلدرز أنه ضاق ذرعاً بالإسلام و"عبادة الله ومحمد في هولندا" مطالباً بوقف بناء المساجد في بلاده. وإن القرآن لا يمكن استخدامه في هذه البلاد كمصدر لاستلهام وتبصير العنف".

هل من حوار مع اليهودية؟

المسيحية واليهودية

قول المسيح "إنما أرسلت لخrafبني إسرائيل الضالة". وهي تعني أن مهمة المسيح كانت محصورة بالتبشير بين اليهود، فما معنى أن المسيحية ترسل المنصرين والمبشرين إلى المسلمين ولا ترسل منصراً واحداً إلى اليهود؟

إن اليهود يتهمون السيد المسيح بأنه ابن زنى، وأن السيدة العذراء زانية، ويؤكدون ذلك. وإنهم بالنسبة للمعتقد: يؤكدون بأنها ولادة من غير زواج: إلا الإسلام فإنه طهرها ودافع عن المسيح، وأنها عذراء، وبمعجزة ولدت، وأن المسيح ابن صحيح وليس ابن زنى، فكيف يقول المسيح إنما أرسلت لخrafبني إسرائيل الضالة؟ أي اليهود- فكان يجب أن يرسل المنصرون إلى اليهود وليس إلى المسلمين.

الحوار الإسلامي اليهودي

إذا كنّا نختلف مع "إسرائيل" في المسألة الفلسطينية، فهذا الخلاف ليس خلافاً دينياً، وهو بنفس الوقت خلاف سياسي مرحلي، فلن تدوم الصهيونية في أرض فلسطين ولن يستمر الصراع معها. وإن عمر هذا الخلاف صغير ولم يتجاوز القرن من الزمن حتى اليوم. ورغم ذلك فإن الحوار بين مسلمين ويهود لم يتوقف طيلة هذا القرن. فالمسلمون أفراداً وشعوباً يتعاملون مع اليهود بشكل طبيعي في المجتمعات العالمية، ونجدتهم كمواطنين في دول الغرب يتعاملون ويتحاورون دون اختلاف ودون طائفية. وكذلك فإن اليهود العرب مازالوا مواطنين في الدول العربية وفي إيران الإسلامية، وهم يعيشون كمواطنيهم المسلمين دون أي تمييز. والmuslimون يعتمدون في تعاملهم مع اليهود على المفهوم القرآني الثابت الواضح. ويدرك هنا بأن اليهود عاشوا طوال العصور الإسلامية مواطنين آمنين أحرازاً ومساهمين في كافة نشاطات الحكومات الإسلامية المتالية. وقد ازدهر اليهود بين المسلمين بالعمل التجاري والصناعي. وحققوا ثروات كبيرة خلفوها لأحفادهم الحاليين.

ولعلنا إذا قرأنا التاريخ، رأينا أن المسلمين هم الذين احتضنوا اليهود وساعدوهم في العالم الإسلامي في مدى التاريخ. إن اليهود قالوا إن فلسطين هي لهم من الله، ونحن نناقشوهم في هذه المسألة، لأن فلسطين لم تكن أرضاً خالية من الناس، بل كان فيها شعوب عاشت منذ مئات السنين في هذه الأرض، وجاء اليهود وطردوا الأغلبية منهم، وهم لا يريدون لأهلها أن يرجعوا، فالخلاف هو سياسي؛ هل فلسطين لكل أهلها، لليهود والمسلمين والنصارى، أو أنها لليهود فقط ولا حق للنصارى والمسلمين فيها؟ هذه قضايا سياسية.

نحن نختلف معهم في أنهم يقولون إن حقهم في أرض فلسطين هو حق ديني، وأن الله وهبهم هذا الحق قبل ثلاثة آلاف سنة. ونحن نقول إن الله جعل الأرض للناس كلهم، وأن الشعوب تتحرك، فهناك شعب مثلًا يأتي اليوم ثم يأتي شعب آخر غداً، لذلك لا نستطيع أن نعتبر أن الأرض التي سكنتها شعوب قبل آلاف السنين، هي من حقهم اليوم. ولهذا فإن المسألة بيننا وبين اليهود في إسرائيل هي مسألة ثقافية

حضارية سياسية وليس مسألة دينية، نحن نختلف معهم في بعض الأمور الدينية، وهذا أمر طبيعي فلكل دين خصائصه وتعاليمه، ولكن لا نحاربهم لأنهم هم يتبنّون الدين اليهودي ونحن نبني الدين الإسلامي.

الحرب في الإسلام وقائمة

الحرب في الإسلام ليست حرباً عدوانية هجومية، بل هي حرب دفاعية وقائية، حتى يدافع الإنسان عن نفسه وعن أمهاته، وأيضاً ليتوقّى هجوم الآخرين عليه.

إنَّ الإسلام يقول في القرآن الكريم، طالما أنَّ الآخرين لا يقاتلونكم في دينكم ولا يطردونكم من أرضكم، فعليكم أن تحسنوا إليهم، وأن تقوموا معهم على أساس أن تعطوهم كل حقوقهم، وأن تعدلوا فيهم. فالقرآن الكريم يريد أن يؤكد للجميع أنَّ هناك إمكانات للقاء بين الأديان في القضايا المشتركة، وللحوار معها، سواء كان الدين يهوديًّا أو نصرانيًّا أو بوذياً أو هندوسيًّا. علينا أن نتحاور معهم حواراً علمياً مبنياً على العقل، ولا نعتقد أنَّ الخلاف السياسي يجعلنا نحارب الذين نختلف معهم سياسياً، بل إنَّ الخلاف السياسي يمكن أن نحلُّه بالحوار الموضوعي المركز على أسس إنسانية.

بمقدار ماهي الحرب في الإسلام وقائمة فإننا نجدها عند الغرب عدائية وطائفية. فالغرب هو الذي بدأ العدائية مع المسلمين منذ قرون واستمر بعدها حتى اليوم. ومن الطبيعي ألا نفصل الصهيونية عن الغرب فهو لاء القلة الذين يدعون بأنهم يشكلون دولة هم رعاع هاجروا من الغرب واستوطنو في فلسطين وعملوا على إبادة السكان الفلسطينيين وكل ذلك بتقويض ودعم من الغرب. وما إسرائيل كلها إلا أحد جوانب محاربة الغرب للمسلمين ومحاولته القضاء على ظاهرة الإسلام وامتدادها. فإسرائيل كلها مشروع معاد للإسلام. وبالتالي فهي مشروع طائفي.

الذين يغدّ هيمنة القوة

الأديان السماوية هي ضد سيطرة الإنسان على الإنسان، ضد المستكبرين الذين يرون أنفسهم أعلى وأضخم من الإنسان الطبيعي. لذلك فإن بعض السياسات في الغرب أو في الشرق، تُسيء إلى الإنسان الضعيف الطيب الذي يريد أن يعيش حياته بعزة وحرية وحسب المنهج الإسلامي الحنيف، فإن كلَّ الثروات الطبيعية الموجودة في العالم هي ملك الناس جميعاً، وقد أراد الله للناس جميعاً أن يستفيدوا منها، فلا يحق لشعب أن يفتسبها ويستخرّها لمصالحه الخاصة ويحرم الآخرين منها ومن عوائدها. فالغرب له مصالح عندنا في الشرق، وإنَّ لنا مصالح أيضاً عند العالم في الغرب، ومن الطبيعي أن تكون العلاقة بين الشعوب مبنية على أساس احترام المصالح المتبادلة، وعلى أساس الاحترام المتبادل لإنسانيتنا وإنسانيتهم. لا على أساس القوة والهيمنة. والمسيحية نفسها تمنع حكام الغرب من ممارساتهم التي تتصف بالعداوة والهيمنة والسيطرة على ثروات الشعوب العربية والإسلامية.

السلام العالمي الممكّن

السلام العالمي ممكّن مع المسلمين ومعلن دوماً من قبل المسلمين وهو رغبة المسلمين جميعاً. لكن الغرب لا يتجه في سياساته مع المسلمين لا يتجه في طريق السلام بل هو يعمل دوماً في طريق الصدام.

نحن نحبُّ أن نعيش بسلام، لا نريد لأية قوة في العالم أن تصادر حرياتنا أو أن تمنعنا من استغلال ثرواتنا في عملية الاكتفاء الذاتي، كما نحبُّ أيضاً أن تكون علاقاتنا مع العالم علاقات عدل وسلام، وقد ذكرنا أنَّ مشكلتنا مع الإدارة الأمريكية، هي أنها عملت على أن تحتلَّ بعض الواقع الإسلامية، وأن تتدخل أيضاً بكلِّ شؤون المسلمين بما لا يريدون، ونحن لا نعتقد أنها في هذه السياسة تؤذى المسلمين وحدهم، بل تؤذى المسيحيين الموجودين في الشرق.

ردع المحتدّي واجب إسلامي مسيحي

علينا أن نتحاور مع الشعوب التي تحبُ الحرية وتحب السلام وتحب الله، وأن نتعاون معهم على إقناع الذين يتحركون بالإرهاب والعنف والتطرف لتعيدهم إلى خط الإنسانية، وإذا لم نستطع ذلك، فعلينا أن نرفضهم، وأن ننطلق في العالم حتى نشكل فريقاً كبيراً يمثل القوة التي تردع كل إرهاب وكل تطرف. وعلى ضوء هذا، يمكن أن نفهم الناس أنَّ سياسة بوش، ومعه المحافظون الجدد، لا تمثل الشعب الأمريكي، وأن الشعب الأمريكي هو شعب طيب، وعلينا أن نكون أصدقاء له ونتعاون معه ونستفيد من خبرته، كما علينا أن نقول للشعب الأمريكي، إننا أناس مسالمون وطيبون نحبُ الحرية كما يحبُها الشعب الأمريكي. نحن نريد للشعب الأمريكي أن يقنع الرئيس بوش وإدارته بأنَّ سياسته أدت إلى أن يسيء العالم لهم الشعب الأمريكي، وأن يكره هذا الشعب، مع أنَّ فيه أناساً طيبين. نحن نلتقي معكم في معارضتكم لسياسة بوش، سواء سياسته في الحرب أو في الاقتصاد، ونحن أيضاً نعارض الرئيس بوش في سياسته في الاحتلال وفي تدمير اقتصادنا وأمننا، فنحن وأنتم في خط واحد، وهو معارضة سياسة الإدارة الأمريكية التي تسيء إلى سلام الشعوب، ونريد للشعب الأمريكي أن يختار رئيساً وإدارة يمكن لها أن تفتح أمريكا على كل شعوب العالم بالمحبة.

حقيقة (الله في صهيون)

لعلَّ من أخطر العقائد التي تشرها الصهيونية طوال التاريخ اليهودي عقيدة جديدة تخلط مجموعة من المبادئ والقيم وتصل في نهايتها إلى أن يسوع المسيح سيظهر في صهيون بعد أن يباد المسلمين جميعاً باسم رب المسيحي اليهودي. ويؤمن بهذه العقيدة حسب بعض الإحصائيات ٢٥ % من الأمريكيين. ويعتقد هؤلاء بأنهم يولدون من جديد حين اعتقادهم للعقيدة الجديدة. وجميعهم من الإنجيليين. وإن نسبة ٧٥ % من الأولاد الذين يدرسون في البيوت في الولايات المتحدة هم من الإنجيليون.

وهذه العقيدة موجهة بالدرجة الأولى لهم، وتخصص لهم إذاعات محلية وقنوات تلفزيونية ومواقع الكترونية.

و ضمن برامج تدريبية تجري في (معسكرات الرب) يجري تعليم الناشئين على القتل والتكسيير والتدمير والإبادة. ومن بين تلك التمارين يحمل التلاميذ مطارات مربعة ويقومون بتكسير فناجين وكؤوس وسط أجواء مرعبة وموسيقا خاصة بتلك التمارين. وبهذه الطرق يجري تحضير الناشئين ليمارسوا في المستقبل الإبادة والقتل والتدمير ضد العدو الذي يقال لهم بأنه (المسلم والعربي).

ونذكر هنا بعضاً من تعاليم هذه العقيدة:

- تركَّز هذه الديانة الجديدة على العداء للمسلمين جميعاً. وتعلم أتباعها كره الإسلام والمسلمين كرهاً تاماً.

- تجمع هذه العقيدة الأفراد المسيحيين في الولايات المتحدة وبسبب جهلهم بال المسيحية نفسها فهي تتفهم بعقيدة ظاهرها ديني مسيحي وحقيقة صهيونمسيحية بعيدة عن كافة القيم الدينية.

- من ضمن العقائد بعض المفردات والمظاهر الإسلامية التي استقاها أولئك المبدعون الصهابيون من التصوف الإسلامي وغيره.

- يعتقدون بالحلول الإلهي فيهم.

- يدعون لشنّ حرب مقدسة مستمرة ضد المسلمين أينما وجدوا.

- يهاجمون كلَّ الكنائس المسيحية الأخرى ويعتبرونها كافرة.

- تدعى المعلمة تلامذتها إلى تغيير العالم كله، وتعتبر العالم كافراً.

- ومن بين التعاليم الرئيسية لهذه العقيدة:

"تأسست أمتنا على القيم اليهودية المسيحية - في العالم نوعان من البشر نوع يحبون المسيح، وأخرون يكرهونه وهم المسلمون. - لشنّ حرباً مقدسة باسم الله على أولئك المسلمين - الشيطان رمز الخطيئة التي تريد تدميركم - السحرة أعداء الله - تمجيد الصهيونية وأمريكا ويسوع هي أركان الإيمان - الله يصون الآلات

الموسيقية والأجهزة الكهربائية وأجهزة الصوت وأجهزة الحواسب لأنها داخل المدرسة الدينية.

تحدث الأستاذة في المعهد الديني السيدة (بيكي فيشر) للإعلام وتقول: "نحن نؤمن بقضية المسيح مثلاً يؤمن أولئك بقضية الإسلام، والفضل في تعليم ونشر هذه العقيدة يعود للرئيس جورج بوش الابن وهو رجل مؤمن. عند المسلمين أفراد انتشاريون يتم تعليمهم وتدریبهم ، ونرى ذلك في الواقع الأنترنيت . ونحن نعلم أبناء أمريكا أن يستعيدوا الأرض من المسلمين". وهي بذلك تؤيد الاحتلال الأمريكي للعراق وتعتبره جزءاً من الحرب الدينية التي تهدف لاستعادة الأرض المقدسة من المسلمين.

ومن أغرب مانراه في هذه العقيدة والطقوس أنها أخذت عن الصوفية الإسلامية طرفاً وأشكالاً تظن أنها عناصر دينية إسلامية ، ومن بين هذه الأشكال: اعتقادهم بأنهم ينجون الله وبأن الله يكلّمهم ويحدثهم ويوحى لهم ، فأصبح كل صبي دخل هذا المعسكر الديني منذ الدقيقة الأولى مناجياً لله وسامعاً لخطاب الله. ويمارس هؤلاء رقصاً دينياً على إيقاع البوب وغيره أثناء الصلاة والمناجاة. ويبكون من انفعالاتهم ورعبهم وخوفهم بآيات من المرشد الديني. ورغم ذلك فإن هذه المدارس الصهيومسيحية أقيمت لمحاربة المسلمين أينما وجدوا. إذ تتطرق المرشدة الدينية (والتي لا يدلي وجهها على أية علامات دينية أو أمارات تقوى بل يحمل أمارات الكره والحقد والسفك والذبح) تتطرق باستمرار إلى الحديث عن المسلمين وتقارن كلّ حالة في مدرستها بأمور عند المسلمين. وتقول لتلامذتها في الدروس: إن المسلمين يصومون رمضان ويجبرون أولادهم على الصوم ، أولادهم صغار مثلكم. عليكم أن تتعلموا شطف العيش مثلهم. علينا أن نغير هذا العالم الذي يتحكم به المسلمين. وتعلم تلامذتها بوضوح واجب إبادة الشعوب العربية والإسلامية واحتلال بلدانها بدعة أنهم أحق بامتلاكها لأنها أرض المعاد المقدسة فتقول الكاهن يذكر تلامذتها (لنستعيد منهم الأرض المقدسة). وبالطبع ستفشل كل تلك الادعاءات والمساعي وسيرفضها الأميركيون والمسيحيون بل واليهود أنفسهم. وثمة أصوات غريبة كثيرة نسمعها تعادي هذه الأنواع من التطرف.

الإسلام للجميع

الإسلام للجميع، وليس لأحد الحق أو التصريح بأن ينفي الإسلام عن الآخرين الذين يقولون (نحن مسلمون). وليس لأحد الحق أو الترخيص بأن يكفر بشكل اعتباطي أحداً أو جماعة أو فئة من المسلمين. فالمتطرفون مسلمون والقاعدة مسلمون والإخوان مسلمون وفتح الإسلام مسلمون وحماس وحزب الله مسلمون. والعلمانيون العرب (البعث والاشتراكيون والقوميون والشيوعيون) مسلمون وكافة حكام الدول الإسلامية وشعبيها مسلمون. والستة والشيعة والدروز والإسماعيلية والعلوية مسلمون. إنَّ أخطاء تجريد التطرف من الإسلام الذي يعتقده الأفراد المتطرفون أمرٌ يضر بالحوار مع التطرف نفسه، بل ويلغي الحوار كله. في حين أن ذلك الحوار ضروري. فالمتطرفون هم أبناء مجتمعاتنا، وهم أبناء أسر ولهم آباء وأبناء وإخوة وأقارب وأصدقاء، ولا يمكن نفيهم من الإسلام، بل يمكن محاورتهم داخل الثقافة الإسلامية وبواسطة الفكر والفقه والعقيدة.

والإسلام هو ملك للبشرية جموعاً فيمكن لأي شخص مهما كان دينه أن يقوم بدراسات فكرية وتحليلية أو اتجاهات تقييد المسلمين وتكون خطوات في تطورهم.

فترة مسلمة

ولدت في الدنمارك، وتربيت في عائلة أردنية مسيحية في الأردن كان أبي قسيساً (رجل دين مسيحي) لأربعة كنائس وتعتبر أمي من أكبر قادة النساء المسيحيات في مجتمع الشرق الأوسط. وقد كنت قائدة لشبوبة وأطفال الكنيسة، ابتدأت قصتي عندما كنت صغيرة، لقد كرهت الإسلام كرهاً شديداً، وعندما كنت في الصف العاشر، رأيت فتاة مسلمة تصلِّي فركلتها بقدمي ودفعتها . وقد تراجعت مع الكثير من البنات في المدرسة الإعدادية الحكومية، وأردت أن أريهم كم أنا مثقفة، لذلك كنت أحضر الكتاب المقدس (التوراة والإنجيل) معي كل يوم، وأقرأ بصوت مرتفع، أو أكتب نصاً منه على اللوح كحكمة اليوم. في الصف الحادي

عشرة (قبل التخرج)، أذكر أنني قررت أن أحضر درس الثقافة الإسلامية وأستمع لما ي قوله البنات عن الدين المسيحي. وقالوا إن الانجيل محرف ومغير، ففضبت كثيراً وشرحتم لهم أن الانجيل إعجازي. تساءلت البنات عنني وأردن معرفتي أكثر، لذلك أتينا ويدأن يطرحون علي الأسئلة عن ديني حياتي وكنت أنا أجيبهن وأريهن الكتاب المقدس ولدائله لمحاولة إقناعهن بدين المسيحية. حتى أنه في يوم من الأيام نادتني معلمة اللغة العربية وقالت لي إنه يجب علي التوقف عن التحدث مع البنات عن الدين المسيحي لأن القانون لا يسمح بذلك، وأصبح لدى الحقد والكره للMuslimين والإسلام. فزادت خدمتي التبشيرية وأردت من الإسلام أن يتحول إلى مسيحية، حتى أتيت عزماً بعض صديقاتي المسلمات أن يأتين إلى الكنيسة لإقناعهن بالدين المسيحي. تخرجت من المدرسة الثانوية لأنقل إلى الجامعة وأدرس الكيمياء في جامعة مؤتة في الأردن، أذكر أننا في المحاضرات نقاشنا عن الجنة والنار، وعن حقوق المرأة في الدينين الإسلام والمسيحية، حتى أتنا تحدثنا عن الانجيل والتوراة، وكعادتي كنت أحضر معى الكتاب المقدس لأثبت له صحة كلامي وأنكر كلام الدكتور. حتى أنه في يوم من الأيام سألي الدكتور كيما ألاقيه في مكتبه وقال لي إن لدى معلومات زخمة عن الدينين وأخذ يدعوني للإسلام، فأجبته مستبدة: "اسمع دكتور، أنا ولدت مسيحية، وأبي قسيس لأربع كنائس، وأمي شخصية مهمة في المجتمع المسيحي، لذلك لا مجال لي أبداً أن أغير ديني، بعد فترة من الزمن، بدأت أهاجم الدكتور بنقاشاتي بحكمي على الإسلام، وصرحت له أنه خطأ وأن كل الإسلام خطأ. بدأ الطلاب يشعرون بالفضولية، وكانوا حفاظاً مستغربين من جرأتي، حتى أن بعضًا منهم كانوا يأتون إلي في مكان منعزل بعد موعد الشخص ويسألونني عن ديني، ولكنني كنت أجلس في مكان عام غير مهتمة وأبدأ المناقشة معهم. إلى أن الدكتور محمد رواشدة (دكتور الثقافة الإسلامية) ناداني إلى مكتبه وصرح لي أنني أفشل فتنة في الكلية لأنني أتحدث مع الناس عن المسيحية ومحاولة ارتداهم عن الدين الإسلامي. فسألته عن معنى قوله. قال لي بكل بساطة: "إن الفصل القادم، لن أكون في الكلية أبداً" لم أهتم بكلامه حتى جاء الفصل القادم لأسجل صفوفي، فقال لي المسجل إنني مفصولة من

الكلية ولم يعد حتى اسمى في برنامج الجامعة. غضبت كثيراً وتركت الجامعة وهاجرت إلى ولاية تكساس في الولايات المتحدة الأمريكية في عام ٢٠٠٢، محاولة بداية حياتي من الصفر، وكانت أذهب إلى كنيسة دالاس المعمدانية العربية، وكان عمي هو قسيس هذه الكنيسة. في الحقيقة لم أحب العيش هناك فاتصل أهلي مع عائلة مسيحية في ولاية أريزونا لأذهب وأعيش عندهم وأبدأ حياتي مرة أخرى، وهكذا وجدت عملاً وبدأت دراستي في الكلية وأنا ما زلت أذهب إلى الكنيسة أعمل نشاطاتي المسيحية المعتادة، حتى أني كنت أبعث بعض البرامج والمناهج الجديدة للكنيسة في الأردن وأساعد في تدريس الإنجيل مع الأطفال. أتيت إلى الولايات المتحدة لأبشر عن المسيحية وأكمل خدمتي التبشيرية، وكان هدفي الوصول إلى العرب المسلمين ومحاولة ارتداهم للمسيحية، لأنني أعتقد أن أمريكا هي دولة حرة فيها حرية الفكر والتعبير والكلام.

كان لديه المعرفة الواسعة في القرآن والسنة، لهذا لم أحبه أبداً:

وهكذا تقابلت مع مجموعة من الأصدقاء المسلمين، وببدأنا التحدث عن البيانات المسيحية والإسلامية، فأنا أعلم التوراة والإنجيل حق المعرفة، كنت أناقشهم بحدة وأحاول إقناعهم للارتداد. وهكذا أحضر أصدقائي شاباً اسمه المصطفى بالحور - الذي هو زوجي الآن - ليكمل في النقاش معي. وكانت بالنسبة لي كالسباق، فعلاً كان لديه المعرفة الواسعة في القرآن والسنة، لهذا لم أحبه أبداً. وكنت معظم الوقت أحاره إضافة الكاز على الدخان لتضخيم المسائل الدينية، وأحياناً نصل إلى نهاية عقيمة مغلقة، فأنا كنت عنيدة جداً حتى أني بدأت أحس بالارهاق. على كل حال، كانت أمي قادمة في أيلول ٢٠٠٥ واعتقدت أن هذه حجة مناسبة لتجنب النقاش والذهاب بسبيلي، لأنني كنتأشعر بالضيق.

لم يقل أبداً: أنا الله:

كنت أعتقد أنها ستكون إهانة لي لو خسرت النقاش، لذلك قلت لأصدقائي أن علي الذهاب، ولكن مصطفى ناداني باسمي وقال: "أريد دليلاً" فسألته عم يتحدث، قال: "أذهبني فتشي الانجيل بكماله، لن تجدي آية واحدة تفصل أن المسيح

قال عن نفسه هو الله، لم يقل أبداً: أنا الله". لقد وجدت هذه الفرصة المناسبة لدعوته للمسيح (الذي كنت أعتقد أنه المخلص الشفيع وأنه ابن الله) فقلتها بسخرية: "ما الذي تقوله، إنه من المؤكد أن هناك آيات كثيرة تقول أن المسيح هو الله؟" قال مصطفى: "أرني الدليل" ذهبت للبيت وهذا السؤال عالق في عقلي يؤنبني فتحت الإنجيل وبدأت البحث، وبعدها ذهبت إلى الانترنت للبحث، ومن ثم إلى الكتب ولم أجد شيئاً. وبعدها سألت أمي وبدأ نقاشي معها. قالت لي: "في الحقيقة لا يوجد هناك آية حقيقة تصرح أن المسيح قال عن نفسه أنه هو الله، ولكنني قال: من رأني فقد رأى الآب". فأجبت: "ولكن الآب والابن ليسا متشابهين؟" قالت: "ولكنك تعلمين أن لهم نفس المستوى في القوى، وهم واحد في الثالوث الأقدس (الآب والابن والروح القدس)" لذا فإن القضية الأولى فاشلة ولا يوجد لديها أي دليل،

القضية الثانية هي: أن المسيح هو الابن (ابن الله) بدأت بالبحث أكثر، ووجدت أن هناك معادلة مكتوبة في الإنجيل، إنجيل يوحنا 1:1 "في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله" حسناؤ إذا فإن الكلمة هي المسيح الذي خلق من بدء الخليقة وهو كان عند الله ولكن في نفس الآية أو العدد يقول: "وكان الكلمة الله" فتعجبت أن الله=mسيح وأن الله مع المسيح في نفس الوقت! كيف يكون هذا؟ هذه معادلة رياضية باطلة، كيف يمكن أن يكون المسيح الله وهو معه في نفس الوقت، هل هو مقصوم الشخصية؟ هذا شيء غير واقعي ولا يمكن أن يتخيله العقل لذا فقد تركت هذا النص وتوجهت إلى نص آخر، إلى رسالة يوحنا الأولى لاصحاح الخامس وعدد 7 يقول: "إإن الذين يشهدون في السماء هم ثلاثة الآب والكلمة والروح القدس وهو لاء الثلاثة هم واحد" فرحت جداً لأنني اعتقدت أنني وجدت الحل: الآب=الابن=الروح القدس (هم واحد) ولكن العدد الذي بعده مباشرة 8 يقول: "والذين يشهدون في الأرض هم ثلاثة الروح والماء والدم والثلاثة هم في الواحد" الروح=الروح القدس، الماء=الآب، والدم=الابن. فكيف يمكن أن يكون الثلاثة=(هم) واحد والثلاثة (في) واحد في نفس الوقت، هناك فرق بين المعنيين. ثلاثة (هم) واحد معناها أنهم الثلاثة في نفس المستوى في كل شيء حتى في القوى

والمكونات (مثال: الماء تتشكل إلى ثلاثة أشكال السائل، الصلب والغاز، ولكنها لا تتأثر كيميائياً فهي تحتوي على الهيدروجين والأوكسجين). أما الثلاثة في (واحد) فانها تشبه ثلاثة إخوان لهم نفس اسم العائلة، ولكنهم ثلاثة شخصيات مختلفة. بالإضافة أنه إذا فعلَّا اعتقدت أن الله ثلاثة، فلمَّا لدينا خلية واحدة وليس ثلاثة؟ فعلى سبيل المثال لو أحضرنا ثلاثة رسامين ليرسموا لنا شجرة معينة، كل واحد منهم سوف يرسمها بأسلوبه الخاص تبعاً لطريقة تفكيره، وحتى إذا كانوا الثلاثة في الواحد يخلقون الخلية، فإنَّ كلَّ واحد منهم سوف يخلقها بطريقة مختلفة عن الأخرى، حتى لو كانت بنفس الهدف ولكن ستكون بأسلوب كل واحد منهم الخاص. وهنا بدأت أرى التناقض في الكتاب المقدس، فمن أين حصلت بهذا الكتاب؟ أنا أعلم أن المسيح قال عن نفسه ابن الله ولكنني أعلم أن جميع اليهود يطلقون على أنفسهم أولاد الله وهم ناس بشر مثنا، وهذا التعبير كان دارجاً في ذلك الوقت.

المسيح كان يصلِّي، فلمن كان يصلِّي؟

المسيح كان نفسه يجلس لوحده ويصلِّي، فلمن كان يصلِّي؟ كان يصلِّي لنفسه؟ كان يدعُو الله، حتى أن الكتاب المقدس يثبت ذلك: "في ذلك الوقت اجاب يسوع وقال أحمدك أيها الآب رب السماء والأرض لأنك أخفيت هذه عن الحكمة" متى ١١:٢٥ "ثم تقدم قليلاً وخرَّ على وجهه وكان يصلِّي قائلاً يا أباه إن أمكن فلتعبر عنِي هذه الكاس ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت" متى ٢٦:٣٩ "فمضى أيضاً ثانية وصلَّى قائلاً يا أباه إن لم يمكن أن تعبر عنِي هذه الكاس إلا أن أشرِّها فلتكن مشيئتك" متى ٤٢:٢٦ "وبعدما صرف الجموع صعد إلى الجبل منفرداً ليصلِّي ولما صار المساء كان هناك وحده" متى ١٤:٢٦ "وفي الصباح الباكر جداً قام وخرج ومضى إلى موضع خلاء وكان يصلِّي هناك" لوقا ١:٢٥ "وبعدما ودعهم مضى إلى الجبل ليصلِّي" لوقا ٤٦:٦ "ولما اعتمد جميع الشعب اعتمد يسوع أيضاً. وازدَّ كان يصلِّي انفتحت السماء" لوقا ٣:٢١ "وأما هو فكان يعتزل في البراري ويصلِّي" لوقا

١٦: "وفي تلك الأيام خرج إلى الجبل ليصلّي، وقضى الليل كله في الصلاة لله" لوقا
 ١٧: وغيرها من الأمثلة الأخرى. بالإضافة إلى أن هناك ذاكرة أخرى لمعت لي أنه
 عندما كنت أدرس اللاهوت (العقيدة) المسيحية، جاء أحد الدكتاترة البريطانية
 الكبار، وكان يعلمنا عن تاريخ الكتاب المقدس، وأذكر أنه قال حرفياً: "حسناً ..
 لقد ذهبت إلى المعرض في بريطانيا لأرى نصوص الانجيل الأصلية المكتشفة، ولم
 أجد غير أوراق محروقة، وممزقة وضائعة" فنظرت إلى الكتاب بين يدي وسألت في
 نفسي ما هذا الكتاب؟! من أين جاءت كل هذه الكلمات في الكتاب؟! إذا كنت
 أعبد **الهـ** كاملاً ليس فيه عيب واحد، فكيف يمكنني بالإيمان بكتاب غير
 كامل أو غير محفوظ؟! هذا ليس صحيحاً وبدأت التفكير والتأمل، لو أنها أخذنا
 كل الكتب السماوية التي على الأرض ورميناها بعيداً، ثم سألنا الناس ليحضروا
 كتاباً آخر مطابقاً للكتب الأولى، فلن أجده مسيحياً واحداً يحضر لي إنجيلاً
 مطابقاً له، بينما سأجد على الأقل مليون مسلم حافظين القرآن ظهراً عن قلب لأن
 المسيحيين لديهم نسخ كثيرة مختلفة عن بعضها البعض، وما زالوا يكتشفون
 نصوصاً إنجيلية جديدة إلى حد الآن، أليس هذا عجيباً؟

هل مات المسيح

بعد ذلك بدأت أدرس لاهوت صلب المسيح، فهل مات المسيح حقاً؟ وبدأت
 بالتفكير بهذا الانجيل الذي بين أيدينا، هل هو حقيقي؟ الأشخاص الذين كتبوا
 الأنجليل هم يهود تبعوا المسيح وراقبوه وكتبوا سيرة حياته .. لقد رأوه يموت على
 الصليب .. ولكن هل من الضرورة أنهم رأوا نفس الشخص المسيح الذي يصلي
 في القرآن الكريم يقول الله عز وجل: "وَقُولُهُمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ
 رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبَهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ احْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مُّتَّهِ
 مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتَّبَاعُ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧)" بـ رَفْعَةُ اللَّهِ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ
 عَزِيزاً حَكِيمًا (١٥٨)" فإذا الناس الذين رأوا المسيح يقتل، رأوا شخصاً مشابهاً له.
 فإذا ما هذا الذي بين أيدينا؟! سيرة المسيح وأكثر من ٧٥٪ ملقة. والآن ما قد

حصلت على النتيجة بين يدي: المسيح هو ليس الله، ولا حتى ابن الله .. خفت كثيراً وقلقت لدرجة لا تصدق. كل هذه السنوات ٢٤ سنة من حياتي وأنا أدرس نظريات غير معتمدة من الإنجيل والتوراة. ٢٤ سنة من حياتي أعبد الإله الخاطئ ٢٤ سنة من حياتي ذهبت سدى، كذبة محققة. أردت الانتحار، شعرت أن الأرض تهتز من تحت قدمي، وأصابني الرعب. أردت أن أرجع إلى بداية المطاف وأبحث من جديد لأثبت العكس، ولكنني صمت قليلاً، لا أعرف ما الذي سيحدث بعدها .. شعرت أنني أدمي حياتي. وصرت أفكراً .. أنا آؤمن أن المسيح الآن هو إنسان نبي مرسى من الله سبحانه وتعالى، وأنا آؤمن بجميع الأنبياء الذين قبله .. ولكن كانت لدى هناك مشكلة بسيطة مع النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) وفي الحقيقة لم أتعلم شيئاً عن حياته، وكل ما أعلمه هي معرفة بسيطة عن طريق المسيحية الذين زرعوا في داخلي هذه الأفكار عنه (صلى الله عليه وسلم)، ولكن كيف يعظم الناس المسلمين طوال الوقت؟ قلت، كيف يمكن أن تكون هذه مشكلة والقرآن الكريم أتى من الله من خلال النبي محمد صلى الله عليه وسلم؟ إنه حقاً لرجل متميز .. أعظم الخلق (صلى الله عليه وسلم) إذاً فهي ليست مشكلة أبداً أن آؤمن بنبي آخر وهو خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم. بالإضافة أنني أعلم أن هناك إنجيلاً خامساً غير قانوني أو شرعي لدى المسيحية اسمه (برنابا) لأن هناك الآية التي يقول فيها المسيح (سيأتي بعدي نبي اسمه أحمد) ويحدثنا أيضاً أن المسيح عليه السلام شبه به ولم يمت على الصليب بل ارتفع قبل إمساكه.

تركت غرفتي بعد تأمل طويل وتفكير عميق في البحث، واتصلت مع أصدقائي المسلمين الذين لم أرهم منذ شهرين على الأقل. وذهبت لرؤيتهم. فعلاً كنت أصلي إلى الله وأبكي: "إذا كان هو الطريق الصحيح، فغير حياتي، وإذا لم تكن فاجعلني أموت في حادث سيارة قبل أن أصل أصدقائي واجعلني أدخل الجنة .." فكل ما أريده هو الحقيقة ومرضاتك يارب، وكل ما أبغيه هو الجنة" وهكذا وصلت إلى أصدقائي ودموعي تذرف من عيني، فاعتقدوا أن شيئاً مكروهاً قد حدث لي، وكان هناك زوجي الحالي مصطفى، وكان الجميع ينتظر مني أن

تكلم ليعلموا حقيقة أمري، ثم استطردت: أشهد أن لا إله إلا الله .. وأشهد أن محمداً رسول الله. عم الصمت لعدة دقائق والجميع يرمي باندھاش، ثم قال مصطفى ساخراً: "أسكتي .." وبدأت بالبكاء والشهيق" وقلت له: "غداً سيكون أول يوم في رمضان، والآن ستعلملي كيف أفعل الوضوء وكيف أصلي وكل شيء" عندما سمعني أقول ذلك ورأى الاصرار في عيني، وقع علي باكياً من الفرحة والانفعال الشديدين وعاتقني مرحباً بي في الإسلام وفعلاً تعلم الصلاة وكل التقاليد والسنن في ليلة واحدة، واشتريت حجاباً وبدأت أمارس عقيدتي الجديدة. ولكنني أخفيت إسلامي عن العائلة لمدة أسبوعين. في ذلك الوقت، ذهبت إلى الإمام وأعلنت إسلامي، وبدأت أتعلم القرآن، وأفعل المقارنات ما بين الإنجيل والكتاب المجيد القرآن الكريم، وكان من الصعوبة علي في البداية التخلص من الرجوع إلى الإنجيل، ولكن الحمد لله فقد تغلبت على هذه العادة، وبدأت أتعلم سيرة النبي صلى الله عليه وسلم والقرآن. وكما قلت سابقاً فقد أخفيت إسلامي عن العائلة في البداية، وكانت أصلي الساعة الثانية أو الثالثة بعد منتصف الليل حتى لا يراني أحداً أو يشك بي. وفي يوم من الأيام كنت ذاهبة من البيت إلى الكلية وكان معني حقيبتي التي تحتوي على القرآن والحجاب، ولكن فجأة، وقع الحجاب على الأرض ورأته اختي ولكنها لم تعلم ما الأمر إلى أن جاء الليل واستيقظت لتراني أصلبي، فعلم أعضاء العائلة عن إسلامي، وبدأ الابتلاء. رفعوا صوتهم علي وصاحوا، واعتدوا علي نفسياً وعاطفياً، نعمونني بجميع الكلمات القذرة وغير الملائمة. ضربوني إلى أن وصلت للموت وهددوني بالقتل، ومع ذلك فقد كنت هادئة ولم أحاول مناقشتهم في شيء، ولكنني تركت البيت داعية الله أن يهدىهم. بقيت مع صديقتي المسلمة لمدة شهرين قبل أن أتزوج بمصطفى .. الحمد لله .. لقد فقدت عائلتي، ولكنني كسبت عائلة مسلمة أخرى في المسجد فقد رعنوني رعاية رائعة لا مثيل لها وجازاهم الله كل خير. وبعد ذلك انتابني الكثير من الضغوط النفسية بسبب الاعتداءات التي حصلت معني، وما زلت لحد الآن أستلم على الأقل ٢٥ مكالمة وایميلاط يومية من كل أنحاء العالم، يسبون علي وبهددوني وما إلى غير ذلك. وغير المكالمات الهاتفية، فقد اتصل معني أكبر العلماء والدكتورة المسيحيين من الأردن والولايات المتحدة، يناقشون معني

الدين المسيحي ومحاولتهم لإعادتي لدينهم. سبحان الله .. لقد اعتدت أن يكون معي الانجيل دائمًا في الحوارات الدينية وكان الاتجاه المعاكس هو القرآن، والآن فقد انقلبت الطاولة وأصبح القرآن معي دائمًا وأبدأً ومع كل هذا، فقد تعلمت الدروس المهمة في ذلك الوقت القصير، تعلمت أن أكون صبوراً ومتواضعة، وأنتأمل الآن في قصة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وكيف أهين من أهله وضربي، وهذه قصتي لا تساوي شيئاً بالنسبة له صلى الله عليه وسلم، حقاً لقد تعلمت الكثير ولربما فقدت شرف اسم عائلتي في أعين الناس، ولكنني فخورة أنني اكتسبت أعظم شرف من الله سبحانه وتعالى ألا وهو الإسلام. وفعلاً إنك لا تستطيع أن تخيل السعادة والسلام اللذين غمراني منذ أن أسلمت بالرغم من كل هذه الإهانات. وفي الحقيقة أنني تغيرت كثيراً كما كنت عليه في الأول، حتى أن زوجي لاحظ هذا التغيير الشاسع، فقد تعلمت كيف أكون هادئة مع الناس الذين يعتدون علي، وتعلمت كيف أبتسם لهم رغم وجودي في أصعب الأوقات، ورغم فقداني وظيفتي لكوني مسلمة محجبة، ولكن الله عز وجل يعوضني بما خسرت بأضعف ويعين احتساب .. الحمد لله فكل الإسلام هو وجود السلام الداخلي الحقيقي، فإنك بالتحقيق لا تستطيع أن تجد هذا السلام من اللذين هم حولك، ولا حتى في البيئة التي أنت تعيش فيها، يجب أن تكون افتاتاً داخلياً منك عن طريق محبتك لله وارضائه وتسليمه قلبك له. وإذا كانت عبادتك حقيقة لله واتبع طريقه وبالطبع ستكون سعيداً في حياتك لأن الخطيبة تحركك من هذا السلام وتعكر مزاجك وهي ألم أكثر من سعادة دنيوية.وها أنا أنظر إلى وجوه الناس وأرى الكثير من الحزن والدمع لأنهم بعيدون عن الله الحي الخالق عز وجل، وأحياناً أرى قلوبهم المظلمة ولا يريدون إضاءة شمعة الرجاء فيهم ويلتهون بمشاكلهم ومشغولياتهم ويتمسكون بالدنيا بدل الآخرة. كل ما أعرفه الآن، هو أن هدفي في الحياة عبادة الله وإرضاؤه وصلاتي له واتباع سنة رسوله صلى الله عليه وسلم والعمل من أجل الجنة .. الحمد لله أنا أرجو أن تكون هذه القصة حافزاً لك وتشجيعاً لروحك وایمانك بالله.

Ruba_Qewar@yahoo. com

arabic.html _<http://www.creative ruba.com/ islam/story>

الفصل الثالث عشر

خطوات غربية سريعة

نحو الإسلام

ازدياد مظاهر التدين في أمريكا

كثُرت مظاهر الدين بعد أحداث أيلول في الغرب كله، وفي الولايات المتحدة خصوصاً يمكن أن نختصرها بال نقاط التالية:

إن الشباب المسلم الذي ولد أو نشأ في الولايات المتحدة عادة متمسكون بتنفيذ التعاليم الإسلامية أكثر من آبائهم. فالكثيرات من الشابات المسلمات يرتدين الحجاب حتى ولو كانت أمهاتهن لا يرتدينه.

كما وتم إنشاء الآلاف من الاتحادات والمنظمات الإسلامية المتوعة، وأكثرها المنظمات الطلابية. التي يتربّط أعضاؤها في جميع أنحاء العالم، من خلال شبكة الإنترنت، وقد دعوا إلى تأخذ أسلوب ديني ملتزم في الحياة وذلك بدون شرب الكحوليات أو المخدرات أو ممارسة الجنس قبل الزواج.

وكانوا يقومون بعقد ندوات وأنشطة تشمل دروساً في القرآن والحديث ومن تلك المنظمات: منظمة إيمان التي أنشأها في شبِّاكاغو رامي الناشاشيري، والتي بفضل عملها بالدعوة كسبت الكثيرين من الأفارقة الذين اعتقو الإسلام. كما تقدم خدمات عديدة مجانية ذات طابع تعليمي.

وأنَّ من يوصفون بالعلمانيين الذين اعتادوا الصلاة في المساجد في مناسبات قليلة فقط، أصبحوا الآن ينتظرون خطبة الجمعة. كما أقام المسلمون مدارس إسلامية جديدة، وأنشأوا مساجد لله يعمرونها بكثافة واضحة. وأصبحت المساجد مراكز للتعليم والعلوم والنشاطات والرياضات والمجتمعات العلمية التي تناقش فيها أمور المسلمين ومشاكلهم. وبذلك تطوروا عن المسلمين العرب بعض الشيء.

وفي الولايات المتحدة رجع أغلب الشباب الإسلامي الأمريكي إلى القرآن والسنة باعتبارهما المصدر العلمي الإسلامي المؤوثق والمُؤكَّد، وأصبحوا لا يكتترثون بنصوص الأئمة. وما هذه الطريقة إلا نهج سلفي متطور يكاد يخلو من التشدد.

كما واجهوا في تفسير الآيات القرآنية الكريمة ونصوص السنة الشريفة تفسيراً يتماشى مع الحياة العصرية في الغرب: إذ يقوم بعض المشايخ بانتقاد المدارس

الستة الأربعة، والدعوة إلى إسلام واحد. وأسس مسلمو شيكاغو إذاعة خاصة تحت اسم راديو إسلام ، وهي تعزز معرفة الإسلام وقيمه وتدعو للحوار مع الآخرين.

تفهم اجتماعي غربي للإسلام

في المجتمع الغربي اليوم إقبال كبير على الإسلام ويتخذ هذا الإقبال عدة أشكال، فمنها دراسة اللغة العربية والتعرف على الإسلام ، ومنها دراسة الإسلام والتاريخ الإسلامي والتخصص به في المراحل الجامعية والعليا ، ومنها اعتناق الإسلام والإيمان به.

إذ تقبل أفواج كبيرة على اعتناق الإسلام كقرار فردي توصل إليه الشخص دون أن يقوم أي مسلم بتعريفه على الإسلام أو بدعوته. كما يقبل أبناء الغرب المسيحيون في السنوات الأخيرة وبكثرة على التخصص بدراسات جامعية تتعلق بالإسلام وبالعربية وتأمل حكومات الغرب أن يقوم هؤلاء بإصلاح الفكر الإسلامي المتطرف ، وبأن يصبحوا أساتذة للدين الإسلامي يتوزعون في بلدان العالم الإسلامية.

وباختصار فمن المرجو منهم أن يقوموا بتشويه الفكر والفقه الإسلامي ، لكن ذلك لن يتم بالطبع لأنهم ما إن يدرسون الإسلام ويتعمقون بعلمه حتى يدخل الإيمان إلى أعماق قلوبهم ويصبحوا مسلمين عاملين على ما يفيد الإسلام وأهله. وقد حدث مثل ذلك في القرن التاسع عشر والعشرين إذ أقدم الكثير من المستشرقين الغربيين على اعتناق الدين الإسلامي ومناصرة أهله.

التفاعل الإسلامي الأوروبي

يتحدث الغربيون عن مصطلح التفاعل الإسلامي الأوروبي. ولكن آن لهم أن يدركون ضرورة إجراء تعديل جزئي في هذا المصطلح. فيصبح "التفاعل الأوروبي الإسلامي" والذي هو أقرب إلى الحقيقة. فإن أوروبا قد تغيرت بالفعل والأوروبيون تغيروا. وذلك بفضل الكثير من العوامل الثقافية. وقد أصبحت الثقافة الإسلامية

ثقافة عالمية وكثيرة الشيوخ. فيجدها الفرد أينما اتجه. بل أصبحت أكثر شيوعاً من الثقافة المسيحية نفسها على الصعيد العالمي كله. ومن هنا فإن الدعوات إلى تقييف المسلمين بثقافة أوروبية تبقى ضعيفة وضيقة وخجلة. بينما الحقائق الميدانية تشير إلى انثقاف الأوروبيين بالإسلام، وهذا هو وجه التفاعل الحقيقي الماضي اليوم في المجتمع الغربي. كتبت "جوسلين سيزاري" الأستاذة بجامعة "هارفارد لللاهوت" ما يقيم توازناً في الموضوع. تقول: "بقدر ما يغير الإسلام أوروبا، فإن أوروبا كذلك تغير الإسلام" وتعتبر الأستاذة "جوسلين سيزاري" أن: "المسلمين لا يسعون إلى تغيير طبيعة الدول الأوروبية" وتتوقع رؤيتها ينسجمون ويندمجون في السياق الأوروبي. غير أن مثل هذا التفاؤل لا يجد له ما يبرره.

فال الأوروبيون مطالبون اليوم بأن يعودوا إلى معانقة عقيدتهم المسيحية، وإلى إنجاب أطفال أكثر، وإلى العناية أكثر بترااثهم. وبإمكانهم تشجيع هجرة غير مسلمة أو محاولة تجريد المسلمين الذين يعيشون بينهم من ثقافتهم وعقيدتهم. غير أن هذه التغييرات ليست جارية في الوقت الراهن، وفرص رؤيتها تظهر على السطح تبقى ضعيفة. وإذا ماسى الغرب فعلاً لتجريد المسلمين من عقيدتهم فستكون تلك لحظة انطلاق الصدام النهائي بين المسلمين الغربيين والغرب كله. ولن يسفر الصدام عن انتصار للغرب المسيحي بل من المحتمل أن ينتصر فيه المسلمون. فإن المسلمين في أوروبا هم الذين يكرّسون مطالب وطموحات ذات نزعة صدامية تجاه ثقافة جيرانهم المحليين. وما يدعو للتغيير كون كل جيل يطلع أكثر استلاباً تجاه الإسلام من الجيل الذي سبقه. وهذا الأمر الذي يقلق المراقبين الأوروبيين ليس إلا خصوصية من خصائص الإسلام. وهذه الخاصية تلامس الفرد الأوروبي في بادئ الأمر ثم تغزوه ويصبح مسلماً. وهناك ظاهرة تنمو في أوروبا ولكن بشكل أكثر وضوحاً. فاستطلاعات الرأي بين المسلمين البريطانيين تبين أن أغلبهم يعيشون صراعاً بين هويتهم البريطانية والإسلامية ويتمنون إقامة نظام الشريعة الإسلامية. وإن احتمال رؤية المسلمين وهو يقبلون بقيود أوروبا التاريخية ويندمجون دون اصطدامات في هذا الإطار هو احتمال غير ممكن، ولعله من الضروري استبعاده نهائياً.

دراسة عسكرية أمريكية لل استراتيجيات القتالية للرسول محمد

هذه الدراسة العسكرية البحثة لطريقة المسلمين في القتال تظهر انتباه الغرب إلى نجاح أعمال المقاتلين المسلمين الذين يستطيعون فعل الكثير بطرق ووسائل قليلة وضعيفة. كأعمال حزب الله وانتصاره على إسرائيل بعدد قليل من المقاتلين. وكانتصار حماس بوسائل صغيرة وبمقاتلين أقلة. ويحاول الباحث الاستفادة الفعلية من طريقة المسلمين في القتال. لكنَّ الغرب لن يستطيع تطبيق تلك الطرق لأنَّه يفتقد للعقيدة الإسلامية. وإنَّ كاتب هذا المقال لا يعترف بمنطق الحق الإسلامي ويحاول الاستفادة من نتاجات الإسلام بدون الإسلام. ورغم ذلك ورغم معاداته المعلنة للإسلام فمقاله وبحثه يصبُّ في النتيجة لصالح الإسلام وانتشاره في الغرب. . ورغم تعصب الكاتب ضد الإسلام وضد شخصية الرسول ورغم تحذُّثه عن الرسول الكريم بطريقة تزعجنا فإن دراسته الموسعة تقيد المسلمين وهي بلا شك نوع من الحوار الحضاري مع الإسلام. لقد حذفنا الكثير من العبارات المسيئة والتي لاتأخذ بعين الاعتبار رسالة الإسلام إلى البشرية. وحافظنا على فحوى الدراسة من ناحية كونها استراتيجية عسكرية. بل وبإمكان المسلمين توظيف نتائجها في تنظيم الجيوش النظامية المدافعة عن البلدان العربية، رغم أنَّ هذه الجيوش تتنظم في حقيقتها وفق منهج الرسول الكريم في القتال.

كاتب هذه الدراسة الموسعة يعتمد في منهجه على ملاحظاته لأعمال الجهاديين الإسلاميين المعاصرين. ومن خلاهم ينطلق في تحليل الاستراتيجية العسكرية للرسول محمد ص. وبينما الوقت يقع الكاتب في مأزق عدم فهمه للظاهرة الإسلامية كدين سماوي. وهذه الأخطاء الفادحة التي يقع فيها الدارسون الغربيون للشؤون الإسلامية يجعل دراساتهم ناقصة ومغلوطة. فقد عرضت الدورية التاريخية الأمريكية "فصلية التاريخ العسكري" دراسة رئيسية حملت عنوان "محمد.. العقلية العسكرية الفذة للمحارب الأول"

Ingenious Military Mind of the First Insurgent Muhammad

كاتب الدراسة هو المؤرخ العسكري "ريتشارد جابريل" ويقوم الكاتب بتدريس التاريخ والسياسة في الكلية الملكية العسكرية بكندا. تذكر الدراسة أنه بدون عقيرية ورؤية الرسول محمد العسكرية الفذة ما كان ليبقى الإسلام ويصمد وينتشر بعد وفاة الرسول. وتدعى أيضاً أنه وبرغم توافر الكثير من الدراسات العلمية عن حياة وإنجازات الرسول، إلا أنه لا توجد دراسة تنظر للرسول كأول جنرال عسكري في الإسلام First Insurgent وترى الدراسة أنه لولا نجاح الرسول محمد كقائد عسكري، ما كان للمسلمين أن يغزو الإمبراطورتين، البيزنطية والفارسية، بعد وفاته. لكن كل هذه الاستنتاجات كان ينقصها معرفة الكاتب بعامل الإيمان الديني عند المسلمين. ومن رأي كاتب الدراسة فإن تأثير الرسول محمد يوجد اليوم بين أتباع الدين الإسلامي، كذلك يتم الاستعانة بأساليبه العسكرية من قبل القوى الراديكالية السننية على غرار الراديكاليين في باكستان، والمتمردين السنة في العراق. وتقول الدراسة إن النظر للرسول محمد كقائد عسكري هو شيء جديد للكثيرين، حيث أنه كان عسكرياً من الطراز الأول قام في عقد واحد من الزمن بقيادة ٨ معارك عسكرية، وشن ١٨ غارة، والتخطيط لـ ٣٨ عملية عسكرية محددة. وتذكر الدراسة أن الرسول أصيب مرتين أثناء مشاركته في المعارك. ولم يكن الرسول محمد قائداً عسكرياً عظيماً وحسب، بل ترى الدراسة أنه كان "منظراً عسكرياً ومفكراً إستراتيجياً" و"مقاتلاً ثورياً". وتصف الدراسة الرسول محمد بأول من أوجd Guerrilla Warfare و Insurgency Warfare

استخدم الرسول طبقاً للدراسة كل ما كان متاحاً من وسائل من أجل تحقيق الأهداف السياسية، واستخدم في هذا الإطار وسائل عسكرية وغير عسكرية (مثل بناء تحالفات، والعفو. وتشيد الدراسة بـ "أجهزة المخابرات" التي أنشأها وأدارها الرسول، والتي تفوقت على نظيراتها عند الفرس والروم أقوى إمبراطوريتين آنذاك. وترى الدراسة أن استراتيجيات الرسول يمكن وصفها بأنها جمع بين نظريات

ـ كارل فون كلاوزفيتس Clausewitz Carl von ونية ولا ميكافيللي Niccolò Machiavelli .

وتشير إلى أنَّ الرسول الكريم نجح في إيجاد أول جيش نظامي عربي قائم على الإيمان بنظام متكامل للعقيدة الإيديولوجية "الدين الإسلامي". مفاهيم مثل "الحرب المقدسة" و"الجهاد" و"الشهادة" من أجل الدين. ومن المسلمين اقتبس العالم المسيحي مفهوم الحرب المقدسة، وباسمها شنَّ الحروب الصليبية فيما بعد ضد المسلمين أنفسهم. وترى الدراسة أنَّ الرسول شكلَّ القوات العربية المسلحة المتحدة التي بدأت غزوتها بعد عامين من وفاته، وكانت تلك تجربة جديدة للجزيرة العربية ليس للعرب سابق عهد بها. وقدمَّ الرسول طبقاً للدراسة ثمانية مناهج إصلاحية عسكرية على الأقل كان لها أثرٌ كبيرٌ في تغيير نوعي وشكلي في منظومة القوات المسلحة العربية.

وعلى العكس من القادة العسكريين التقليديين، لم يسع الرسول محمد لهزيمة جيوش أعدائه، بل سعى بنجاح لتشكيل جيش عربي موحد. ورغم أنَّ الدراسة تدعى أنَّ الرسول محمد بدأ بعد قليل من المقاتلين إلا أنَّ هذه الأعداد القليلة وصلت لما يقرب من عشرات الآلاف من المقاتلين بعد عقد من الزمان.

الكاتب يرى أنَّ الرسول كان نموذجاً ناجحاً لما تقوم عليه إستراتيجيات قادة الحركات في العصر الحديث. وتتوفر لتلك الإستراتيجيات ظروف مكنت من نشر الإسلام في الجزيرة العربية... ومن أهم هذه الظروف:

- وجود زعيم يراه أتباعه كشخص "غير عادي person special" ويستحق أن يستمع إليه، ويستجاب لطلباته.

- وجود أيديولوجية متكاملة تحل محل ما هو موجود من نظم اقتصادية وسياسية واجتماعية قديمة، المنظومة الجديدة أفضل، وأكثر عدلاً، ومن عند الله. وترى الدراسة في الدين الإسلامي نظاماً متكاملاً حلَّ بنجاح محل ما كان موجوداً من نظم اجتماعية وسياسية واقتصادية متخلفة في جزيرة العرب.

- مفهوم "الأمة المؤمنة God's Community of Believers تحل محل الولاءات القبلية والعائلية الصغيرة.

ترى الدراسة أن من متطلبات النجاح الأساسية وجود "النظام discipline بين الأتباع. وتكون أتباع الرسول من مجموعات صغيرة من المؤمنين، وكان أفراد هذه المجموعات من ذوي المهارات الخاصة مثل خالد بن الوليد وأبو عبيدة بن الجراح، كنماذج لقادة عسكريين ماهرين. وقدم هؤلاء المقربون للرسول النصائح الإستراتيجية. وترى الدراسة أن المقربين من الرسول حصلوا على مناصب قيادية.

- كان الرسول هو أول قائد في التاريخ يتبنى عقيدة سياسة خلاصتها ما نسميه اليوم "حرب الشعب.. جيش الشعب People's Army, People's War

- تذكر الدراسة أن الرسول قام بخطوات هامة مثل مخالفة ما كان معروفاً وسائداً لدى العرب من حصول زعيم القبيلة على ربع غنائم المعارك لنفسه.. كذلك لم يسمح الرسول للمقاتلين المسلمين بأخذ ما يحصلون عليه من غنائم، بل تم تجميع هذه الغنائم وتوزيعها على أفراد الأمة، مع مراعاة خاصة لليتامي والأرامل ومن قتل عائلهم في المعارك.

الكاتب يرى أن الرسول كان نموذجاً ناجحاً لما تقوم عليه إستراتيجيات القادة في العصر الحديث، وكانت إستراتيجية الرسول لنشر الإسلام في الجزيرة العربية نموذجاً شديداً النجاح. وكانت من عناصر نجاحه: التأكيد على النظام والطاعة من أتباعه وزرع الرعب في قلوب أعدائه.

ثورية الرسول محمد: ترى الدراسة أن الرسول نجح في دمج التشكيلات العربية المقاطلة التي انقسمت إلى فئتين، فئة جنود المشاة المكونة من سكان القرى الصغيرة والواحدات والتجمعات خارج المدن الرئيسية. وفئة الفرسان المكونة من رجال القبائل من لهم مهارات قتالية عالية يتوارثونها عبر الآباء، وكان بين الفريقين قدیماً شکوك وحقد كبيران، إلا أن الرسول أكسب الجيش الجديد هوية جديدة ونظماماً عسكرياً صارماً.

وترى الدراسة أن المقاتلين العرب قبل الإسلام كانوا فقط يهتمون بمصالحهم المباشرة والمحدودة، فقد كان الهدف من القتال الحصول على غنائم مادية، لذا غاب عن العرب مفهوم الجيوش النظامية. وكانت الحروب في الجزيرة العربية صغيرة محدودة. ولم يكن هناك ضابط أو رابط لتقويم المعارك، أو موعد تجمع المقاتلين، فقد كان ينضم المقاتل وقد يغادر أرض المعركة قبل أن تنتهي إذا حظي بغنائم ترضيه. ومن أجل إصلاح هذه المعضلات، ترى الدراسة أن الرسول نجح في بناء منظومة عسكرية للقيادة والسيطرة للمرة الأولى في التاريخ العربي.

كذلك تدعي الدراسة أن الرسول أوجد للمرة الأولى في التاريخ مفهوم "الحرب النفسية"، من أجل إضعاف إرادة أعدائه عند الحاجة على حد تعبير الدراسة.

تقول الدراسة أن الرسول نجح في خلق منظومة عسكرية متقدمة، إضافة إلى خلق هوية جديدة لا تفرق بين المواطن والمقاتل في إطار مفهوم "الأمة" الذي كان مفهوماً ثورياً جديداً على القبائل العربية. وترى الدراسة أن الرسول نجح في جعل الدين أهم مصدر للوحدة بين القوات العربية، وفاقت أهمية الدين أهمية عامل الدم والروابط القبلية المعروفة أبداً عند العرب. وفاقت أهمية الإيمان بالدين الجديد أهمية الروابط الأسرية للمرة الأولى في تاريخ العرب، مشيرة إلى أنه من المعروف تاريخياً أن رابطة الدم هي أهم ما كان يوحد بين بعض قبائل العرب.

وترى الدراسة أن التاريخ لا يوفر مادة علمية تكشف كيف درب الرسول جيوش المسلمين على القتال، إلا أن الدراسة تؤكد أن الرسول وكبار قادته العسكريين قد قاموا بذلك بأنفسهم.

تهي الدراسة عرضها للأسلوب العسكرية للرسول بالإشارة إلى مفهوم الجهاد. وترى الدراسة أن الجهاد في الإسلام جوهره الكفاح والتغلب على المصاعب، إلا أن المفهوم يساء تسميته في الغرب في زماننا المعاصر، ويتمحور حول مفهوم "الحرب المقدسة" فقط.

وتقول الدراسة إن الجهاد طبقاً لل تعاليم الإسلامية هو كفاح الإسلام ضد الكفار والملحدين، وأن الأمة الإسلامية بقيادة الخليفة الإسلامي عليها واجب تطبيق قواعد الإسلام حتى يصبح العالم بأكمله محكوماً بالقانون الإسلامي.

وترى الدراسة أن هناك مفهوم "الجهاد الداعي" ويتمثل في حالة الهجوم على أي من أراضي المسلمين، وحينذاك ينبع على المسلمين مقاومة المهاجمين. وتشير الدراسة إلى أن الإسلام منع التمثيل بالجثث وحظر تعذيب الأسرى.

وترى الدراسة في النهاية أن المحافظين مثل الوهابيين في جزيرة العرب والسلحين الجهاديين في العراق وباكستان لا يزالون يتمسكون بمفهوم jihad التقليدي، وهم أكثر الفئات التزاماً بميراث الرسول محمد العسكري. بل وتعزى نجاح أعمالهم القتالية وسائلتهم، حسب الدراسة، لتمسكهم بالنهج الحمدي في القتال.

فيلم المملكة فهم جيد للحقيقة الإسلامية

عرض فيلم "المملكة" The Kingdom، ويمكن قراءة رسالته بوضوح من خلال مشهدان هما مشهد البداية ومشهد النهاية. فالفيلم يدور حول عملية إرهابية ضربت مجمعاً سكنياً في الرياض، وتعامل الأجهزة الأمنية السعودية مع هذه العملية بدءاً من الفوضى في التعامل مع الأدلة، مروراً بالعلاقة المتوترة مع فريق التحقيق الأمريكي التابع لمكتب التحقيقات الفدرالية وانتهاء بالقضاء على الجناة وانتهاء مهمة فريق "أف بي آي". الفيلم ببساطة يتناول، موضوعاً يعتبر من الموضوعات الحساسة في كل من الرياض وواشنطن وهو موضوع العلاقة بين المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة الأمريكية في ظل تناقض حاد في الأسس التي تقوم عليها كل من الدولتين وتلاق في المصالح وأهمها النفط.

المحطة التي عرضها مخرج الفيلم من خلال مشاهد قال فيها إن "أسامة بن لادن، زعيم تنظيم القاعدة، عرض على آل سعود المساعدة في تحرير الكويت دون الاستعانة بقوات أجنبية، وأن آل سعود حصلوا على عرض أفضل من قبل الإدارة

الأمريكية والتي أرسلت قواتها إلى المملكة من أجل الدفاع عنها وتحرير الكويت. لكن بن لادن أعتبر وجود القوات الأمريكية على الأراضي السعودية عملاً يستوجب إعلان الجهاد عليها".

وبعد هذه المحطة يستعرض بيرج مشاهد تفجير مجمع الخبر عام ١٩٩٦ والهجوم على السفارتين الأمريكية في غرب أفريقيا والاعتداء على المدرسة الأمريكية كول في اليمن وتنتهي هذه المشاهد بطائرة ترتطم في برج، إشارة إلى هجمات الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١ والتي شكلت منعطفاً حاداً في العلاقة بين واشنطن والرياض. ولا ينسى بيرج الإشارة إلى أن ١٥ من بين المهاجمين التسع عشرة في أحداث الحادي عشر من سبتمبر هم من السعوديين.

مشهد النهاية في الفيلم يلخص رأي الفيلم حول مستقبل العلاقة بين الرياض وواشنطن حيث نرى فريق الـ "أف بي أي" قد عاد إلى الولايات المتحدة ونشاهد أحد أعضاء الفريق وهو يسأل المحقق رونالد فاليري عن فحوى ما همس به فاليري في أذن المحققة جانيت مايز بعد أن عرفوا بمقتل زميلهم في الـ "أف بي أي" في موقع الهجوم في الرياض، فيجيب فاليري: "سنقتلهم جميعاً". في إشارة إلى مرتكبي الهجوم الذين تسببوا في مقتل زميلهم والضحايا من الأمريكيين.

وفي مشهد متزامن مع المشهد الذي دار في الولايات المتحدة، نرى حواراً في الرياض بين طفل سعودي وعمته حيث تسأله عن الذي همس به جده أبو حمزة في أذنه أثناء احتضاره إثر إطلاق النار عليه من قبل فريق الـ "أف بي أي" فيجيب الطفل: "قال لي لا تقلق يا ولدي سنقتلهم جميعاً". في إشارة إلى الفريق الأمني الأمريكي وإلى أي وجود أمريكي على الأراضي السعودية. وينتهي الفيلم بلقطة تبدأ بوجه الطفل السعودي وتنتهي بعينيه الملئتين بالغضب. والرسالة بالطبع واضحة وهي أن مستقبل العلاقة بين الرياض وواشنطن في ظل الاعتماد الأمريكي على النفط السعودي والاعتماد السعودي على أمريكا في المجال الأمني مستقبل صعب، خاصة وأن خلايا القاعدة ترغب في استئصال الوجود الأمريكي في السعودية بينما ترغب الأجهزة الأمنية الأمريكية في استئصال خلايا القاعدة من المجتمع السعودي، وهو أمر

مستحيل حسب رؤية الفيلم، ويحسب للفيلم أيضاً تفهمه الجديد للشخصية الإسلامية أيّاً كانت، وللإسلام نفسه. فلم تعد السينما الغربية تعامل مع المسلم على أنه ذلك الوهم الخرافي القاتل، بل تسعى لفهمه وفهم دوافعه وفهم سر الخلاف السياسي القائم بين الغرب وال المسلمين.



خلاصة البحث

عندما تصبح أوروبا مسلمة

عقدة الأندلس آيلة للزوال، وها العرب والغربيون بدأوا يتحاورون ويتفاهمون. والغرب بدأ في ثورته على الثوابت المعايير لحربيته. ووُجِدَ في الإسلام تحقيقاً للحرية الحقيقية. فالإسلام ينتشر في الغرب بسرعة لانظير لها. ولن يكون الغرب في العقود القادمة إلا فضاء إسلامياً. وإنَّ كافية القوى التي تعيق انتشار الإسلام فيه هي غير قادرة على العمل. بل إنَّ كافية خطواتها وأعمالها تؤدي عكس ما يرجى منها. فتساعد على نشر الإسلام وامتداده. وعندئذ سينقلب كل شيء في الغرب كله. وستنقلب السياسات والأنظمة الغربية المستبدة. وبالطبع ستتسحب كافية القوى العسكرية الغربية من البلدان الإسلامية. وسيختفي الكيان الصهيوني الذي هو جزء صغير من تلك القوى. سيكون ذلك اليوم رائعاً بالنسبة للعالم كله بـكافة عقائده ودياناته. فالصراع الوحيد الذي يشهده العالم كله في هذا القرن هو صراع الغرب المستبد مع المسلمين.

أنجز الكتاب بحوق الله

اعتمدنا في هذا الكتاب على مراجع كثيرة يصعب جمعها وذكرها فننشغل
عندئذ في عمل آخر هو عمل توثيقي وليس أداء بحثياً، ولأننا كنا نبحث عن الوثائق
والأدلة والبراهين التي تثبت نظرتنا فنحن نشكر كافة الباحثين والصحفيين الذين
كتبوا والذين اعتمدنا على نتاجاتهم وتعذر ذكر أسمائهم.

محمد نمر المدنى

المحتويات

٧	الفصل الأول
		عقدة الأندلس الماضي مازال حاضراً
٧٧	الفصل الثاني
		العلاقات المتواترة بين المسلمين والمسيحيين في العصور الوسطى
١٠٣	الفصل الثالث
		لقاء الإسلام والآخر
١٣٧	الفصل الرابع
		طاولة المسوحة حسب ديكارت
١٩٧	الفصل الخامس
		أسلمة أوروبا حقيقة قادمة
٢١٣	الفصل السادس
		التبرؤ بإبادة المسلمين الأوروبيين
٢٢٣	الفصل السابع
		الانبهار العربي بأوروبا
٢٩٧	الفصل الثامن
		تركيا البوابة الثانية للإسلام الأوروبي
٣٠٥	الفصل التاسع
		الإسلام والعلمانية
٣١٧	الفصل العاشر
		المسيحية لنا

٣٦٥	الفصل الحادي عشر
		ضرورة تجديد الفكر الإسلامي
٣٨٩	الفصل الثاني عشر
		الحوار الإسلامي المسيحي طريق نحو أسلمة أوروبا
٤٦١	الفصل الثالث عشر
		خطوات غربية سريعة نحو الإسلام
٤٧٥	خلاصة البحث